

موسوعة
روائع الكتب الإسلامية
الجزء الثانى

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
موسوعة روائع الكتب الإسلامية
روابط للنشر وتقنية المعلومات
24 × 17 سم
تدمك: 9789776543782
رقم الإيداع: 21016/2018
1 - الكتب - موسوعات
أ - العنوان

دار النشر: روابط للنشر وتقنية المعلومات
عنوان الكتاب: موسوعة روائع الكتب الإسلامية
الكاتب: محمد عمارة
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2019

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

روابط للنشر وتقنية المعلومات
19 حسن أفلاطون - بجوار مستشفى عبد القادر فهمي
أرض الجولف - مصر الجديدة
تليفون: 20224178673
info@rawabtonline.com
www.rawabtonline.com

موسوعة روائع الكتب الإسلامية

دكتور
محمد عمارة

الجزء الثاني



rawabt روابط

للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology

المحتويات

الدكتور عز الدين فراج.....	٥٢٥
نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي.....	٥٢٧
صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية).....	٥٣٩
الدين والأخلاق في عصر العولمة للكاردينال هانس كينج.....	٥٤٣
مُقَدِّمَةُ مُحَمَّدٍ عِمَارَةَ.....	٥٤٥
أولاً: الموقف الإسلامي من العنف ومن الآخر الديني.....	٥٤٧
ثانياً: الموقف من الوحي القرآني.....	٥٥٥
مقدمة هانس كينج.....	٥٦١
الدكتور/ محمد عبد الله دراز.....	٥٦٣
الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان للدكتور محمد عبد الله دراز.....	٥٦٩
النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز.....	٥٩٣
نظرات في الإسلام للدكتور محمد عبد الله دراز.....	٥٩٧
الإمام الشيخ/ محمد أبو زهرة.....	٦٠٩
شريعة القرآن للإمام الشيخ محمد أبو زهرة.....	٦١٧
الوحدة الإسلامية للإمام الشيخ محمد أبو زهرة.....	٦٢٧
بحوث في الربا للإمام الشيخ محمد أبو زهرة.....	٦٣٧

- ٦٤٥ الدكتور حسين مؤنس
- ٦٤٩ كتاب الربا وخراب الدنيا للدكتور حسين مؤنس
- ٦٦١ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
- ٦٧٣ منهج القرآن في بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت
- ٦٨٧ حاجة الإنسان إلى الدين للشيخ محمود شلتوت
- ٦٩٩ الإسلام والوجود الدولي للمسلمين للشيخ محمود شلتوت
- ٧٠٧ الشيخ محمد الغزالي
- ٧١٥ كتاب مائة سؤال عن الإسلام
- ٧٩٣ المرأة في منهاج الشيخ الغزالي
- ٧٩٥ مقدمة ميثاق الأسرة في الإسلام
- ٨٠٥ تحرير المرأة بين العقل والجنون
- ٨٣١ الدكتور عبد الرزاق السنهوري
- ٨٤٥ المدنية الإسلامية للدكتور السنهوري
- ٨٦١ الإسلام: دين ودولة.. دين الأرض ودين السماء
- ٨٧٣ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور
- ٨٧٥ روح الحضارة الإسلامية للشيخ محمد الفاضل بن عاشور
- ٨٨٥ العلامة محمد إقبال
- ٨٩١ روح الثقافة الإسلامية للعلامة الفيلسوف محمد إقبال
- ٨٩٥ مولانا أبو الكلام آزاد
- ٩٠٥ الجهاد للعلامة أبو الكلام آزاد

المحتويات

الشيخ محمد محمد المدني.....	٩١٥
وسطية الإسلام للشيخ محمد المدني.....	٩٢٣
الشيخ عبد الجليل عيسى.....	٩٣١
ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين للشيخ عبد الجليل عيسى.....	٩٣٥
اجتهاد الرسول ﷺ للشيخ عبد الجليل عيسى.....	٩٤٥
الدكتور محمد يوسف موسى.....	٩٥١
التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى.....	٩٥٧
الشيخ عبد الوهاب خلاف.....	٩٧١
نور من القرآن للشيخ عبد الوهاب خلاف.....	٩٧٥
السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية للشيخ عبد الوهاب خلاف.....	٩٨٥
الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج.....	٩٨٩
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى للشيخ عبد الرحمن تاج.....	٩٩٥
الشيخ عبد العال عطوة.....	١٠٠٣
المدخل إلى السياسة الشرعية للشيخ عبد العال عطوة.....	١٠٠٩
نظام الحكم فى الإسلام للشيخ عبد العال عطوة.....	١٠١٧

الدكتور عز الدين فراج بطاقة حياة الدكتور عز الدين فراج

* هو الأستاذ الدكتور عز الدين فراج - عز الدين محمد فراج.

* ولد بمحافظة سوهاج - بصعيد مصر - فى ٦ إبريل سنة ١٩١٣ م.

* حصل على بكالوريوس العلوم الزراعية من كلية الزراعة، جامعة فؤاد الأول - القاهرة - فى سنة ١٩٣٦ م وحصل على دبلوم الدراسات العليا فى البيولوجى سنة ١٩٤٥ م.. وعلى الماجستير سنة ١٩٤٦ م ونال درجة الدكتوراه فى البساتين (الخضر واقتصادياتها) سنة ١٩٥٦ م.

* تدرج فى سلك الوظائف الجامعية - بكلية الزراعة - جامعة فؤاد الأول - القاهرة - فعمل معيداً سنة ١٩٣٦ م.. وتولى منصب أستاذ كرسى قسم الإنتاج النباتى سنة ١٩٦٠ م.. ثم عمل أستاذاً متفرغاً بقسمى الإنتاج النباتى والبساتين سنة ١٩٧٣ م.

* تولى رئاسة لجنة وضع (دائرة المعارف العلمية المصورة للبيئة العربية العالمية للنبات والحيوان)، كما قدم للمكتبة العلمية أكثر من سبعين بحثاً علمياً زراعياً فى مجال زيادة الإنتاج.

* من مؤلفاته العلمية والزراعية: (الغذاء الكامل) و(تعمير الصحارى المصرية). ولقد كلفته وزارة الثقافة المصرية بترجمة العديد من الكتب العلمية.

وشارك فى وضع جزء من (الموسوعة المصرية الرسمية عن النباتات المصرية).

* وله - أيضاً - (موسوعة علمية مصرية للشباب عن الإنسان والنبات والحيوان والصناعة).

كما وضع ٢٢ جزءاً من (الموسوعة العلمية المصرية المبسطة للناشئين).

* شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية والزراعية - فى الإنتاج العلمى والزراعى والاقتصادى.

* ساهم فى تطوير الجامعات المصرية.. وفى وضع مناهج التعليم الزراعى.. ومناهج معهد المعلمين والمعلمات.. وفى تخطيط المشروعات الزراعية لمديرية التحرير.. ومشروعات مصر الخاصة بالتنمية والإنتاج الزراعى.

* عالج مشكلة العقم الكلى والجزئى فى أشجار البرقوق والكمثرى لزيادة محصولها.

* استخدم عمليات التطعيم فى زراعة الخضروات.

* فازت مؤلفاته الزراعية فى مسابقات تأليف الكتب الزراعية.

* حصل على الجائزة الأولى فى البحث العلمى سنة ١٩٥٨ م.

* غير هذا الإنتاج الغزير فى الأبحاث العلمية والزراعية، قدم للمكتبة الإسلامية العديد من المؤلفات.. منها: (حياة محمد)، و(عظمة الرسول)، و(الإعجاز العلمى والإسلامى) إلى جانب أكثر من عشرة كتب فى المجالات الأدبية والاجتماعية منها (فن القراءة) و(العالم العربى) و(نحو قرية أفضل).

* حصل على الجائزة الأولى فى التأليف الأدبى والاجتماعى أعوام سنة ١٩٤٧ م وسنة ١٩٤٨ م وسنة ١٩٥٥ م وسنة ١٩٦٣ م وسنة ١٩٦٨ م.

* من الكتب التى ترجمها، وقدمها للمكتبة العربية والإسلامية هذا الكتاب الفذ: (نبي الإسلام فى مرآة الفكر الغربى).

الذى طبع سنة ١٩٥٣ م بمطبعة الجهاد، ويومها كان عالما الجليل مدرسا بجامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن).

رحمة الله رحمة واسعة، ونفعنا بما قدم لأمته من زاد فكرى صالح للعطاء^(١).

(١) انظر (الموسوعة القومية للشخصيات المصرية) - الجزء الأول - الطبعة الثانية - ص ٦٨ إصدار وزارة الإعلام - الهيئة العامة للاستعلامات.

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى

ترجمة الدكتور عز الدين فراج

الغرب ليس شيئاً واحداً.. ومنهاج التمييز - فى الغرب - بين الإيجابيات والسلبيات هو منهاج إسلامى أصيل، أكد عليه القرآن الكريم عندما تحدث عن «الآخرين» فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣].

ولذلك فعلى العقل المسلم أن يميز فى «الآخر الغربى» بين «الإنسان الغربى» الذى لا مشكلة لنا معه، و«العلم الغربى»، الذى فيه ما هو «مشارك إنسانى عام» كالماء والهواء، تتلمذ أهله على الحضارات الشرقية - وفى مقدمتها الحضارة الإسلامية - ويجب أن نتلمذ عليه ونسعى إلى طلب حقائقه وقوانينه.. يجب أن نميز - فى الآخر الغربى بين هذا الإنسان وهذا العلم وبين مؤسسات الهيمنة الغربية - السياسية والدينية - الطامعة - تاريخياً وحالياً - فى استعمار الشرق لنهب ثرواته، وإلحاقه هامشاً للأمن الغربى وتابعاً للمركزية الحضارية الغربية.

ولهذه «الحقيقة المنهجية» فإن علينا أن نميز فى «الفكر الغربى» بين افتراءات الجهلاء وبين إنصاف العلماء، بالغرب، وعلينا أن نرد على افتراءات الجهلاء الغربيين - الذين يزدرون ديننا ومقدساتنا - بالشهادات الغربية التى أنصفت الإسلام وتحدثت بإعجاب وانبهار عن نبى الإسلام - عليه الصلاة والسلام - ولو أن الجاليات الإسلامية - فى الغرب - وعت هذا المنهج، وأعادت نشر الشهادات الغربية التى تنصف الإسلام وتثنى على رسوله لحدث ترشيد كبير للعقل الغربى المعاصر، الذى تغرقه الآن أكاذيب الإعلام الذى يرتزق أهله من صناعة الكذب على الإسلام والمسلمين..

وصدق الله العظيم: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

لقد احترفت مؤسسات الهيمنة الغربية - وخاصة منذ حقبة الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] - التي أرادت بها إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامي الذي أنقذ الشرق من غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] التي استمر قهرها عشرة قرون.

احترفت هذه المؤسسات الاستعمارية - السياسية والدينية - «صناعة الكذب والافتراء» لتشويه صورة الإسلام ورسول الإسلام - ﷺ - وذلك لشحن الدهماء والغوغاء في بلادها في الحروب الاستعمارية، التي أرادت من ورائها الغزو لاحتلال الأرض ونهب الثروات.. وعلى العقل المسلم أن يقدم للإنسان الغربي المعاصر شهادات علمائه ومثقفيه ومفكره، التي رصدت هذه الافتراءات بل وسخرت منها، وذلك لتحرير هذا العقل الغربي المعاصر من أسر «ثقافة الكراهية السوداء» التي ترسخت في المخزون الثقافي الغربي لعدة قرون.

وإذا نحن أردنا الإشارة إلى نماذج من هذه الشهادات الغربية على هذه الافتراءات، فإننا نستطيع أن نشير - على سبيل المثال - إلى شهادة المستشرق الفرنسي الكبير «مكسيم رودنسون» (١٩١٥ - ٢٠٠٤ م) - وهو من أصل يهودي والذي تحدث عن الصورة الغربية التي صنعها العقل الصليبي لرسول الإسلام - تلك الصورة التي يعاد تقديمها أفلاماً ورسوماً ومقالات هذه الأيام!! لقد تحدث «مكسيم رودنسون» عن هذه الصورة الصليبية فقال:

«لقد حدث أن الكتاب اللاتينيين، الذين أخذوا على عاتقهم بين سنة ١١٠٠ م وسنة ١١٤٠ م إشباع حاجة الإنسان العامي إلى كراهية الإسلام ورسوله.. أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المتصور» في الحروب الصليبية.. فكان محمد - في عرفهم - ساحراً، هدم الكنيسة.. في إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية!.. وكان محمد - كما صورته الملاحم الشعبية الغربية - الصنم الرئيسي الذي يعبد المسلمون!.. وكان معظم الشعراء الجواله يعتبرونه كبير آلهة البدو.. وكانت تماثيله - حسب أقوالهم - تصنع من مواد ثمينة، وذات أحجام هائلة!!».

هكذا حكى «مكسيم ردونسون» طرفاً من الصورة التى زيفها العقل الصليبي لرسول الإسلام، والتى صاغها هذا العقل شعراً وملاحم شعبية أشاعها الشعراء الجوالون باسم الجماهير والدهماء، لتستقر فى مخزون الثقافة الغربية ولتشيع فى الكتب الدراسة، وليستدعيها الرسامون ومنتجو الأفلام فى هذه الأيام!.

* وغير شهادة مكسيم رودنسون، يحكى المفكر الألماني «هوبرت كומר» - فى كتابه (صورة الإسلام فى التراث الغربى) - «كيف أن الأوروبيين ادعوا أن رسول الإسلام كان كاردينالاً كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاماً من الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية - فى القرون الوسطى - محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»!

ويكشف هذا المفكر الألماني «هوبرت كומר» - عن أن هذه الصورة الصليبية الزائفة لرسول الإسلام قد شارك فى صنعها كبار الفلاسفة والقديسين والمفكرين الغربيين!.. فأكبر فلاسفة الكاثوليكية «توما الإكويني» (١٢٢٥ - ١٢٤٧م) يقول عن رسول الإسلام - ﷺ - «إنه هو الذى أغوى الشعوب من خلال وعودة الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأنجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»!

هكذا زيف أكبر فلاسفة الكاثوليكية صورة نبي الإسلام، الذى جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية جميعاً!.. والذى أعلن أنه لا يفرق بين أحد من رسل الله.. ويا ليت توما الإكويني كان حيًا اليوم ليرى حفاظ الإسلام والمسلمين على الأسرة والعفة، فى الوقت الذى أفلست فيه كثير من «الأبراشيات» الغربية بسبب التعويضات التى تدفع للأطفال ضحايا الاعتداءات الجنسية من كبار وصغار رجال الدين!!

* وإذا كان واقعنا المعاصر يشهد تدنيس المصحف الشريف بل وإحراقه - من قبل كنائس بروتستانتية غربية - فإن المفكر الألماني «هوبرت كומר» يكشف لنا حقيقة أن

هذه الكنائس البروتستانتية إنما تغترف من ثقافة الكراهية السوداء التي وضع أسسها زعيم البروتستانتية «مارتن لوثر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) الذي وصف القرآن الكريم بأنه: «كتاب بغيض وفظيع وملعون وملئ بالأكاذيب والخرافات والفظائع»!! ثم نصح أتباعه بتزييف صورة القرآن، فبدلاً من فهم آياته ومقاصده، دعا إلى استخدام الصورة المزيفة لترجمة القرآن في «إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين.. فيجب أن تكون هذه هي المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرف المسيحيين عليه.. وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتضعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب»!! - كما قال مارتن لوثر!

* أما المستشرقة الألمانية «سيجيريد هونكه» (١٩١٣ - ١٩٩٩ م) فإنها تحكى في كتابها (العقيدة والمعرفة) - كيف صورت الكنيسة الأوروبية «بلاد الإسلام عالمًا من الخرافات والأساطير، عبدة الشيطان، والسحرة والمتضرعين إلى الشيطان.. بلاد الأضاحى البشرية من أجل صنم ذهبي، تسهر على سلامته عصابة من الشياطين اسمه محمد»!!

وكى لا يصاب البعض باليأس والقنوط والإحباط من إمكانية إزالة هذه الصورة «الكريهة والشوهاء» التي صنعها العقل الصليبي للإسلام ورسوله ومقدساته.. علينا أن نفتح الأبواب للشهادات الغربية الرائعة التي أنصفت رسول الإسلام، وجعلته المثل الأعلى للأنبياء والمصلحين على امتداد التاريخ.. وذلك لنطبق المنهاج القرآني ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ولنرد على افتراءات الجهلاء بإنصاف العلماء.. ولنزيل سيئات الغربيين بحسنات الغربيين!.

* لقد استخدم الكاتب الإنجليزي «توماس كارليل» (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) المنطق العقلي في إنصاف الإسلام وتعظيم رسوله، فقال: «لقد ظلت الرسالة التي دعا إليها هذا النبي سرًا منيرًا مدة اثني عشر قرنًا من الزمان لملايين كثيرة من الناس.. وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت عليها أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟! إن الرسالة التي أداها محمد لهى الصدق والحق،

وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

* وعلى درب الإنصاف هذا يسير الفيلسوف الاجتماعي الأيرلندي الشهير «برناردو شو» (١٨٥٦ - ١٩٥٠م) الذي قال عن رسول الإسلام ﷺ كلاماً نفيساً.. والذي تنبأ بما نراه اليوم من إقبال الأوربيين على اعتناق الإسلام قال: «إن محمداً هو منقذ الإنسانية.. وإنني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم في العالم كله لثم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته حلاً يكفل للعالم السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة.

لقد تنبأت بأن «دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا في الغد القريب، وقد بدأ يكون مقبولاً لديهم اليوم.. ولقد بدأت أوروبا تعشق عقيدة محمد، وأن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ، وفي القرون القادمة قد تذهب أوروبا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها»!

* نعم.. لقد رأى «برنارد شو» - ببصيرة قلب الفيلسوف - أن أوروبا «ستعترف بفائدة الإسلام في حل مشاكلها».. وبعد قرون من هذه النبوءة، كتبت المجلة الفرنسية الرصينة (التحديات) سنة ٢٠٠٨م - إبان زيارة بابا الفاتيكان لفرنسا - عن أن الإسلام هو الحل لأزمة الرأسمالية الغربية - وليست تعليمات البابا! - فقالت:

«إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو في طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية، ولو طبق رجال البنوك - الطامعون بالمردود السريع على الأموال الخاصة - ولو قليلاً الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال»، فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه»!

بل وكتبت مجلة الفاتيكان «أوسير فاتور رومانو» في ذات العام تقول:

«إن التعليمات الأخلاقية التي تركز عليها المالية الإسلامية قد تقوم بتقريب البنوك إلى عملائها بشكل أكثر من ذي قبل، فضلاً عن أن هذه المبادئ قد تجعل هذه البنوك تتحلى بالروح الحقيقية المفترض وجودها في كل المؤسسات التي تقدم

خدمات مالية؛ فبريق الصيرفة الإسلامية هو الحل للمأزق الذى يمسك بخناق البنوك الغربية!».

هكذا وضع علماء غربيون الإسلام مثلاً أعلى.. وتنبأ بعضهم بظهور الإسلام على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون والمفترون.

إن الشهادات الغربية التى أنصفت رسول الإسلام ﷺ والتى ارتفعت به ورسالته إلى مكان المثل الأعلى عبر القرون والحضارات إنما هى معين لا ينضب، للرد على افتراءات الجهلاء الذين احترفوا ازدراء الإسلام ورسوله ومقدساته.. كما أنها زاد طيب يغذى «العزة الإسلامية» و«الكبرياء الإسلامى المشروع» الذى يكسر شوكة النظرة الدونية التى يصنعها نفر من الغربيين للإسلام والمسلمين.

* وعلى درب هذه الشهادات الغربية، تأتى شهادة شاعر فرنسا الشهير والكبير «لامرتين» (١٧٩٠ - ١٨٦٩م) التى يقول فيها عن رسول الإسلام ﷺ:

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وثباته ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته وسط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين والهازئين، وحميته فى نشر دينه، وإيمانه بالفوز، ورباطة جأشه، وتطلعه إلى إعلاء كلمة الله، كل ذلك يدل على أنه لم يكن يضمّر خداعاً أو يعيش باطلاً.

وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزودجاً، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة. الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفى ما ألصقه الوثنيون به. الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقاً إلى الفكر والتأمل.

لقد كان محمد فليسوفاً وخطيباً ومشرعاً وقائداً وفتاح فكر، وناشر عقائد تتفق مع العقل، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض، وفتاح دولة فى السماء من الناحية الروحية.

أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟! ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يطاول إلى مكان محمد؟! مكان محمد؟! مكان محمد؟!

لقد سما بأمة متدهورة، ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلًا للمدينة وموردًا للعلم والعرفان.

ولو كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال، فمن أجدر بهذه العظمة من محمد، الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وإمبراطورية شاسعة؟! ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض، فمن ذا الذى ينافس محمدًا، وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده؟! ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى، والنفوذ والسلطان، فمن يدانيه فى هذا المضممار؟! لقد كان يتيماً لا حول له ولا قوة، فأصبح ملكاً عظيماً، ومؤسساً لإمبراطورية دامت ثلاثة عشر قرناً من الزمان. ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال، فيها هو محمد يمجده مئات الملايين من الناس فى مختلف البقاع، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم».

* وعلى درب هذه الشهادة - شهادة الصدق - التى تقطر كلماتها الذهبية بالمحبة والإخلاص، والتى يشيع المنطق العقلى فى سطورها وعبارتها - شهادة شاعر فرنسا الأشهر «لامرتين» - يسير المستشرق الفرنسى «إميل درمنجم».. الذى تحدث عن رسول الإسلام - بعد دراسة لآثاره وتاريخه - فقال:

«لقد جاء نبى الإسلام يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، وليقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة، فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه به يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، مهتدين إلى مبدأ حى لا يجدون مثله فى نصائح الفلاسفة وأقطاب السياسة والاجتماع.

ويكفى أن نشير إلى أن نبى الإسلام قد ظهر فى وقت من أشد أوقات التاريخ ظلاماً، فى وقت كانت فيه الحضارة مضطربة متداعية.

ولقد كان القرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فأسلوبه المعجز، وقوة إيحائه التي لا تزال لغزاً إلى يومنا هذا، يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله.. ولا ريب في أن كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة، تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية.

ولا يستطيع أحد أن يشك في إخلاص محمد، فحياته - مهما كانت وجهة النظر فيها - شاهدة على اعتقاده صدق الأمانة الثقيلة التي حملها ببطولة، كما كانت قوة إبداعه، وعبقريته الواسعة، وذكاءه العظيم، وبصره النافذ، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره، وطرار عيشه.. كلها شاهدة على صحة عقل هذا النبي الموهوب الذي أوحى إليه بمعجزة القرآن.

* وعلى حين افتري كثير من الغربيين - ومن المتغربين - على موقف الإسلام ورسوله ﷺ من المرأة.. وجدنا المستشرق الفرنسي الكبير «أندريه سرفيه» يكشف الزيف عن هذا الجانب من رسالة رسول الإسلام، ويعلن أن محمداً هو «محرر المرأة».. ويقول:

«لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبي بالمرأة فليقرأ خطبته في حجة الوداع التي أوصى فيها بالنساء خيراً، وليقرأ أحاديثه الكثيرة.. «اتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً».

لم يتحدث هذا النبي عن المرأة إلا في لطف وأدب.. وكان يجتهد دائماً في تحسين حالها ورفع مستوى حياتها.. لقد كان النساء قبله لا يرثن، بل كن متاعاً يورث لأقرب الرجال، وكأنهن مال أو رقيق. وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع، فحرر المرأة، وأعطاهن حقوقهن.

* وعلى حين افتري غربيون.. ولا يزالون يفترون، فيزعمون أن رسول الإسلام ﷺ قد نشر دينه بالسيف والعنف والإكراه.. فلقد شهد المستشرق الفرنسي الكبير «الكونت هنري دي كاستري» (١٨٥٠ - ١٩٢٧ م) على أن العقل والمنطق والموعظة الحسنة كانت هي السبل التي انتشر بها الإسلام.. فقال:

«ليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمداً أرسل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام. وليست هناك حادثة واحدة سأل فيها النبي إنساناً أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك. لم يحدث شيء من هذا قط، بل على النقيض منه، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ولقد لجأ أتباع محمد إلى الفتح، وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التي سارت سير الصواعق إلى الشام وشمال إفريقيا وعبر البحار، إلا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثراً للظلم والتعسف في طريقهم، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولما استولى عمر بن الخطاب على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر ولكن عندما استولى المسيحيون - (الصليبيون) - على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق، وأحرقوا اليهود بلا رحمة.

لقد انتشر الإسلام في جميع القارة الآسيوية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد حتى إن حكام المسلمين احترموا مدينة «بيناريس» لاعتبارها عند الهند مدينة مقدسة، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة. ومن هذا يتحقق أن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كان سبباً قوياً في انكماش دولتهم بعد ذلك!

وإن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة، قبل أن يقوم على السيف، بقاء الإسلام موطن الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى، دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه.

* وعلى حين زعم بعض الغربيين انتفاء تميز الإسلام عن الشرائع الدينية السابقة، لمح الكاتب الأمريكى الجنرال «ر.ف دولي» (١٥٤٥ - ١٦١٣م) امتياز الإسلام بجمعه بين الروح والمادة.. بين الدين والدنيا.. وجمعه كذلك بين قوة الدولة وبساطة أهل القلوب.. فقال:

«لقد كان محمد على نقيض من سبقه من الأنبياء.. فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية في دينه، فوفق بين

دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملي، ولقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف.

ولقد أوضح محمد، منذ اللحظة الأولى، أن الإسلام يقوم على البساطة، ولقد اعتنق أصحابه بتلك المبادئ حتى بعد موته.. وحتى عندما حقق النبي انتصاره الأكبر، ودخل مكة، وحطم أصنام الكعبة، وأتم فيها أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان، نام على قطعة من الحصر، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد فلا غرور ولا أبهة.

وعندما كان صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة خمس مرات في كل يوم منادياً: «الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمداً رسول الله» كان هذا الرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد في أنحاء العالم، وإنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيّا كانت عقيدتهم.

* ولقد تجاوزت هذه الشهادات الغرب الأوروبي والأمريكي، إلى الشرق الأوروبي، فكتب الفيلسوف الروسي «تولستوي» (١٨٢٨ - ١٩١٠م) يقول: «لقد كان محمد من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخراً أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء، ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا من أوتي قوة وحكمة وعلمًا.

وفي سني دعوته الأولى احتل كثيراً من الاضطهادات، لم تكن من عزمه، بل ثابر على دعوة أمته. ومن فضائل الدين الإسلامي الاعتراف بنبوة موسى وعيسى، والوصية خيراً بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، فلقد أمر بحسن معاملتهم، بل قد سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما في هذا من التسامح العظيم».

* وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية - وهي أوثق وأشهر دوائر المعارف الأوروبية - قد قالت عن رسول الإسلام ﷺ:

«لقد كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها توفيقاً ونجاحاً»
فإن الشهادات المنصفة لدين الإسلام ورسول الإسلام قد تجاوزت حدود الغرب
والشمال إلى الشرق والجنوب.. فقرأنا لزعيم الهند وناسكها ومحررها وشهيدها
المهاتما «غاندي» (١٨٦٩ - ١٩٤٨ م) قوله:

«علاقتي الوثيقة بالمسلمين، وللألفة والصدقة التي جمعت بيني وبين كثيرين
منهم، والتي لم تتراخ على مر السنين، فلقد شعرت برغبة في دراسة حياة الرسول
الكريم، وشرعت بذلك في إفريقيا الجنوبية، إلا أنني لم أكن في ذلك الحين ملماً
باللغة الأوردية إلماماً كافياً.

ولقد أتاح لي سجنى المتتابع فرصة قراءة كتب سيرة هذا النبي الكريم.. ولقد
أدت بي هذه الدراسات إلى الاعتقاد بأن القرآن والتوراة كتابان مقدسان، فقدسهما
أنا بنفسى، كما أقدس كتابينا: «الويدا» و«غيتا».

لقد كان محمد نبياً عظيماً، وكذلك كان المسيح، ولقد أصبحت أعتقد أنهما كانا
لا ينشدان إلا الحق، وكانا يخافان الله.

لقد لاقى محمد كثيراً من الاضطهادات، ولكنه كان شجاعاً، لم يخف غير الله،
ولم يرهب أى إنسان.

كان النبي العظيم فقيراً، زاهداً فى متاع الدنيا، فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن
يكون ثرياً لو أراد.

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث
عن الحقيقة مثلى أن لا يطأطئ الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل
البشرية كلها؟!!

* * *

تلك نماذج من شهادات كوكبة من العلماء العظماء لنبي الإسلام ورسول الإنسانية
ورحمة الله للعالمين.. يستطيع العقل المسلم أن يرد بها على الافتراء والازدراء الذى
يصدر من السفهاء الجهلاء ضد الإسلام ورسوله ورموزه ومقدساته.. ذلك أن منهاج:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦].

والإيمان بأن «الآخرين ليسوا سواء». هما منهاجان أصيلان من مناهج «التدافع الفكري» في حضارة الإسلام..

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

* * *

إنها قبسات اقتبسناها من هذا الكتاب الرائع، الذي قدمه العالم الجليل الأستاذ الدكتور عز الدين فراج - قبل عشرات السنين - سنة ١٩٥٣ م - كتاب (نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي).. والذي نقدمه للقراء في ذكرى ميلاد الحبيب محمد بن عبد الله - ﷺ.

سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن ينفع به.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظره في طبعته الجديدة - دار المعارف - سلسلة «في ظلال الإسلام».

صورة الإسلام فى التراث الغربى

(دراسات ألمانية)

بعض الناس يختزل - ومن ثم يسطّح ويزيّف - موقف الغرب من الإسلام، وذلك عندما يردده إلى خوفه من ظاهرة «التشدد والعنف»، اللذين تمارسهما بعض الجماعات باسم الإسلام.. أو إلى وجود بعض النظم المستبدة التى تستر الاستبداد بشعارات ورموز الإسلام.

لكن أصحاب هذه النظرة يتجاهلون - ولا أقول يجهلون - أن هذا الموقف العدائى لدى كثير من مؤسسات الفكر والدين والسياسة فى العالم الغربى، هو موقف قديم.. وسابق بقرون كثيرة على ظاهرة العنف ونظم الاستبداد التى ترفع شعارات الإسلام.. فالقائد والكاتب الإنجليزى «جلوب باشا» [١٧٩٧ - ١٩٨٦م] - الذى ظل قائدًا للجيش الأردنى حتى سنة ١٩٥٦م - والذى كتب عن الفتوحات العربية، قد كشف عن كبد الحقيقة عندما أرجع تاريخ مشكلة الغرب مع الإسلام إلى ذات اللحظة التى ظهر فيها الإسلام، فقال: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد!».

وهى عبارة جديدة بإيقاظ الجاهلين وردع المتجاهلين.

● وأكبر وأخطر مؤتمرات الكنائس الغربية، الذى انعقد فى «كولورادو» - بأمريكا - سنة ١٩٧٨م، لتنصير المسلمين، قد أرجع هذا العداء الغربى المحموم للإسلام، إلى ما رآه «الطبيعة الإسلامية المناقضة للنصرانية» - كما فهمتها الكنائس الغربية - فقالت مقررات هذا المؤتمر:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسفة اجتماعيًا وسياسيًا.. إنه حركة

دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرات البشر.. ولا بد من مئات المراكز، التي تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام، لفهمه والتعامل معه، واختراقه فى صدق ودهاء».

● ونفس الموقف الذى يتخذه قساوسة التنصير من الإسلام، نجده لدى دوائر الفكر الاستراتيجى الغربى من العلمانيين، هذه الدوائر التى قدمت حيثيات إعلانها أن الإسلام هو العدو، الذى حل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية»، والذى تتوجه إليه وإلى عالمه وأمته قوة حلف شمال الأطلسى وآلته الحربية، عندما يتجاوز هذا الحلف نطاق «الأرض المشتركة» لأعضائه، إلى ما يسمى «المصالح المشتركة» لهؤلاء الأعضاء! فإذا بهذه الحيثيات - حيثيات العداء الغربى للإسلام - نابعة - برأيهم - من طبيعة الإسلام، التى استعصت وتستعصى على «العلمنة»، أى على الذوبان فى النموذج الحضارى الغربى، والتبعية للمركزية الحضارية الغربية.. ولقد عبرت مجلة «شئون دولية» - البريطانية - يناير سنة ١٩٩٠م - عن هذه الحيثيات عندما قالت: «لقد شعر الكثيرون فى الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى.. ولقد كان الإسلام جاهزاً فى المتناول!.. فالإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهى أقوى الآن مما كانت قبل مائة سنة مضت، ولذلك فهو - من بين ثقافات الجنوب - الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للمجتمعات الغربية..».

● والمفكر الاستراتيجى الأمريكى الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون [١٩١٣ - ١٩٩٤م] - يذكر - فى كتابه «الفرصة السانحة» - أن العداء للمسلمين هو الأمر الأكثر شيوعاً، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين «فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودميون، وغير منطقيين، ويعتقدون أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامى فى آسيا وإفريقيا، وحتى أوروبا.. ولذلك، فإن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. وليس هناك صورة أسوأ فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى، من صورة العالم الإسلامى!..».

وهكذا.. فعداء المشروع الغربى للإسلام - وهو موقف معلن من كثيرين فى دوائر

صورة الإسلام فى التراث الغربى

ومؤسسات صنع القرار، وليس وهماً صنعته «ذهنية المؤامرة» - إنما يمثل مشكلة أسبق وأعظم من الوقائع الطارئة والآنية، التى أثمرتها حركات العنف والتشدد باسم الإسلام.. أو نظم الاستبداد العربية والإسلامية المعادية لحقوق الإنسان.. أو حتى الاحتكاك العنيف - فى العصر الحديث - بين الاستعمار الغربى وعالم الإسلام..

إننا أمام موقف غربى قديم.. متجذر فى الذهنية الغربية.. ومتجسد وشائع فى الثقافة الغربية - الدينية، والأدبية، والتاريخية، والسياسية.. وحتى فى «الفلكلور» - ولهذا الموقف أبعاده الاقتصادية والعسكرية أيضاً..

إنهم يعودون به أولاً إلى ظهور الإسلام وانتشاره الذى دخلت به شعوب نصرانية فى دين الإسلام.. وإلى الفتوحات الإسلامية، التى حررت الشرق من الاستعمار الغربى «الإغريقى الرومانى» - الذى دام عشرة قرون - من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) وحتى هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) - وإلى الفروسية الإسلامية التى اقتعلت الاستعمار الاستيطانى الصليبي، الذى دام قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) - وإلى حركة التحرر الوطنى العربية التى جعلت الشمس تغرب عن الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية.. وأخيراً إلى خوف الغرب من اليقظة الإسلامية المعاصرة، التى تسعى لتحرير ثروات العالم الإسلامى من قبضة الاستغلال الغربى.. وإلى الاستقلال الحضارى، والتكامل السياسى لعالم الإسلام.. تلك هى أبعاد وأعماق الموقف الغربى من الإسلام.

* * *

وإذا كان من العبث - بل والغباء - أن نتوهم أن الغرب، فى موقفه من الإسلام، إنما يمثل كتلة واحدة صماء، وأن نغفل عن أن فى الغرب علماء ومفكرين وتيارات فكرية وسياسية، بل ومؤسسات، تحاول أن تتفهم الإسلام، وأن تتخذ مواقف منصفية من قضايا المسلمين.. فإن البحث فى كتابات هؤلاء العلماء والمفكرين عن الخلفيات الفكرية لموقف الغرب من الإسلام هو واحد من مهام جهود الاستنارة الفكرية، التى لا بد أن ينهض بها العقل العربى والمسلم فى واقعنا الفكرى الراهن.

فحتى نفهم أبعاد الموقف الغربى من الإسلام.. وخلفيات الصورة الغربية عن الأمة الإسلامية.. ولمعالجة هذه المشكلة بعيداً عن السطحية والاختزال والتزييف،

نحتاج إلى «شهادات غربية» من العلماء والمفكرين الغربيين المنصفين، الذين تناولوا هذا الموضوع.

وفي هذا الإطار نقدم إلى الباحثين والقراء هاتين الدراستين عن «صورة الإسلام في التراث الغربي»..

الأولى: كتبها المفكر الألماني «هوبرت هيركومر» عن «صورة الإسلام في الأدب الألماني الوسيط».

والثانية: كتبها المستشرق الألماني «جيرنوت روتر» عن «الإسلام والغرب - الجوار المفقود».. واللذان ترجمهما عن الألمانية - مع تعليقات غنية - باحث مصري نابه - يعيش في «زيوريخ» بسويسرا - هو الأستاذ/ ثابت عيد.

والله نسأل أن يجعل في هذا العمل طاقة تنويرية تعين العقل العربي والمسلم على إدراك أبعاد هذه القضية، لترشيد الجهد الإسلامي الساعي إلى جعل عالمنا «متنّدي حضارات» تتفاعل فيما هو مشترك بينها، وتتمايز في الخصوصيات الثقافية، دونما تبعية أو انغلاق^(١).

(١) انظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام)، طبعة دار الرشد، القاهرة سنة ١٩٩٨ م. وكتابنا (الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين)، طبعة دار الوفاء، القاهرة سنة ١٩٩٧ م. وانظر (صورة الإسلام في التراث الغربي)، طبعة نهضة مصر، ١٩٩٩ م.

لماذا مقاييس عالمية للأخلاق؟ الدين والأخلاق في عصر العولمة

للكاردينال هانس كينج

ترجمة ثابت عيد

التعريف بـ«هانس كينج»

«هو عملاق من عمالقة الفكر الإنساني، سويسرى الأصل، مسيحى الديانة، كاثوليكي المذهب، عالمى الثقافة، إنسانى النظرة، منصف الحكم، نزيه الرأى، حصيف النقل، رزين العقل، فصيح اللسان، جميل البيان، جهير الصوت، سريع البديهة، بليغ الكلام، غزير الإنتاج، عاشق المعرفة، متعدد الاهتمامات، بهى الطلعة، وسيم الهيئة، قوى الشخصية، شجاع الموقف، مدافع عن المرأة، داعية للإصلاح، محب لخير الإنسانية، عاشق للفلسفة، خبير فى اللاهوت، مسلمٌ بالآداب، ذواق للموسيقى، محارب الجمود، مناد بالتجديد، أوأب إلى الحق، معارض للحروب، مطالب بالسلام، مهاجمٌ مروجى الصدام، مناصرٌ دعاء التفاهم»..

[من مقدمة ثابت عيد].

وهو عضو لجنة الحكماء - لجنة العشرين - التى اختارها أمين عام الأمم المتحدة، كوفى عنان - للمنظمة الدولية.

مُقدِّمة

مُحمَّد عِمارة

فى هذا الكتاب ثقافة واسعة بديانات العالم الكبرى، السماوية منها والوضعية. وهى ثقافة تترجم عن المكانة البارزة لصاحبها فى هذا الميدان، الأمر الذى يجعل هذا الكتاب مائدة دسمة وغنية للقارئ العربى والمسلم.

وإذا أردنا أن نقدم خلاصة شديدة الإيجاز لمحاور هذا الكتاب، فى عدد محدود من العناوين والنقاط، فإن هذه النقاط تأتى تحت عشرة عناوين، هى:

- ١ - لا بقاء للبشرية، بلا سلام عالمى.
 - ٢ - ولا سلام عالمياً، بلا عدالة عالمية.
 - ٣ - ولا عدالة عالمية، بلا صدق وإنسانية.
 - ٤ - ولا سلام بين الأمم، بلا سلام بين الأديان.
 - ٥ - ولا سلام بين الأديان، بلا حوار بين الأديان.
 - ٦ - ولا توجد إنسانية حقيقية، بلا تعايش مبنى على الشراكة.
 - ٧ - وليس يمكن أن تتغير أرضنا إلى الأحسن، بدون تغيير وعى الأفراد.
 - ٨ - وبدون مغامرة واستعداد للتضحية، لا يوجد تغيير جوهري لحالتنا.
 - ٩ - وإن عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا والاتصالات تتطلب مقاييس عالمية للأخلاق.
 - ١٠ - وفى الأديان الكبرى توجد مقاييس الأخلاق الصالحة لأن تكون عالمية، يتفق عليها الجميع، حتى غير المتدينين بهذه الأديان.
- ولأن صاحب هذا الكتاب، الأستاذ هانس كينج، هو بالدرجة الأولى، ابن الحضارة

الغربية، ولأن معرفته باللاهوت المسيحي واليهودي تفوق، بما لا يقاس، معرفته بالإسلام، ديناً وحضارة وتاريخاً، فلقد جانبه الصواب، فاجتهد اجتهداً خاطئاً، في عدد من المواضع، التي رأينا من حقه علينا، ومن واجبنا إزاء الحقيقة وإزاء القارئ العربى والمسلم، الذى نقدم له هذه الترجمة، أن نقف أمامها بالملاحظة والتصويب. فلعل هذا العالم اللاهوتى الكبير، المؤلف، أن يعيد النظر فى هذه القضايا، فى مرحلة لاحقة من عطائه الفكرى، الذى نرجو له المزيد من الازدهار.

وفى مقدمة هذه المواضع:

أولاً: الموقف الإسلامى من العنف ومن الآخر الدينى

لقد اتخذ المؤلف من رسول الإسلام ﷺ موقفاً موضوعياً وإيجابياً، عندما اعترف بنبوته وبتميزه بين الأنبياء، فقال:

«إن النبى محمداً ﷺ، وإن كان قد جاء بعد المسيح، إلا أنه لا يمكن إنكار كونه نبياً. لقد كان أنجح من معظم الأنبياء الآخرين».. (الفصل التاسع).

كذلك أحسن المؤلف عند برأ القرآن الكريم من الإرهاب، وعندما قرر أن الجهاد ليس الحرب المقدسة التى عرفتها المسيحية، وليس العنف والقتال، بل هو - الجهاد - بذل الجهد المعنوى.. (الفصل الحادى عشر).

لكن المؤلف عاد فأثار علامة استفهام على موقفه هذا، عندما قال:

«لا شك أن مسألة العنف هى مشكلة رئيسية فى الإسلام، ذلك أنه لا يمكن تجاهل أن النبى محمداً ﷺ، بعكس عيسى الناصرى، لم يكن رجل دولة فحسب، بل كان أيضاً قائداً عسكرياً (جنرالاً)، خاض حروباً عسكرية، وجنى لذلك وما زال يجنى كثيراً من المدح».. (الفصل الحادى عشر).

ولم يقف المؤلف عند علامة الاستفهام هذه، وإنما تقدم يتهم المسلمين بممارسة العنف الذى أباد المسيحية الشرقية من الوجود، وذلك عندما قال:

«ينبغى على المسلمين معالجة تاريخ الفتوحات الإسلامية بأسلوب نقدى. يجب أن ندرك أن هناك عصرًا مبكرًا فى الإسلام قد تم فيه عملياً محو المسيحية من الوجود فى بلادها الأصلية».. (الفصل التاسع).

لذلك استحقت آراء المؤلف هذه، واستوجبت التصحيح، الذى نقدمه فى عدد من النقاط:

١ - لقد كانت كل حروب رسول الله ﷺ حروباً دفاعية ضد المشركين الذين

حاصروا دعوته، وعذبوه والمؤمنين بدينه وأخرجوهم من ديارهم، ثم جيشوا الجيوش وزحفوا بها إلى دار الهجرة «المدينة»، للقضاء على الإسلام وأمته ودولته. ونحن عندما نطالع آيات القتال في القرآن الكريم، ونرى «خارطة» الحروب التي دارت بين الشرك والإسلام، ونقرأ وقائع هذه الحروب في السيرة والتاريخ، نجد تلخيصاً لها جميعاً في الآية القرآنية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ^(١).

٢- أما ضحايا كل هذه الحروب، الدفاعية من جانب المسلمين، والعدوانية من جانب المشركين، فهم حصراً: ٣٨٦ ضحية، (٢٠٣ من المشركين و١٨٣ من المسلمين). في حين أن ضحايا الحروب الدينية - المقدسة - بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا بلغوا ١٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرة ملايين) حسب إحصاء «فولتيز» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م]، أى ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا ^(٢)!! تلك هى حقيقة حروب «دولة» الرسول ﷺ، وحقيقة واحدة فقط من حروب «كنيسة» عيسى الناصرى عليه السلام.

٣- أما ادعاء المؤلف أن الفتوحات الإسلامية «قد محت المسيحية من الوجود فى بلادها الأصلية»، فإننا - ردّاً على هذا الادعاء - نضع بين يدي المؤلف إشارات إلى الحقائق الصلبة والعنيدة التى قدمها العلماء غير المسلمين عن هذه القضية، والتى تقول:

- إن الفتوحات الإسلامية قد «أنقذت» النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية. وبعبارة الأسقف «يوحنا النقيوسي» وشهادته، وهو شاهد عيان على هذه الفتوحات: «إن الله - الذى يصون الحق - لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم، لتجرئهم عليه، وردهم إلى أيدي الإسماعيليين (= العرب والمسلمين)، ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر. وكان

(١) انظر فى تفاصيل ذلك: محمد عمارة، الإسلام والحرب الدينية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤.

وكذلك: محمد عمارة، حقيقة الجهاد والإرهاب والقتال، دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: محمد عمارة، الإسلام والآخر، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١م. وقارن أيضاً: محمد عمارة، الفاتيكان والإسلام، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٧م.

أولاً: الموقف الإسلامى من العنف ومن الآخر الدينى

«هرقل» (٦١٠م - ٦٤١م] حزيناً بسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم، مرض هرقل ومات.

- وكان عمرو بن العاص (٥٠ قبل الهجرة - ٤٣ بعد الهجرة / ٥٧٤م - ٦٦٤م) يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها. ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما، سلباً أو نهباً، وحافظ عليها - الكنائس - طوال الأيام.

- ودخل الأنبا «بنيامين» (٣٩هـ / ٦٥٩م) بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم عام ١٣ (أى العام الثالث عشر من تاريخ هروبه، بعد أن أتمنه الفتح الإسلامى)، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وخطب فقال: «لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدتهما، بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون»^(١).

وكان كل الناس يقولون: «هذا النفى»، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الارثوذكسيين». وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر».

هكذا شهد الاسقف يوحنا النقيوسى على أن الفتح الإسلامى هو الذى أنقذ المسيحية الشرقية، وحرر بطريركها، وكنائسها وأديرتها، وحافظ عليها.

وبعد ستة قرون من الفتوحات الإسلامية، استمرت شهادات رجال الدين المسيحيين الشرقيين تؤكد على أن هذه الفتوحات الإسلامية هى التى «أنقذت» المسيحية الشرقية، ولم «تمحها»، كما أدعى المؤلف هانس كينج. فبطريرك السريان - ميخائيل الكبير [١١٢٦م - ١١٩٩م] صاحب «كتاب الحوليات فى تاريخ الكنيسة والشرق» - يقول:

«لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة. ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان. وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»^(٢).

(١) يوحنا النقيوسى، تاريخ مصر.. رؤية قبطية للفتح الإسلامى، ترجمة ودراسة عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م، ص ٢٠١ - ٢٢٠.

(٢) صبرى أبى الخير سليم، تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، طبعة القاهرة، سنة ٢٠٠١م، ص ٦٢.

وإذا أراد هانس كينج شهادة أوروبية حديثة على أن الإسلام لم يمح المسيحية الشرقية، وإنما أنقذها، عندما حرر أرضها من الاستعمار الروماني الذي دام عشرة قرون، وحرر ضمائر شعوب الشرق، وتركهم وما يدينون به، لأنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فإن كتاباً فرنسياً صادراً عن مؤسسة فرنسية متخصصة في الإحصاءات، هي «المعهد الوطني للدراسات الديموجرافية»، يقول: «إن نسبة المسلمين في الدولة الإسلامية بعد مرور مئة سنة على الفتح الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية لم تتعد ٢٠٪ من رعية هذه الدولة»!!^(١).

وإذا كانت هذه الإشارات إلى حقائق الفتح الإسلامي كافية للشهادة على أن هذه الفتوحات هي التي أنقذت النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية، ولم «تمحها»، كما ادعى هانس كينج، فإن هناك ما لا يحصى من الشهادات الغربية، التي كتبها علماء أعلام في الفكر الغربي، تؤكد على أن الإسلام إنما انتشر ليس «بسيوف الفتوحات»، وإنما «بالسلم والعقلانية». ولأن المقام مقام إيجاز، فإننا نقدم خمس شهادات لخمس من أعلام العلماء الغربيين على أن الانتشار الإسلامي التدريجي إنما تم «بالسلم والعقلانية»:

١- وأولى هذه الشهادات هي للعالم الإنجليزي الحجة سير توماس أرنولد [١٨٦٤م - ١٩٣٠م]، والتي يقول فيها: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة»^(٢).

٢- وثاني هذه الشهادات هي للمستشرق الفرنسي إدوارد مونتييه [١٨٥٦م - ١٩٢٧م]، التي يقول فيها: «إن الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. إن لدينا

(١) فيليب فارغ، يوسف كرجاج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركى، ترجمة بشير السباعي، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م، ص ٢٥.

(٢) سيرتوماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى، طبعة سنة ١٩٧٠م، ص ٧٢٩ - ٧٣٠.

محمد كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. إن الإيمان بالله والآخرة فى الإسلام يستقران فى نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام. لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة. وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول. ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وفى هذا تكمن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود الدعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعاً لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس».

٣- وثالث هذه الشهادات الغريبة على أن الإسلام إنما انتشر بالتفوق العقلانى، وليس بسبب الفتنات، هى للاهوتى الإيطالى الأب مراتشى Marracci [١٦١٢م - ١٧٠٠م]، وهو الخبير فى القرآن وفى العهدين القديم والجديد، والتى يقول فيها: «لوقارن إنسان بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى، أو التى هى على الأقل - من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة (= العقيدة المسيحية) وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى فى الحال، وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول».

٤- أما الشهادة الرابعة، فهى للمستشرق الإيطالى الخبير فى الإسلام والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامى كيتانى ليون Caetani Leone [١٨٦٩م - ١٩٢٦م] والتى يقول فيها: «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالأعلى عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات.

فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهدت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد، الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جلية إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتضى فى أحضان نبي بلاد الإسلام.

٥- أما الشهادة الخامسة على حقيقة الانتشار الإسلامى «بالسلم والعقلانية»، فهى للفيلسوف الأمريكى إسحاق تايلور (Canon (Isaac Taylor [١٨٢٩م - ١٩٠١م]، التى يقول فيها: «إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة فى أفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت فى أفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة. ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة فى السماء، وسمو البكارة إلى مرتبة الملائكة. فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقدارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة. كما كانت الطبقات العليا مخشعة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب. ولم يكن للعباد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان الإسلام ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه، وفرض الصلاة والصوم وفعل الخير، ونبد الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المنازعين فى الدين. وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية».

أولاً: الموقف الإسلامى من العنف ومن الآخر الدينى

تلك شهادات غربية كتبها عدد من أعلام الثقافة الغربية، اللاهوتية والفلسفية، وقدمناها ونقدمها إلى هانس كينج على أمل أن يعيد النظر فى قوله:

«إن الفتوحات الإسلامية قد محت المسيحية من الوجود فى بلادها الأصلية».

ولقد آثرنا أن تكون كل تلك «الحقائق» و«الشهادات» غربية، عملاً بمنهاج: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، وذلك لنفتح أمام اللاهوتى الكاثوليكى الكبير - هانس كينج - أبواب المراجعة لهذا الذى قال.

إن بعض الكتاب حين يكتبون عن الديانات والحضارات الأخرى، وعن تواريخ هذه الديانات والحضارات، ينطلقون - أحياناً - من «نموذجهم الحضارى الخاص»، وليس من النموذج الآخر المتميز الذى يكتبون عنه، فيسقطون على «الآخر» سمات النموذج الذى عرفوه، وتشبعوا به، وتشربوا ميزاته، والذى ينتسبون إليه. الأمر الذى يجعلهم يرون «الآخر» بعيونهم هم، وليس كما هو فى واقع الحال.

ويبدو - والله أعلم - أن هانس كينج وهو الابن الأصيل للمسيحية الغربية، والتاريخ الغربى لهذه المسيحية، قد نظر إلى انتشار الإسلام وإلى علاقته بالآخر بالمنظار نفسه الذى انتشرت به المسيحية فى البلاد الغربية. ولما كانت هذه قد انتشرت بالسيف والعنف، ومحنت الآخر الدينى، فلقد ذهب هانس كينج إلى أن هذا هو السبيل الذى انتشر به الإسلام. وذلك خطأ فادح فى مناهج التفكير، وقع فيه قبل هانس كينج، كل الذين ادعوا انتشار الإسلام بالسيف والإكراه، فنظروا إلى تاريخ الإسلام بعيون غربية جعلتهم يغفلون عن الوقائع المتميزة، والتاريخ المتميز لانتشار الإسلام.

إن وقائع تاريخ انتشار المسيحية فى أوروبا، كما شهد عليها العلامة الإنجليزى سير توماس أرنولد، تقول:

- إن شارلمان Charlemagne [٧٤٢م - ٨١٤م] ملك الفرنجة قد فرض التعميدات المسيحية على السكسونيين الوثنيين بحد السيف.

- وفى الدانمارك استأصل الملك كنوت Cnut [٩٩٥م - ١٠٣٥م] الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب.

- وجماعة إخوان السيف Bretheren of the Sword وغيرهم من الصليبيين قد أدوا رسالتهم بالسيف والنار فى تنصير البروسيين Prussians الوثنيين.

- ولقد فرض فرسان جماعة: «إخوان جيش المسيح» Ordo fratrum militiae Christi المسيحية على شعب ليفونيا Livonia فرضاً.

- وفي سنة ١٦٩٩م وجه فالتين Valentyn إلى رجوات (= أمراء) Rajas جزيرة أمبويونا Amboyna مرسوماً يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين، لتعميدهم، إذا ما طاف بهم راعي الكنيسة. وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة الله».

- وفي فيكن Viken (القسم الجنوبي من النرويج) كان الملك أولاف ترابجفيسون Olaf trygvesson [٩٦٣م - ١٠٠٠م] يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم. وبهذه الوسائل نشر الدين في فيكن بأسرها.

- وفي المجر أرغم الملك شارل روبرت Charles Robert جميع رعاياه الذين لم يكونوا مسيحيين على اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد.

- وفي الجبل الأسود (سنة ١٧٠٣م) خير الأسقف الحاكم دانيال بيتروفتش Daniel Petrovich القبائل بين اعتناق المسيحية وبين القتل، وقتل المسلمين الذين لم يتنصروا في ليلة عيد الميلاد!

- وفي روسيا (سنة ٩٨٨م) أصدر الملك فلاديمير Vladimir مرسوماً بوجوب اعتناق المسيحية على كل الرعية، فور اعتناقه هذا الدين. ولم تعرف روسيا حرية الدين إلا سنة ١٩٠٥م^(١).

أما الإبادة الجماعية التي تمت على يد المسيحيين لشعوب أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا ونيوزيلاندا، فهي أشهر من أن تحتاج إلى حديث.

فهل نظر هانس كينج إلى انتشار الإسلام وعلاقته بالآخر بالعيون الغربية التي تعودت على رؤية العنف والإبادة سبيلاً لانتشار الدين؟!

ربما كان هذا الخطأ المنهجي خطأ النظرة الأحادية، والتمركز حول الذات الثقافية والحضارية - هو الذي وقف وراء حكمه على انتشار الإسلام بالسيف، ودعواه بإبادة الإسلام المسيحية الشرقية.

(١) ٣٠-٣٢، ١٢٢، ١٣٥-١٣٦، ١٤١-١٤٣، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤-٢٧٦، ٢٧٨-٢٨١، ٢٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٧.

ثانيًا: الموقف من الوحي القرآني

لقد اعترض المؤلف - هانس كينج - على إيمان المسلمين بأن القرآن كلام الله ووحيه المباشر والحرفي، أي الوارد والثابت بالنص، وليس بالمعنى، كما هو حال العهدين القديم والجديد. وفي هذا الاعتراض قال:

«إن المسلمين يواجهون مع القرآن مشاكل أكثر مما نواجه نحن المسيحيين مع الكتاب المقدس، إذا أخذنا القرآن ككلام الله المملى حرفيًا مأخذ الجدل. مثل هذا الإدعاء لا يدعيه الكتاب المقدس العبري، ولا العهد الجديد».. (الفصل التاسع).

ونحن نقول للمؤلف: إن افتراق القرآن عن العهدين القديم والجديد في معنى الوحي وماهيته ليس إدعاء، وإنما هي «حقيقة» شهد بها العلماء المنصفون من الغربيين المؤمنين باليهودية والمسيحية والخبراء فيهما وفي الإسلام.

لقد كتب الخبراء في دراسات النصوص الدينية - من العلماء اليهود - عن أسفار العهد القديم، فقالوا: «إن هذه الأسفار المقدسة هي من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن. فلا ارتباط بينها سواء في أسلوب اللغة أم في طريقة التأليف. إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب في الصحراء. وموسى لم يكتب التوراة كلها. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام وعشائر وأسباط مختلفة، ففيها ثمانى مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهي:

١ - لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (في سيناء)، تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرائيم.

٢ - ولفائف من تعاليم الكهنة تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق.

٣ - ولفائف أعداد الأسباط.

٤ - ولفائف باعترافات الأنبياء.

٥ - ومجموعات من روايات بيت داود.

٦- وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم فى بابل.

٧- وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبي.

٨- وتكميلات مختارة من عصر الحشمونيين (أى من القرن الثانى قبل الميلاد).

إن سفر التكوين قد أُلّف بعد مئات السنين من استيطان اليهود فى فلسطين، وبعد أن تحصن الأسباط فى إرث استيطانهم بزمان طويل، وإن مؤلف السفر لم يكن موجوداً على كل حال قبل عصر أشعيا (أى نحو ٧٣٤ - ٦٨٠ ق.م). أما بالنسبة إلى سفرى الخروج والعدد، فإنهما معالجة لأساطير وأشعار قديمة، وإن الأصحاحات الثمانية والثمانين الموجودة فى التوراة بين أنشودة موسى - الموجودة فى سفر الخروج - وحتى الإصحاح الأخير من سفر العدد، هى فى مجموعها كتاب أحكام مركب من أجزاء شعرية وتاريخية، وأحكام الكهنة وقواعدهم، وطبيعة الأحداث فيها تستلزم أن تتزايد التغييرات والازدواجيات والتعديلات، حيث إن العلاقة بين الأحداث ضعيفة، ومن الصعب علينا فهمها.

وفى كل الأسفار كانت أقوال موسى قليلة إلى حد ما، كما أن أقوال داود قليلة فى سفر آخر منسوب إليه^(١).

وإذا كانت هذه هى شهادة علماء اليهودية وفلاسفتها على «علاقة العهد القديم بالوحي»، فإن هناك شهادات نصرانية على علاقة العهد الجديد - هو الآخر - بالوحي الإلهى. ومن هذه الشهادات شهادة «دائرة المعارف البريطانية» عن أناجيل العهد الجديد. ونحن نحيل إليها من يريد معرفة رأى هذه الموسوعة فى الأناجيل.

تلك شهادات غربية - يهودية ونصرانية - عن علاقة العهدين القديم والجديد بالوحي الإلهى، وعن معنى الوحي فى نصوصهما.

أما القرآن الكريم الذى أراد المؤلف هانس كينج التسوية بينه وبين العهدين القديم والجديد فى العلاقة بالوحي الإلهى، والذى حسب أن إيمان المسلمين بأنه وحي الله

(١) زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث، ترجمة أحمد محمد هويدى، تقديم ومراجعة محمد خليفة حسن، طبعة القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، سنة ٢٠٠٠م، ص ١/٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ١٩٦.

ثانيًا: الموقف من الوحي القرآني

المباشر والحرفى إنما يمثل «مشكلة»، فإن هناك شهادات غربية لعلماء غربيين - فى هذه القضية - كنا نتمنى على المؤلف أن يأخذها فى الاعتبار.

ومن بين هذه الشهادات الغربية - على افتراق القرآن وتميزه عن العهدين القديم والجديد فى العلاقة بالوحي الإلهى المباشر والحرفى شهادة العلامة الأنجليكاني الإنجليزى مونتجمرى وات الذى كتب - بعد دراساته الإسلامية التى زادت عن ثلث قرن - حول هذا الموضوع، فقال: «لقد شهدت بدايات القرن العشرين سرعة (مودعة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى قليل من الزيادات المحددة. ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة. والواقع أن هذه النظرية تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التى ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

وفى الحوار مع الإسلام يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمدًا لم يتلق وحيًا، وعن الأفكار الشبيهة.

إن القرآن ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه. ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولًا، ثم إلى كل العرب. ومن هنا فهو قرآن عربى مبين.

إننى أعتقد أن القرآن، بمعنى من المعانى، صادر عن الله، وبالتالي فهو وحي. إننا نؤمن بصدق محمد وإخلاصه، عندما يقول: «إن كلمات الله ليست نتيجة أى تفكير وإع منه».

وربما كانت الملامح الأساسية للوحي يمكن اختصارها فى العناصر الثلاثة الآتية:

أن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى.

وأن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك.

وأن يقينًا جازمًا كان يمتلك فؤاده: إن هذه الكلمات هى من الله.

لقد وجد محمد الكلمات، أو المحتوى الشفهي، حاضرًا في وعيه، فلما تمت كتابته، شكل النص القرآني الذي بين أيدينا.

وكان محمدًا واعيًا تمامًا بأنه لا دخل لتفكيره الواعي في هذه الرسالة القرآنية التي تصله، وبتعبير آخر: فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يفصل بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعي، الأمر الذي يعنى أن القرآن لم يكن بأية حال من الأحوال نتاج تفكير محمد. إنه لا ينبغي النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية.

أما مفهوم الوحي في اليهودية والمسيحية، فإن الكثير من المسيحيين لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجي ممثل في ملك أو ملائكة يملونها على كُتاب الأنجيل، وإنما يلقي في روع هؤلاء الكُتاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقًا. والأنبياء الوارد ذكرهم في العهد القديم يعلنون دون تردد: «هكذا يقول الرب». ولذا فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات هو بمعنى من المعاني كلمات الله حقًا^(١).

تلك شهادة غريبة لأحد العلماء الأعلام الغربيين، وهو خبير متخصص في الكتب الدينية المقدسة، شهد فيها على أن القرآن هو «وحي الله المباشر إلى رسوله محمد ﷺ، وأنه هو كلام الله وحده». كما شهد العالم الأنجليكاني مونتجمري وات على تميز القرآن في هذا الميدان على كل من العهدين القديم والجديد.

ولقد سقنا هذه الشهادات الغربية، لنضعها بين يدي مؤلف هذا الكتاب - الأستاذ هانس كينج - على أمل أن يعيد النظر في هذا الذي قاله عن القرآن الكريم. فعهدهنا بالرجل أنه باحث عن الحقيقة حتى في الديانات الوضعية ومواريثها. وتلك سمة العلماء، وخاصة الذين يرون أن الحكمة هي ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق الناس بها.

(١) مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، طبعة القاهرة، مكتبة الأسرة، ص ٣٥، ٣٦، ١٠٦، ٣٩، ٢٠٦، ٥٢ - ٥٤، ٧١، ٢٣، ٦١، ١٢٨، ٦٣، ١٣١، ١٧٠، ٩٨، ١٠٥، ١١٠، ١١١.

بقى أن نعيد التذكير بأهمية هذا الكتاب الذي يحمل إلى القارئ رسالة بديلة تقول
فيما يشبه الوصايا العشر:

- ١ - لا بقاء للبشرية بلا سلام عالمي.
- ٢ - ولا سلام عالميًا، بلا عدالة عالمية.
- ٣ - ولا عدالة عالمية، بلا صدق وإنسانية.
- ٤ - ولا سلام بين الأمم بلا سلام بين الأديان.
- ٥ - ولا سلام بين الأديان، بلا حوار بين الأديان.
- ٦ - ولا توجد إنسانية حقيقية، بلا تعايش مبني على الشراكة.
- ٧ - وليس يمكن أن تتغير أرضنا إلى الأحسن، بدون تغيير وعي الأفراد.
- ٨ - وبدون مغامرة واستعداد للتضحية، لا يوجد تغيير جوهري لحالتنا.
- ٩ - وإن عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا والاتصالات تتطلب مقاييس عالمية للأخلاق.
- ١٠ - وفي الأديان الكبرى توجد مقاييس الأخلاق الصالحة لأن تكون عالمية،
يتفق عليها الجميع حتى غير المتدينين بهذه الأديان.

تلك هي الرسالة النبيلة التي يحملها كتاب الأستاذ هانس كينج إلى القراء، الذي ترجمه الباحث المتميز والمثابر الأستاذ ثابت عيد، المصري الذي يعيش في زيورخ بسويسرا، والذي أثر - كعاداته - أن يحول تعليقاته على هذا الكتاب إلى موسوعة تفتح أمام القارئ أبواب الثقافة الغربية - الدينية والمدنية - التي أشارت إلى مصطلحاتها ووقائعها صفحات هذا الكتاب.

والله من وراء القصد، منه نستمد العون والتوفيق.

الدكتور محمد عمارة

القاهرة في ١٤ جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ

الموافق ١٩ مايو ٢٠٠٨ م.

مقدمة

هانس كينج

من دواعي سرورى أن يُسمح لهذا الكتاب أن يظهر باللغة العربية. فهو يريد بالفعل أن يخدم التفاهم بين المسلمين والمسيحيين، العرب و«الغربيين». وهنا أتوجه بعميق شكرى إلى كل هؤلاء الذين ساهموا فى ظهور هذا الكتاب. ويأتى بالطبع صديقى ثابت عيد فى المقام الأول، مترجم هذا الكتاب، الذى بذل جهدًا كبيرًا، وقضى وقتًا طويلاً، من أجل إنجاز هذه الترجمة.

كما أخص العالم المسلم الشهير محمد عمارة بصادق شكرى. فهو قد تفضل بدراسة كتابى هذا بعناية بالغة، وأبرز فى مقدمته بطريقة رائعة الأفكار الرئيسية فيه. وخصنى كمؤلف بمدحه الخالص فيما يخص ملاحظاتى وأقوالى عن النبى محمد ﷺ، وعن الجهاد والإرهاب.

لكنى أشكر محمد عمارة أيضًا لنقده الصريح لبعض أقوالى الخاصة بالعنف والوحى فى الإسلام. إذ ينبغى أن نعقد حوارنا بود وصدق. وتوضيح كثير من نقاط الخلاف يمكن بالطبع أن يتم من خلال الحوار الشخصى بطريقة أسهل من التصريحات المقتضبة نسبيًا هنا.

ومن أجل تحقيق تفاهم أفضل أسمح لنفسى هنا بكل تواضع بتسجيل بعض الملاحظات حول نقد محمد عمارة:

أولاً: إن كتابى هذا قد أُلّف بادئ ذى بدء لجمهور مسيحى فى المقام الأول، وهو قد انبثق عن حوار، ويعالج موضوعات كثيرة. يمكن للمسلمين أن يدركوا من خلاله وجود مشاكل كثيرة جدًّا فى المسيحية أيضًا، مشاكل لا تختلف كثيرًا عن مشاكل الإسلام.

ثانيًا: أقوالى عن الإسلام كان ينبغى أن تكون موجزة، وهو ما يجعلها عرضة لسوء

الفهم من وجوه متعددة - لكن لذلك بالذات يمكن أن تكون أيضًا حافزًا لمناقشة موضوعية.

ثالثًا: إن الحقائق التاريخية التي أوردها الكتاب الغربيون الموقرون الذين استشهد بهم محمد عمارة، خاصة: توماس أرنولد، وإدوارد مونتيه، ومونتجمري وات، عن الإسلام، تتطابق إلى حد بعيد مع ما توصلت أنا إليه شخصيًا من نتائج.

رابعًا: لكن من المؤسف أن العلامة محمد عمارة - بعدما قرأ مؤلفي القرنين التاسع عشر والعشرين بعد الميلاد الموقرين - لم يقرأ أيضًا كتابي الكبير عن الإسلام:

«Der Islam. Geschichte, Gegenwart, Zukunft», (Piper, Miinchen 2004, TB Serie Piper 4709, Miinchen 2006).

الذي ظهرت ترجمته الإنجليزية بعنوان:

(Islam. Past, Present & Future (Oneworld, Oxford 2007)

وقد ظهرت لحسن الحظ أيضًا طبعة إنجليزية خاصة بالشرق الأوسط، سنة ٢٠٠٧م، في الجامعة الأمريكية بالقاهرة: American University Press وعند تقديمي هذه الطبعة في القاهرة قال مفتي مصر بحماس: «لا بد من ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية في أقرب وقت ممكن».

خامسًا: إنني مقتنع بأن كل من قرأ كتابي عن الإسلام يدرك أن بوسعنا التفاهم حول نقاط الخلاف أفضل بكثير مما هو معتقد بصفة عامة. هذا يعني أنني مقتنع بإمكانية تحقيق تفاهم أفضل بين المسلمين والمسيحيين، بين العرب و«الغربيين»، وأعد صادقًا أن أبذل كل ما في وسعي، إن شاء الله، من أجل تحقيق هذه المهمة. فليكن هذا الكتاب إذا حماسة سلام^(١).

هانس كينج

توبينجن، ألمانيا الاتحادية، يوليو ٢٠٠٩م

(١) انظر هذا الكتاب - ترجمة ثابت عيد - عيد للإعلام - زيورخ سنة ٢٠١٠م.

الدكتور/ محمد عبد الله دراز

[١٣١٢ - ١٣٧٧ هـ / ١٨٩٤ - ١٩٥٨ م]

بطاقة حياة الدكتور دراز

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حسين دراز..

ولد بقرية محلة دياى مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ فى ٩ جماد أول سنة [١٣١٢هـ - ٨ نوفمبر ١٨٩٤م] - فى أسرة معروفة بالعلم الدينى، ومنزل يؤمه العلماء.. وكان جمهور الناس يتلقون العلم على والده وأجداده بالمسجد العمرى بالقرية، وكان والده - الشيخ عبد الله تلميذاً للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م].

وأتّم حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره.. وكان الشيخ محمد عبده قد رشح والده - الشيخ عبد الله دراز - لتأسيس الدراسة الأزهرية النظامية بمدينة الإسكندرية، فتأسس معهداً الدينى، الذى التحق به الشيخ محمد سنة [١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م]، ونال منه شهادة الابتدائية سنة [١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م].

وعندما انتقل والده وكيلاً لمشيخة معهد طنطا الدينى، انتقل الشيخ محمد مع والده إلى المعهد الأحمدي، فنال منه شهادة الثانوية سنة [١٣٣٠هـ - ١٩١٢م].. وكان ترتيبه الأول.

ولما عاد والده إلى الإسكندرية وكيلاً لمشيخة معهدهما، عاد الشيخ محمد مع والده إلى الإسكندرية، فأمضى دراسة القسم العالى بالإسكندرية، ونال شهادة العالمية سنة [١٣٣٤هـ - ١٩١٦م].. وكان أول الخريجين فى ذلك العام.

وبعد تخرجه عين مدرساً بمعهد الإسكندرية.

اتجه إلى تعلّم اللغة الفرنسية بالمدارس الليلية، ونال منها شهادة القسم العالى، بعد ثلاث سنوات سنة [١٣٣٧هـ - ١٩١٩م]، وكان ترتيبه الأول أيضاً.

ولقد انخرط - مع جمهور علماء الأزهر وطلابه - فى ثورة مصر الكبرى [١٣٣٧هـ - ١٩١٩م].. وأفادته لغته الفرنسية فى الخطابة بالفرنسية - فى المظاهرات التى توجهت إلى القنصليات الأجنبية بالإسكندرية، وفى الخطابة أمام القنصل الفرنسى، وفى الرد على افتراءات صحيفة [الطان] وغيرها.. وكان ذلك فاتحة لرغبته عرض حقائق الإسلام والدفاع عنه فى فضاء الفكر الغربى.

وفى سنة [١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م] اختير للتدريس بالقسم العالى بالأزهر.. ثم بقسم التخصص سنة [١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م].. ثم بكلية أصول الدين سنة [١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م].

وفى سنة [١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م] سافر إلى فرنسا فى بعثة دراسية أزهرية - للدراسات العليا بجامعة السوربون - ولقد اختير رئيساً لهذه البعثة.. وهناك نال:

١ - شهادة الليسانس فى الآداب من جامعة السوربون سنة [١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م].. بعد أن درس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع.

٢ - وشهادة دكتوراه من السوربون أيضاً - عن رسالته [التعريف بالقرآن] و[دستور الأخلاق فى القرآن] - بمرتبة الشرف الممتازة فى صفر ١٣٦٦هـ - ديسمبر ١٩٤٧م.

وبإبان إقامته بفرنسا كانت له اهتماماته ومواقفه الوطنية والقومية، فدافع سنة ١٩٤٠م عن زملائه المصريين الذين اعتقلتهم سلطات الاحتلال النازى حتى تم الإفراج عنهم.. كما ساهم فى الرعاية والمساعدة للأنشطة الجزائرية - جمعية العلماء الجزائريين والنوادي والمدارس الجزائرية بباريس - الأمر الذى جعل الإمام عبد الحميد بن باري [١٣٠٨ - ١٣٥٩هـ / ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] يوجه إليه رسالة شكر على هذا الصنيع.

وعند عودته من فرنسا إلى أرض الوطن [١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م] انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة [جامعة فؤاد الأول يومئذ]، ثم انتدب لتدريس التفسير

بكلية دار العلوم.. وتدرّس فلسفة الأخلاق بكلية اللغة العربية بالأزهر، كما ألقى محاضرات بكلية البوليس.

ولقد نال عضوية جماعة كبار العلماء سنة [١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م].

وفي ١٩ يونيو سنة ١٩٥٢م - أى قبل شهر من ثورة يوليو - تقدم إلى رئيس الديوان الملكي شارحاً سوء أحوال العامة ومطالباً بالإصلاح.

ولقد احتفظ - فى ظل ثورة يوليو - باستقلاله الفكرى وشجاعته الأدبية، فرفض التوقيع على بيان إدانة لخصومها السياسيين، وقال للمندوب الذى حمل إليه البيان: «أريد منى أن أوقع إدانة أهل الإسلام؟».

وفى سنة [١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م] اختير عضواً فى اللجنة العليا لسياسة التعليم.. كما اختير عضواً بالمجلس الأعلى للإذاعة فى ١٤ فبراير ١٩٥٥م.. وعضواً فى اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر.

ولقد مثل مصر والأزهر فى العديد من المؤتمرات العلمية الدولية.. ومنها مؤتمر الأديان العالمى بباريس سنة [١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م].. والمؤتمر الدولى للجامعات بمدينة نيس فى فرنسا فى صفر [١٣٧٠هـ - ٤ - ١٠ ديسمبر ١٩٥٠م].. والذى قدم فيه بحثاً بالفرنسية عن «الأزهر الجامعة القديمة والحديثة» - والذى ترجمه للعربية ونشره بمجلة الأزهر - ومؤتمر القانون الإسلامى بباريس فى شهر يوليو ١٩٥١م، والذى قدم فيه بحثه بالفرنسية عن [الربا فى نظر القانون الإسلامى] والذى ترجمه إلى العربية ونشره بمجلة الأزهر.

وكانت رحلته الأخيرة إلى مدينة لاهور بباكستان فى يناير ١٩٥٨م، لحضور مؤتمر الثقافة الإسلامية، والذى قدم فيه بحثه عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها».

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن توافيه المنية أثناء انعقاد هذا المؤتمر.. وبعد إلقاء بحثه - فصعدت روحه إلى بارئها فى ١٦ جماد الثانى سنة ١٣٧٧هـ - ٦ يناير ١٩٥٨م. ولقد وصفه صديقه الشيخ حسنين مخلوف [١٣٠٨ - ١٤١٠هـ / ١٨٩٠ - ١٩٩٠م] مفتى الديار المصرية بقوله:

«أخى، الذى تمتعت بأخوته، فكان مثلاً للأخوة الصادقة التى هى جديرة بكل اعتزاز، والعالم الفذ الذى كان يجمع مع العلم الموثوق به السجايا الحميدة والأخلاق الفاضلة، والرجولة الكاملة، والشجاعة الأدبية النادرة».

وكتب عنه الإمام محمد أبو زهرة [١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ / ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م] الذى زامله فى رحلة لاهور، وحضر وفاته هناك كتب عنه بمجلة (لواء الإسلام) (فبراير ١٩٥٨ م) فقال:

«لقد أوتى الشيخ دراز فى رحلته إلى فرنسا حظاً عظيماً من علم أوروبا، فكان العالم بما عند الأوربيين، وما طغى فى قلبه علم هذه الدنيا على علم الإسلام، ولا تلك الحضارة البراقة على حقيقة الإيمان، وما بهرته زخارف هذه المدنية عن الثروة الروحية التى اشتملت عليها الحقائق الإسلامية، ولا تلك الذخيرة الإنسانية التى اشتملت عليها أحكام القرآن المقررة الثابتة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة».

ولقد فارقنا الدكتور/ محمد عبد الله دراز إلى أوروبا كما فارقنا غيره، وأقام فى فرنسا ما شاء الله أن يقيم، وكانت إقامته أكثر من إقامة غيره أمداً، وكانت أوفر إنتاجاً، فقد أقام فيها نحو اثنتى عشرة سنة، نال فيها أعلى الدرجات العلمية هناك.

ولقد عاد بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة المجهدة، وتوقعنا أن نجد تغييراً فى مظهره أو ملبسه أو عاداته أو تدينه، كما رأينا فى بعض من ذهبوا وأقاموا بعض إقامته، ولكننا وجدناه كما تركنا خلقاً وديناً وإيماناً، فأثبت بذلك سلامة جوهره، لأن جيد المعادن تجلوه التجارب وتصقله الحوادث من غير أن يفنى ويبلى، ولقد ازداد استمساكاً بدينه وتشدداً فيه، فزاد بهاءً ونوراً وجلالاً.

وغير آثاره فى تلامذته وعارفيه.. وبصماته الثقافية فى الحياة العامة.. خلف الدكتور دراز من الآثار الفكرية تراثاً وضعه فى مصاف كبار فلاسفة الإسلام فى القرن العشرين.. ومن هذه الآثار:

- ١ - التعريف بالقرآن الكريم.
- ٢ - دستور الأخلاق فى القرآن الكريم.
- ٣ - الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان.
- ٤ - النبأ العظيم، نظرات جديدة فى القرآن الكريم.

- ٥ - المختار من كنوز السنة النبوية: شرح أربعين حديثاً في أصول الدين.
 - ٦ - مدخل إلى القرآن الكريم.
 - ٧ - دراسات إسلامية.
 - ٨ - الدين والأخلاق القومية.
 - ٩ - نظرات في الإسلام.
 - ١٠ - الميزان بين السنة والبدعة.
 - ١١ - الصوم: تربية وجهاد.
 - ١٢ - وثيابتك فطهر.
 - ١٣ - زاد المسلم في الدين والحياة.
 - ١٤ - أصل الإسلام.
 - ١٥ - الربا في نظر القانون الإسلامي.
 - ١٦ - مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام.
 - ١٧ - رأى الإسلام في القتال.
 - ١٨ - العبادات: الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج.
 - ١٩ - بين المثالية والواقعية.
 - ٢٠ - المسؤولية في الإسلام.
 - ٢١ - الأزهر: الجامعة القديمة والحديثة.
 - ٢٢ - كلمات في مبادئ الفلسفة والأخلاق.
- هذا إلى أوراق محفوظة.. ومراسلات.. وأحاديث إذاعية جمعها ونشرها ابننا المرحوم الشيخ أحمد فضيلة [١٤٣٤ - ٢٠١٣م]، الذي توفر على خدمة تراث هذا الشيخ العظيم.. رحمه الله^(١).

(١) انظر ترجمة الشيخ أحمد فضيلة للدكتور دراز في التقديم لكتاب «دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية»، ص ٢١ - ٣٧، طبعة دار القلم، الكويت والقاهرة، سنة ٢٠٠٨م. ومقدمة دار القلم لكتاب (النبا العظيم)، طبعة الكويت، سنة ١٤١٦م.

الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان

للدكتور محمد عبد الله دراز

أعز ما يُطلب للإنسان في هذه الحياة هو الإيمان بالدين.. فبهذا الإيمان الديني يحقق الإنسان الانتماء لهذا الوجود، فلا يغتاله الاغتراب الذي يجعله فريسة في غابة الوحوش.

وإذا كانت الطمأنينة التي يحققها الإيمان الديني للإنسان هي الضمان لكي تكتسب الحياة المعنى الحقيقي للحياة، فإن هذا الإيمان الديني يحقق هذه الطمأنينة للإنسان، لا في هذه الحياة فقط، وإنما فيما وراء هذه الحياة.. وفي هذه الطمأنينة قدر كبير من السعادة التي هي أعز ما يطلبه الإنسان.

فبهذا الإيمان الديني يهتدى الإنسان إلى الإجابات المطمئنة عن الأسئلة الوجودية الكبرى:

من أين كانت البداية؟...

وما معنى هذه المسيرة؟....

وإلى أين المنتهى والمصير؟...

كذلك، يحقق الإيمان الديني تلبية حاجات إنسانية ضرورية في ميادين المعرفة والإدراك، بدونها يصبح الإنسان سجيناً في غياهب الجهالة التي تقتل فيه المواهب والملكات.. فبدون هداية الدين تظل أدوات الإدراك عند الإنسان قاصرة قصوراً يكاد يقترب به من مرتبة الحيوان! ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَآلَآءَ نَعَمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

إن حواس الحيوان أعلى في الإدراك من حواس الإنسان.. لكن العقل - عند

الإنسان - هو الذى يمكنه من تصحيح أخطاء الحواس، فيتميز ويمتاز بهذا العقل عن الحيوان..

وفوق العقل يأتى الدين ممثلاً الهداية التى تصحح - للإنسان - أخطاء العقل المجرد، وبذلك تكون هدايات «العقل» و«الشرع» - أى العقل المؤمن.. والشرع العقلانى لدى هذا الإنسان - نوراً على نور!

فهداية الدين.. ونبأ السماء.. وآيات كتاب الله المسطور، هى التى تدعم وترشد فقه العقل لآيات الله فى كتابه المنظور.. فتتزامن آيات الوحي وآيات الكون فى مصادر المعرفة: هدايتان بدلاً من هداية واحدة..

كما تجعل لسبل المعرفة أربع هدايات، هى: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. وليس فقط: العقل.. والتجربة، كما هو الحال فى الفلسفات الوضعية والمادية.

وعن هذا التصور الإيمانى لسبل المعرفة قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م]:

لقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

الأولى: هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى.. وتكون للأطفال منذ ولادتهم.

والثانية: هداية الحواس والمشاعر.. وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيها الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان، فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير.

والثالثة: هداية العقل.. خلق الإنسان ليعيش مجتمعاً، ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل، فجهه الله هداية أعلى من هداية الحس والإلهام وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر، ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم فى الماء معوجاً، والصفراوى يذوق الحلو مرّاً، والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك.

الرابعة: الدين.. يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان

استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والتنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته، حتى توردته موارد التهلكة، فاحتاج الناس إلى هداية ترشددهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها.

ثم إن مما أُدع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبباً، لأنها الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة، الذي خلقه وسواه، ووهبه هذه الهدايات وغيرها مما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية؟

كلا! إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله إياها.

ولكن، بقي معنا هداية أخرى، وهي المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين - المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدي إليه كل منهما، وهي ما تفضل الله به على جميع أفراد البشر، أما هذه الهداية: فهي أخص من الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس، والعقل، وشرع الدين.

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين، وفي استعمال الحواس والعقل، كان محتاجاً إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله بطلبها منه في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، فمعنى (إهدنا الصراط المستقيم): دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك، تحفظنا بها من الضلال والخطأ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه^(١).

لذلك، كان كتاب العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز [١٣١٢ - ١٣٧٧ هـ - ١٨٩٤ - ١٩٥٨ م] هذا عن [الدين] كتاباً فريداً.. وأثراً نفيساً من آثاره الفكرية، إن من حيث الموضوع، أو تناول الفلسفي، الذي جعله عطاءً عالمياً، في

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٤، ص ٤٣ - ٤٦ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

فلسفة الدين، استوعب النظريات العالمية - القديمة والحديثة - فى هذا الموضوع، وجعل الفلسفة الإسلامية مهيمنة على هذه الفلسفات، بالتحليل المنطقى، والنقد العقلانى الذى استصفى ما فى هذه الفلسفات العالمية من إيجابيات..

إنه اجتهاد، قدم الرؤية الإسلامية ذروة سنام ما سبقها من اجتهادات فى فلسفة الدين. وإذا كان التقديم بين يدى هذا الكتاب سيقف عند المحاور والقضايا الكبرى وبعض الإشارات والمواقف، فإننا سنجد فى ذلك - على سبيل المثال: تعريفاً للدين يقول: «إن كلمة الدين، التى تستعمل فى تاريخ الأديان لها معنيان لا غير:

أحدها: هذه الحالة النفسية التى نسميها التدين.

والآخر: تلك الحقيقة الخارجية التى يمكن الرجوع إليها فى العادات الخارجية أو الآثار الخالدة، أو الروايات الماثورة. ومعناها: فى جملة المبادئ التى تدين بها أمة من الأمم، اعتقاداً أو عملاً.

فالدين هو «الاعتقاد بوجود ذات - أو ذات - علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الإنسان، اعتقاداً من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة، وفى خضوع وتمجيد».

وبعبارة موجزة، هو: «الإيمان.. بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة».

هذا إذا نظر إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية، فنقول: «هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها».

إنه اعتقاد فى «روح» مستقلة تسيطر على الطبيعة، لا فى «نفس» محصورة فى الطبيعة، مسايرة لها.

وإذا كان الإعجاب بالأثر الفنى البارع يحمل الإنسان بفطرته على التساؤل عن الفنان الذى أبدعه، ويحفزه إلى التوجه بفكرته إليه، سواء أعرِف شخصه أم لم يعرفه، ليعبر له عن هذا الشعور والتقدير، أليس الإعجاب ببذائع الملكوت أحق بأن يتحول

إلى مناجاة مبدعه، والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق، والتقديس البليغ؟ وهل العبادة فى جوهرها ولبها إلا ذلك؟

ألست إذا وقفت أمام أثر فنى بارع، فملاً صدرك، واستبد بإعجابك، تجد فى نفسك باعثة قوية للتعبير لصاحب هذا الأثر عن شعور الإكبار لصنعه، والاعتراف بعظمته، كأن هذا دَينٌ فى عنقك تؤديه، لا تبغى منه جزاء، ولا تقضى به وطراً، غير الترجمة عن صدق شعورك وتقديرك لهذه الآية القيمة؟ فما ظنك بأعظم الآثار وأبهرها؟ ألا يستحثك على التوجه لصانعه بهذا التعظيم البليغ، تسبيحاً بحمده، وتقديساً لجلاله، بغير غرض ولا عوض؟ فإذا شعرت بأنك أنت نفسك جزء من هذا الأثر العظيم، وأنت مدين بوجودك وفهمك وقوتك لهذا الصانع، الذى خلقتك وصورك، وشق سمعك وبصرك، ومنحك العقل والبيان، ومكنك الانتفاع بما فى السماء والأرض، ألست تقبل عليه بقلبك وجوارحك مقيداً بقيود إحسانه إليك، معترفاً بعبوديتك له؟ فهذه كلها غايات نبيلة تؤديها الأديان، ولم تفشل فيها يوماً من الأيام.

وفطرة التدين حاجة إنسانية: ذلك أن قوام حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة - والتبعية المطلقة - لقوة قاهرة. فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لا بد منه فى تحقيق ماهية الدين من حيث هو.

وإن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان هى أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بل أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره، وفى تحليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها.

إن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث، رغم تفاوتها فى مدارج الرقى ودركات الهمجية.. وإن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعنى عمومها لكل أفرادها، فإنه لا تخلو أمة من وجود «ذاهلين» قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال و فراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رءوسهم للنظر فى تلك الحقائق العليا، كما لا تخلو أمة من «مفكرين ساخرين» يحسبون الحياة لهواً ولعباً، ويتخذون من الدين وهماً وخرافة، لكن هؤلاء دائماً

الأقلون فى كل أمة، وهم فى الغالب من المترفين الذين لا يصادفهم من عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع، وما ينبه عقولهم إلى التفكير فى بدايتهم ونهايتهم، وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفى كموّن الغريزة الدينية بصفة عامة فى طبيعة النفس الإنسانية، كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون.

وليس هناك دليل واحد على أن فكرة التدين قد تأخرت عن نشأة الإنسان.. إن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر.. لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث. ولقد كانت الوثنيات أعراضاً طارئة، وأمراضاً متطفلة، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة.

ولقد عجزت وسائل العلوم عن أن تقدم لنا بياناً شافياً يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول، لكن نصوص الكتب المقدسة تشد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا فى الغريزة فحسب ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] بل فى التطور الزمانى كذلك، فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق، مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً بعد ذلك ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩].

وإن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقينى إلى نقطة البدء الحقيقى للدين، والواقع أن الحل النهائى لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحي، لأنها داخلية فى منطقة الغيب التى هى موضوع الإيمان، وليست من شأن العلوم الاستقرائية، ولا العلوم الاستنتاجية.

وتدل بعض أوراق البردى المحفوظة الآن فى برلين وليدن على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد، الغيبى، الأزلى، الذى لا تصوره الرسوم، ولا تحصره الحدود.

غير أن تلك العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره فى بعض الكائنات الممتازة: من إنسان أو حيوان أو جماد.

ولقد دل الاستقراء على أن الديانات قد بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتها الشوائب والأباطيل على طول العهد.

ويقول أفلاطون [٤٢٧-٣٤٧ ق.م]: «إن الروح هي أول موجود، وهي المبدأ الأصيل، وهي سبب الكائنات بلا استثناء وسبب كل حركة وتغيير فيما كان وفيما هو كائن وما سيكون، إنها هي التي تدبر السماء والأرض، وإليها مرد كل تركيب وتحليل، ونمو ونقص، وخير وشر، وحسن وقبح، وعدل وظلم، وكل الأضداد والمتقابلات».

ويقول أرسطو [٣٨٤-٣٢٢ ق.م]: «إنه يوجد حتمًا ذات أزلية قادرة على إحداث التغييرات، وإن هذه الذات يجب أن تكون غير مادية، وأن تكون موجودة بالفعل لا بمجرد القوة والإمكان، وإلا لما حدث شيء في الوجود».

إنه لا شيء يتحرك مصادفة، بل لا بد من وجود سبب معين لحركته.. إن الخشبة الغفل التي لم تدخلها صنعة، لا تتحرك بنفسها، ولكن بصناعة النجار..

أما السوفسطائية، فإنهم زعموا أن الأصل هو اللادين واللاقانون، وأن الأديان والقوانين ما هي إلا اختراعات وحيل سياسية لإخضاع الجمهور..

ولقد زعمت المادية الماركسية أن الدين والقانون هما اختراع المستغلين لإخضاع المستغلين، وهذا الزعم هو سفسطة مادية حديثة!

إن قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة، بل تتباين طبائعهما ووسائلهما. فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها واكتسابها، ويتطلب اقتناؤها وتنميتها علاجًا ومثابرة، أو استعانة بأدوات منفصلة في غالب الأمر، فإن حقيقة التدين توجد عناصرها قارة في الجوانح، وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس، حتى أن التفاتة يسيرة لتكفي للظفر بها في حدس سريع، كالبرق الخاطف.. ولذلك يستوى العالم والجاهل في أصل هذا الإحساس، كل على فهمه يجد في الكون ما يبهره ويستولى على مشاعره.

وإن وحدة النظام دليل على وحدة القيادة: يا سبحان الله! أليست وحدة النظام بين هذه الكتابات المختلفة الطبيعة، المتنوعة العمل، من الكائنات السماوية والأرضية، آية على وحدة القيادة العامة التي تشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التي يسير على هداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى؟!

ومبادئ التدين هي: السببية والغائية: فظاهرة التدين تستند في أصلها إلى مبادئ مرتكزين في بدهة العقول، وهما قانونا «السببية والغائية»..

أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً من الممكنات «لا يحدث بنفسه من غير شيء».. وأما قانون الغائية فمن موجه أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث من غير قصد، وأن كل قصد لا بد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية إذا لم تحقق إلا مطلباً جزئياً إضافياً منقطعاً، تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى.. حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات.

والدين منهاج شامل، فيه تشريع.. وأخلاق: فالفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه.. وهكذا يصل القانون الديني إلى بسط جناحيه على علم الأخلاق كله، بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب، بحيث يجعلها جزءاً متمماً لحقيقته، ويصبغ كل قواعدها بصبغة القدسية، فيصبح اتباع الفضائل الفردية والاجتماعية نوعاً من الطاعة لأوامر الدين، وباباً من أبواب القربان والعبادات الإلهية، فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدأ العدالة الإنسانية، وتلبية لداعى الفطرة السليمة.. إن الدين والأخلاق مثلهما كمثلي شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما، وتتعانق أغصانهما، حتى تظلل إحدهما الأخرى..

وإن تقديس الإله المعبود هو تحرير للإنسان من القنوط، وفتح لأبواب الأمل والحرية: فالتقديس الديني للإله المعبود ليس تقديساً لذات أيّاً كانت، وإنما هو تقديس لذات لها صفات خاصة، وأهم مميزاتها أنها ليست مما يقع عليه حس المتدين، ولا مما يدخل في دائرة مشاهداته، وإنما هي شيء غيبي لا يدركه إلا بعقله ووجدانه..

وإن هذا الغيب الذي تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة، بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة، وله أسلوب في تصرفاته مبين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها، إذ أن هذه المواد يصدر عنها أثرها دون شعور منها ولا اختيار لها في صدوره، أما القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيتها.

إن هذه القوة العاقلة المدبرة فى نظر المتدينين ليست قوة منطقية على نفسها، منعزلة عنه وعن العالم، بل يرى أن لها اتصالاً معنويًا به وبالناس، تسمع نجواهم، وتصغى لشكواهم، وتعنى بآلامهم وآمالهم، وتستطيع إن شاءت أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه..

إن التقديس الدينى «تأليه» وعبادة، وإن موضوعه «إله معبود»..

وإن القوة التى يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة، وصورة عقلية خالصة، بل هى حقيقة خارجية. ونقول: إن هذه الحقيقة ليست مادة يقع عليها الحس، بل هى سر غيبى لا تدركه الأبصار. ونقول: إن هذه القوة الغيبية قوة عاقلة تتصرف بالإرادة، لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء، وتقول أخيرًا: إن لهذه القوة غاية مستمرة بشئون العالم الذى تدبره، وأن لها تجاوبًا نفسيًا مع نفوسه..

وإن شأن المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى، ويلتمس تحت كل ظاهر باطنًا، ويضع فى مبدأ كل فعل فاعلاً..

والقوة التى يؤمن بها المتدين هى قوة علوية سبحانه، قاهرة غير مقهورة، يخضع هو لها، ولا تخضع له. وإن خضوع المتدين لمعبوده وإن كان خضوعًا كليًا لقوة قاهرة كما يقولون، ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس، ويكبت النفس، ويفل من الجهد، ويحد مجال العمل، ويسد باب الأمل، بل هو شعور يرفه عن القلب بما يفتح أمامه من آفاق الإمكان، وهو شعور يضع عن النفس الأثقال، ويحطم ما حولها من الأغلال، وتكاد لا تعثر فى لغته على كلمة «المحال»، فإذا اشتدت الأزمات وضاعت الحلقات أمام المتدين، تراءى له من خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها إلا أن يأذن لمعبوده..

وإن الطبيعيين حين يرون ترابط الأشياء وتتابعها فى نظام مطرد، يقف بهم النظر فى هذه النظم عند حد العادة الجارية، فيطمئنون الاطمئنان كله إلى استقرارها ودوامها، ويأسون اليأس التام من تحولها وانفصامها فهم أبدًا فى أحد طرفين متباعدين: إما آمنٌ غافل، وإما يأس قاتل..

أما العقيدة الدينية (وكذلك الفلسفة الروحية) فإنها لا تخضع لسياسة الأمر الواقع، بل تنفذ إلى بواطن الأمور وأعماقها، فتقيس الوجود بمقاييس العقل، وترنه بموازين

الإمكان، وبذلك يتكشف لها الكون على حقيقته، فلا ترى فى نظامه الواقعى ضرورة ذاتية، ولا فى تبدل هذا النظام استحالة ذاتية، بل ترى عليه طابع الصنعة الموضوعة، وأثر الترتيب المقصود. وترى أمر بقاءه أو تطوره رهيناً بالإرادة التى وضعت هذا النظام وحفظته، لأن من استطاع أن يربط السلسلة، استطاع أن يفصمها..

وهكذا نرى الأديان فى كل صورها ومظاهرها تقف إلى جانب الأمل والإمكان والحرية والاختيار فى مبدأ الأشياء. والأديان بهذه النزعة، فى الحقيقة تخدم العلوم وتمهد لتقدمها، إذ تفسح المجال أمامها فى تغيير معالم الأشياء إلى مدى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية، التى هى بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجبر، يئوسه إلى أبعد حدود اليأس، لأنها كلما كشفت قانوناً وقفت عنده دهرًا، تبنى على أساسه كل فنونها وصناعاتها.. حتى إذا انتقلت إلى مرحلة أخرى انتقلت بذلك من طوق حديدى إلى طوق أوسع منه، ولكنه فى نظرها طوق حديدى على كل حال، فهى تعيش يومًا بيوم، لا تؤمن إلا بعينها، ولا ترى أكثر من طرف أنفها..

وليس هناك مثال واحد، منذ عرف الإنسان الكون، يدل على أن الطبيعة بدلت أوضاعها، وأحدثت فى نفسها نظامًا جديدًا من غير تدخل قوة شاعرة مستقلة عن تلك المادة، مهيمنة عليها..

إن أساس الفكرة التى تسيطر على الديانات والروحانيات جميعًا، هى أن على رأس كل سلسلة من الأسباب قوة اختيارية، هى قوة الإنشاء والابتكار التى لا بد أن ينطوى عليها السبب الأول..

وللدين وظيفة اجتماعية: فليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتثام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.. فالإنسان مقود أبدًا بفكرة صحيحة أو فاسدة، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء، وإن فسدت فسد كل شىء..

والعلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمار الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد. ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.. ومن أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة، وكان لذلك ضرورة

اجتماعية، كما هو فطرة إنسانية.. إن الأديان تربط بين قلوب معتنقيها برابط من المحبة والتراحم، لا يعد له رباط آخر من الجنس، أو اللغة، أو الجوار، أو المصالح المشتركة. وإن الوطنية التي لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هي حصن متداع يوشك أن ينهار.. فالأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد.

وهناك تباين بين السحر والتدين: ففكرة السحر مباينة تمامًا لفكرة التدين في طبيعتها وموضوعها. فالشعور بالسلطان والقوة على تسخير الطبائع يمكن أن يكون شعورًا كيميائيًا أو ساحرًا، ولا يمكن أن يكون شعورًا عابدًا لها، لأن الإنسان لا يعبد شيئًا مسخرًا له حين يسخره، ولا يسخر شيئًا يزعم أنه يعبده حين يعبده..

أما علاقة الدين بالفلسفة: فيوضحها أن مطلب الفلسفة، هو معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في العاجل والآجل. هذان هما موضوعا الفلسفة بقسميها العلمي والعمل، وهما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع.

غير أن الاتحاد في موضوع البحث لا يعنى دائمًا الاتفاق على نتائجه.. إذ أننا نجد كثيرًا من المذاهب الفلسفية قد توصلت بمجهودها العقلي المستقل إلى تقرير المبادئ الأولية التي قررتاها الأديان، بينما نجد بعضًا منها قد انفصل من أول الطريق أو من وسطه عن تلك المبادئ.

وأشد هذه المذاهب انفصالًا، وأكثرها بعدًا، هي المذاهب المادية، التي لا تعترف بشيء في الوجود وراء الحس والمشاهدة، فتنكر بذلك مبدأً رئيسيًا مشتركًا تقوم عليه جميع الأديان، وتقره سائر الفلسفات..

إن بعض قدماء اليونان كان يرى أن الروح المدبر للعالم لم ينشئ هذا العالم إنشاءً، بل إنه وجد أمامه المواد الكونية مبعثرة بغير نظام، فقام بتنسيقها على هذا الوجه الهندسى المتقن، فالخالق في نظرهم ليس بارتًا، بل هو صانع ماهر لا غير... أما الفلسفات التي تؤمن بالألوهية فليست كلها تؤمن بهذه الربوبية، إذ أن بعضها كان يرى أن صلة الإله بالعالم إنما هي صلة العلة الأولى والسبب البعيد الذى أدى عمله، وانتهت مهمته، وأن مثله كمثل المهندس البناء حين يفرغ من رسم البيت وبنائه، ويصبح لا شأن له بسياسته وتدييره، أو على الأقل لا صلة له بتدبير عالمنا الأرضى.

ولقد تميز الإسلام بأن جمع في تعاليمه بين طريقتي اليقين والإقناع، وبين منهجي التحقيق والتمثيل.. وليس من الصواب أن نقول إن التعليمات الفلسفية تُستمد دائماً من نور العقل، وتستند إلى البراهين القطعية، إذ لو كانت كلها كذلك ما أمكن أن يحدث بينها هذا الاختلاف والتضارب، فإن الحق لا يعارض الحق ولا يكذبه، بل يسنده ويؤيده.

ونحن نعرف بالاستقراء والتجربة أن أكثر هذه النظريات الفلسفية المتضاربة فروض وتقديرات، تدور كلها في ذلك الإمكان والاحتمال، وتتفاوت فيما بينها بقدر ما فيها من حسن العرض وتناسق الوضع، لا اعتماداً على العقل الخالص ومثانة البرهان، بل على وجود الخيال وبراعة البيان. فهي لا تعدو أن تكون ضرباً من الشعر المنشور، يناجى العاطفة ويستهوى القلوب، من غير أن يكون في حجتها ما يشفى طالب اليقين، ولا في حكمها ما يحسم مادة النزاع بما فيه فصل الخطاب.

أما الشريعة الإسلامية، فإنها نبهت على مبادئ الحكمة النظرية تنبيهاً رقيقاً، وبينت الحكمة العملية بكمالها.. والفيلسوف هو أول من يعرف قصور العقل البشرى، وقصور كل ما هو إنسانى عن درجة الكمال.. وهذا سقراط [٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م] يضرب لنا أروع الأمثال فى ذلك، حين يقول: «الشيء الذى لا أزال أعلمه جيداً هو أننى لست أعلم شيئاً».

أما الفكرة الدينية فإنها فى مختلف مظاهرها ودرجاتها، تفترض أن ما تقرر فى شأن من الشئون مستمد من سر الوجود، وأنه يمثل حقيقة الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر، فهي بطبيعتها ملزمة، تتقاضى من صاحبها الخضوع والتسليم ولا تقبل منه فى حكمها جдалاً ولا مناقضة، بل لا تبيح له فى نفسها بحثاً ولا ترديداً. فإن فعل ذلك فى مسألة ما، كان فى هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقر فيها على رأى معين ويدين به، فهناك لا يقبل فيه مساومة ولا يستطيع منه تحللاً، إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة، حتى لا يبالى أن يضحى فى سبيلها بحياته ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية أو سياسية، أو غيرها..

فالإيمان معرفة تتجاوز أصدائها فى أعماق الضمير، وتختلط مادتها بشغاف القلوب، فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحر، بل تحس النفس فيها ببرد

وثلج. إن الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب، فيجعلها للنفس رياً وغذاءً يدخل في كيانها، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها. فإذا كان موضوع الإيمان الحقيقة الكبرى، والمثل الأعلى، فهناك تتحول الفكرة قوة دافعة، فعالة، خلاقة، ولا يقف في سبيلها شيء في الكون إلا استهانت به حتى تبلغ هدفها.

إن غاية الفلسفة: المعرفة، وغاية الدين الإيمان. مطلب الفلسفة: فكرة جافة، ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين: روح وثابة، وقوة محركة..

ولا نقول كما يقول كثير من الناس: إن الفلسفة تخاطب العقول، وإن الدين يخاطب القلوب ويستهوى المشاعر، غير مبال بمبادئ المنطق وقواعد العلم، أو كما قال القديس أوغسطين [٣٥٤ - ٤٣٠ م]: «أؤمن بهذا لأنه محال» فذلك وصف لا ينطبق على كل الأديان، ولكننا نقول: إن الدين في كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلاً أو كثيراً حتى يضم إليه ركن القلب..

الفلسفة تعمل إذاً في جانب من جوانب النفس، والدين يستحوذ عليها في جملتها. الفلسفة ملاحظة، وتحليل، وتركيب، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وترهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنتبج على سائر النفس قشرة يابسة. أما الدين فهو حذاء ونشيد يحمل الحقيقة جملة، فيعبر بها هذه القشرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها، فتعطيه النفس كليتها، وتملكها زمامها.. ومن هنا نستنبط فرقاً دقيقاً بين الفلسفة والدين:

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية، حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير الذي تحدوه أما الدين فيعرفنا الحق، لا نعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه..

وأول الآثار العملية للفكرة الدينية هو لفتها شعور المتدين إلى صلة بينه وبين الحقيقة العليا التي يدين لها، وهي صلة تقوم في جوهرها على معنى الإلزام والالتزام الأدبي بينهما. على حين أن الفلسفة من حيث هي فلسفة (أعني من حيث هي صناعة عقلية، مستقلة عن التصوف والمعاني الوجدانية) يستطيع أن يعيش من غير اعتراف

بهذه الصلة، ذلك أن غاية الفيلسوف من ربطه المسببات بأسبابها هو فهمه الأشياء على وجه منطقي معقول، بحيث يأخذ كل حد منها موضعه اللائق به. فالقوة العليا التي يضعها الفيلسوف على رأس الحوادث الكونية يكفى فيها أن يكون شأنها فى الكون شأن الصانع فى تدبير صنعته، أو الربان فى قيادة سفينته، وهى كما ترى صلة آلية خارجية، لا يتبادل فيها الخطاب، ولا تتناجى فيها الأرواح، ولا يتجه فيها العبد إلى الرب بالمحبة والتبجيل، والخشية والتأمل، وما إلى ذلك من المعانى التى لا يتحقق فهم الدين من دونها، إذ الدين ليس إيماناً ومعرفة فحسب، بل هو وفق ذلك النفات روى متبادل، هو رباط من الطاعة والولاء، ومن الحب والرعاية، بين المتدين وبين الحقيقة العلوية التى يؤمن بها.

ومن هنا تعرف السر فى اتفاق مؤرخى الأديان على أن المذهب الذى اشتهر فى القرن الثامن عشر باسم «الديانة الطبيعية»، والذى يتلخص فى الاعتراف بثلاثة أركان: «وجود إله خالق، وخلود الروح، وسلطان الواجب الأخلاقي» ليس فى الحقيقة دين، ولم يكن يوماً ما ديناً من الأديان، بل هو نوع من الفلسفة الجافة، ينقصه قيام هذه الصلة الروحية بين الخلق والخالق، ليستحق اسم الدين.

والمظهر الثانى من المظاهر العملية للفكرة الدينية هو ميلها إلى التدفق فى الميدان الاجتماعى، ذلك أن طبيعة العقيدة كريمة فياضة، تنزع دائماً إلى الانتشار وطلب المشاركة، وتهز صاحبها إلى تحقيق أهدافها بالنشر والدعوة، بينما الفكرة العلمية أو الفلسفية تميل - ككل ثروة إنسانية - إلى الاحتجاز والاحتكار والاستئثار، أو على الأقل لا تسعى بطبعها لهذا التوسع، ولا يعينها أن تصبح فى متناول الجمهور..

فإذا انتقلنا إلى المقارنة بين الفلسفة وبين الأديان السماوية بخصوصها، فإننا نظفر فوق ذلك بعنصر جديد، به يتم الفصل بين هاتين الحقيقتين.

ذلك أن الفلسفة فى كل عصورها «عمل إنساني»، يتحكم فيه كل ما فى طبيعة الإنسان من قيود وحدود، وتدرج بطيء فى الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال.

أما الأديان السماوية فإنها «صنعة إلهية» لها كل ما للإلهيات من ثبات الحق الذى لا تبديل لكلماته، وصرامة الصدق الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم

هى فوق ذلك «منحة كريمة» تصل إلى حاملها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها فى فترات خاطفة، كلمح البصر أو هو أقرب.

فإذا انفردت الفلسفة فى حكم لم يؤمن عليها العثار، وإذا التقى العقل والوحي فى أمر فقد اتصلت مشاعل الليل بضوء النهار ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدَى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

أما الإنكار لما وراء الحس: فإنما يمثل نكسة فى فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم، ولا نقول إلى مستوى الطفولة الغافلة، فإن كثيراً من الأطفال ذوى الفطر السليمة لا يقنعون بالأمر الواقع المشاهد، ولا يقفون فى تعليه عند حلقة من حلقات أسبابه وغاياته القريبة، بل يصعدون دائماً إلى أسبابه الأولى، ويسترسلون فى تعرف نتائجه الأخيرة..

إن غريزة التطلع هذه هى مبدأ العلم والإيمان معاً، وإن الذى يقف بها عند حدود الواقع الحاضر فى الحس ليصد الإنسانية عن سبيل الكمال، ويحرم العالم من خير كثير، فضلاً عن أنه بذلك يقاوم طبيعة الأشياء، ويحاول تبديل الفطرة التى فطر الله الناس عليها..

إن التدين - ولا سيما فى أديان التوحيد والخلود - عنصر ضرورى لتكميل القوة النظرية فى الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا.

إن العواطف النبيلة، من الحب والشوق، والشكر، والتواضع، والحياء، والأمل، وغيرها، إذا لم تجد ضالتها المنشودة فى الأشياء ولا فى الناس، وإذا جفت ينباعها فى هذا العالم المتبدل المتبدد، وجدت فى موضوع الدين مجالاً لا تدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه..

إن الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها، حتى إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه «حيوان مفكر» أو بأنه «حيوان مدنى بطبعه»، يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه «حيوان متدين بفطرته».

وفى مسألة الروح: فكما أنه ليس من المألوف أن شيئاً يصبح لا شىء، وكل ما

يتصوره العقل فى فقد الأشياء إنما هو تغير صورها، وتبدل أوضاعها الزمانية والمكانية، فالتصور الطبيعى لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصرى المادة والروح، يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبيئته، فتعود المادة إلى عالمها، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبى، وهكذا ينشأ الاعتقاد بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان..

إن انتقال العنصر الروحى من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ليس من شأنه حتمًا أن يضعف سلطانه، بل من المعقول أنه قد يزيده قوة، لأن الروح فى عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل، مشغولة بتدبيره، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات. ولذلك ليس من حقها فى هذه الحال أن تسمى روحًا مسيطرة، وإنما هى نفس مسخرة، فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر، أصبحت جديرة باسم «الروح»، وأضحت أوسع مجالًا، وأملك حرية العمل فى البدن الذى تختاره: إن نفعًا وإن ضرًا، من حيث لا يشعر بها أحد..

إن فى الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس، سواء كانت فى الأصل أرواحًا إنسانية انتقلت عن أبدانها، أم كانت منذ بدايتها أرواحًا مستقلة كالجن والملائكة، أم كانت روحًا أعلى من ذلك وأسمى.

وإن هذه الكائنات الغيبية، المزودة بتلك القوة الخارقة، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثرًا من آثارها العجيبة.

وفى مكانة التجارب الروحية: فلقد أجمع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذرية، واستخدام طاقتها الجبارة فى صنع الأعاجيب، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل.

فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التى شهدتها الأنبياء وأرباب البصائر النبيرة فى مختلف العصور، وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الخارقة؟

إن إنكار الدين جملة إنكار ضمنى لأمر واقعى تحتويها الأديان كلها ولا يحتويها علم من العلوم، ألا وهى عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها..

إنه إذا كان الدين حقًا والعلم حقًا وجب أن يتصادقا ويتناسرا. أما إذا تكادبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً..

وحول نظرية «أوجست كونت» [١٧٩٨ - ١٨٥٧م] عن الأدوار الثلاثة: فإن هذه النظرية تقوم على أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة:

- دور الفلسفة الدينية.

- دور الفلسفة التجريدية.

- ثم دور الفلسفة الواقعية.

وهذا الدور الثالث، في نظره، هو آخر الأدوار وأسمائها.

فدور التفكير الديني يمثل الحالة البدائية التي تلهت بها الإنسانية في مرحلة طفولتها، فلما كبرت عن الطوق خلعتها لتستبدل بها ثوباً وسطاً في دور مراهقتها، حتى إذا بلغت أشدها واكتمل رشدها، أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريبية..

لكننا ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديساً للروحانيات، وشغفاً بالمعنويات والمعقولات الكلية، عند فريق من الناس، إلى جانب الكلف بالحوادث والحقائق الجزئية، عند فريق آخر..وها نحن أولاء، في القرن العشرين، وفي قلب الحضارة الأوروبية، نرى إلى جانب البحوث المادية المتشعبة، دراسات روحية واسعة، تقوم بها جماعات محترمة من كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة، على منهاج علمي دقيق، وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل والنقد الصارم، الذي ينحى عن الوقائع كل ما عساه أن يعلق بها من تزوير وخداع، وكل ما يحوم حولها من وهم وتسرع في الحكم ولا يقبل منها إلا ما يؤيده اليقين، وما ينتهي إليه البحث الدقيق الرزين.

فالواقع أن الحالات الثلاث التي يصورها (كونت) لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة، بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب.. بل نقول إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها، ولكل واحدة منها مجال يوائمها، ففي الوقت الذي نفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة، خارجية وداخلية، فنقول: هلك فلان بضربة سيف أو بالشيخوخة أو بالمرض، لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر، أو بسبب غيبي مجهول.

بل نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقرر أن النظرة الواقعية تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية، لا مرحلة النضج والكمال، ذلك بأن مبعثها

الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية، وبأنها وظيفة الحس لا العقل، وبأنها من معدن القابلية والانفعال، لا من معدن الفاعلية والإنشاء..

والنظرة الروحية، أو الدينية، لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالاً، وأبعدها مطلباً..

يقول « إرنست رينان » [١٨٢٣-١٨٩٢] في تاريخ الأديان: «إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي».

إن تقدمنا الحثيث في العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا، والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون في جانب ما نجهله منه كمثل قطرة من محيط خضم عميق، ذلك أن كل باب جديد يفتح العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده يفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة..

وهكذا كان اتساع المعلومات هو نفسه اتساعاً لنطاق المجهولات.. فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة، يقطعها من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب، في آماذ وآباء لا يدرك الإنسان نهايتها إلا إذا انقلب المحاط محيطاً، والحادث الفانى أزلياً باقياً.. وصدق القرآن حين يقول ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى، كما يتصل به من جهة حده الأعلى. وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره لأنه يحس أثره، ويكاد يلمس خطره.

لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر، المزود بأدق المقاييس والموازن، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد للوجود. وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان.. إذ العلم في جوهره ليس تحليلاً وتركيباً عمليين، وإنما هو نظرة عقلية تربط النتائج بمقدماتها، وتستنبط القوانين من جزئياتها، وتفسر الموجودات تفسيراً تستسيغه النفس ويطمئن إليه العقل..

إن هذه العلوم - حتى في وضعها الحالي الذي سحر الأبصار - لم تكشف من قوانين الوجود إلا جانباً يسيراً.. بل نقول بلسان علوم الطبيعة نفسها إنه لم يوجد ولن يوجد فيها قانون عام واحد يعتمد على منهج تجريبي يقيني شامل.. بل نقول بلسان العلم الأعلى، أعني علم قوانين المعرفة والفكر، إن كل تفسير للأثار بأسبابها الطبيعية يحمل في نفسه جرثومة نقصه وعجزه، ولا يمكن أن يصل إلى حد الإقناع الشافي إلا إذا اقتلع قانون التفكير من جذوره..

إنه لا مخرج للعقل.. إلا بتجاوز تلك التفسيرات الآلية الخالصة، والتماس سبب إرادى مفهم، تكون له الحرية في اختيار هذا التفاوت بين الأسباب ومسبباتها.

وهكذا تلتقى العلوم العقلية والطبيعية، العملية منها والنظرية، على الاعتراف بأنها في استقصاء البحث عن أصول الأشياء ومبادئها تنتهي دائماً بالانتصار لقضية الغيب، وتفسح بيدها المجال لبقاء الأديان وخلودها.. إن النفس الإنسانية ليس يشفيها في تفهمها للأشياء أن تصعد إلى أسبابها ومقدماتها، بل لا بد لها بعد ذلك أن تنحدر معها إلى غايتها ونهاياتها، وتستفسر عن مقاصدها وأهدافها. فليس يكفيك لكي تحيط بالشيء خبراً أن تعرف نشأته دون أن تعرف مصيره، ولا أن تعرف كيف كان؟ دون أن تعرف لم كان؟ أليست هذه المطالبة النفسية الحثيثة دليلاً على ما هو مركز في الجبل من الاقتناع بأن الحوادث الكونية تسير على خطة مرسومة، وأن القوة المدبرة للأشياء تهدف منها إلى غاية معينة، أو أنها لا تسير بمحض المصادفة العمياء والاتفاق التحكمي.

إن نهاية العلم البشري ليست هي إطفاء غريزة التدين، بل زيادة اشعالها.. فهذا «كونت»، الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم، قد عاد في آخر أمره متصوفاً عجبياً، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة، طبعها على غرار النظام الكنسى للديانة الكاثوليكية: في عقائدها، وطقوسها، وأعيادها، وطبقات قساوستها.. رواية كاملة أعاد فصولها، ولم يغير إلا أشخاصها..

وهذا «سبنسر» [١٨٢٠-١٩٠٣م] ينتهي إلى أن يقول عن «المجهول»: «إنه تلك القوة التي لا تخضع لشيء في العقول، بل هي مبدأ كل معقول، هي المنبع الذي يفيض عنه كل شيء في الوجود».

أليس هذا «المجهول» هو بعينه موضوع الديانات، يجيئنا الآن باسم آخر على لسان العلم؟..

وعن علاقة الإسلام بالشرائع السماوية: فالإسلام، فى لغة القرآن، ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء.

غير أن كلمة (الإسلام) قد أصبح لها فى عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد ﷺ أو التى استنبطت مما جاء به، كما أن كلمة - اليهودية - أو الموسوية تخص شريعة موسى، وما اشتق منها، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى وما تفرع منها.

والشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضًا من ألفها إلى بائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه فى حدود ظروفه الماضية. ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات:

- «تشريعات خالدة» لا تتبدل بتبدل الأوصاف والأوضاع (كالوصايا العشر) ونحوها، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله، أى أعادت مضمونه تذكيرًا، وتأكيدًا له.

- و«تشريعات موقوتة» بأجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها، وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء..

وهكذا كانت مهمة القرآن مع كتب الشرائع السابقة: أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] كما كانت مهمته أن يبين ما ينبغى تبينه مما كتموه منها

﴿يَكَاهَلْ أَلْكِتَبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ أَلْكِتَبِ﴾ [المائدة: ١٥].

وجملة القول أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها المنظورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها..

فالقرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورد، فمهما تباعدت الأقطار والعصور، ومهما تعدد الأجناس والألوان واللغات. ومهما تفاوتت المشارب والنزعات سيجد فيه كل طالب الحق سبيلاً ممهداً، يهديه إلى الله على بصيرة وبيئة..

وإن الذى يستقرئ الملل على كثرتها، إذا درسها دراسة مقارنة، وأخذ يعزل ما فيها من المفارقات ووجوه الاختلاف، سيجد فيها البتة وجوهاً من المشابهة تتلاقى عندها كل الديانات، وسيجد فى نفسه إذ ذاك باعثة تصعب مقاومتها، تدفعه إلى استخلاص هذه المبادئ العامة، وجمعها فى وحدة كلية يحدد بها طبيعة الدين من حيث هو..

إن الأديان، وإن تفاوتت فى نفسها، أو فى مصادرها، أو فى أهدافها، أو فى قيمتها، فإنها كلها يجمعها اسم «الدين»، فلا بد أن تكون هناك وحدة معنوية تنتظمها..

ولقد امتاز الإسلام بتوحيد الهوية للشعوب التى استظلت بلوائه: ففى القرن الثانى قبل الميلاد أخضع الرومان الدولة اليونانية سياسياً، فأصبحت ولاية تابعة لهم، بعد أن كانوا هم تبعاً لها.

وإن تعجب لشيء فأعجب كيف أن هذا الاختلاط بين الأمتين قرونًا متوالية، من قبل ومن بعد، لم يصنع منهما أمة واحدة، فى اللغة والدين والفن والتشريع وسائر مقومات الحياة الاجتماعية، كما صنع الفتح الإسلامى فى الأقطار التى دخلها.

لقد ظهر الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى، وما هى إلا أن تمكنت دعوته سنة ٦٢٢م من استنشاق نسيم الحرية خارج مكة، حتى انتشرت بسرعة البرق شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً، ولم يمض قرن واحد حتى سرت فى أقطار أوروبا الغربية (إسبانيا وإيطاليا وفرنسا) حاملة معها علوم الإسلام وآدابه وتشريعاته، مضافة إلى

علوم اليونان وفلسفتهم، ومضافاً إليها ما اكتشف العرب المسلمون في رحلاتهم من علوم الشرق وآدابه، وما أفادوه هم من تجارب جديدة.

ولم يكن بدعاً من الأمر أن يكون الغرب عالة على العرب في علوم الشرق، وإنما البديع والعجب العجاب أن يكون عالة عليهم في علوم أوربا نفسها، وأن يبقى كذلك حقبة مديدة من التاريخ.. فقد مضى الفتح الرومانى.. دون أن يفيد من الأدب اليونانى إلا ما كان رائجاً فى السوق يومئذ من آراء سطحية، ومذاهب زائفة، ومضى العصر المسيحى فى شغل بالجدل الدينى الداخلى والخارجى، عن التنقيب فى علوم اليونان وتاريخهم وطرائق تفكيرهم المختلفة.. وهكذا بقى غرب أوربا طيلة هذه المدة فى شبه عزلة أدبية عن شرقها الذى له به أوثق الصلات المادية، فلم يفتح الغربيون أعينهم على تلك الكنوز العقلية إلا وهى فى أيدي العرب المسلمين الذين جاءوهم من وراء البحار فى أوائل القرن الثامن فاتحين فتوح علم وسلم وعدالة وسماحة (لا فتوح علو وعنو وإشباع للغرائز الجامحة واستنزاف للدماء والثروات)..

ولكن الأمانة التى عجزت عن أدائها الحضارتان اليونانية والرومانية فى جميع عصورهما نهضت بها حضارة الإسلام فى لغته العربية، واستقلت بحملها قروناً متوالية.

ولقد امتاز تأثير العرب المسلمين فى علم الأديان بطابعين جديدين وجليلين لم يسبق إليهما أحد فيما نعلم أما أحدهما: فهو أن الحديث عن الأديان بعد أن كان فى العصور السابقة إما مغموراً فى لجة الأحاديث عن شئون الحياة، إما مدفوعاً فى تيار البحوث النفسية أو الجدلية، أو على الأقل محدوداً بحدود العقائد الموضوعية وما يشارفها، أصبح فى كتب العرب دراسة وصفية واقعية، منعزلة عن سائر العلوم والفنون، شاملة لجميع الأديان المعروفة فى عهدهم؛ فكان لهم بذلك فضل السبق فى تدوينها علماً مستقلاً، قبل أن تعرفه أوربا الحديثة بعشرة قرون.

أما الآخر - وهو ليس أقل نفاسة من سابقه: فهو أنهم فى وصفهم للأديان المختلفة لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون، ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب، ولا على الخزعبلات الشائعة فى الطبقات الجاهلة، والتى قد تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها، ويستقونها من منابعها الأولى.

وهكذا، بعد أن اختطوه علمًا مستقلًا، اتخذوا له منهاجًا علميًا سليمًا».

* * *

هكذا تحدث العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز - حديث الفيلسوف - عن الدين - مطلق الدين - وعن بدايته التي صاحبت بدايات الإنسان.. وعن مسيرته عبر الزمان والمكان.. وعن شرائعه التي واكبت تطور البشرية.. وعن ختامه واكتماله بشريعة محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - فقدم لنا أثرًا نفيسًا، استوعب فيه فطرة التدين.. والفلسفات الأخرى التي حاولت فلسفة موضوع الدين والتدين في حياة الإنسان..

وعلى هذا النحو حاولت هذه الصفحات الإطلاع على المحاور الكبرى والقضايا الأساسية في كتاب [الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان].. طامحة إلى أن تمهد بين يدي القارئ الغوص في بحر هذا الكتاب الفذ، الذي يدور حول أعز ما يطلب الإنسان في هذه الحياة.

النبا العظيم

للدكتور محمد عبد الله دراز

[١٣١٢-١٣٧٧هـ - ١٨٩٤-١٩٥٨م]

التقديم لهذا الكتاب يحتاج إلى كتاب!

لذلك سنكتفى فى التقديم بين يديه - بالإشارة إلى مكانته المتميزة والممتازة بين شريحة من الأعمال العلمية والفكرية عرفها تراثنا الإسلامى القديم منه والحديث - غدت ظواهر فكرية، ومعالم على الطريق، فأُسست العلوم الإسلامية، وأصبحت على امتداد تاريخنا الفكرى ميداناً يتعلم فيه القراء الفطنة والحكمة ويتدربون - بقرائها - على الذكاء!

ومن هذه الكتب - على سبيل المثال:

- «نهج البلاغة» - الذى جمعه الشريف الرضى [٣٥٩ - ٤٠٦هـ / ٩٧٠ - ١٠١٥م] من كلام الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.
- و«الموطأ» للإمام دار الهجرة.. الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ / ٧١٢ - ٧٩٥م]..
- و«الجامع الكبير» للشيبانى محمد بن الحسن - [١٣٥ - ١٨٩هـ / ٧٥٢ - ٨٠٥م]..
- و«المدونة» لابن القاسم المالكى [١٣٢ - ١٨٩هـ / ٧٤٩ - ٨٠٥م]..
- و«الرسالة» للإمام الشافعى محمد بن إدريس - [١٥٠ - ٢٠٤هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠م]..

- و«سلوك المالك في تدبير الممالك» لابن أبي الربيع - شهاب الدين أحمد بن محمد [٢١٨ - ٢٧٢هـ / ٨٣٣ - ٨٨٥ م]..
- و«المواقف والمخاطبات» للنفرى محمد بن عبد الجبار - [٣٥٤هـ / ٩٦٥ م]..
- و«المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمداني [٤١٥هـ / ١٠٢٤ م]..
- و«اللزوميات» لأبى العلاء المعرى [٣٦٣ - ٤٤٦هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٧ م]..
- و«دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرحانى [٤٧١هـ / ١٠٧٨ م]..
- و«إحياء علوم الدين» لحجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م]..
- و«الكشاف» للزمخشري [٤٦٧ - ٥٣٨هـ / ١٠٧٥ - ١١٤٤ م]..
- و«فصل المقال» لأبى الوليد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م]..
- و«الفروق» للقرافى شهاب الدين أحمد بن إدريس - [٦٢٦ - ٦٨٤هـ / ١٢٢٨ - ١٢٨٥ م]..
- و«الموافقات» للشاطبى [٧٩٠هـ / ١٣٨٨ م]..
- و«رسالة التوحيد» للإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]..
- و«إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعى [١٢٩٨ - ١٣٥٦هـ / ١٨٨٠ - ١٩٣٧ م]..
- و«التصوير الفنى فى القرآن» لسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ / ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م]..
- و«التحرير والتنوير» للإمام محمد الطاهر ابن عاشور [١٢٩٦ - ١٣٩٣هـ / ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م]... إلخ.. إلخ..

ففى سلك هذا اللون من الكتب - كتب الفطنة والحكمة، التى جمعت بين عمق الفكر وحسن الصياغة والبلاغة والجمال يندرج هذا الكتاب - «النبا العظيم» للعلامة الفيلسوف الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز [١٣١١ - ١٣٧٧هـ / ١٨٩٤ - ١٩٥٨م]..

ذلك، أنه على الرغم من آلاف الكتب التى صنف فى علوم القرآن، فلقد أتى هذا الكتاب بالجديد غير المسبوق.. وإذا كانت كثير من الكتب قد صنف فى تنزيه القرآن عن المطاعن، فإن هذا الكتاب قد أزال عن القرآن الكريم شبهات القدماء وشبهات المحدثين جميعاً، مستخدماً الجديد من الحجج العقلية والمنطقية، ومنطق الفطرة فى رد هذه الشبهات..

ومع كثرة ما كتب عن الإعجاز القرآنى، فإن هذا الكتاب قد أضاف الجديد فى ميادين الإعجاز اللغوى والبلاغى والبيانى للقرآن الكريم.. مع الإبداع فى الإشارات إلى ميادين الإعجاز العلمى والإعجاز التشريعى وهى ألوان من الإعجاز تتفتح أبوابها الواسعة بتقدم العلوم وتطور المجتمعات..

وإذا كانت الدراسات القرآنية الحديثة والمعاصرة قد توجهت نحو التفسير الموضوعى لسور القرآن الكريم، فإن هذا الكتاب قد مثل العمل التأسيسى الأبرز فى هذا الميدان.. مع إبداع غير مسبوق فيما يمكن أن نسميه «فن الوحدة العضوية» لكل سورة من سور القرآن الكريم، مع دراسة تطبيقية وعبقورية على أطول السور القرآنية - سورة البقرة - أبرزت هذه «الوحدة العضوية» للمعانى والمقاصد والأغراض، مجلية السبك والزينة والجمال والجلال لهذه السبيكة، التى باعدت السنوات والمناسبات والملابسات بين نزول آياتها ولبناتها.. حتى لكأننا - بإزاء هذه الدراسة التطبيقية - أمام فتح جديد، فتح به الدكتور دراز أبواب فن جديد.. على النحو الذى يذكرنا بوصف الإمام محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] - وهو أحد بلغاء العصر - لتفسير الإمام محمد عبده لما فسر من القرآن، عندما قال عنه: «إنه المنهاج المعجز فى التفسير.. والتفسير لمعجزات القرآن الكريم».

* * *

نعم.. إنه فتح جديد فى ميدان علوم القرآن، أبدعه فارس البيان، الفيلسوف

القرآني، الذي طبع القرآن أسلوبه وعقله ووجدانه، فجاء كتابه هذا «تنزيلاً» من التنزيل أو اقتباساً من نور الذكر الحكيم، على حد تعبير زعيم الأمة سعد زغلول باشا [١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م] في وصف كتاب الرافعي «إعجاز القرآن»..

إن قارئ هذا الكتاب - كقارئ هذا اللون من الكتب - مثله كمثله الرياضي الذي يدرب عضلاته الجسمانية لتنمو قدراتها دائماً وأبداً بمران التدريب - فكلما نظر القارئ في هذا الكتاب، وأعاد القراءة له، والتدبر فيه، كلما نمت ملكاته وطاقاته العقلية، ليصعد الدرجات على سلم الفكر والفطنة والحكمة، مردداً - دائماً وأبداً: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

رحم الله فيلسوف الإسلام، والعاشق في محراب القرآن، الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز..

نظرات فى الإسلام

للدكتور محمد عبد الله دراز

[١٣١٢-١٣٧٧هـ - ١٨٩٤ - ١٩٥٨م]

ميزة هذا الكتاب، من بين كتب العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز - أنه يقدم نظرات عامة وشاملة للإسلام - عقيدته. وشريعته.. وعباداته.. وقيمه وأخلاقياته.. ونظمه الاجتماعية.. وعلاقاته بالآخرين - وليس ككثير من كتبه الأخرى خاصًا ومتخصصًا فى معلم محدد من معالم الإسلام.. فهو نموذج لرؤية الدكتور دراز فى مجمل معالم الإسلام.

وإذا شئنا - فى هذا التقديم - إشارات لإشراقات فكر الدكتور دراز وفلسفته لبعض ما جاء فى هذا الكتاب، فإننا نشير - على سبيل المثال - إلى ما جاء فيه عن:

● تميز الإسلام وامتيازه، كدين ودولة وحضارة.. فلقد استولى الغرب على الشرق - بالغزو الفكرى والقهر الحضارى لأكثر من سبعة عشر قرنًا: عشرة قرون قبل الإسلام.. وقرنان فى الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١م].. وخمسة قرون فى الغزوة الحديثة، التى بدأت عقب إسقاط غرناطة ١٤٩٢م.. ومع ذلك، فما استطاع الغرب - خلال هذه القرون المتطاولة - أن يغير روح الشرق وهويته.. «أما رسالة الإسلام، فإنها حين بسطت جناحيها، فى أقل من قرن، على نصف المعمور، فلقد كانت كأنما أنشأتها خلقًا آخر.. لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنًا واحدًا، ومن قوانينه المختلفة قانونًا واحدًا، ومن آلهته المتعددة إلهاً واحدًا.. لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلاً وبدلت أسلوب تفكيره تبديلاً.. بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لساناً إلى جانب لسانه. وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هى [رسالة الإسلام] - لا تزال فى كل

عصر تتلقى معاول الهدم من أعدائه فتكسر هذه الصدمات على صخرتها، وهى قائمة تتحدى الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر».

● بل إن المسيحية، عندما بسطت روحها على الشرق والغرب، رأيناها قد طوعت نفسها لحضارات الشرق والغرب، فظلت روحًا بلا جسد، وعقيدة بلا حضارة.. ولذلك كان استقبال الشرق للإسلام استقبلاً بلغ الأعماق، وطوى صفحة المسيحية عن أنحائه، اللهم استثناءات اندمجت هى الأخرى فى حضارة الإسلام..

● وما يميز الإسلام أن الإيمان به هو من عمل العقل والقلب جميعاً.. والإسلام يفصح عن هذا الإيمان بثمرات هى السجايا والأخلاق. ويتغلغل فى الروح قبل أن يظهر على اللسان والجوارح.. «إنه لا بد فى الإيمان من عمل العقل والقلب جميعاً.. إن الإيمان معرفة تغذى بها النفس وتهضمها وتمثلها، وتعدّها جزءاً من كيانه، معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج، ولا تجد النفس فيها أثراً من الضيق أو التبرم.. إن الفروع العملية التى تمثل الإسلام ليست كلها أعمالاً ظاهرة يدرّكها الحس، بل إن الإيمان يثمر أخلاقاً كريمة قبل أن يثمر أعمالاً مستقيمة، فأول ما ينبت منه فى النفس فضائل معنوية كالإخلاص، ومحبة الرسول، ومحبة الله أشد مما سواه، وإرادة الخير للغير، والرحمة، وغير ذلك، ثم تظهر ثمرات هذه الأخلاق والفضائل النفسية على اللسان والجوارح».

- كذلك امتاز الإسلام وتميز بالعالمية، فى أوسع معانيها.. «فلقد كان كل نبى يدعو وينادى: يا قوم! يا قوم! يا قوم! لى لكم نذير مبين.. إنى لكم ناصح أمين.. حتى جاء محمد فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة، وجعل ينادى: أيها الناس! هذا نذير للبشر، بل أيها الثقلان.. يا معشر الجن والإنس. هذا ذكر للعالمين».

ولذلك حقق الإسلام للمسلمين أممية إنسانية.. «فلم يكن المسلمون الأولون يعرفون هذه الحواجز الحديدية.. وكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر، وليس بيدهم جواز سفر إلا كلمة الإسلام».

- وإذا كانت العلوم الإسلامية قد تميز فيها علم المقاصد - مقاصد الشريعة.. فإن الدكتور دراز يتجلى لنا فيلسوفاً فى فلسفة هذه المقاصد.. وعلى سبيل المثال: «فلقد كان تحويل القبلة، فى جوهره، هو التدرج والترقى فى توحيد كلمة الأديان».

أرايت الولد البار حين يسير قاصداً إلى بيت أبيه، فإذا مر فى طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقم بينهم فترة ما، تطيباً لخواطرهم، ثم يكون مستقره فى البيت المشترك، الذى يحمل الأسرة كلها. ذلك هو التطور الذى حدث فى تشريع القبلة.

فبيت المقدس هو بيت الأخوة، والكعبة هى بيت الأسرة، وهى منزل الجد الأعلى، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين، فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية، وإنما كان همه أول الأمر وآخره، هذا الانضمام والالتئام بين أسرة المؤمنين، وفى وحدة القصد، والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبين والمرسلين ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

أما الصلاة « فلقد أراد الله لها أن تكون عبادة جامعة بين علامتى الإيمان: المحبة لله، والمحبة فى الله.. صلة بين العبد وربّه، وصلة بينه وبين أئمة من المرسلين، أو من يحمل رسالتهم، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين..

لقد دعا الإسلام أهل الحلة أو الحى الصغير إلى التجمع فى أقرب المساجد خمس مرات كل يوم، ثم دعا أهل القرية أو الحى الكبير من المدينة إلى التجمع فى مسجدها الجامع مرة فى كل جمعة، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع فى فضائها أو فى أوسع مكان منها كل عام مرتين، لصلاة العيدين.. مراحل متصاعدة، تنمو فيها روح الجماعة شيئاً فشيئاً، ويتضخم مظهرها رويداً رويداً، حتى يصل إلى هذا التجمع الكبير، مرة فى كل عام، حول أول بيت وضع للناس..

وكذلك فريضة الزكاة.. «إنها بمثابة رابطة بين الإنسان وربّه من ناحية، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى، وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم، حتى يؤدى الزكاة، وإلى أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاوناً متسانداً، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

أما الصوم، فإن مقاصده هى التقوى.. «ذلك أن الله عز وجل حين قال لنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ لم يقل: لعلكم تتألمون.. كما أنه لم يقل: لعلكم تصحون.. أو

لعلكم تقتصدون.. وإنما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فجعل الصوم اختباراً روحياً وتجربة خلقية، وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين، وأداتك في اكتساب ملكة التقوى..

وإذا كانت السيادة العظمى هي لله الواحد الأحد الفرد الصمد.. وإذا كانت العبودية الدنيا هي للكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة - كالجماذ والحيوان - فإن المرتبة الثالثة: هي التي تجتمع فيها السيادة على الكون، والعبودية لخالق هذا الكون، وتلك هي المنزل التي يصعد إليها الإنسان، إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه، ثم جعل يلقي هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح. فإذا سلمت له تلك الجنود مقاليدها، فقد نال صفة التقوى، أو أصبح جديراً بالاستخلاف في الأرض والتمكن فيها. وأكرم بعبودية هي عين السيادة».

أما الحج.. «فإن الإسلام لم يجعله عبادة وحسب، ولكنه جعله في الوقت نفسه قياماً للناس، وموسماً لتبادل مصالحهم، وفي مختلف وجوهها وأنواعها، بل إنه لأمر ما، جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج، ألا تسمع إلى قول الله جلّت حكمته: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨].

إنه تطبيقاً لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه، أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة، وأن يمكثوا هناك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية، مكتشفاً كل منهم عن زيه ومهنته ولهجته، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى تبرز بينهم صورة هذه الوحدة الإسلامية المختلفة المظهر، المؤتلفة الجوهر..

[ليشهدوا منافع لهم].. ما أعجب هذه الكلمة، ما أوجزها وما أجمعها.. إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة والحرب والقانون والعرف، واللغة، والآداب، والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثير بهذا الاتصال والتلاقي، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة فتأخذ في التوازن والتعادل طلباً للوصول إلى مستوى واحد..

ولقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن الفرديات المنعزلة، والقوميات

المنفصلة، إلى محيط الجماعة الكبرى، التي يرونها نموذجاً مصغراً لهذه الرحلة المقدسة».

- كذلك نجد الدكتور دراز - في هذا الكتاب - فيلسوف الأخلاق القرآنية.. الذي يفصح عن مذهب الإسلام في الفضائل.. وكيف أن الإيثار والإحسان والفضل هو المقدم في المعاملات.. بينما العدل والمقاصة والانتصاف هو المقدم في الحكم..

«فالقرآن، حين وزع القيم الأخلاقية.. جعل من بينها فضيلة واحدة رفعها إلى الطرف الأعلى، هي فضيلة الإيثار، وجعل من بينها رذيلة واحدة وضعها في الطرف الأدنى، تلك هي رذيلة الاستئثار.

أما الوساطة بين الطرفين، وهي مبدأ المقاصة الدقيقة في الحقوق والواجبات، وتحري المساواة بينهما - تلك القاعدة التي كانت الحكمة اليونانية تعدها أم الفضائل - فإنها في نظر القرآن ليست فضيلة ولا رذيلة، إنها لا تستحق عنده مدحاً ولا ذمّاً.. وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها.

من كان في شك من ذلك كله فليقرأ قول الله جلّت حكمته: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ [الشورى: ٤١ - ٤٣].

هكذا دمج رذيلة الظلم والبغى فجعلهما مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشاد بفضيلة - الصبر والمغفرة، فجعلهما من عزم الأمور، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أما المقاصة والانتصاف من الظلم فإنه لم يتبعها ذمّاً ولا ثناءً، ولم يرتب عليها ثواباً ولا عقاباً، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾..

لقد قلبنا النظر في جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم، سواء في نطاق المعاملات المالية، أو في دائرة الشئون الاجتماعية، أو في معرض الأحداث الجنائية، فوجدناه في كل ذلك ينهى عن التزيد في حق النفس، ويحض على الزيادة في حق

الغير، أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيه نهياً ولا تحريضاً عليها، وإنما نجد إذناً وتخييراً ورفعاً للحرج، لا زائد على ذلك..

إن المعاملة الفاضلة في نظر القرآن إنما هي المعاملة التي تقوم على العفو والإيثار والفضل، وإن الرذيلة إنما هي الطرف الأقصى، تقوم على الجور والاستئثار والبخس، أما الخطة التي بين بين، وهي المعاملة بالمساواة المعادلة الدقيقة، فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية، لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وإنما هي رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهى، ولا يناط بها مدح ولا ذم، ولا يستحق صاحبها ثواباً ولا عقاباً..

إن مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين: مقام الحُكم ومقام المعاملة، فمقام الحُكم هو مجال العدل الدقيق الصارم، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة، والمكارمة والمجاملة.. إن المقام الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة، هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفاً ثالثاً، وسطاً بين طرفين، فيكون واجبك أن توفى كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد، وكل شيء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه. هذا هو ما نسميه مقام الحُكم والفصل بين الناس ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

.. أما حيث أنت أحد الطرفين، تتصرف في شئك وتساوم في حقك، فهذا ما نسميه مقام المعاملة، وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة، وإلى الإيثار والمجاملة، وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل، والرذائل جميعها، إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات..

إن الإسلام يرغب في الواقعية الحازمة تطبيقاً لمبدأ العدل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

كما يرغب في المثالية المعتدلة تطبيقاً لمبدأ الإحسان، وهذا ما عناه القرآن حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

إن الإسلام دين إحسان، ولكنه إحسان لا يناقض العدل.. إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

فهو دين عدل وإحسان معاً، وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما.

- ومن العدل حماية الإسلام للكرامة الإنسانية للأعداء والأولياء جميعاً.. «فمبدأ الكرامة الإنسانية يحمى الإسلام أعداءه كما يحمى أبنائه وأولياءه. إنه يحمى أعداءه فى حياتهم، ويحميهم بعد موتهم، يحميهم فى حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان. ويحميهم فى ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والغدر والاغتيال. ثم يحميهم بعد موتهم، إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل.. ولم لا؟.. أليسوا أناس؟ فلهم إذا كرامة الإنسان.. هذه الكرامة التى كرم الله بها الإنسانية فى كل فرد من أفرادها، هى الأساس الذى تقوم عليه العلاقة بين بنى آدم..

فالناس فى نظر الإسلام كلهم سيد فى نفسه، لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه.. سيادة ذاتية لكل فرد فيما بينه وبين الناس، سيادة تسوى رأسه برؤوسهم ومنكبه بمناكبهم.. هذه المرتبة من الكرامة هى منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان، غير أنه لا يشعر بها على تمامها، ولا يقدرها حق قدرها إلا المؤمن الموحد الذى لا يعرف السجود لحجر، ولا لشجر، ولا لشمس ولا لقمر، ولا لملك ولا لبشر..

- وإذا كان هذا هو الإسلام.. وإذا كان الشئ يظهر حسنه الضد.. وبضدها تتميز الأشياء.. فإن الدكتور دراز يشير إلى ما فى المنظومة الغربية من عنصرية تتجلى فى القانون الدولى الغربى، وتفضح دعاواهم حول المساواة.. «إن فكر تساوى الناس أمام القانون.. لم تتخذ بعد فى نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل. ألم يقل «استوارت ميل» باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية؟ أو لم يحدد «لوريمير» على وجه الأرض مناطق ثلاثة تخضع كل منها لقانون مختلف؟ فالعالم المتمدن يجب أن يتمتع فى نظره بحقوق سياسية كاملة، والعالم نصف المتمدن يكفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية، لا تحمل التزاماً قانونياً.

وجاء ميثاق «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولى، فأقر هذا التقسيم الثلاثى

وأكسبه سلطة القانون.. وأخيراً شكلت «جمعية الأمم المتحدة»، بعد الحرب العالمية الثانية، فماذا رأينا؟.. أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطرًا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون في مصير الإنسانية؟..

إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولي عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية، فعلينا أن نرجع كرتنا إلى عصر رسول الإسلام..

إن التشريع الدولي في الإسلام يكتفى بأن يستوحى في كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون، بل إنه يستمد من ينباع أشد عمقًا من ذلك كله، يستمد من منابع الإيمان الصحيح والخلق الكامل».

- ولا ينسى الدكتور دراز أن يعرج على بعض الشبهات التي توجه إلى هذا الامتياز الإسلامي.. ومنها موقف الإسلام من الحرب والقتال، فيشرح حقيقة موقف الإسلام من هذه القضية، موضحًا: «أن الحرب ليست هي القاعدة، وإنما هي استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية، وإنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التي استوجبتها. وبالجمل، إنها محدودة بحدود الدفاع المشروع، لا تستقدم عنه خطوة ولا تستأخر خطوة ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]..

ولقد شرع التحريض على القتال لإغاثة المستضعفين.. ذلك أن قریشًا قد غيرت أسلوبها - بعد الهجرة - في معاملة المسلمين المستوطنين في مكة.. خلالها الجو فوالت التنكيل بهم، وما زال طغيانهم عليهم يزداد يومًا بعد يوم، حتى عيل صبرهم، وطفح كيل بلائهم، فهناك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، في صرخات عالية تسمع دويها في القرآن الكريم.. وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم، فكان ذلك أول تحريض على القتال ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

فلم تكن الغزوة الأولى إذا حملة تحرش وبدءًا بالعدوان.. ولكنها كانت قيامًا

بواجب منزّه القصد بر الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، واجب نجدة المظلوم، وإغاثة الملهوم، فهي إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل في أعلى مكان من ديوان التضحية والإيثار، وليست عملاً عادياً يتطلب التبرير أو الاعتذار..

إن الحرب المشروعة في الإسلام هي «الحرب الدفاعية».. وإن كلمة الدفاع ينطوى تحتها نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما:

١- الدفاع عن النفس ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٤٠، ٣٩].

٢- الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]..

ومن هنا نرى أن الحرب في نظر الإسلام لا يلجأ إليها إلا المضطر..

وإن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بالآيقاتل إلا المقاتل، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية..

- كذلك عرض الدكتور دراز لموقف الإسلام من الرق والاسترقاق.. وأكد «أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار.. إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية.. وإن الاستعباد تبديل للفطرة.. وإن الحرية في نظر الإسلام شقيقة الحياة. ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟.. إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعتبر إدراجاً له في زمرة الأحياء.. بعد أن كان محسوباً في عدد الأموات».

- ولقد لفت الدكتور دراز الأنظار إلى سلاح من أسلحة الإصلاح هو أمضى من القوانين والمنظومات التشريعية والعقابية.. بل إنه هو الضمان لاحترام القوانين والتشريعات.. وهذا السلاح هو يقظة الضمير الاجتماعي الحارس للقيم المعنوية.

وفي التنبيه على هذا الأمر يقول الدكتور دراز: «أتدرون ما هذا الروح الواحد،

الذى يجب أن يسود ويهيمن على المجتمع؟.. إنه الوعى العام الغيور المتيقظ، الحارس للقيمة المعنوية فى الجماعة.. إننا فى حاجة ملحة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعى فى الأمة - لا عن طريق الدعوة والموعظة فحسب - بل عن طريق عمل جدى. نحن بحاجة إلى تكوين رأى عام أخلاقى، له نفوذه واحترامه فى نفوس كل الأفراد، بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته - دقت أو جلت - ستلقى جواباً سريعاً علنياً فى سلوك المجموع بإزائه..

هل أتاكم نبأ الثلاثة - الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ - حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد، فى سفر شاق طويل، وفى إبان القىظ الشديد، فلما عاد من السفر، وسألهم عن سبب تخلفهم، صدقوه الخبر، واعترفوا له بأنه لم يكن بهم مرض ولا عوز، وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهز للرحيل، حتى فاتتهم القافلة..

أندرون ماذا فعل القائد الحكيم؟.. أمر الناس، فاجتنبهم الناس اجتناباً، بل اعتزلهم أهلهم ونسأؤهم، ولبثوا على ذلك خمسين يوماً وليلة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم.. ثم تاب الله عليهم بعد أن اظهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة، التى كانت أنكى فيهم من حد السيف.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية، هى معنى تغيير المنكر بالقلب، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، هى التى صدر فيها النطق النبوى الحكيم بأنها هى أضعف درجات الإيمان».

- وإذا كان الدكتور دراز قد تجلى فى إبداعاته الفكرية - ومنها هذا الكتاب الذى تقدم بين يديه - فيلسوف الفطرة.. فيلسوف العقل والقلب، الذى بلغ فى العمق حداً جعل بعض كتاباته «تمارين» تنمى ملكات التعقل وترفع مستويات الذكاء.. فإنه قد كان - مع ذلك - الفيلسوف الذى يحنو على العوام!..

لقد تساءل فقال: «ولقائل أن يقول: إذا كان النظر العقلى هو أساس الإيمان، فما قيمة إيمان العوام؟.. ألا تحكم عليه بأنه غير سليم ولا مقبول عند الله؟ لأنه لا ينبى على نظر واستدلال؟».

ثم أجاب هذا الفيلسوف:

«إننا نعتقد أنه ليس من شرط صحة النظر والفكر أن يكون فى مقدمات مرتبة، ولا فى أوضاع منطقية أو لغوية سليمة، بل ليس من اللازم أن يترجم فى عبارة، فليس

كل من عجز عن التعبير محروماً من حسن التفكير. وبحسب المرء أن يصل إلى المعرفة من أقرب باب من أبوابها الموصلة، وما أكثر هذه الأبواب المفتوحة أمام النظر في الأنفس والآفاق. والعقيدة الإسلامية عقيدة سهلة واضحة لا تعقيد فيها، فطرية لا تصنع فيها، يستوى العامى والمتعلم فى الوصول إليها بأيسر نظرة وأقرب لفظة ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

* * *

إننا حين نقرأ الدكتور دراز، نجد أنفسنا أمام رجل عاش الإسلام، الذى تخلل كل ملكاته.. فشعر بالإخلاص للدين والإنسانية، فتجلى هذا الإخلاص فى كل كلماته.. حتى لكأنه استخلص نفسه لهذا الدين ولهذه الإنسانية، بعد أن استخلصه الله لدينه ولعباده..

إنه فيلسوف ميز الإيمان الإسلامى عن الفلاسفة التقليديين، بأن جمع - فى فلسفته - بين العقل والقلب.. بين السماء والأرض.. بين المادة والروح.. فيلسوف فنيته شخصيته فى عقيدته من فرط إخلاصه لهذه العقيدة التى لم تملك عليه العقل وحده وإنما ملكت الوجدان أيضاً..

«إنه واحد من أصحاب العقائد والمبادئ الذين فنيته أشخاصهم فى عقائدهم، وانمحت أهواؤهم فى مبادئهم، وأصبحوا كأنهم عقائد متجسدة، ومبادئ ماثلة تمشى فى الناس.. أولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم، لأنهم باعوها لله بيعاً رابحاً، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. أولئك هم الراشدون، فضلاً عن الله ونعمة».

هذا هو العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز..

أما هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه، فهو كتاب يعيش قارئه فى متعة عقلية وروحية مع كل فقرة من فقراته وكل فكرة من أفكاره.. حتى لتعتبر كل فقراته وجميع أفكاره باختيارها إشارة من إشارات هذا التقديم..

رحم الله الدكتور دراز.. ونفعنا بكتابته هذا.. وبكل آثاره الفكرية.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

الإمام الشيخ/ محمد أبو زهرة

[١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ - ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م]

بطاقة حياة الشيخ أبو زهرة

هو محمد أحمد مصطفى أبو زهرة [١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ / ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م].
ولد بمدينة المحلة الكبرى - محافظة الغربية - بدلتا النيل - [١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م]
تلقى تعليمه الأولى «بالكتاب» - الذى حفظ فيه القرآن الكريم - وبالمدرسة
الأولية، والراقية، حيث أتم بالمبادئ الأولية للعلوم.
وفى سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م التحق بالجامع الأحمدي التابع للأزهر الشريف
- بمدينة طنطا - فمكث فيه ثلاث سنوات، لفت فيها الأنظار إلى تفوقه، فخصص له
شيخ المعهد - الشيخ الأحمدي الطواهرى [١٢٨٥ - ١٣٦٣ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٤٤ م]
مكافأة مالية على تفوقه.

وفى سنة ١٣٣٤ هـ / سنة ١٩١٦ م تقدم الشيخ أبو زهرة للالتحاق بمدرسة القضاء
الشرعى فكان الأول على المتسابقين فى امتحان القبول.. وفى هذه المدرسة -
التي كانت إحدى منارات التجديد للفكر الإسلامى أمضى أبو زهرة تسع سنوات،
أربع منها فى القسم الثانوى، وخمس منها فى القسم العالى، حتى تخرج سنة
[١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م]، وحصل على إجازة «عالمية القضاء الشرعى مع درجة أستاذ».

ولقد عمل - عقب تخرجه - بالمحاماة - تحت التمرين - لكن طموحاته العلمية
جعلته يلتحق بمدرسة دار العلوم العليا - التي كانت صنو مدرسة القضاء الشرعى
فى تجديد الفكر الإسلامى.. والتي واصلت هذه الرسالة بعد إلغاء مدرسة القضاء
الشرعى فحصل منها على «الدبلوم» سنة ١٣٤٦ هـ / سنة ١٩٢٧ م..

عين مدرّساً للشرعة الإسلامية واللغة العربية - بتجهيزية دار العلوم - مدة ثلاث سنوات - ثم بالمدارس الثانوية العامة - مدة سنتين ونصف السنة.

وفى سنة ١٣٥٢هـ/ وفى سنة ١٩٣٣م انتقل للتدريس بالجامعة، فعين مدرّساً للخطابة والجدل وتاريخ الديانات والملل والنحل بكلية أصول الدين - بالأزهر الشريف.. وفى العام التالى سنة ١٣٥٣هـ/ سنة ١٩٣٤م - انتقل للتدريس بكلية الحقوق - جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن، فأنشأ فيها قسم الشرعة الإسلامية، وتدرّج فيها حيث نال الأستاذية، ثم أصبح رئيساً لقسم الشرعة الإسلامية بها.. وعين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا بجامعة فؤاد الأول سنة ١٣٥٤هـ/ سنة ١٩٣٥م.. ثم عضواً بالمجلس الأعلى للبحوث العلمية.. ثم وكيلاً لكلية الحقوق.. ثم وكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية - الذى أسسه، بالقاهرة، مع بعض العلماء والمفكرين - وظل مواظباً على التدريس فيه.

ولقد استمر فى تدريس الشرعة الإسلامية بكلية الحقوق، حيث تعلم على يديه رجالات القانون بمصر والوطن العربى، حتى بلوغه سن الستين، وإحالة إلى التقاعد سنة ١٣٧٨هـ/ سنة ١٩٥٨م.. وإلى أن منعه سلطات ثورة يوليو - فى الستينات - من التدريس بالجامعة، ومن المحاضرات فى المنتديات أو الظهور فى وسائل الإعلام.

ولقد أشرف على عشرات الرسائل الجامعية - للماجستير والدكتوراه - فى الفقه، والتفسير، والحديث، وعلم الكلام، والقانون، وتاريخ الديانات، والمذاهب، وغير ذلك من فروع العلوم الإسلامية والعربية، فى كليات الشرعة، والآداب والحقوق، وأصول الدين، بجامعات القاهرة، وعين شمس، والإسكندرية، والأزهر، وبعض الجامعات العربية.

وشارك فى لجان صياغة وتعديل قانون الأحوال الشخصية بمصر.

كما شارك فى العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية بمصر والبلاد العربية والأجنبية.

وإلى جانب الشرعة الإسلامية، تبحر الشيخ أبو زهرة فى دراسة الديانات - السماوية والوضعية - والمذاهب، وسير العلماء الأعلام.. كما كان إماماً فى فقه

الواقع - الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي تقديم الحلول الإسلامية لمشكلات هذا الواقع..

كما حمل هموم الأمة الإسلامية، فدعا إلى نهضتها ووحدتها في جامعة إسلامية، لتعود - بالإسلام - تواصل رسالتها العالمية، وتنقذ وطنها من براثن الاستعمار.. وكان - في هذه الدعوة - مجددًا لدعوة جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] فكتب يقول: «لقد فكر المفكرون في إنشاء الجامعة الإسلامية - أواخر القرن الماضي. فأخذ الكتاب الأوروبيون، تبعًا لسياسة مرسومة، وغاية لهم معلومة، يبينون أن الدول لا تقوم على مبادئ دينية، وإنما تقوم على وحدة اللغة، أو الجنس، أو المقام في أرض واحدة، وذلك ليعوقوا حركتنا، ثم بثوا ذلك في عقول الناشئة، وسيطروا على منافذ قلوبهم، بعد أن سيطروا على ملوكنا وذوى السلطان فينا، وأخذوا يشيعون القالة بهذا في نفوسهم بطرق تشبه الاستواء، حتى أصبح الكثير من المسلمين لا تستأنس عقولهم بدعوة جامعة، فاندعرت كلمة المسلمين، وصار منا من يقتنع ويقنع بأن هذه أسس تكوين الدول، وبأن من يطالب بالجامعة الإسلامية - لوحدة الشعوب الإسلامية، قد خالف سنة الوجود وطبيعة تكوين الدول، مع أن هذا واقع، والمثل قائمة في دول أوربا نفسها، فهذه دولة بروتستانتية وهذه كاثوليك.. وهكذا!..».

وكان الشيخ أبو زهرة ناقدًا للغزو الفكري الغربي، الذي اجتذب قطاعات من النخبة، أصبحت امتدادًا سرطانيًا في صفوف الأمة.. وناقدًا للمذاهب الوضعية والفلسفات اللادينية التي يبشر بها المتغربون في بلاد الإسلام.

ولقد كان الشيخ أبو زهرة - بالفطرة والتكوين - عاشقًا للحرية، عدوًا للاستبداد، حتى لقد عبر هو عن هذه الفطرة، بقوله: «لقد كنت أشعر، وأنا في المكتب - [الكتاب] - بأمرين ظهرا في حياتي من بعد:

الأمر الأول: اعتزازي بفكري ونفسي، حتى كان يقال عني: إني طفل عنيد، صاحب رأي.

الأمر الثاني: أني كنت أتضايق من السيطرة وأعشق الحرية. ولعل الأمرين متلازمان، لأن الاعتزاز بالنفس يتولد عنه بعض السيطرة».

ولقد دعم هذه الفطرة المقام العلمى الذى تبوأه الشيخ أبو زهرة فى عصره، فزاده العلم عزة وعشقا للحرية، وقامت الأسوة والقُدوة بدورها فى هذا الخلق، فلقد كان الرجل واحداً من كبار علماء مدرسة الإحياء والتجديد، التى تبلورت من حول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] الذى هابه السلاطين والأمراء، حتى قال الخديو عباس حلمى الثانى [١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م] عنه: «إنه يدخل عليّ كفرعون!». والذى داعبه جمال الدين الأفغانى فقال له: «قل لى، ابن أى ملك من الملوك أنت؟»!

لذلك، كان الشيخ أبو زهرة جامعاً بين جلال العلماء ومهابة الزعماء!.. ومن ثم كان لا بد له من المعارضة للدكتاتورية والاستبداد اللذين طبعا السلطة السياسية لحكم ثورة يوليو وجمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠ هـ / ١٩١٨ - ١٩٧٠ م].. ففى عقد الستينيات منعت الحكومة الشيخ أبو زهرة من التدريس بكلية الحقوق، ومن إلقاء المحاضرات والدروس فى أى من الأندية أو المساجد، ومن الكتابة أو الحديث فى أى وسيلة من وسائل الإعلام!.. بل وأغرى نظام يوليو الصحف والمجلات - وهى مؤمنة - بمهاجمة هذا الإمام العظيم!..

ولم يكن أبو زهرة عدواً لثورة يوليو، وإنما كان عدواً للديكتاتورية التى تحولت إليها على يدى جمال عبد الناصر.. ولقد أفصح عن ذلك، فقال: «إن فرحتى ما كانت لتحد، يوم عزل فاروق على يد زعيم الثورة اللواء محمد نجيب، الوطنى بحق، وظننت أن العدل قد تحقق، وأنا سوف نسترد أرضنا، وأن شمس الحرية سوف تعود ترفرف على ديارنا، إلى أن حدثت المفاجأة المذهلة، وتغير الوضع تماماً، وانتصرت الأهواء والنزعات الشخصية، وانقلبت الثورة إلى انقلاب عسكري بقيادة طاغية جديد هو جمال عبد الناصر، الذى أذاق البلاد أقسى ألوان الذل والهوان».

وعندما تم إعدام الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م] فى ظل هجوم إعلامى عليه - وكان الشيخ أبو زهرة فى ندوة خاصة ضمت عدداً من العلماء.. وجارى البعض موجة العداء الموجهة إلى سيد قطب، جهر الشيخ أبو زهرة بكلمة الحق، فقال: «لقد استقبلت ابنى البار سيد قطب عندما عاد من أمريكا، وسألته: كيف حالك الآن يا سيد؟ فأجاب: أستاذى، لقد ذهبت إلى أمريكا مسلماً، وعدت مؤمناً».

ولقد دعا جمال عبد الناصر الشيخ أبو زهرة، وقال له: «إنك إقطاعي، تجبى إليك من مؤلفاتك الكثيرة الأموال التي لا يأخذها وزير مكافح!».. فقال له الشيخ: «هي مؤلفات كتبت لله، ولم تفرض على أحد، ولم تتول الدولة توزيعها قهراً على المكتبات ودور الثقافة الحكومية لتسجن في الرفوف دون قارئ، وليكسب أصحابها من مال الدولة ما لا يحله الله!!»

وفي مؤتمر إسلامي بليبيا، حضره نخبة من العلماء.. وافتتحه معمر القذافي [١٣٦١ - ١٤٣٢هـ / ١٩٤٢ - ٢٠١١م] بخطاب عن «اشتراكية الإسلام»، وحثية الحل الاشتراكي.. اعتلى الشيخ أبو زهرة المنبر، وقال - موجهاً كلامه للقذافي: «إننا نحن علماء الإسلام الذين يعرفون حكم الله في قضايا الدولة ومشكلات الناس، وقد جئنا هنا لنصدع بما نعرف، فعلى رؤساء الدول أن يقفوا عند حدودهم، فيدعوا العلم إلى رجاله ليصدعوا بكلمة الحق. وقد تفضلت بدعوة العلماء لتسمع أقوالهم، لا لتعلن رأياً لا يجدونه صواباً مهما هتف به رئيس!.. فلتنق الله في شرع الله!».

وإلى جانب هذا الجهاد في ميادين الإصلاح.. وإلى جانب هذه السجايا والشمائل التي تفرد بها الشيخ أبو زهرة، كواحد من سلاطين العلماء.. فلقد خلف الرجل لأمة ثروة فكرية - من الكتب والأبحاث - بلغ عددها الثمانين.. من أهمها:

١ - الخطابة: أصولها وتاريخها في أزهي عصورها عند العرب.

٢ - القرآن المعجزة الكبرى.

٣ - تاريخ الجدل في الإسلام.

٤ - محاضرات في الديانات القديمة.

٥ - محاضرات في النصرانية.

٦ - المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد.

٧ - الأحوال الشخصية.

٨ - أصول الفقه.

٩ - الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي.

- ١٠ - فلسفة العقوبة فى الفقه الإسلامى .
- ١١ - تنظيم الإسلام للمجتمع .
- ١٢ - العلاقات الدولية فى الإسلام .
- ١٣ - الاجتهاد .
- ١٤ - العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن .
- ١٥ - المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام والوحدة الإسلامية .
- ١٦ - الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية .
- ١٧ - الأحوال الشخصية وشرح قانون الوصية .
- ١٨ - محاضرات فى عقد الزواج وآثاره .
- ١٩ - الميراث عند الجعفرية .
- ٢٠ - مصادر الفقه الإسلامى .
- ٢١ - تاريخ المذاهب الفقهية .
- ٢٢ - محاضرات فى الأوقاف .
- ٢٣ - القضاء الإدارى فى الإسلام .
- ٢٤ - ولاية المظالم فى الإسلام .
- ٢٥ - أحكام التركات والموارث .
- ٢٦ - بحوث فى الربا .
- ٢٧ - محاضرات فى أصول الفقه الجعفرى .
- ٢٨ - الولاية على النفس .
- ٢٩ - التكافل الاجتماعى فى الإسلام .
- ٣٠ - موسوعة الفقه الإسلامى .

- ٣١ - خاتم النبیین؛ وهو مؤلف ضخیم فی سیرة المصطفی ﷺ.
- ٣٢ - أبو حنیفة.
- ٣٣ - مالك.
- ٣٤ - الشافعی.
- ٣٥ - ابن حنبل.
- ٣٦ - الإمام الصادق.
- ٣٧ - الإمام زید.
- ٣٨ - ابن حزم.
- ٣٩ - ابن تیمیة.
- ٤٠ - الغزالی.
- ٤١ - ابن خلدون.
- ٤٢ - الزمخشري.
- ٤٣ - ابن جریر الطبری.
- ٤٤ - الفخر الرازی.
- ٤٥ - الحسن البصري.
- ٤٦ - أبو الحسن الأشعري.
- هذا غیر مئات الأبحاث والفتاوى والمقالات فی الصحف والمجلات - ومنها مقالاته فی تفسیر القرآن الکریم - بمجلة «لواء الإسلام» - التي جاوز فیها تفسیر نصف القرآن - وهي المجلة التي رأس تحريرها مع صاحبها أحمد حمزة، فكانت النافذة التي ظل يطل منها على القراء.. وهي مقالات لو جمعت لكونت عدة مجلدات.
- هذا هو الإمام - العالم العامل - الذي اعتز بالإسلام، فأعز الله به الإسلام - الشيخ محمد أبو زهرة - الذي فارق دنيا سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

قال عنه شيخنا العلامة الشيخ محمد الغزالي [١٣٣٥- ١٤١٦هـ - ١٩١٧ - ١٩٦٦م]:

«فى وجه الغمط والتجاهل، نقول نحن عن الشيخ محمد أبو زهرة: إن المؤلف عن الأئمة إمام وثيق فى فقهه، دقيق فى علمه، وإن الرجل الذى رmq بازدرء الساسة المستبدىن، وأدار وجهه عنهم مستغنياً متأبياً، ينبغى أن يكون أسوة حسنة لعلماء هذا العصر - إن بقى منهم أحد!

إننى واحد من كثيرىن تتلمذوا على يد الشيخ أبى زهرة، وصاحبه فى جهاده الطويل.

إننى أشعر بجزع وأنا أرى علماء راسخين يحيون مستوحشىن، ويتركون الدنيا، وما هى إلا أيام حتى يهال عليهم وعلى ذكراهم التراب! ولقد تبعت جنازى بعض العلماء فهالتنى قلة المشىعىن، على حىن كان قطعان من الدهماء تتبع جنازى المجان والمغنىن!«^(١).

رحم الله الشيخ أبو زهرة.. الذى كان أحد سلاطين العلماء فى القرن العشرين.. وصدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) د. محمود حمدى زقزوق [موسوعة أعلام الفكر الإسلامى]، طبعة القاهرة سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م. ومحمد وفاء ريشى [الموسوعة العربية] طبعة دمشق سنة ١٩٩٨م. والمستشار عبد الله العقيل [من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة]، طبعة القاهرة سنة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

شريعة القرآن

للإمام الشيخ محمد أبو زهرة

[١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ - ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م]

فى هذا الكتاب اجتهاد جديد فى ماهية الإعجاز فى القرآن الكريم.

وفيه يتجلى الشيخ أبو زهرة فيلسوفًا فى التشريع، وحكيمًا فى القانون، وخبيرًا بالتراث العالمى فى تاريخ التشريع والتقنين، وصاحب مقدرة متميزة فى المقارنة بين الشرائع والمنظومات القانونية.. وهى مقارنات تقود إلى البرهنة على الفكرة المحورية للكتاب: شريعة القرآن من أهم دلائل إعجاز هذا الذكر الحكيم.

وفيه فقه للاجتماع الإسلامى والإنسانى.

وفيه ضبط يوازن بين الحريات الخاصة والحريات العامة للجماعة والأمة.. مع التأكيد على أن الحرية هى الإنسانية.

ولعل الشيخ أبو زهرة - فى هذا الكتاب - هو أفقه من كشف عن حقيقة فلسفة الإسلام فى الميراث.. كما جمع فقهه للطلاق وتعدد الزوجات بين الأصولية الفقهية وبين التقديمية، مغلقًا الأبواب أمام غلوى الإفراط والتفريط لأهل الجمود وللمتغربين المتفلتين.

ولقد كان الناس يتناقلون - شفاهة - ما صرح به الشيخ أبو زهرة - أثناء أحد المؤتمرات بليبيا - من أنه يرى الجلد حدًا للزنا، وليس الرجم.. فجاء هذا الكتاب شاهدًا على هذا رأى الذى قال به..

وفى هذا الكتاب - من أوله إلى آخره - رد - بالعقل المؤيد بالنقل - على كثير من

الشبهات التي تثار حول شريعة القرآن الكريم، من قبل المستشرقين، والذين سلكوا طريقهم من المتغربين.

* * *

وإذا شئنا وقفنا وإشارات للبرهنة على بعض هذه القضايا.. فإننا واجدون - على سبيل المثال:

هذا الاجتهاد الجديد في ماهية الإعجاز القرآني، والذي يرى أن الشريعة القرآنية هي أهم معالم هذا الإعجاز: «فلقد تكلم العلماء في موضوع الإعجاز في القرآن.. فمن قائل: إنه القصص الصادقة.. ومن قائل: إنها الحقائق العلمية الكونية، التي لم يصل إليها العقل البشري إلا بعد قرون.. ومن قائل: إنه الإعجاز في الأسلوب والنغم والنسق.. ونحن نرى أن كل ما ذكره العلماء سبباً لإعجاز القرآن هو بلا ريب من أسبابه. غير أن سبباً واحداً لم نر العلماء قد ذكروه، ونراه من أقوى الأسباب، أو يعدل أقواها إن لم يكن أقواها جميعاً، وبه يكون القرآن معجزاً لكل الناس، لا للعرب وحدهم، ولا لجيل من الأجيال، بل يكون معجزاً للأجيال كلها، ألا وهو شريعة القرآن، فما اشتمل عليه القرآن من أحكام، سواء ما كان منها يتعلق بالأسرة، أو ما يتعلق بالمجتمع، وما يتعلق بالعلاقة الدولية، فريد في بابه، لم يسبقه شرع سابق، ولم يلحق بما وصل إليه شرع لاحق، وإذا ما كان ذلك كله قد جاء على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب، لم يتعلم قط، لا بالقلم والقرطاس، ولا بالتلقين والتوقيف، ولا بالتجربة والأسفار، إن ذلك لهو الإعجاز الذي تتيه العقول في تعريف سببه، إلا أن يكون ذلك من عند الله العلي الحكيم، وكذلك قال الرسول - صلوات الله وسلامه عليه».

إنه الإعجاز الخالد والعام للشريعة الخالدة والعامّة «ذلك أن كل المعجزات التي حكيت عن النبيين السابقين كانت معجزات مادية حسية، تكشف عن معنى روحي، وعن تنزيل سماوي، فقد كانت تقرر الحس فيخضع، وتبده العقول فتخضع.. ولكن معجزة محمد - صلوات الله عليه - لم تكن مادة تقرر، ولا أمراً حسياً ترى العيون إعجازه رأى العيان، بل كانت أمراً معنوياً تتأمله العقول والأفهام، وتتعرفه المدارك البشرية في كل الأزمان، ولم يفقد حجته، ولم يزل إعجازه كر الغداة ومر العشى.. وذلك لأن شريعة محمد خالدة باقية، وقد خوطب بها الناس جميعاً في كل الأرض،

فكان لا بد أن تكون معجزة النبي متفقة مع هذا العموم، ومتلائمة مع هذا الخلود، ولا يمكن أن تكون كذلك إذا كانت وقائع مادية تنقضى بانقضاء وقتها، ولا يعلم بها علم اليقين إلا من عاينها.. كانت ذلك القرآن المتلو المشتمل على الشريعة المحكمة، وهو باق يرى ويتلى إلى يوم القيامة».

ومن البراهين على هذه الحقيقة: الموازنة بين الشريعة القرآنية وبين الشرائع البشرية التي سبقت نزول هذا القرآن الكريم.. «فمن يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية، وأنها درجة فوق مستوى العقل البشرى، فليوازن بينها وبين القانون الرومانى، الذى جاء ثمرة لتجارب قانونية امتدت ثلاثة عشر قرنًا ظهرت فيها الفلسفة اليونانية، وبلغت أوجها.. فهو القانون الذى مثل خلاصة ما وصل إليه العقل البشرى فى مدى ثلاثة عشر قرنًا، فى تنظيم الحقوق والواجبات.. ونحن إذا وازنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبى الأمى، أنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد ليس من صنع بشر، إنه العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه..

فمن ناحية المساواة القانونية، نجد الشريعة قد وصلت إلى أعلا درجاتها، بينما القوانين التى عاصرتها لم تعترف بأصلها.. فبينما شريعة القرآن تخفف عقوبة الأرقاء، نجد قانون الرومان يضاعف عقوبة الضعفاء.. وبينما كان قانون الرومان - فى بعض أدواره - يجعل الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء، كان القرآن الذى نطق به النبى الأمى وقد نزل عليه من عند الله يقرر: أن الحكومة تسدد ديون المدينين الذين يعجزون عن الوفاء بديونهم، إذا لم تكن الاستدانة سرفًا.

ولقد كان الرق حقيقة مقررة ثابتة، أقر فلاسفة اليونان نظامه، واعتبروه نظامًا عادلاً، ولم تستنكره شريعة من الشرائع قط، وقرر أرسطو أن الرق نظام الفطرة، لأن من الناس ناسًا لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء، وآخرين لا يكونون إلا أحرارًا.

فجاء النبى الأمى وقال: «الناس سواسية كأسنان المشط»، وقال: «كلكم لآدم وادم من تراب». ولم يسجل القرآن الرق فى محكم آياته، بل سجل العتق، فلم يرد فى القرآن نص أبدًا يبيح الرق، بل نصوصه كلها توجب العتق، حتى إنه فى حرب الإسلام العادلة لم يذكر القرآن رق الأسرى، بل قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فلم يذكر فى

الأسرى إلا المن عليهم بإطلاقهم أو فدائهم بالمال، إن كان في قومهم قدرة على الفداء.. وهكذا تعددت أسباب العتق حتى إنها لو نفذت كلها لا يبقى رقيق في دار الإسلام أكثر من سنة واحدة»، ولقد قامت دعائم الشريعة القرآنية على ثلاثة أقطاب: أولها: العدل، وهو قوام نظامها وواسطة عقدها.

وثانيها: رعاية المصالح.

وثالثها: الشورى بين المسلمين.

ولأن الشيخ أبو زهرة قد عاش في مناخات سياسية سيطرت فيها نظم الاستبداد والديكتاتورية، التي جعلت من تزييف إرادة الأمة سنة متبعة!.. فلقد فصل الحديث عن الشورى الإسلامية، التي تجعل السلطة للأمة وحدها، والتي تجعل الحاكم مستخلفاً عن الأمة في رعاية مصالحها.. فالأمة هي التي تولى الحاكم، وهي التي تراقبه، وهي التي تعزله إن حاد عن عقد البيعة الذي به أنابته الأمة في حكمها..

كما رفض الشيخ أبو زهرة فلسفة الكهانة والسلطة الدينية - التي عرفتها أوربا تحت حكم الكنيسة.. والتي تسربت إلى نظرية الإمامة عند الشيعة.. فقدم الشورى الإسلامية كما جاءت بها شريعة القرآن، وكما بينتها وطبقته السنة العملية للرسول ﷺ وفي ذلك قال:

«أما الشورى، فحسبها من التقدير: أنه ليس في الإسلام طائفة لها سلطة منح التولية ومنعها غير الجماعة الإسلامية نفسها، فالأمة وحدها هي التي تولى وتعزل بمقتضى حكم الشورى المقرر في الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

والشورى الحق توجب أن يكون ولي الأمر قد ولته الجماعة نفسها وارتضته حاكمًا لها، وبايعته على الطاعة في المنشط والمكروه من جانبها، وعلى العدل وإقامة حقوق الله والعباد في أكمل وجه من جانبها، وتوجب أن يكون مرجعه الأول والأخير هو الجماعة نفسها ممثلة في أهل الشورى منها، وهم الذين اختيروا لذلك بمقتضى اختيار الأمة أولاً وبالذات أو بمقتضى ما أوتوا من علم في الدين وشئون الحياة وتجارب السياسة، وخبرة في الاقتصاد والاجتماع وأحوال الجماعات.

وليس لأحد في الإسلام أن يدعى أنه ذو سلطة قدسية ممنوحة تُفرض على غيره

فرضاً، ويؤخذ بها قسراً، فقد انقطع الوحي بانتقال محمد إلى الرفيق الأعلى، ولم يبق للمسلمين إلا ما ترك من كتاب الله، وهو الحجة الدائمة إلى يوم القيامة، والسنة النبوية الشريفة، وفيها المحجة البيضاء التي لا يذل سالكها قط.

وما ادعته بعض الطوائف الإسلامية من أن هناك وصياً أوصى إليه بالخلافة النبوية، وأنه بهذا له قدسية الولاية، لم يستمع المسلمون إليها، ولم يجدوا في كتاب الله ولا في سنة رسوله نصاً صريحاً أو مشيراً إليها، وقد قامت الخلافة الإسلامية الحق على أساس من الاختيار والمبايعة الكاملة.

وفي مبحث الحريات - من مباحث الشريعة القرآنية - قرر الشيخ أبو زهرة «أن الحرية هي الإنسانية» وأن مقاصد الشريعة هي جماع حماية الحريات، فلا قيد على الحرية سوى الأخلاق، وحماية حق الغير والجماعة الفاضلة.. وأن هذا التحرير الإسلامي لا يقف عند الأفعال، وإنما يذهب لتحرير العقول أيضاً من أغلال الجمود والتقليد والخرافات والأوهام.. «... ذلك أن مجموعة الأحكام التي اشتمل عليها القرآن في تنظيم الجماعة الإسلامية، وإقامة بنيانها، متجه إلى تكوين نظام عام تُحمى فيه الأنفس والأديان والأنساب والعقول، ويكون للجماعة سياق قوى من الفضيلة والأخلاق الكريمة لتكون تلك الجماعة مثلاً صالحاً يحتذى به في المعاملات الإنسانية، وتقوم علاقته بغيره على أسس من التعارف الإنساني تكريم الإنسانية - فنظام القرآن العام يقرر تلك الكرامة الإنسانية في داخل الدولة الإسلامية، ويقررها في كل العلاقات الإنسانية.

إن أول ما اتجه إليه الإسلام هو حماية الحريات العامة والخاصة، ذلك لأن الحرية هي الإنسانية، في معناها ومغزاها، فمن أهدر الحرية فقد أهدر الإنسانية.

بيد أن تلك الحرية التي يحميها القرآن، ليست هي الحرية المطلقة، فالحرية المطلقة كالحقيقة المطلقة، أمور معنوية تُتخيل ولا تُحس، ولا تتحقق في ذلك الوجود اللاهي المتناحر.. وإنما حمى الإسلام الحرية المقيدة بشكائهم من الأخلاق وحماية حق الغير، وما يتصل بالحرية العامة التي تستمتع بها الجماعة الفاضلة.. «وكل تقييد للحرية لا بد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها، وإلا كان ظلمًا» - كما قال سعد زغلول - رحمه الله..

لقد سوغ الإسلام حرية الدين، ونادى فى قوة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال فى وضوح وجلاء لمخالفه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. بيد أنه فى هذه الإباحة الكريمة التى لم تكن معروفة أبداً فى عصر نزوله، ولم يدرك الناس معناها إلا فى العصور الأخيرة، لم يسوغها مطلقة غير مقيدة حتى لا يترتب على الإطلاق تقييد حرية الغير العادلة.. ومع هذه الإباحة لم يسوغ الزندقة من الذين كانوا يظهرهم الإسلام، ويبطنون غيره، لأن ذلك تضليل لا مجرد استمتاع بالحرية الدينية، ولم يسوغ لذوى الأهواء أن يعبثوا بالأديان فيدخل فى الإسلام لغاية ثم يخرج منه لغاية، بل اعتبر ذلك لعباً بالدين وتضليلاً للمتدينين.. فالحرية التى يعطيها الإسلام لجماعة المسلمين هى الحرية المقيدة بالفضيلة وأحكام الدين وحقوق الغير..

وإذا كان الإسلام دين العقل حقاً وصدقاً، فأول ما اتجه إليه القرآن هو تحرير العقول من الأوهام ومن ربة التقليد، ودعا إلى النظر المجرد فى الكون وما فيه، والناس وما هم عليه، والأنفس وما استكن فيها من نزوع ومواهب ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا بُصُرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

كذلك أطلق القرآن حرية العمل، بشرط ألا يتجاوز حدود الفضيلة، ولا يتعدى على حق غيره..

إن الحرية الشخصية كانت منقوصة فى حكم اليونان والرومان والعرب وغيرهم من أمم العالم، حتى نزل القرآن فكان أول من كمل هذه الحرية ودعا إليها دعوة صريحة قوية، وإن أماره نقصها عند الأقدمين، وكمالها فى القرآن الكريم، حال المرأة والرقى.. فالرقى كان يأخذ حكم البهائم، وكان يعامل كأنه لعنة الإنسانية فى هذه الأرض.. فجاء القرآن، فلم يذكر فى أى لفظ صريح فيه إباحة الرق، ولكن ذكر فيه العتق.. ولقد ثبتت إباحة الاسترقاق فى الأسرى بعمل الصحابة، ولم تثبت بالقرآن، فإن الله سبحانه وتعالى قال فى الأسرى: ﴿حَتَّى إِذَا أَنْخَضْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَلَمَّا مَتَّ بَعْدُ وَإِذَا فِئَةٌ مِنْكُمْ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي بُلُودٍ لَعَنَّا وَإِسْطَبْقُوا لِلَّذِينَ ابْتَغَتْ كَيْدَهُمْ إِنَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَمَلٌ ذُو قُلُوبٍ﴾ [محمد: ٤].. فخير ولى الأمر بين المن والفداء بالنسبة للأسرى، ولم يذكر الاسترقاق ليكون الباب مفتوحاً لإلغاء الرق عندما يكون الاتفاق الدولى على إلغائه.

وإذا كان الشرع الإسلامى قد ضيق أسباب الرق، فقد وسع القرآن أسباب العتق.. أما المرأة، فقد كانت كالمتاع فى البيت ليس لها حقوق الإنسان الكاملة - فجاءت الشريعة القرآنية فكفلت لها الحرية التى كملت بها إنسانيتها فى دائرة الحياة التى خصصتها الفطرة الإنسانية لها.. لقد جعلتها كالرجل فى الحقوق والواجبات التى تثبتها الإنسانية المجردة.. ومنحتها حرية التصرف فى أموالها، إذ اعتبرتها شخصية مستقلة تمام الاستقلال عن ذويها..

ولأن الإسلام هو دين الجماعة.. ولأن الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء الأمة والجماعة، كانت عناية.. الشريعة القرآنية بالحفاظ على الأسرة.. «وأحكام الأسرة فى القرآن دليل إعجازه. وإن العقل البشرى لم يصل إلى ما يقاربها.. ذلك لأن الأسرة هى وحدة البناء الاجتماعى. وإنه فى الوقت الذى تنحل فيه الروابط فى الأسرة يبدئ الانحلال فى المجتمع، وإن الذين يغيرون على المبادئ الاجتماعية السليمة يجعلون الأسرة هدفهم، يحلون لها ليحلوا عرا المجتمع عروة عروة».

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن الشيخ أبو زهرة كان واحدًا من أفقه الذين أدركوا أسرار فلسفة الميراث فى الشريعة القرآنية.. التى جاءت آية من آيات الإعجاز فى هذه الشريعة الإلهية.. «إن التوزيع الذى تولاه الله فى كتابه العزيز للموارث يقوم على دعائم ثلاث:

أولها: أنه يعطى التركة للأقرب الذى تعتبر حياته امتدادًا لشخص المتوفى، من غير تفرقة بين كبير وصغير، ولذلك كان أكثر الأسرة حظًا فى الميراث الأولاد، ومع ذلك لا ينفردون بالميراث، بل يشاركونهم فيه غيرهم، ولكن لا يكون مجموع ما يستحقون أقل من النصف.

وثانيتهما: الحاجة، فيكثر القدر فى الميراث كلما كانت الحاجة أشد، ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد أكثر من نصيب الأبوين، مع أنهم فى درجة واحدة من القرابة، بل إن الأبوين لهما نوع ملك فى مال ولدهما، لقوله عليه السلام «أنت ومالك لأبيك»، ولكن حاجة الأولاد إلى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف، خصوصًا إذا كان الأبوان على قيد الحياة، وهم يستقبلون الحياة، والأبوان

يستدبرانها.. ولا شك أن التفاوت لتفاوت الحاجة عدل، والمساواة عند تفاوتها ظلم، وهي من المساواة الظالمة لا العادلة..

ثالثها: أن الشريعة الغراء بنص القرآن وصحيح الحديث تتجه بالميراث إلى التوزيع دون التجميع، فالقرآن لم يجعل الميراث في وارث واحد يستبد به دون الباقين.. والقرآن وزع التركة وعمم التوزيع للقربة القريبة، ثم التي تليها، ثم البعيدة، تقوية لدعائم الأسرة، ووصلاً لحبل المودة، وتقريباً للبعيد..

وفي الرد على ما شاع من الشبهات حول موقف الإسلام من القتال.. أكد الشيخ أبو زهرة أن القتال - بضوابطه الإسلامية - هو عين الرحمة.. والعدل.. والسلام.. «إن القتال في الإسلام هو عين الرحمة، وهو عين السلام، وهو عين العدل».

أما أنه العدل، فظاهر، لأنه لرد الاعتداء، والمعتدى يجب أن يُرد اعتداؤه.. وإذا كانت بعض الديانات قد حسنت الصفح عن المعتدى، فالإسلام لم يسوغ ذلك في الاعتداء على الجماعات مطلقاً، بل قال في صراحة: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤].. أما بالنسبة للاعتداء على الأفراد، فسوغ القرآن القصاص وسوغ العفو ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا يَمْثِلْ مَا عُوِثْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وأما أن القتال هو عين السلام إذا كان ردّاً للاعتداء، فلأنه لا ينفي الحرب إلا الحرب، وكما يقول العرب: «القتل أنفى للقتل».. وليس السلام هو الذي يقوم على الاستسلام، وإنما السلام الحق هو الذي يقوم على العزة والكرامة الإنسانية.. وأما كون القتال في القرآن هو عين الرحمة، فلأنه شرع لرد الاعتداء، ورد اعتداء المعتدى رحمة بالمعتدى والمعتدى عليه..

إن الله سبحانه وتعالى جعل الغاية من القتال منع الفتنة، فإن انتهت انتهى القتال، وإزالة الفتنة تجعل الكلمة في الدين لله، فيدخل الناس فيما يختارون، ولا كره فيه... إن الرحمة الإسلامية ليست انفعالا نفسياً، بل إن الرحمة القرآنية: تنظيم ثابت وعدل قائم، وأمن وقرار واطمئنان، وأن يعيش كل من يستظل بالراية الإسلامية آمناً

فى سربة؁ مطمئناً فى قراره؁ وإن ذلك لا يكون إلا بقطع الاعتداء واجتثاثه من أصله.. ولذلك كان رد الاعتداء بقتال المعتدين رحمة بالأمم التى تُقاد إلى الاعتداء؁ وإلا فإذا ترك الملوك المعتدون من غير رادع يردعهم؁ ولا مدافع يدفعهم؁ ويرد اعتداءهم؁ انسابوا فى الأرض مشردين لجماعاتهم؁ مشتتين لشملى الأسر فى أمتهم؁ فكان رد الاعتداء وحمل الملوك على أن يعودوا بأممهم إلى عقر دارهم رحمة بالناس».

وفى مناخ سادت فى الفلسفات الوضعية؁ وغدت العلمانية - بل والماركسية - مصدر إغراء لقطاعات مؤثرة من النخب الثقافية والسياسية.. أعلن الشيخ أبو زهرة عن المقاصد الإسلامية.. فقال: «نريد أن تقام حدود الله؁ وتنفذ فرائض الله؁ وينفذ شرع الله؁ ونعيد مدينة فاضلة بناها محمد وأصحابه الراشدون الذين كانوا أئمة العرب». ونريد أن يقوم اقتصادنا على النظم الإسلامية المقررة الثابتة التى لا يمارى فيها مؤمن..

وإن على كل مسلم أن يعمل بشريعة القرآن؁ وعلى كل عالم بها أن يدعو إليها؁ ويستمسك بأحكامها كاملة غير منقوصة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولتحقيق هذه المقاصد الفاضلة؁ لا بد أن تكون الوسائل لتحقيقها فاضلة هى الأخرى.. فلا يجوز التوسل بالمحرمات لتحقيق الواجبات.. ولا يصح استحلال غير الأخلاقى لتحقيق فضائل الأخلاق.. «إذا كانت الغاية فضيلة فلا بد أن تكون الوسيلة فاضلة.. أما أولئك الذين يفرقون بين الوسيلة والغاية من ناحية الحكم الخلقى؁ فإنهم ليسوا من الأخلاق فى شىء لأنهم يهدمون أحياناً أقدس المبادئ الدينية والخلقية والاجتماعية بدعوى أن الغاية الفاضلة تبرر طريقها أياً كان نوعها. وإن قضية الغاية تبرر الوسيلة؁ ويقصدون بها أن الغاية الفاضلة تسهل قبول الوسيلة الآثمة؁ إنما هى ثمرة العقول الأوربية التى لا يهتمها إلا الوصول إلى ما يرغبون؁ فيتهكون الحرمات؁ ويبيحون المحرمات بدعوى أن الغاية تبرر الوسيلة»..

ولقد لعبت الهزيمة النفسية لدى أسرى التبعية الفكرية والتغريب دوراً كبيراً فى تحول قطاعات من النخبة فى بلادنا عن قيم الإسلام وشريعته إلى تقليد الغرب فيما لا يتفق مع ثوابت الإسلام.. «فلقد اعترانا نوع من الضعف النفسى عند بعض الذين

يسمون الخاصة، فحسبوا أن كل ما عند الأوربيين سائغ فرات، وكل ما عندنا ملح أجاج.. فمقلدة المسلمين الذين يتبعون كل جديد، ويعتقون من الآراء كل بدئ، وتستطار ألبابهم لكل صوت أو دعوة أو نقد يجيء من قبل الأوربيين، كأن أوربا هي أرض الله المختارة، أو جنته في الأرض، وسكانها هم شعب الله المختار!

تلك إشارات إلى بعض ما تحدث عنه الإمام الشيخ أبو زهرة - في هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه.. والذي نسأل الله أن ينفع به.. وأن يجعله في ميزان حسنات هذا الإمام العظيم.. إنه سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

الوحدة الإسلامية

للإمام الشيخ محمد أبو زهرة

[١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ - ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م]

في هذا الكتاب - عن [الوحدة الإسلامية] - يتحدث الشيخ أبو زهرة عن الفلسفة الإسلامية للوحدة، منطلقاً من حقيقة أن الإسلام هو دين الوجدانية - «وجدانية المعبود، ووجدانية الخالق، ووجدانية الذات الإلهية.. ولقد كانت أولى نعم هذه الرسالة توحيد المتنازدين ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].. وكل أحكام الإسلام تتجه إلى الوحدة، سواء في ذلك أحكام العبادات، وأحكام المعاملات، وأحكام التنظيم الإنساني العام.. ولقد دعا الإسلام إلى الوحدة بين الذين آمنوا به ولم يرتابوا، فأخى بين المهاجرين والأنصار، وأخى بين الأنصار بعضهم مع بعض، فكان الإسلام وحده هو الرحم الواصلة.. كما يقرر الإسلام أن الرسالة الإلهية واحدة»

وهذه الوحدة، التي هي فلسفة الإسلام، هي فريضة إيمانية، ومن ثم فإن معاداتها هي معصية كبرى لله ولرسوله والمؤمنين.. «فالوحدة الإسلامية هي الغاية التي يجب أن يطلبها كل مؤمن، ومن لم يؤمن بأن المؤمنين أمة واحدة فقد عاند نصوص القرآن، وخالف حكمته، وجانب دعوته، ودخل ضمن من يشاقون الله ورسوله والمؤمنين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نُبَيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]..

وإلى جانب كون الوحدة فريضة دينية، فإنها ضرورة حياتية.. وهي شرط في دعم الاستقلال الوطني، وتحقيق العزة التي أرادها الله للمؤمنين. «إنها أمر ضروري،

يوجه الدين بصورة قاطعة، ومنكرها كافر، وهى أمر توجه المصلحة، فلا مصلحة نحققها إلا بهذه الوحدة، وهى أمر يوجه حق الحياة فى هذه الأرض، باعتبارنا مجتمعاً حياً له كيانه ووجوده، فإن لم نعرف ذلك فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. وقد واتانا الزمان باختلاف أعدائنا، وبتمكيننا من إزالة غل الاستعمار عن عواتقنا، فإن لم ننتهزها كنا كافرين بنعمة الله علينا، ورافضين للحرية، وراضين بالذلة، بل كنا غير مؤمنين، فقد وصف الله المؤمنين حقاً وصدقاً بأنهم ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وإذا كان العالم يعيش فى عصر التكتلات، فالأولى بالمسلمين - ودينهم دين الوحدة - التجمع فى تكتل وفى كيان.. «إن الشعوب لها إرادة، وهى تريد الإسلام وعزته، وتريد الاستقلال الكامل وحرية. وإن هذا العصر هو العصر الذى تتجمع فيه الدول، ويحس كل إقليم أنه مأكول إن لم يكن فى جماعة من الأقوياء، وأنه مغلوب على أمره إن لم يتجه مختاراً، إلى تجمع دولى..

وإن هذا التجمع الإسلامى ليس ضد الفطرة كتلك التجمعات التى تبنى على مقاومة الفطرة، ولكنه نداء الفطرة ونداء الحقيقة الخالدة التى نطق بها القرآن فى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولأن الشيخ أبو زهرة هو أحد علماء مدرسة الإحياء والتجديد، فلقد لفت الأنظار إلى ريادة قائد هذه المدرسة - جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] - لدعوة الجامعة الإسلامية، وذلك لإنقاذ المسلمين من الخطر الاستعمارى الزاحف من الغرب.. «فما جاء القرن الثالث عشر الهجرى إلا والأقاليم الإسلامية كلها مغلوبة على أمرها، يتصرف فيها غيرها، ويتحكم فيها أعداؤها، وأمرؤها وملوكها قد استسلموا، وكانوا ضعافاً أمام الأعداء أشداء على المؤمنين.. وفى هذا الوقت، دوى صوت الحق، نادى به زعيم النهضة الإسلامية فى عصرها الحديث، الأستاذ الأكبر جمال الدين الأفغانى.. حكيم الإسلام، وأول داع إلى الوحدة الإسلامية فى العصر الأخير، وباعث الوعى الفكرى فى كل بقاع الإسلام.. وكان أبرز تلاميذه فى مصر

الأستاذ الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] وسعد زغلول [١٣٢٣ - ١٣٤٦هـ / ١٨٥٧ - ١٩٢٧م]..

وإنه لا بد أن تنفر منا طائفة تحمل الدعوة إلى الوحدة، وتحث الناس عليها، فإنه لا عزة للإسلام إلا بها، ولا قوة للمسلمين إلا بوجودها..».

وهذه الوحدة التي ندعو إليها، والتي دعا إليها الأفغانى، ومجلة [العروة الوثقى]، هى وحدة تكامل بين أقطار العالم الإسلامى، لا وحدة اندماج.. وحدة لا تجور على التنوع القطرى، ولا تزيل العروش والإمارات فى أقاليم عالم الإسلام، إنها وحدة تحرير للحكام والمحكومين، ولثروات الأمة من النهب والاستغلال الاستعمارى.. «فالوحدة التى نبتغيها لا تمس سلطان ذى سلطان يقوم بالحق والعدل فى المسلمين، ولا شكل الحكم فى الأقاليم الإسلامية، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدى إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقق المعانى الإسلامية السامية. وإنما معنى الجامعة الإسلامية أن نعتبر أنفسنا مهما تناءت الديار مرتبطة بروابط وثيقة تمتد جذورها فى أعماق أنفسنا، وهى أحكام الإسلام وشعائره، وعباداته وعقائده، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة، كما هو دين التوحيد الخالص من كل شرك أيًا كان نوعه، وأيًا كان مظهره - وهذا المعنى للوحدة يتحقق فى ثلاثة أمور جامعة:

أولها: أن تتحد مشاعرنا جميعاً فى الإحساس بأننا إخوة بحكم الإسلام، وأن الأخوة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية..

وثانيها: الوحدة الثقافية واللغوية والاجتماعية.

وثالثها: ألا يكون من إقليم إسلامى حرب على إقليم آخر، أيًا ما كانت أساليب هذه الحرب، سواء أكانت بالاقتصاد أو كانت بالسيف..

ولا يلزم لتحقيق هذه المعانى أن تكون الدولة واحدة، بل قد تتحقق بصورة قوية إذا لم تكن الدولة واحدة، ولذلك لا يصح أن يكون مقصدنا من الوحدة تكوين دولة إسلامية متحدة.. وفوق ذلك، فإننا لا يصح أن ندعو إلى وحدة تزعج الملوك والرؤساء..

إن الأمة الإسلامية لم تكن منذ فتحت الأقاليم دولة واحدة، ذات حكومة واحدة..

فلتكن الوحدة فى شكل جامعة إسلامية، أو عصبة أمم إسلامية، أو كومنولث إسلامى، إنما يجب أن يتحقق فيه اتحاد السياسة فى كل الأقاليم الإسلامية، بحيث يوالى كل إقليم إسلامى من يوالى المسلمين ويعادى من يعاديهم، وبحيث يعتبر الاعتداء على أى دولة إسلامية اعتداء على الأمة الإسلامية كلها، لا على الإقليم الذى اعتدى عليه فحسب..

ولابد أن يكون للأقاليم الإسلامية اقتصاد متعاون: فالارتباط الاقتصادى بين المسلمين جزء جوهري من الوحدة الإسلامية، لأن قوى الأمم فى هذه الحياة تقوم على الاقتصاد..

ولقد صارت ينابيع الثروة عندنا، والتي هى فى حوزتنا وأرضنا، ولكننا معشر المسلمين، موضع تنافس أعدائنا، يلقون إلينا بفتاتها المتساقط، ويجعلون منا آلات الاستغلال، وأدوات العمل، والنتائج لغيرنا، فنحن مسخرون لهم، وما أبقونا إلا لهذه السخرة..

لذلك لا يذهب عنا ريق الاستعمار والاستغلال، ورق السخرة التى تجعلنا نحن المسلمين كأننا عبيد الأرض، إلا إذا تعاوننا جميعاً على استغلال ينابيع الثروة التى تجود بها أرضنا، لتكون الثمرات لنا أولاً وبالذات، ولا تكون لغيرنا إلا إذا كانت فائضة عن حاجة الأقاليم الإسلامية كلها، وتعاوننا كذلك على ألا نستورد من الأجنى محصولاً أو مصنوعاً إلا إذا كان ما لا تنتجه أى أرض إسلامية.

ويجب أن يكون هناك ارتباط نقدى، بحيث يسهل التعامل، فيكون لكل بلد نقده الداخلى، ويكون هناك نقد موحد جامع، تنسب كل النقود الإقليمية إليه بمقاديرها، وتكون لذلك مصارفه الخاصة، ليس عملها القرض بالفائدة، ولكن تسهيل ذلك التعاون. وفى سبيل ذلك التعاون أيضاً، يجب أن تزول كل المحاجزات الجمركية بالبلاد الإسلامية، فإنها تكون إتاوات ظالمة، والتعاون يناقضها، والوحدة الإسلامية تباينها..».

ولتحقيق هذه الوحدة الإسلامية معالم وشروط وواجبات تتجاوز الشعارات والإعلانات.. ومن هذه الواجبات:

- ١- أن يفض المسلمون نزاعاتهم فيما بينهم، وألا يتركوا فئة منهم تبغى على الأخرى..
 - ٢- وأن يعتبر كل مسلم وجماعة مسلمة أن الاعتداء على أى مسلم هو اعتداء عليه..
 - ٣- وأن ينصر المسلمون المستضعفين الذين يستضعفهم وبذلهم أعداء الإسلام حتى يخرجوهم من ربقة الذل إلى الحرية، ومن ذلك إخراج الظالمين من أى أرض من أراضي الإسلام..
 - ٤- والعمل على أن تكون ولاية أهل الإيمان للمؤمنين، فلا تتولى أعداء الإسلام ولا نجعل لهم ولاية قائمة على المسلمين.
 - ٥- وألا يجعل رئيس إقليم من أقاليم الإسلام أو ملك من ملوكهم الثقة فى رسم سياسته لغير مسلم».
- وللجوانب الفكرية والنفسية، التى تكوّن التعارف بين المسلمين، مقام كبير فى تحقيق هذه الوحدة.. «ذلك أن الوحدة الإسلامية تؤلف عناصر ثلاثة لا بد منها لتحقيق فى أقل صورها:
- التوحيد الفكرى والثقافى والنفسى.. وهذا التوحيد لا يحتاج إلى إنشاء، ولكن يحتاج إلى توجيه وجمع، فإن الأصل قائم ثابت..
 - وإقامة أخوة دولية لا تنازع فيها..
 - وإيجاد أسباب التعارف والتآلف بين المسلمين..
- وفى سبيل هذا التعارف، يجب أن تشتمل المدارس فى البلاد الإسلامية كلها على دراسة جغرافية لكل إقليم إسلامى..
- وتنظيم الرحلات إلى الديار الإسلامية، ففى ذلك بناء للآلفة الاجتماعية بين الشعوب الإسلامية.

والحج سبيل للتعارف الإسلامى، وطريق للوحدة، لو نظم على الوجه الشرعى الصحيح.. وفى الحج يجب أن يجتمع الفقهاء فى ندوات تدارس الفقه. والاقتصاديون

يجتمعون فى ندوات تدرس الاقتصاد، وكذلك المهندسون، والأطباء، فىكون الحج مثابة للمعرفة كما هو مثابة للناس وأمن، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم..

وهذا التعارف لا بد له من لغة جامعة.. وهذه اللغة هى العربية.. وليس المقصود محو اللغات القومية، وإنما المقصود أن يتعلم المثقف المسلم بجوار لغته القومية لغة إسلامية جامعة بين المسلمين، وهى العربية، لغة القرآن والسنة والعبادة الإسلامية.. فالعربية هى لغة الإسلام، لا يفهم الإسلام من لا يفهمها، وهى أيضًا لغة التراث الإسلامى كله.

وتعلم العربية لغير العرب أسهل من تعلم أى لغة أخرى، لأنهم يتلون القرآن العربى..».

وعلى العلماء أن ينهضوا بواجبهم فى توحيد العقل المسلم، وفى تقديم الدراسات التى تنير الطريق أمام الساسة العاملين على تحقيق هذه الوحدة.. ولذلك «يجب إقامة مجمع علمى إسلامى، يسهل دراسة المذاهب كلها، ويعمل على نشر الإسلام بين غير المسلمين.. ويصدر فى كل مسألة رأيًا جماعيًا، يتكون من الكثرة، ويكون حكمه ماضيًا حتى يجد ما يوجب تغييره، كما يدرس النظم الاقتصادية التى تسود العصر الحاضر، ويبين حكم الإسلام من غير تحريف..».

وهذه الوحدة الإسلامية هى وحدة إنسانية، لا عنصرية حيوانية.. فالإنسانية فى التوحيد على أساس الدين، والحيوانية فى التوحيد على أساس العنصرية.. وفى العنصرية تزييف للدين.. «وإنه بالموازنة بين تكوين الأمم بالعنصرية وتكوينها بالدين، يتبين أن السير بالإنسانية فى مدارج الرقى، وقيام العلائق البشرية على أسس من المودة والفضيلة، إنما يكون تحت ظل الدين، لا ظل العنصرية، لأن العنصرية تفرض دائمًا تفضيل عنصر على عنصر، وهى شكل من أشكال التجمع الحيوانى.. فليس التجمع على أسس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتأخرة فى الإنسان.. وإذا كان التاريخ يحكى تناحرًا باسم الأديان، فليس ذلك ناشئًا عن الدين نفسه، وإنما هو ضلال الفهم، فقد يتحول الدين فى نفوس بعض الذين لا يدركون حقائقه إلى معنى يشبه الجنسية أو العنصرية..».

كذلك، يجب التمييز بين المذهبية الفقهية، التى هى تنوع فى الفروع، ويسر فى

التكاليف، وبين الطائفية التي ترفض الخارجين عن إطارها.. «فلتحقيق الوحدة لا بد من محو الطائفية، وتقريب ما بين الطوائف، بحيث يكون خلافاً مذهبياً، كالخلاف الذى بين المالكية والحنابلة. ونحن ندرس بعض آراء الإمامية - على أساس أنه مذهب كالمذاهب التى ندرسها، وكذلك ندرس الزيدية.

إن محو الفروق الطائفية، يجب أن يكون غاية مقصودة، وذلك لأن أسباب الخلاف قد زالت. ومن الخطأ أن نتمسك بالاختلاف الطائفي مع زوال أسبابه، وكيف يكون بيننا تنافر فكري بسبب أن علياً أفضل من أبى بكر وعمر، أم أنهما أفضل منه، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ومعاذ الله أن يكون من أولئك الأبرار من ارتكب خطيئة أو إثماً ضد الإسلام..

إن الخلاف الطائفي الآن يشبه أن يكون نزعة عنصرية، وإن الذين يكيدون للإسلام يتخذون من الخلاف بين الطوائف منفذاً ينفذون منه إلى الوحدة الإسلامية، فيجب أن نسد عليهم هذا المنفذ..

ولسنا نقصد بمحو الطائفية محو المذهبية، وإدماج المذاهب الإسلامية فى مذهب واحد، فإن ذلك لا يصح عملاً ذا فائدة، لأن إدماج المذاهب فى مذهب واحد ليس عملاً علمياً يحمد عند العلماء..

إن المذهب ليس ملازماً للطائفة، لا يتصور من غير وجودها، فإن الطائفة جماعة تتجمع حول مذهب تفتنعه، وتدعو إليه، وتعتبر كل جماعة لا تعتقه ليست منها، أما المذهب فهو مجموعة علمية تبقى حافظة كيانها ثابتة، لأن لها تراثاً فكرياً، وهو بطبيعته أمر معنوى منفصل عن الجماعة التى تعتقه..».

وإذا كنا نطلق لتحقيق الوحدة من الإسلام، ومن النموذج الذى تحقق لهذه الوحدة فى صدر الإسلام، فإننا لا بد أن نراعى مقتضيات التطور، وضرورات التجديد الذى يستدعيه تغير الواقع والمصالح ومر القرون.. وهذا التطور وارد وواجب فى أساليب تحقيق الوحدة، وليس فى جوهرها.. وارد فى شكل الوحدة، وليس فى معناها.. «فعلى أى شكل تكون الوحدة الجامعة اليوم؟ أكون على الشكل الأول فى صدر الإسلام؟ أم تكون على شكل جديد يلائم روح العصر، مع تحقق معنى الوحدة على أكمل وجه؟

إننا إن تأثرنا بروح العصر ففي شكل الوحدة لا في جوهرها.. فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل، وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة، ولا يسوغ لأحد كائناً من كان أن يتحكم في أى حقيقة شرعية باسم روح العصر، فحقائق الإسلام ثابتة مستقرة، ولا تقبل التغيير ولا التبديل..».

وإذا كانت الوحدة هي السياج الحامى للاستقلال الوطنى والقطرى، فيجب ألا نكتفى بهذا الاستقلال.. فالاستقلال القطرى استقلال العلم والنشيد - من دون الوحدة، هو استقلال منقوص.. استقلال شكلى، تفرغه التبعية من جوهر الاستقلال.. «لقد نجحت حركة التحرر الإقليمى إلى حد كبير من النجاح، وانقبض ظل الاستعمار عن أكثر الأقاليم الإسلامية، ولم تبق دون الحرية السياسية الكاملة فى كل إقليم إلا حواجز من رغبات بعض الملوك، الذين أصبحوا يتوجسون من الحرية كما يتوجس بعض الخفافيش من النور، وحواجز من رغبات بعض الرؤساء الذين أثروا ولاء الأجنبى على الأخ المسلم..

لقد خرجت الجيوش الأجنبية الغازية للأراضى، وأبقت ذلك الغزو النفسى..

إن المسلمين إذا لم يتجمعوا صاروا مزقاً لغيرها، وأدوات تستخدم، وتكون أرضها وماؤها وخيراتها لغيرها، أما إن اجتمعوا فقد يصيرون قوة تنفع نفسها، وتمثل جزءاً من العالم، وتصيح بلسان القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

لقد استيقظ النائم من سباته، وتنبهت المشاعر، وتحركت النفوس، ولكن فى الدوائر الإقليمية والنزعات الوطنية، وإن ذلك محمود فى حد ذاته، على أنه خطوة لا غاية، وعلى أنه سير فى الابتداء وليس هو غاية الانتهاء، وأنه كان أمراً لا بد منه، لأن أعداء الإسلام ما كانوا يسمحون بأن تتلاقى على مائدة الإسلام، وهم يرون فيها انتهاء استغلالهم وذهاب استعمارهم، فكان الطريق للخلاص أن يتحرك كل إقليم فى موضعه حتى يخلع الرتبة، فإذا تخلص الجميع أمكن أن يتلاقوا على عزة وحرية، وأن يتدبروا شئونهم ودينهم الذى ارتضوا..».

ولإنجاز الوحدة الإسلامية، يجب أن نعى حقائق العقبات المقامة فى طريقها.. ومن أهم هذه العقبات: الفرنجة وأتباعهم.. الذين يريدوننا مختصمين، لا متحدين..

«فالآن، نحن نختلف، لأن الذين يريدوننا مختلفين يعيشون فينا أسباب الخلاف، ولأننا نتخذ من غيرنا ولاية نتولاها، ونصرة نبتغيها..»

وبينما يحس المؤمن باللقاء الروحي مع أخيه المؤمن، نجد أولئك الذين أُشربوا حب الفرنجة وتقليدهم قد باعدوا، وتحس وأنت تخاطب أحدهم كأن هوة ساحقة تحاجز بينك وبينه فلا تلتقيان. ولقد كان ضعف إيمان هؤلاء وقوة اقتناعهم بالاتصال بغير المسلمين، وحسبانهم أن ذلك هو التقدم، وأنه مسيرة العمران، وأنه النجاة في صحراء الحياة، وأنه المعبر إلى العزة، سبباً في أن لم يتطلعوا إلى الرابطة التي تربطهم بأهل القبلة..

إن هؤلاء وأشباههم هم الذين يقفون في سبيل الوحدة. إنهم يتبعون سياسة غير المسلمين، وهي سياسة مفرقة غير جامعة، لا تريد للمسلمين قوة في الأرض دافعة أو مانعة، ولا أمة جامعة، بل يريدونهم أوزاعاً وأشتاتاً متفرقين، لكي لا يكونوا قوة للإسلام، بل ليكونوا قوة لهم..

وإذا كانت ثغرة بيننا وبين أحد، فما كانت إلا بيننا وبين زنادقة ذلك العصر الذين يتسمون بأسماء إسلامية..».

* * *

هكذا تحدث العلامة الإمام الشيخ محمد أبو زهرة عن الوحدة الإسلامية.. فقدم لها رؤية شرعية وعملية.. تحدث عن فلسفتها.. وضروراتها الدينية والحياتية. وعن شروطها.. ومعالمتها.. وعن غايتها وثمراتها.. وعن العقبات التي تعترض طريقها..

وكانت هذه مجرد إشارات لما قدمه هذا الإمام العظيم عن هذه القضية المهمة، في هذا الكتاب الذي نقدم بين يديه..

رحمه الله رحمة واسعة.. ونفعنا بعلمه، إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب..

بحوث فى الربا

للإمام الشيخ محمد أبو زهرة

[١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ - ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م]

إن الربا حرام.. لأنه ظلم.

ولقد نهى «سولون» [٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م] الذى وضع قانون أثينا فى القديم، عن الربا. ونهى أفلاطون «٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م» فى كتاب (القانون) عن الربا، وقال: «لا يحل لشخص أن يقرض ربا». واعتبر «أرسطو» [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] الفائدة أيا كان مقدارها كسبًا غير طبيعى، لأن مؤداها أن يكون النقد وحده منتجًا غلة من غير أن يشترك صاحبه فى أى عمل، أو يتحمل تبعة، ويقول فى ذلك: «إن النقد لا يلد نقدًا.. وإن النقد لا يصلح بذاته أن تتولد منه غلات.. لأنه مقياس لقيم الأشياء، والمقياس لا يكون سلعة يتجر فيها، إذ يجب أن يكون مضبوطًا غير قابل للتغيير»..

وذكر - فى كتابه «السياسة» ما نصه: «كان حقًا علينا أن نستنكر الربا، لأنه طريقة كسب تولدت عن النقد نفسه، وهى تمنعه مما وجد لأجله، لأن النقد لا ينبغى أن يكون إلا للمعاوضة والربح منها، والفائدة أو الربا هى نقد تولد عن نقد. وهذا النوع من الكسب هو من بين ضروب الكسب كلها الكسب المضاد للطبع».

والنصرانية الحاضرة قد حرمت الربا تحريمًا قاطعًا مانعًا.. وقد حاول الربويون بتأثير الاقتصاد اليهودى استباحة بعض الفائدة، فلم تسغ ذلك الكنيسة لهم. ولقد ادعوا أن هذه الفائدة هى أجرة التنظيم والإدارة، فقليل: إن بعض رجال الدين من المسيحيين أباح الفائدة فى هذه الدائرة دون سواها، أى: أنها أجرة إدارة، لا فائدة دين. وقد اتخذ الكثير من هذه الفتوى مسوغًا، فانطلقوا.

ومن الغريب أن هذا الكلام يتردد الآن، ويقال لرجال الدين المسلمين ليفتوا بهذا القدر الضئيل، وليتخذوا من فتواهم ذريعة لتحليل ما حرم الله تعالى..

ولما جاءت حركة الإصلاح في المسيحية لم يكتف «لوثر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦] زعيمها بتحريم الفائدة قلت أو كثرت، بل حرم كل العقود التجارية التي تؤدي إلى الربا، حتى بثمن مؤجل إذا كان أكثر من الثمن العاجل.

وإنه من الواضح أن التصرفات التي قرر لوثر بطلانها في رسالته عن التجارة والربا، كلها مما اشتملت عليه وصايا النبي ﷺ بالنهاي عنها.

ولم نعلم أحداً من المسيحيين توسع في تفسير معنى الربا بمقدار ما توسع به لوثر. وإذا كانت وصايا النبي ﷺ تسبق كتابة لوثر بنحو عشرة قرون أو تزيد، فإنه يتبين أن كتابة لوثر متأثرة بمبادئ الإسلام، وخصوصاً أنه من الثابت اتصال الحركة الإصلاحية المسيحية باحتكاك النصارى بالمسلمين في الحروب الصليبية أولاً، وفي التجارة المتصلة بينهم ثانياً، وفي دخول الإسلام في أوروبا بجيوش الدولة العثمانية ومبادئه ثالثاً، ثم ما كان من الاتصال المستمر بين البلاد الأوربية والأندلس..

أما اليهود، الذين استولوا على عرش الاقتصاد وسيطروا عليه.. فلقد حولوا العالم إلى عالم ربوي قد طغى فيه رأس المال طغياناً شديداً..

وحتى «آدم سميث» [١٧٢٣ - ١٧٩٠ م] الذي يسمى: أبا الاقتصاد، قد استحسن الإقلال من فوائد الديون، وزعم أن القليل منها يشجع المقترضين على الانتفاع بالأموال المدخرة، ولا يرهقهم بأعباء السداد، أو يحرمهم ثمرة العمل الذي يجتذبون الأموال المدخرة إلى أسواقه بدلاً من تعطيلها..

ونحن نقول: إن الإسلام نظام اقتصادي قوامه تحريم الفائدة في الديون ما لم تكن ثمة شركة تنظمة في المغرم والمغرم..

إن الربا آفة اجتماعية، فإذا كان عرفاً شائعاً فهو عرف فاسد تجب مقاومته، ويجب تجريد كل القوى لمحاربتة وإذا كان البناء الاقتصادي في كثير من الدول يقوم عليه وجب العمل على وضع أسس جديدة ليوجد بناء صالح كامل فاضل، لا يقوم إلا على الكسب الذي فيه مبادلة بأي نوع من أنواع المبادلة الحرة التي يتحمل فيها المعطى تبعات الكسب والخسارة..

لقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا. قيل: الناس كلهم يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من لم يأكله ناله غباره»..

وقد تحققت تلك النبوءة في عصرنا الحاضر. فالناس يأكلون الربا. ومن لم يأكله ناله غباره، حتى صار بلاء هذا العصر..

ولقد ثبت أن الأزمات الجائمة التي تعترى الاقتصاد العالمى تكون من الديون.. وإن تسهيل القرض بفائدة شجع الكثيرين على الإسراف وعدم الادخار، فإنه إذا كان يشجع على الادخار الآثم عند بعض الناس، فهو يشجع على الإسراف عند آخرين..

ولقد وجد الناس بعض المرايين يذهبون إلى نوادى القمار، ويجلسون بجانب المتقارمين، ليمدوهم بالمال اللازم للاستمرار فى قمارهم..

ولقد فهم بعض العلماء أن الأضعاف المضاعفة ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٣٠]، هى فى الدين من حيث إنهم فى الجاهلية كانوا يضاعفون الديون، ومن حيث أن الزيادة المستمرة قد تؤدي إلى مضاعفة الدين، وفى الحق أن المضاعفة هى فى الزيادة لا فى أصل الدين، لأن الربا هو الزيادة لا أصل الدين، ولقد كان الربا الجاهلى هو الزيادة فى الديون.. وإن الآية الكريمة قد حددت الربا المحرم بأنه ما يزيد على رأس المال، فكل زيادة مهما قلت ربا وكسب خبيث، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَبْتَغُوا فَلَئِنْ رَأَوْهُمُ امْوَاجِلًا لَتَظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وربا النسيئة هو الربا المنصوص على تحريمه فى القرآن الكريم.. والسنة قد حرمت نوعاً آخر وسمته ربا، هو الربا الذى يكون فى المبيعات، وهى أشياء نص عليها النبي ﷺ وأوجب أن يكون البيع فيها بالمقايضة وبالمماثلة عند الاتحاد فى جنس العوضين..

إن الربا الذى اشتمل القرآن الكريم على تحريمه كان معروفاً عند العرب، وهو الذى كان يسمى عندهم الربا، أما الربا الذى بيته السنة، وهو ربا البيوع، فهو اصطلاح إسلامى، ولم يكن معروفاً عند العرب، فتحريمه من النظم الاقتصادية الإسلامية، وتسميته ربا اصطلاح إسلامى خالص، بخلاف ربا القرآن فهو معنى لغوى كان

معروفاً عند العرب يتعاملون به، فجاء القرآن الكريم وحرمه تحريماً قاطعاً، ولذا عبر عنه النبي ﷺ عند تحريمه بأنه ربا الجاهلية..

ولقد وجد من علماء الصحابة من لم يعتبر من الربا إلا ربا القرآن الكريم، وهو ربا النسيئة.. إن ربا البيوع الذي جاء تحريمه بالسنة كان موضع خلاف، أما ربا النسيئة الذي كان تحريمه بالقرآن فلا خلاف فيه قط..

إن أناساً في عصرنا قد تأثروا بتلك الحضارة الربوية التي قبست نظمها المالية من اليهود.. وكان تأثر هؤلاء الناس بتلك الحضارة سبباً في أن حاولوا تأويل القرآن الكريم ليخضع لها، ومنهم علماء يتسمون بسمة الدين، ومنهم رجال مال واقتصاد فهموا أن النظام الربوي ضرورة اقتصادية لا مناص منها، فاندفع هؤلاء وهؤلاء إلى نصوص القرآن الكريم يغيرون عليها بضروب من التأويل، وإن شئت أن تسميها عبثاً بمعاني القرآن الكريم فسمها، وإن شئت أن تسميها إفساداً في اللغة فسمها غير متحرج ولا متأثم.

ولقد نسوا أن العلماء اختلفوا في ربا البيوع الذي جاء في السنة والذي هو إصطلاح إسلامي، ولم يختلفوا أبداً في الربا الذي حرمه القرآن الكريم.. وربا القرآن الكريم هو الربا الذي تسيير عليه المصارف، ويتعامل به الناس، فهو حرام لا شك فيه.

ولقد ظهر في أول هذا القرن - [القرن العشرين] - ناس من المخلصين للإسلام يؤمنون بالمدينة الحاضرة، وقد ظنوا أن مصلحة القرآن الكريم أن يوفق بين نصوصه وبين التعامل الحاضر، وقد أثر عنهم أقوال عابرة داعية إلى النظر البصير في العقود الربوية أو التي يقول الفقهاء فيها إنها ربوية. قد قالوا هذه الأقوال من غير أن يتقيدوا برأى معين، أو فكرة معينة، فجاء من بعدهم يحاولون أن يثبتوا عليهم أنهم أباحوا ربا المصارف أو ما يشبهه، فادعوا - مثلاً - على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أنه قال ذلك القول، ولكننا قد بحثنا عن قول معين في ذلك فلم نجد فيه قولاً، ومال تلميذه السيد رشيد رضا ميلاً شديداً إلى إقرار بعض ربا المصارف، ولكنه حاول وداور، ولم يغنه ذلك فتياً، ولو أننا سلمنا جدلاً أن الشيخ محمد عبده أو غيره من معاصريه، أو من جاءوا بعده، قالوا مبيحين ربا المصارف ما تبعنهم وما أقمنا لقولهم وزناً، فلسنا نتبع الرجال على أسمائهم، ولا نأخذ قول أحد في أمر نص عليه القرآن الكريم، وأجمع عليه الصحابة الذين تلقوا بيان القرآن الكريم عن نبيه محمد ﷺ.

إن الإسلام فى تحريمه الربا يقصد إلى بناء اقتصادى فاضل يقرر أن رأس المال لا يعمل وحده..

والربا الذى حرمه القرآن الكريم هو كل زيادة فى نظير الأجل، سواء أكان القرض للاستهلاك أم كان القرض للاستغلال.. وربما الجاهلية، كما تثبتته الوقائع التاريخية وحال العرب، كان كله أو جله فى القروض الاستغلالية.

إن الشريعة الإسلامية قد احترمت رأس المال، واحترمت العمل، وجعلت على الكسب تبعات وتكليفات، ولم تجعله غنمًا لا مغرم فيه، ولم تجعله سائغًا من غير عمل ينتجه، أو تعرضًا لخسارة تسوغه، ولذلك حرمت الربا لأنه يجعل للشخص كسبًا من غير تعرض للخسارة قط، ومن غير عمل قط..

إن الربا هو السبب فى خراب البيوت المالية والشركات المنتجة عند اضطراب الأحوال بأزمات كاسدة، أو بتضخم شديد..

إن الربوبين فى هذا العصر آمنوا بالمدنية الغربية الإيمان كله، ولا أقول إنهم كفروا بالإسلام، فإنى لست ممن يرمون الناس بالكفر ما داموا يقولون إنهم مسلمون، ولكنى أقول إنهم مسلمون، ولكن أقول إنهم أرادوا الإسلام خاضعًا لما آمنوا به..

وإن قلت لهم: إن القرآن الكريم حرم الربا. قالوا: وماذا نصنع فى هذه المصارف، أتغلق أبوابها؟ سمعنا الشيخ فلائًا يحل فوائد المصارف، وقيل عن الشيخ محمد عبده أنه أحلها..

ولكن الداهية الكارثة أن بعض الذين يتسمون بسمه العلماء فى الإسلام، ولهم قول مسموع فيه، ومن الناس من يتبعهم، الكارثة الكبرى أن يقول هؤلاء محلين فوائد المصارف على أنها لا يحرمها الدين، ولا تدخل فى عموم كلمة الربا الواردة فى القرآن الكريم. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير.

إن تحريم الربا تنظيم اقتصادى لرأس المال المنتفع به ليعمل الناس جميعًا، ومن لم يستطع العمل يقدم المال لمن يعمل على أن يكون الربح بينهما والخسارة عليهما، وهذا هو العدل، فليس العدل أن يكون لأحدهما الغنم دائمًا من غير أن يتعرض للخسارة مطلقًا، فهو يأخذ فائدته ولو لم يربح الآخر، بل لحقته الخسارة..

إن كل زيادة على رأس المال تعد ربا. كما نص قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتِغُ فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ .. ولا دليل مطلقاً على أن ربا الجاهلية كان للاستهلاك، ولم يكن للاستغلال، بل الفرض الذي يجد الباحث مستنداً له من التاريخ هو أن القصد كان للاستغلال، فإن أحوال العرب ومكان مكة، وتجار قريش كل ذلك يسند هذا الفرض، وهو أن القرض كان للاستغلال، ولم يكن للاستهلاك..

إن أكل الربا حرام لذاته، لا يحل إلا لضرورة.. أما الاقتراض بالربا فهو حرام لغيره. فهو حرام سدا للذريعة الربا، وما يحرم سدا للذريعة يباح للحاجة لا للضرورة، ويؤىء بالإثمين من لا يقرض إلا بالربا ومؤكله وشاهده وكاتبه، ولكن اللعنة متفاوتة، فهي على الأول بالأصالة وعلى الآخرين بالتبع..

وإنه لا ضرورة تبيح الاقتراض بالربا مطلقاً، بل لا ضرورة تبيح الاقتراض إلا فى أحوال فردية، وليست جماعية حتى لا يكون ثمة ضرورة لنظام اقتصادى قائم على الربا..

ولس تحريم الربا للمروءة أو الأخلاق.. وإنما تحريمه للمصلحة، أو بعبارة أدق، للتخفيف من طغيان رأس المال طغياناً مطلقاً..

ولو أن صاحب رأس المال أسهم فى شركات صناعية أو زراعية أو نحوها ابتداء، لكان فى ذلك تقوية للإنتاج مباشرة بالاشتراك فيه، بدل أن يقرضه بفائدة يسيرة ثم يقرضه الآخر بفائدة أكبر وهكذا.

إن الربح من غير تحمل للخسارة قد يؤدى إلى ألا يأتى المقترض بكسب يعادل الفائدة، فتكون الأزمات، بينما لا يتصور هذا إذا أسهم صاحب رأس المال فى الكسب والخسارة..

إنه لا توجد مصلحة عامة فى الفائدة، وليس من شأنها أن تنمى الاقتصاد، بل إنها تضعفه، وإذا كانت هناك مصلحة فهي مصلحة المقرض فى كل الأحوال، ومصلحة المقرض فى بعض الأحوال..

ومن المقررات الاجتماعية الشرعية أن المصلحة الخاصة لا يلتفت إليها بجوار المصلحة العامة، وأن العبرة هى فى أكبر قدر من المنفعة لأكثر عدد، كما أنه من

المقررات الشرعية، أن الضرر القليل يُحتمل بجوار دفع الضرر الأكبر. وإذا كانت الحكومات في العصر الحاضر تحارب الإقطاع بكل أنواعه، فإن العدول عن زيادة الأسهم إلى إصدار سندات، ليس إلا من قبيل الإقطاع لرأس المال في الشركة.. ومنع الغير من الاشتراك تجب محاربته»^(١).

(١) «بحوث في الربا».

الدكتور حسين مؤنس

[١٣٢٩ - ١٤١٦ هـ - ١٩١١ - ١٩٩٦ م]

بطاقة حياة أ.د. حسين مؤنس

هو حسين مؤنس محمود..

ولد بمحافظة السويس في ٢٢ شعبان سنة ١٣٢٩ هـ / ١٨ أغسطس سنة ١٩١١ م.
تلقى تعليمه قبل الجامعي بمدينة السويس.. وحصل على الثانوية العامة بتفوق..
وتخرج في جامعة القاهرة - فؤاد الأول - يومئذ - سنة ١٩٣٤ م - من قسم التاريخ بكلية
الآداب.. ومنها حصل على الماجستير سنة ١٩٣٧ م. وفي العام التالي (سنة ١٩٣٨ م)
نال دبلوم دراسات العصور الوسطى من جامعة باريس.. كما نال دبلوم الدراسات
التاريخية من مدرسة الدراسات العليا - بنفس الجامعة - سنة ١٩٣٩ م.. ونال درجة
دكتوراه الأدب من جامعة زيوريخ - بسويسرا - سنة ١٩٤٣ م.

ولقد عمل مدرسًا بمعهد الأبحاث الخارجية بجامعة زيوريخ ما بين سنة ١٩٤٣ م
وسنة ١٩٤٥ م.. ثم عمل بهيئة تدريس كلية الآداب جامعة القاهرة، ونال درجة
الأستاذية في التاريخ الإسلامي سنة ١٩٥٤ م.

وإلى جانب عمله بالجامعة، شغل منصب مدير عام الثقافة - بوزارة التربية والتعليم
ما بين سنة ١٩٥٥ م وسنة ١٩٥٧ م، فأنشأ مشروع «الألف كتاب»، الذي ترجم ونشر
- في عامين - أكثر من ألفي كتاب، تمثل نماذج مختارة من الثقافة العالمية.. ولقد
عُزل عن هذا العمل بسبب الترجمة والنشر لرواية «ج. أورويل» [١٩٨٤ م] المناهضة
للاستبداد!

وفي خارج مصر، عمل مديرًا للمعهد الدراسات الإسلامية - في مدريد - بإسبانيا -

ما بين سنة ١٩٥٧م وسنة ١٩٦٩م.. كما عمل أستاذاً ورئيساً لقسم التاريخ بجامعة الكويت ما بين سنة ١٩٧١م وسنة ١٩٧٧م.

وتولى رئاسة تحرير مجلة [الهلال] و[كتاب الهلال] و[روايات الهلال] - بمصر - ما بين سنة ١٩٧٧م وسنة ١٩٨٠م.. إلى جانب عمله أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب جامعة القاهرة.

وعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات العربية والغربية - الرباط - بالمغرب - ويل - بالولايات المتحدة الأمريكية - ولندن.. وكمبريدج.. ودرهام.. وسانت أندرو.. وأدنبرة.. وهامبورج.. ويون.. وتوبنجي.

ونال عضوية العديد من المؤسسات والمجامع العلمية مثل: المجلس الأعلى للفنون والآداب.. ومجمع اللغة العربية.. والمجالس القومية المتخصصة.. والمجلس الأعلى للثقافة..

وأنشأ المجلس الأعلى لرعاية الآداب.. والشعبة القومية لليونسكو.

ولقد حصل - من مصر - على جائزة الدولة التقديرية - سنة ١٩٨٦.. وعلى نيشان الجمهورية من الطبقة الثالثة.. ومن إسبانيا حصل على نيشان الفونسو العالم.. كما نال أوسمة أخرى عديدة.

ولقد أجاد الدكتور حسين مؤنس عدة لغات أجنبية - منها الإنجليزية، الفرنسية، والإسبانية، والألمانية.. وكتب بها، وترجم عنها.

وغير مقالاته التاريخية والأدبية - في صحف [البلاغ] و[الأهرام] و[الأخبار] و[الاثنين] و[المصور] و[الهلال] و[أكتوبر] - فلقد ترك ثروة فكرية في حقول التأليف والتحقيق والترجمة.. من عناوينها:

١ - فتح العرب للغرب.

٢ - فجر الأندلس.

٣ - معالم تاريخ المغرب والأندلس.

٤ - شيوخ الفكر في الأندلس.

- ٥ - تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس.
- ٦ - الإسلام الفاتح.
- ٧ - أطلس تاريخ الإسلام.
- ٨ - المساجد.
- ٩ - رحلة الأندلس.
- ١٠ - عالم الإسلام.
- ١١ - الحضارة.
- ١٢ - كُتُب وكُتَّاب.
- ١٣ - الربا وخراب الدنيا.
- ١٤ - أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم.
- ١٥ - حكايات خير سنان.
- ١٦ - حكايات منتصف الليل.
- ومن تحقیقاته فى كتب التراث:
- ١٧ - رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان - لأبى بكر المالکى ..
- ١٨ - أسنى المتاجر فى بیان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب علیه من العقوبات والزواج، للونشريسى.
- ١٩ - الدوحة المشتبكة ضوابط دار السكة - لأبى الحسن على بن يوسف الحكيم.
- ٢٠ - الحلة السیراء - لابن الأبار.
- ٢١ - تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان.
- ٢٢ - كتاب الخراج - ليحيى بن آدم.
- ومن مترجماته:
- ٢٣ - الإمبراطورية البيزنطية - لنورمان بيز، بالاشتراك مع محمود زايد.

٢٤ - ثم غاب القمر (مسرحية).

٢٥ - تاريخ الفكر الإنسانى لجونسالز بالنشيا.

٢٦ - تاريخ الحضارة فى المغرب والأندلس.

وغيرها من الآثار الفكرية التى مثلت معلماً من معالم الفكر والثقافة الجادة والرفيعة فى القرن العشرين^(١).

(١) انظر فى ترجمته: [الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة] إعداد وطبع مصلحة الاستعلامات - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢ م. و[إتمام الأعلام] - للدكتور نزار أباطة، محمد رياض المالح - طبعة بيروت سنة ١٩٩٩ م. ومحمد أحمد [الموسوعة العربية] طبعة دمشق سنة ٢٠٠٨ م.

كتاب الربا وخراب الدنيا

للدكتور حسين مؤنس

[١٣٢٩ - ١٤١٦ هـ - ١٩١١ - ١٩٩٦ م]

كثيرة هي الكتب والدراسات التي كتبت عن الربا، والموقف الفقهي منه.. لكن هذا الكتاب قد تميز عن كثير من هذه الكتب - وربما عن معظمها - بأنه أخرج القضية من نطاق الوعي الفقهي الإسلامي المحدود إلى آفاق أرحب وأوسع مما بلغت تلك الكتابات..

إنه كتاب يعلم قارئه الوعي بالتاريخ.. وبالواقع.. وبالحياة.. فضلاً عن علم الاقتصاد.. كتاب يكشف الأسباب الحقيقية التي فقدنا بسببها ثروتنا القومية، واستقلالنا الوطني، وكرامتنا الإنسانية..

وإذا كان الناس قد عرفوا الدكتور حسين مؤنس [١٣٢٩ - ١٤١٦ هـ / ١٩١١ - ١٩٩٦ م] مؤرخاً وأديباً، فإنه يتجلى في هذا الكتاب - عالماً كبيراً من علماء الاجتماع، وخبيراً بالحياة الشعبية لمختلف الطبقات.. كما يتبدى - في هذا الكتاب - رجل نهضة شاملة لمصر وبلاد الشرق العربي والإسلامي.. يتمتع بوعي كوني، وثقافة عالمية، إلى جانب ثقافته العربية الإسلامية..

كما يكشف - هذا الكتاب - عن عبقرية فذة في الاقتصاد..

ففي هذا الكتاب، لا يكتفى الدكتور مؤنس - مثل غيره - بتناول قضية ومشكلة الربا في الإطار الفقهي، أو الواقع الراهن، وإنما يلقي الأضواء على الأبعاد التاريخية لهذا المرض العضال.. ذلك «أن تجارة المال - أي شراء المال وبيعه - كانت معروفة في الدنيا كلها من قديم الزمان، وكانت لها تنظيمات وقوانين وأصول في الدولة الرومانية. وعلى تجارة المال قامت أصلاً قوة دولة فينيقيا القديمة.. وظهرت قوة

المال والمتاجرة فيه بصورة واضحة جدًا في قرطاجنة، وهى مؤسسة تجارية مالية أنشأها تجار الفينيقيين إلى الشمال الغربى من موضع مدينة تونس الحالية..

وإن كل دولنا بعد عصر الراشدين كانت تقيم ثروتها على الضرائب، أى على اغتصاب ثمرات عمل العاملين. والدولة الرومانية، التى يبالغ الأوربيون فى تعظيمها، أقامت اقتصادها على الغزو والاستعمار ونهب الشعوب، وعلى هذا الأساس أيضًا أقامت الدول الأوربية اقتصادها فى العصر الحديث.. ونحن، مع الأسف، نقيم اقتصادنا اليوم على الديون والقروض والمنح.

وعلى حين يرى البعض فى النموذج الغربى الأسوة الحسنة - التى يجب السعى لاستنساخها، واللاحق بها - يعرى الدكتور مؤنس هذا النموذج الربوى الغربى من هالاته.. ذلك «أن المفاسد كلها ناتجة عن سيطرة المال على المجتمع الغربى، والمال فى الغرب قائم كله على الربا، الذى حرمه القرآن الكريم تحريمًا تامًا.. والاقتصاد الغربى أساسه كله الربا والمتاجرة العنيفة التى لا تعرف الرحمة أو الإنسانية، وكذلك المتاجرة بالمال، أى اعتباره سلعة تباع وتشترى، ولا جناح فى الكسب منها. وهذا محرم فى الإسلام.

والمجال المتروك للأخلاقيات فى القوانين المدنية الغربية مجال ضيق جدًا. وأى محام ذكى ليس بماكر يلغى وجود الأخلاق تمامًا فى القانون، ومن هنا فإن المعاملات على أساس القوانين الغربية لا يمكن أن تكون إلا ربوية».

ويذهب الدكتور مؤنس ليكشف عن الأبعاد الكثيرة والمعانى الحقيقية لمعنى الربا المحرم، المناقض لفلسفة الإسلام فى الأموال.. «فالربا لا يقتصر على المتاجرة بالمال، بل يشمل كل متاجرة يتعدى فيها هامش الربح الحدود الإنسانية المعقولة..

وآيات الربا فى القرآن الكريم قد درسها وفسرها أدق تفسير شيوخنا الأجلاء من أهل الفقه والفتوى، ولكنهم لم يدرسوها من حيث مغازيها ومراميها التاريخية، والغالبية العظمى من فقهاءها اختارت أن تقف بعلمها عند القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى على الأكثر - ولهذا فإن صوتهم دائمًا هو صوت الماضى.

إن الله سبحانه حرم الربا لأنه استغلال لحاجات الناس ساعة الضيق أولاً، ثم لأنه

كسب دون عمل، فإن المرابى يحل لنفسه أن يدع أمواله تربو في أموال الناس وهو قاعد مرتاح..

إن المال كله لله، والإنسان مرتفق فيه أى منتفع.. ومهما ملك ابن آدم من مال فهو من الله وعائد إلى الله، والله محاسبه على ما فعل به، وأموالكم أمانات ونعمة في الدنيا، فلا تجعلوها نقمة عليكم في الآخرة.

إن الربا في كل صوره استغلال لحاجات الناس. وهذا طبعى، لأن الإقراض بالربا وتثمين المال في أموال الناس واستدلال الناس بالديون والسيطرة عليهم بتهديدهم ببيع المرهونات لاستيفاء الدين وأرباحه، كل هذه أفكار يهودية.. أما من وجهة النظر الإسلامية، فإن المال لا قيمة له في ذاته، والقناطير المقنطرة من الذهب بلاء يفسد حياة الإنسان.. فسياسة المال في الإسلام جانب من النظرية الأخلاقية الإسلامية العامة.. واعتبار الشعب رعية والحكومة راعية مفهوم غير أخلاقى، ومن ثم فهو ليس إسلامياً.. إن رأسمالنا الحقيقى هو التدبير الأخلاقى الإسلامى للمال.. والعملية النادرة أو الصعبة الحقيقية هى الأخلاق.. والقرآن الكريم عندما حرم الربا حرمه لأنه غير أخلاقى.. والكسب من وراء المال لا يتحقق إلا إذا تم التعامل فيه على أساس أخلاقى..».

وإذا كان الكثيرون - فى حمى السعى للاقتراض والاستدانة - قد غابت عنهم فضيلة الوعى بالتاريخ.. تاريخنا مع الاقتراض والاستدانة.. فإن الدكتور حسين مؤنس ينعش ذاكرة القارئ كى تعى فضيلة - بل فريضة - الوعى بهذا التاريخ المأساوى، فيقول: «إن الربا والقروض والاستعمار كلها شىء واحد.. وإنجلترا بعد أن قضت على التمرد الإسلامى فى الهند ١٨٥٨م أعلنت الحرب على الإسلام الهندى، لأن الإسلام يحرم الربا ويدينه.. ولقد كان صناع السلاح وتجاره - وما زالوا - أحلاف المرابين والاستعماريين..»

إن الذين يقرضوننا - مهما تظاهروا بالإنسانية - لا يريدون إلا السيطرة علينا، والديون اليوم جزء من الصراع السياسى الدولى، وهى سلاح من أسلحة الاستعمار.. إن من العار أن يطعمنا غيرنا ونحن رجال لنا أجسام وسواعد، وبشر لهم عقول. أتدرى لماذا يطعم الإنسان دابته؟ لكى يأكلها أو يركبها أو يعيش على خيراتها، ولمثل

هذا تطعم أمة أمة، أو تقرض أمة أمة، ولا يخالجك في هذا شك. وقد قال أسلافنا إن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار. ولقد دلتنا التجارب التاريخية أن الدين طريق مؤكد للذل والتبعية والاستعمار..

وعندما أرى في التلفزيون كبار رجالنا يوقعون اتفاقات القروض كل يوم، أشعر أننا نزداد غرقاً في بحر الربا.. ولا يتبقى عندي شك أننا متجهون بالفعل نحو كارثة مالية تشبه تلك التي وضعت في أعناقنا نير الاستعمار في أواخر أيام الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ / ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] وأوائل أيام توفيق [١٢٦٩ - ١٣٠٩ هـ / ١٨٥٢ - ١٨٩٢ م]، لأن القروض لا بد أن تسدد، وما لا نسده بالعمله نسده بالتنازل عن جانب من الكرامة أو القيمة المعنوية. والدول الكبرى تأخذ دائماً أمام الصغرى صورة «شاييلوك» الجبار القاسى من «أنطونيو» الساذج الحسن الظن، الذى كاد يفقد حياته لولا دفاع حبيته الذكية «يورشيا» عنه، وذلك فى مسرحية [تاجر البندقية] لـ«وليم شكسبير» [١٥٦٤ - ١٦١٦ م]، وهى مسرحية حكم عليها اليهود بالموت لأسباب معروفة.

ولقد عرف مجتمعنا الإسلامى الربا فى كل عصوره، ولكنه كان دائماً فى نطاق محدود لا يحسب له حساب فى الجملة. ولكننا عرفنا الربا بوجهه البشع، بعد اتصالنا بالغرب ووفود الغريبيين إلى بلادنا للكسب فرادى وجماعات من أيام الحملة الفرنسية.

ومن أغرب ما يلاحظه الإنسان أن المرابى يدخل دائماً فى أعقاب المستعمر، لأن الاستعمار فى ذاته ربا فاحش.

إن الاستدانة فى صميمها تسول مشروط بالالتزام بالسداد بعد أجل مضروب.

وما أكثر ما أسأل نفسى: هل اتعظنا من تجارب القرن التاسع عشر؟ هل فهمنا أن القروض الخارجية لا تأتينا بخير أبداً؟

وأى مشروع لا يتم إلا بقرض خارجى لسنا فى الحقيقة بحاجة إليه، وهو لن يعود علينا بخير فى النهاية، وإلا فلماذا حرم الله علينا التعامل بالربا كل هذا التحريم؟ ولو كانت هناك مواقف يجوز فيها التعامل بالربا ومواقف لا يجوز لبينها الله فى كتابه، لأن التشريع القرآنى محكم».

وإذا كانت الاستدانة والقروض الربوية قد أسلمتنا للاستعمار العسكرى، فإنها تسلمنا اليوم للاستعمار الاقتصادى، وهو أفدح بالنسبة إلينا، لأنه يحقق جوهر مقاصد الاستعمار العسكرى نهب الثروات.. والتبعية.. وفقد الكرامة - وذلك دون كلفة الجيوش العسكرية الغازية!.. وإذا كان الاستعمار الربوى هو أعلى مراحل الرأسمالية المتوحشة المعاصرة، فإن الاقتصاد الإسلامى اللاربوى هو السياج الذى يحمينا من هذا البلاء.. «لقد انتهى عصر الاستعمار السياسى والعسكرى، ودخلنا فى عصر الاستعمار الاقتصادى، والمالى، ونحن - أهل العالم الثالث - فى نهاية التحليل - مستعمرة لأهل العالم الأول (عالم الرأسمالية).. ولن نفلت منه إلا إذا أقمنا اقتصادًا سليمًا غير رأسمالى وغير ربوى، يقوم على إنتاج صناعى وزراعى جيد ومتين، يستطيع أن يثبت للمنافسة فى السوق العالمية، فتربى بذلك رأسمال قومى، نتحرر به من الاستعمار الرأسمالى الغربى.. وإذا لم نفعل ذلك فلا خلاص لنا من الاستعمار قط..

ويجب أن نعمل على أساس أن العالم الإسلامى وطن واحد متكامل اقتصاديًا، وما لا يوجد فى مصر يوجد فى السودان، وما لا يوجد فى السودان يوجد فى سوريا. وإذا كانت السياسة تعرف الحدود بين بلاد الوطن الإسلامى فإن الإسلام لا يعترف بهذه الحدود، فالمسلمون أمة واحدة، ومال المسلمين مال واحد.

إنه ينبغى ألا تخلو مدينة عربية أو إسلامية كبيرة أو صغيرة من مؤسسة مالية حتى يتجمع المال فى أوعية عامة تغطى العالم الإسلامى كله، ونستطيع بعد ذلك الانطلاق للعمل الكبير من قاعدة إسلامية شاملة.. وإن شبكات المؤسسات الإسلامية العامة ستكون رابطة إنسانية إسلامية تخفف الكثير من الحساسيات القومية والمحلية التى ابتلى بها العالم الإسلامى نتيجة لدسائس الغرب وتدبيراته الخافية والمعلنة.

ومن المستحيل أن يأمن أى شعب غذائيًا إذا كان يأكل بالقروض والحسنات الخارجية».

وإذا كانت البنوك الربوية - التى جاءت إلى بلادنا فى ركاب الاستعمار - قد غطت وتغطى كل مدن بلادنا الإسلامية، فإن هذه البنوك الربوية لم تقم اقتصادًا حقيقيًا يضمن لبلادنا الانعتاق من هيمنة التبعية للمركزية الرأسمالية الاستعمارية الغربية..

«فإلى يومنا هذا، ورغم كثرة البنوك عندنا، فإن هذه المؤسسات منذ وفاة طلعت حرب [١٢٩٣ - ١٣٦٠ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٤١ م] لم تنشئ أو تساهم فى إنشاء أى صناعة أساسية. وطلعت حرب هو الاقتصادى الحقيقى الوحيد الذى عرفته بلادنا، فقد أنشأ نحو عشرين شركة أساسية، من الغزل والنسيج إلى الطيران، وبعده لم تفعل البنوك أكثر من إقراض الأموال لأى شركة يمكن أن تربح، والشركات التى تساهم فى إنشائها نستطيع أن نسميها شركات حلاوة طحينية أو حلاوة سمسمة، وهى لهذا السبب ليست ركناً من أركان حياتنا، بل هى عبء علينا. وهذا هو الفراغ الهائل الذى ينبغى أن تسده المؤسسات المالية الإسلامية».

وإذا كانت الحركة الوطنية فى بلادنا - منذ جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧] ومصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] قد ضربت المثل باليابان، كمجتمع شرقى حقق النهضة، وأثبت أن التقدم ليس وقفاً على الغربيين، فإن الدكتور حسين مؤنس قد نبه على أن هذه النهضة اليابانية قد قامت على الاقتصاد اللاربوى، وليس على البنوك الربوية والتجارة فى الأموال..

«فاليابان عندما دخلت ميدان التطور والتقدم - بعدنا بنحو نصف قرن - كان دخلها القومى لا يزيد على ثلاثة ملايين من الجنيهات فى السنة، فحسبت حسابها على أن تنفق ثلثى هذا المبلغ على إدارتها الداخلية وراوتب موظفيها، ولا يزيد إنفاقها على المشروعات على فائض الإيراد دون اقتراض مليم، ولم يسمح لأى مصرف أوروبى أو أمريكى أن يفتح فرعاً فى اليابان، بل رفض «الميكادو» التعامل بالربا أصلاً، وقال لمجلس «الشوجن» - أى مجلس الأشراف والقادة العسكريين: إننا نفهم التعامل التجارى المستقيم، ونعترف بأرباح التجارة الشريفة المعقولة، ولكننا لا نستدين مائة ونردها مائة وعشرين، ولا نبيع من أرضنا قيراطاً لأجنبى، ولا نرهن من أرضنا شيئاً، ولا ننفق إلا على قدر إيرادنا، وما نستطيع الإنفاق عليه من مالنا فعلناه وإلا فلا داعى له إطلاقاً، لأن هذه الأرض وخيراتها ليست أرضنا ولا خيراتها، بل هى ملك لشعب اليابان، ونحن أمناء عليه، فاعملوا حسابكم على هذا».

وبينما كان سعيد باشا [١٢٣٧ - ١٢٧٩ هـ / ١٨٢٢ - ١٨٦٣ م] وإسماعيل يطلبان من لصوص التجار الأوربيين تزويدهما بالملابس المطرزة بالقصب والزراير المطلية بالذهب، وصناديق الخمور وأطقم الطعام الخزفية وملابس الحرير للنسوان،

والمرايا العجيبة للقصور، كان اليابانيون لا ينفقون إلا على الماكينات والقطارات والسفن وعلى تعليم شبابهم فى أوربا كيف يفكون هذه الماكينات، فأنفقوا عشر ما أنفقنا وكسبوا ألف ضعف ما كسبنا، وهم ليسوا مسلمين، ولا نزل عليهم كتاب من الله يحذرهم من الربا والخمر والميسر والأزلام، ولكنهم ناس أهل عقل وذمة..

إنك لا تستطيع أن تنشئ اقتصاداً إسلامياً صحيحاً فى عالم كله ربا، وإن الطريق السليم للمسلمين هو أن ينشئوا نظاماً اقتصادياً كاملاً جديداً مستقلاً بنفسه، لا يقوم على الربا، وهذا ممكن لو فكرنا جادين وكنا راغبين أو عازمين على إقامة نظام اقتصادى إسلامى خالص، ولو أردنا لفعلنا، فإن اليابان اقتدرت على ذلك، فهى لم تقترض من الغرب ولا هى انخدعت بحيلة المصارف الغربية، وإنما أخذت العلم الغربى وملكوته وسيطرت عليه، وأنشأت عليه صناعة يابانية.

وعلى أساس الصناعة اليابانية المتقنة أنشئوا اقتصاداً يابانياً غير ربوى ومصارف يابانية لا تستعبد الناس بالمال».

ورغم أن الربا - فى الحضارة الغربية - قد أصبح مثل تلوث الهواء، لم ينج من آفاته بلد من البلاد.. ورغم أنه - فى هذه الحضارة المسيحية - قد اكتسح الموقف المسيحى الذى يحرم الربا، وسار خلف الموقف اليهودى الذى يمتص - بالربا - دماء الأغيار.. فإن الدكتور حسين مؤنس قد لفت الأنظار إلى طائفة بروتستانتية - فى أمريكا - التزمت موقف «مارتن لوثر» [١٨٤٣ - ١٥٤٦ م] المحرم للربا، والقائل إن الأرباح المركبة سرقة، وأن المال كله لله.. فسارت هذه الطائفة على مذهب مارتن لوثر، لا يتعاملون مع البنوك الربوية.. ولقد أقاموا بدلاً منها بنوك «مال الصدقة» - «فرند شب فاند. F.F.» - وهى شركة بين المودعين، تستثمر مدخراتهم لحسابهم، وتقدم لهم الخدمات المختلفة..

ولم يمنع الدكتور مؤنس رفضه الحاسم للشيوعية، من الإشادة بموقف «كارل ماركس» [١٨١٨ - ١٨٨٣ م] الراض للربا، لأن الماركسية تعظم العمل، وليس رأس المال.. ولذلك خلت الكتلة الاقتصادية للبلاد الشيوعية من الربا والتجارة فى الأموال، بينما قام الاقتصاد الرأسمالى على الربا والتجارة فى الأموال..

ويلفت الدكتور مؤنس الأنظار إلى حقيقة أن الكسب الربوى الحرام إنما يشيع فى

المجتمعات التي ابتليت به كل ألوان الحرام.. «ذلك أن أبواب الشر أو أن مستطرفة، وأبسط مظاهر ذلك أنك تجد جميع أولئك الذين جمعوا الأموال من غير وجهها، في أيامنا هذه، ينشئون في بيوتهم البارات، ويقيمون حفلات الرقص، ويطلقون الحبل على الغارب للزوجات والبنات..».

كما يدعو إلى التمييز بين الغنى الحقيقي وبين الكنز والتكديس للثروات والأموال.. «فالمعنى الحقيقي للغنى ليس الثراء وملك الأموال الضخمة والعقار الكبير، وإنما معناه الحقيقي هو الاستغناء بكسبك عن الحاجة ومسألة الناس».

وينتقد الدكتور مؤنس إضاعتنا فرصة الرخاء الذي أتت به الثروة النفطية، فبدلاً من استخدامها في تحقيق اقتصاد إسلامي مستقل، جعلناها قيوداً وأغلالاً تشد رقابنا إلى مراكز الهيمنة الاستعمارية للرأسمالية الغربية..

«فلقد أتى الله بعض دولنا العربية ثروة بترولية وغازية من وراء العقول، وكان في استطاعتنا أن نستخدم هذه الثروة استخداماً عربياً يقوم على استغلال مواردنا البترولية المالية، ومواردنا البشرية المتزايدة في بعض بلادنا - مثل مصر - ومواردنا الأرضية الشاسعة - في بلد مثل السودان - وإقامة صناعات وزراعات عربية قوية، تستطيع المنافسة في السوق العالمية، فتكون هذه الصناعات وما تفيئه علينا من ثروات صك تحريرنا - نحن العرب جميعاً - من الاستعمار الرأسمالي الغربي الربوى.. ولكننا نحن العرب أعداء أنفسنا.. فأودعنا حصائل بترولنا وغازنا في مصارف الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فجعلنا زمام أمورنا بيد غيرنا، والأمريكيون الذين استخرجوا نفطنا، أخذوه معهم إلى بلادهم وأعطوا مكانة ورقاً أخضر يسمى الدولار، ونحن اليوم لا نستطيع حتى سحب أرصدتنا من مصارف الولايات المتحدة، التي يسيطر عليها اليهود أنصار إسرائيل».

ومع تأكيد الدكتور حسين مؤنس على أنه ليس من الفقهاء الشرعيين ولا من المفسرين للقرآن الكريم.. إلا أنه يقدم لنا - في كتابه هذا - لمحات ذكية وجديدة في تنزيل النصوص القرآنية على الواقع المعيش.. وعلى سبيل المثال:

«ف»المؤلفة قلوبهم«: كان القدماء يقصرونها على ذلك النفر من العرب الذين دخلوا الإسلام يوم فتح مكة، ويعتبرونه استئلاً لقلوبهم، لأنهم كانوا يؤمنون

بالمادة، وقلوبهم كانت جامدة لا يصل إليها الإيمان، فيكون العطاء المادى سبيلاً للنفاذ إلى القلوب المتحجرة.

والمعنى أوسع من ذلك، فالمؤلفة قلوبهم فى أيامنا هذه، يكونون الوثنيين الذين ندعو للإسلام بينهم، ونشئ لهم المدارس والمستشفيات، ونقدم لهم العلاج، ليروا أن الإسلام خير، فإذا هم دخلوا فيه أحسوا بحلاوته وخيره ويستقر الإيمان فى نفوسهم.

ومن عجب أن النصارى قد أدركوا هذا المعنى بعقولهم، ونحن لم ندركه مع أنه وارد فى قرآننا!.. ونحن اليوم إذا أخرجنا الصدقات أموالاً نستعين بها فى الدعوة الإسلامية، فنحن فى تقديرى نفسر قوله تعالى: [والمؤلفة قلوبهم] أحسن تفسير.

[وفى الرقاب]: أى تحرير العبيد الأرقاء، أيام كان هناك عبيد وأرقاء. أما فى أيامنا هذه، وحضارة الغرب تقول:

إنه لا رق ولا استعباد أو عبيد، فما أكثر العبيد! وما أحوج معظم البشرية اليوم إلى أن ننفق فيها مال الصدقات!

ونحن إذا ذهبنا اليوم إلى البلاد التى تسودها الوثنية، فنحن نجد أنفسنا فى الحقيقة أمام جماعات من أرقاء الجهل والفقر والمرض، وما أحوجهم إلى أن ننفق فيهم أموال الصدقات.

وفى بلادنا من الجهال الذين يملكون المال ولكنهم جهال بالحياة وشئونها، فتكون الصدقة عليهم هى العلم وتنوير الأذهان.

[والغارمين]: أى المثقلين بالدين. وكل بلاد الإسلام اليوم غارمة غارقة فى الدين -إلا بعض الدول-

[وابن السبيل]: هو ضيف أمة الإسلام كلها. جعل الله له حقاً معلوماً فى أموالنا، فأيقظ فى قلوبنا عاطفة الأخوة الإسلامية، وأشعرنا بأن المسلم المسافر القريب له علينا حق الرعاية.

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وكنت أقول فى نفسى: فأما المسكين فقد عرفناه، وأما اليتيم فلا يجهل أمره أحد، فمن ياترى هو الأسير؟ أهو

أسير الحرب فحسب؟ وما نحن أولاء في أيامنا وليس هناك أسرى، فكيف يوصى الله بإنفاق المال على فئة انقطعت بتطور الزمان، وكل أحكام الله لها صفة الدوام، فلا بد أن يكون للأسير معنى أو معانى أخرى غير أسير الحرب، حتى اهتديت إلى أننا جميعاً أسرى أصناف شتى من المتاعب، فهناك أسير المرض، وأسير الخوف، وأسير الظلم، وأسير الهموم، وأسير الجهل، وكلنا على هذا المعنى أسرى على صورة أو أخرى، ولكننا لهذا لنا نصيب فى الصدقات، فإذا كنا كلنا نؤتى الصدقات فكلنا نستحقها، ويكون مال المسلمين كله مالاً واحداً، أو هو مال الله يعطى منه من يشاء، وليس لصاحبه فى الحقيقة منه إلا حق الانتفاع، وهذه هى فلسفة المال فى الإسلام، وهى أيضاً فلسفة الصدقة والصدقات».

ثم يصل الدكتور مؤنس إلى تحديد مقومات الاقتصاد الإسلامى اللاربوى، الذى يحقق للأمة الاستقلال والقوة، فيقول:

«إن بلدًا من البلاد لا يمكن أن يكون مستقلاً فعلاً وقوياً حقاً إلا إذا توافرت له الأساسيات التالية على الأقل:

- أن يطعم نفسه بنفسه، أى ينتج غذاءه.
- أن تكون لديه المصانع الأساسية لقيام صناعة قومية.
- صناعة السلاح بكل أنواعه والذخيرة بكل مستوياتها.
- صناعة القاطرات.
- صناعة السفن.
- صناعة نسيج كاملة.
- أن يكون فى البلد جهاز تعليمى صحيح فعال.
- أن تكون فى البلد صناعة ورق تسد كل حاجاته منه، لأن الورق أداة الثقافة والعلم الكبرى، وليس هناك بلد محترم فى الدنيا لا يصنع كل ما يحتاج إليه من أصناف الورق.
- ولا بد أن تكون فى البلد صناعة كيميائيات وأدوية وافية بكل حاجاته.

- ولا بد كذلك من صناعة بلاستيك متطورة.

ونحن نستطيع أن ننشئ في بلادنا العربية والإسلامية ذلك كله. ولكن السماسرة يحاربون إنشاء أى صناعة منها فى بلادنا، لأن ذلك يمنع مكاسبهم من الاستيراد.

ونحن لا نستطيع أن نقيم ثروة قومية إلا إذا كان لدى الشعب مال مدخر يمكن له من إنشاء المشروعات التى لا بد منها لشعب قوى مستقل ومالك لزمam مصائره».

وبعد هذا العلم الغزير - الذى قدمه الدكتور مؤنس فى هذا الكتاب «الربا وخراب الدنيا».. وبعد هذا الذى قدم من الوعى بالتاريخ.. والواقع.. والحياة.. والذات.. والآخر.. يتحدث عن نفسه، فى تواضع كبار العلماء فيقول:

«وما أنا من رجال الاقتصاد، ولا أنا من فقهاء الدين، وإنما أنا مؤمن أرجو أن يكون الله قد فتح عليّ بما يجعلنى أهلاً للانتساب إلى جماعة المؤمنين الذى يشعرون شعوراً عميقاً بأننا إلى يومنا هذا بعيدون بعداً شاسعاً عن فهم طبيعة الإسلام والعمل بها والتخلق بأخلاقها».

* * *

هكذا تحدث الدكتور حسين مؤنس فى كتابه هذا - [الربا وخراب الدنيا] - حديث من يعيش معنا هذه اللحظات التى نعيشها - مع أنه قد كتب هذا الذى كتب قبل أكثر من ثلاثين عاماً!.. فيكشف لنا معالم طريق الحل الإسلامى الذى يعتق رقاب أمتنا من أغلال الاستعمار الربوى، الذى يفسد علينا هناء المعاش والمعاد.. وينهبنا إلى أن ديننا الحنيف قد جاء ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

رحم الله الدكتور حسين مؤنس.. وجعل عطاءه العلمى هذا فى ميزان حسناته، إن شاء الله.

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

[١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م]

بطاقة حياة الشيخ شلتوت

- فى [٦ شوال ١٣١٠ هـ / ٢٣ أبريل ١٨٩٣] ولد الشيخ محمود شلتوت، بلدة «منية منصور»، مركز «إيتاى البارود» محافظة «البحيرة» بدلتا القطر المصرى.

- وبعد أن حفظ القرآن وجوده بكتاب القرية... على عادة السالكين طريقهم إلى العلم الدينى، التحق بمعهد الإسكندرية الدينى، التابع للأزهر الشريف [١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م]... أى فى العام التالى لوفاة الإمام محمد عبده.

ولقد ظل محافظاً على تفوقه فى الدراسة على امتداد سنوات مراحل تعليميه بالأزهر الشريف - الابتدائى والثانوى والعالى فكان ترتيبه الأول دائماً طوال سنوات دراسته حتى نال شهادة «العالمية» [١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م].

- وفى العام التالى لتخرجه [١٣٣٧ هـ / ١٩١٩ م] عُين مدرساً بمعهد الإسكندرية الدينى.

- وكانت كبرى ثورات الشعب المصرى ضد الاحتلال الإنجليزى قد تفجرت فى ذات العام (ثورة ١٩١٩ م) فانخرط فيها الشيخ شلتوت، وشارك فى مظاهراتها واجتماعاتها والخطابة والإثارة لجماهير الشعب وطلائع الثوار.

- ومع أن الشيخ محمود شلتوت لم يتلمذ مباشرة على يد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، إلا أنه منذ فجر حياته التعليمية والعلمية، كان واحداً من نبهاء مدرسة الأستاذ الإمام - مدرسة الإحياء والتجديد - ولقد ربطته الوشائج الفكرية وأيضاً العلاقات والصدقات بأبرز خلفاء وتلاميذ الأستاذ الإمام، وفى مقدمتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراعى [١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٥ م]، والإمام

الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ / ١٨٨٥ - ١٩٤٦م]، والإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩ - ١٣٧٤هـ / ١٨٨٢ - ١٩٥٤م].. وهم من نجباء تلامذة الشيخ محمد عبده، الذين تتلمذوا على يديه، وحضروا دروسه، والذين قادوا تيار الإصلاح لمناهج وتنظيمات الأزهر الشريف... وجاهدوا للتأكيد وتدعيم استقلال الأزهر عن سلطات الدولة ونفوذ الاستعمار الإنجليزي.

ولذلك، فعندما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الأزهر - فى (٢ من ذى الحجة ١٣٤٦هـ / ٢٢ من مايو ١٩٢٨م) - بادر فاستدعى الشيخ شلتوت، ونقله من التدريس بمعهد الإسكندرية إلى التدريس بالقسم العالى الجامعة - القاهرة - وهو القسم الذى كان يرأسه علم آخر من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، وهو الشيخ عبد المجيد سليم.

- وبعد ذلك، ارتقى الشيخ شلتوت إلى تدريس الفقه بأقسام التخصص بالأزهر الشريف.. وهو أعلى مستويات التدريس.

- وعندما حدثت الأزمة الشهيرة بين الشيخ المراغى - شيخ الأزهر - وبين الملك أحمد فؤاد [١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ / ١٨٦٩ - ١٩٣٦م] بسبب إصرار المراغى على مشروعه لإصلاح الأزهر، وتجديد مناهجه، وتنظيم كلياته وأقسامه ومعاهده، وتأكيد استقلاله.. ومعارضة الملك فؤاد لهذا المشروع كان الشيخ شلتوت أول المدافعين عن مذكرة المراغى ومشروعه الإصلاحى - بالقلم واللسان - فكتب عدة مقالات بجريدة «السياسة» اليومية... وألقى العديد من الخطب فى الأساتذة والطلاب.

ولما اضطر المراغى إلى الاستقالة من مشيخة الأزهر - فى [٦ من جمادى الأولى ١٣٤٨هـ / ١٠ من أكتوبر ١٩٢٩م] - بسبب مناوأة الملك فؤاد لمشروع إصلاح الأزهر... وتولى المشيخة الشيخ محمد الأحمدي الظواهرى [١٢٩٥ - ١٣٦٣هـ / ١٨٨٧ - ١٩٤٤م] انخرط طلاب الأزهر وكثير من شيوخه فى ثورة كبرى وشهيرة، مطالبين بعودة المراغى إلى المشيخة، وتنفيذ مشروعه الإصلاحى... ولقد استمرت قلاقل وأحداث وإضرابات هذه الثورة الأزهرية طوال مدة إبعاد المراغى عن المشيخة، وتصاعد قمع الدولة للعلماء والطلاب الثائرين، وخاصة إبان الوزارة المستبدة التى رأسها إسماعيل صدقى باشا [١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ / ١٨٧٥ - ١٩٥٠م]

- وهى الوزارة التى ألغت دستور ١٩٢٣م، وزيفت الانتخابات - فتم فصل الشيخ شلتوت من منصبه، ضمن الذين فصلوا من علماء الأزهر، فى (جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/ ١٧ سبتمبر ١٩٣١م)، ويومئذ اشتغل الشيخ شلتوت بالمحاماة الشرعية - مع شقيق صديقه الشيخ مصطفى عبد الرازق - الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] الذى كان قد فصل من القضاء الشرعى [١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م] بسبب كتابه عن (الإسلام وأصول الحكم).

وظل الشيخ شلتوت مفصولاً من التدريس بالأزهر، وبعيداً عن جامعته قرابة أربع سنوات. فلما اضطر الملك فؤاد إلى الرضوخ لإصرار علماء الأزهر وطلابه على عودة المراغى، والمضى فى مشروع إصلاح الأزهر، وسقطت الوزارات المستبدة، أعيد الشيخ محمود شلتوت - وكل المفصولين - إلى الأزهر، مدرساً بكلية الشريعة، فى (ذى القعدة ١٣٥٣هـ/ فبراير ١٩٣٥م) إبان وزارة توفيق نسيم باشا [١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م].. وبعد أقل من شهرين عاد الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر - فى (المحرم ١٣٥٤هـ/ ٢٧ أبريل ١٩٣٥م).

- وتحت قيادة المراغى للأزهر الشريف وفى ظل مشروعه الإصلاحى لهذه الجامعة الأعرق - بدأ الأزهر يتواصل مع المحافل والمؤتمرات العلمية العالمية، مبلغاً دعوة الإسلام، بمنطق جديد، وملقياً الأضواء على مميزات وامتيازات الإسلام، وما لديه من حلول للمشكلات الإنسانية... فشارك فى مؤتمر تاريخ الأديان الدولى - السادس المنعقد بمدينة «بروكسل» فى (جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ/ ١٦ - ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥م) - ومثله فى هذا المؤتمر الشيخان مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى... وعندما انعقدت الدورة الثانية لمؤتمر القانون الدولى المقارن بلاهاى - هولندا - فى (جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ/ أغسطس سنة ١٩٣٧م) ورأس وفد مصر الفقيه والقانونى الدكتور عبد الرازق السنهورى، اختار المراغى الشيخ محمود شلتوت ممثلاً للأزهر فى هذا المؤتمر العالمى، فقدم للمؤتمر دراسته العلمية المتميزة عن (المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية)^(١).

(١) انظرها فى كتابه: الإسلام عقيدة وشرعية (ص ٣٩٢-٤٢٩) طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- وكانت هذه الدراسة هي التي تقدم بها - بعد ذلك - إلى «هيئة كبار العلماء» [١٣٦٠هـ / ١٩٤١م] فنال بها عضوية الهيئة وكان يومئذ أصغر الأعضاء سنًا في هيئة كبار العلماء، أعلى هيئات العالم الإسلامي في العالم الإسلامي.

- وبعد ذلك عين الشيخ شلتوت في لجنة «لجنة الفتوى» بالأزهر الشريف.

- ولقد تبدى حرص الشيخ المراغي على أن يكون الشيخ شلتوت دائمًا وأبدًا في الموقع الذي يمارس منه وفيه دفع مسيرة الإصلاح والتجديد في الأزهر الشريف، عندما رقى الشيخ شلتوت من مدرس بكلية الشريعة إلى مفتش بالمعاهد الدينية - سنة [١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م] - فأعاد المراغي إلى القسم العالي الجامعة - وكيلاً لكلية الشريعة، ليشرف على خطة الإصلاح فيها.

- وعندما تبوأ موقعه بين «هيئة كبار العلماء» سنة [١٣٦٠هـ / ١٩٤١م]، تقدم إلى هذه الهيئة باقتراح جامع «لجدول أعمال» الاجتهاد الإسلامي المعاصر في أربعة ميادين، وذلك باقتراح:

١- إنشاء مكتب علمي للجماعة، مهمته رصد الهجوم على الإسلام، والرد على هذا الهجوم، تبليغاً للدعوة، وإقامة للحجة، وإزالة للشبهة عن عقيدة وشريعة وحضارة الإسلام.

٢- وبحث المعاملات المستجدة، لاستنباط الأحكام الفقهية الجديدة لهذه المعاملات التي لم تعرفها عصور واجتهادات القدماء.

٣- ووضع كتاب عن الإسرائيليات في التفاسير المتداولة للقرآن الكريم، لتنقية هذه التفاسير من تلك الإسرائيليات التي تغرق العقل المسلم في الضلالات.

٤- وتنقية الكتب الدينية من البدع والخرافات.

ولقد تبنت «هيئة كبار العلماء» هذه المقترحات وتألفت لتحقيق هذه المقاصد لجنة رأسها الشيخ عبد المجيد سليم، وكان الشيخ شلتوت أحد أعضائها.

- وفي سنة [١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م] اختير الشيخ محمود شلتوت «عضوًا بمجمع اللغة العربية» وذلك ضمن عشرة أعضاء مثلوا قمم العلم والفكر في ذلك التاريخ، حتى سماهم الأستاذ أحمد أمين [١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ / ١٨٧٨ - ١٩٥٤م] - في حفل

استقبال المجمع لهم - بـ«العشرة الطيبة».. وهم - غير شلتوت - الدكتور إبراهيم بيومي مذكور [١٣٢٠ - ١٤١٦هـ / ١٩٠٢ - ١٩٩٥م]، والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور أحمد زكي [١٣١٢هـ - ١٣٩٥هـ / ١٨٩٤ - ١٩٧٥م]، والدكتور مصطفى نظيف [١٣١٠هـ / ١٨٩٣م]، والشيخ عبد الوهاب خلاف، والأستاذ محمد فريد أبو حديد [١٣١٠ - ١٣٨٧هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٧م].

- ثم انتدبت جامعة القاهرة الشيخ شلتوت لتدريس مادة «فقه القرآن والسنة» لطلاب «دبلوم» الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق.

- وفي سنة [١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م]، وأثناء تولي الشيخ عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر، عين الشيخ شلتوت مراقبًا عامًا لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف.

- وفي سنة [١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م]، وفي ظل انفتاح الثورة المصرية على الدائرة الإسلامية، من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي التي تولى أمانتها عضو مجلس الثورة محمد أنور السادات [١٣٣٧ - ١٤٠١هـ / ١٩١٨ - ١٩٨١م] - اختار السادات الشيخ شلتوت مستشارًا لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لما لفكره وعلاقاته من أهمية وفاعلية في التواصل مع شعوب ومذاهب الأمة الإسلامية.

- وبعد تولي الشيخ شلتوت لمنصب وكيل الجامع الأزهر، أخذت كثير من الهيئات والمنظمات والمؤسسات تسعى إلى الاستفادة من علمه وتوجيهاته وخبراته واجتهاداته، ومن نشاطه الجم. فأصبح عضوًا باللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية وعضوًا في مجلس الإذاعة الأعلى.. وعضوًا باللجنة العليا لمعونة الشتاء.. ورئيسًا للجنة العادات والتقاليد بوزارة الشؤون الاجتماعية.. وعضوًا مؤسسًا لـ«دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» وواحدًا من أبرز كتاب مجلتها «رسالة الإسلام» وكانت فتواه الشهيرة بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفري، كواحد من المذاهب الفقهية الثمانية الموثقة - المالكي، والشافعي، والحنفي، والحنبلي، والجعفري، والزيدى، والأباضي، والظاهرى من إنجازاته المتميزة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة وترتب على ذلك احتضان الأزهر الشريف - وهو أقدم وأعرق وأكبر جامعات العالم الإسلامى جميع هذه المذاهب فى التدريس والإفتاء.

- وفى (٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٨هـ / ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨م) تولى الشيخ محمود شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر - ومن موقعه - كشيخ للأزهر - بدأ خطواته لتحقيق المشاريع الإصلاحية والتجديدية، التى طمح إليها ولم يتمكن من تحقيقها حتى ذلك التاريخ.. ومن ذلك مشروع إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» الذى أراده الهيئة العلمية العليا الجامعة لكبار علماء الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم - وهو المشروع الذى سبق واقترحه عندما عين وكيلاً للأزهر - وكان إنشاء هذا «المجمع» ضمن هياكل مشروع تطوير الأزهر، الذى صدر به القانون رقم (١٠٣) لسنة (١٩٦١م) ..

وهو التطوير الذى حلم به الشيخ شلتوت، وتيار الإصلاح الذى بدأه الإمام محمد عبده، والذى تغياً تخريج علماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ودعاة للإسلام يجمعون إلى فقه الدعوة حذق العلوم التقنية والإدارية الحديثة والعصرية واللغات الأجنبية، وذلك لمواجهة حركات التنصير - وخاصة فى أفريقيا وآسيا - تلك التى جمع قساوستها وجمعت مدارس إرسالياتها بين علوم اللاهوت وتقنيات العصر وعلومه، فامتلك خريجوها المتنصرون زمام الدول ومؤسساتها، بينما وقف المسلمون - هناك - بأبنائهم عند «الكتائب» و«الخلاوى» مكتفين بحفظ القرآن وشيء من الفقه والتفسير والحديث، تاركين الدولة ومؤسساتها للأقليات النصرانية، وذلك خوفاً على عقيدتهم من التنصير الذى اقترن التبشير به بدراسة علوم الإدارة والتقنيات الحديثة فى مدارس الإرساليات التنصيرية!

فجاء قانون التطوير للأزهر - الذى رعاه الشيخ شلتوت والذى وضع مواده، وكتب مذكرته الإيضاحية واحداً من أبرز الغيورين على الإسلام وفكره وتراثه، هو الأستاذ محمد سعيد العريان [١٣٢٣ - ١٣٨٤هـ / ١٩٠٥ - ١٩٦٤م] - ليجعل الأزهر مؤسسة الإسلام العالمية الكبرى، وليجعل جامعته - بكلياتها الشرعية والمدنية - المنبع الذى يلبي احتياجات المسلمين فى علوم الدين والدنيا... فجاء فى المادة الثانية من هذا القانون، عند الحديث عن رسالة الأزهر:

«الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته، وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر، ورفق الحضارة، وكفالة الأمن

والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة. كما تهتم بعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها. وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب رأى فيما يتصل بالشرعية الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفهمين فى الدين، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح، كفاية علمية وعملية ومهنية، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية.

كما جاء فى المذكرة الإيضاحية لقانون التطوير هذا مبادئ عدة ؛ منها:

أولاً: أن يبقى الأزهر، وأن يدعم ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب.

ثانياً: أن يظل كما كان منذ أكثر من ألف سنة حصناً للدين والعروبة، يرتقى به الإسلام، ويتجدد ويتجلى فى جوهره الأصيل، ويتسع نطاق العلم به فى كل مستوى وفى كل بيئة، ويزاد عنه كل ما يشوبه وكل ما يرمى به.

وكتيجة لهذا القانون - (١٠٣) لسنة (١٩٦١م):

- دخلت الفتايات الأزهر، وانتظمن فيه بأعداد غفيرة - فى جميع مراحل دراساته - لأول مرة فى التاريخ.

- وأنشئ «مجمع البحوث الإسلامية» - الشكل الجديد «لجماعة كبار العلماء».

- وأنشئت «مدينة البحوث الإسلامية»، لتمثل الأمانة الإسلامية الجامعة لأكثر من ثمانين جنسية من جنسيات الشعوب والأقطار الإسلامية.

- وأنشئ «معهد البحوث الإسلامية» - معهد الإعداد والتوجيه - الذى يؤهل الطلاب غير العرب للدراسة باللغة العربية.

- ودرست اللغات غير العربية - أوروبية وشرقية - بالأزهر.
- ودرس القانون المقارن في كليات الشريعة بجامعة الأزهر. وأصبح اسم هذه الكليات «الشريعة والقانون».
- ودرس فقه الشيعة إلى جوار فقه المذاهب السنية، والمذاهب الفقهية الموثقة مصادرها.
- وأصبحت المعاهد الدينية - الابتدائية، والإعدادية.. والثانوية - تغطي كل قرى مصر - التي تقترب من تسعة آلاف بعد أن كان عددها - في جيلنا - لا يبلغ عدد أصابع اليدين!
- كما أصبحت كليات جامعة الأزهر تغطي سائر محافظات مصر، وتمتد لترتفع مناراتها في الكثير من الأقطار الخارجية، الشرقية منها والغربية.
- وكان الشيخ شلتوت هو صاحب الرؤية والفكر اللذين تجسدا في هذا الإنجاز الكبير.
- وإذا كان «واقع» تطوير الأزهر الشريف لم يرتق إلى مستوى «آمال» الشيخ شلتوت من ورائه... فإن مرد ذلك عائد إلى «قصور» الذين قاموا بـ «التطبيق والتنفيذ».. الدولة التي لا خبرة لها بهذا الحقل من حقول العلم والتعليم، والتي لم تكن تثق بنوايا شيوخ الأزهر تجاه توجهها إلى «الاشتراكية العلمية» التي رفعت شعاراتها في ذات السنوات التي بدأت فيها مسيرة التطوير.. وشيوخ الأزهر، الذين لم يتحمس الكثيرون منهم لهذا التطوير، لسوء ظنهم برجالات الثورة، واتجاهاتهم الاشتراكية.. فانعكس سوء الظن هذا على مقاصد الدولة من وراء التطوير!
- بل إن المفارقة قد بلغت حد المأساة، عندما أصبح الشيخ شلتوت ذاته وهو روح التطوير وداعيته وراعيه... أول ضحايا قانون التطوير!... حتى لقد انتهت حياته بمأساة اقترفتها «البيروقراطية» والأثرة في الاختصاصات الإدارية، وذلك عندما استأثر «وزير شئون الأزهر» - وكان عالمًا فاضلاً - بكل السلطات الإدارية في الأزهر.. وناصره في هذا الاستئثار قسم الفتوى بمجلس الدولة - انطلاقاً من نصوص قانون التطوير، التي أرادت لمنصب شيخ الأزهر أن يكون دينياً فقط ولا علاقة له بالسلطات الإدارية في الأزهر - حتى إدارة مكتبه!.. فخاض الشيخ شلتوت معركة صامتة، تحلى فيها بالصبر

والشجاعة، ضد هذا العدوان على سلطات مشيخة الأزهر.. وكتب مذكرات شجاعة إلى رئيس الجمهورية - جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ / ١٩١٨ - ١٩٧٠م] وإلى رئيس مجلس الوزراء (على صبرى) مثلت - ولا تزال - صفحات فى كتاب الشجاعة والكرامة والشموخ.

فلما هزمته الأثرة والبيروقراطية، والتطبيق الجامد والحرفى للقانون.. قدم استقالته الشجاعة من مشيخة الأزهر فى (١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ / ٦ أغسطس سنة ١٩٦٣م).. وجاء فى كتاب استقالته الذى بعث به إلى الرئيس جمال عبد الناصر، عن أسباب هذه الاستقالة:

«... إلى أن أسندت وزارة شئون الأزهر إلى السيد الدكتور محمد البهى، فسار بها فى طريق لا يتفق مع رسالة الأزهر، وما يبتغيه طلاب الإصلاح له، حتى مس كيانه، وصدع بنيانه، وفى هذه الفترة الأخيرة، التى جاوزت العشرة شهور، ظللت من جانبى أحاول علاج ما ترتب على طريق سيره من مشكلات، وأدفع بقدر الاستطاعة عن حرمة الأزهر وحماه ولم أدع فرصة إلا التجأت فيها إلى المختصين عسى أن يهيب الله من الظروف ما يستقيم معه المعوج وينصلح به الفاسد. ولكن الأمور أفلت زمامها من يدي، وانتقلت من سبى إلى أسوأ، حتى تحول الأزهر فعلاً عن رسالته، ولم يصبح لمشيخة الأزهر وجود أو كيان.. وإزاء هذه الظروف السابقة المتجمعة، أجد نفسى أمام واحد من أمرين:

إما أن أسكت على تضييع أمانة الأزهر - وهو ما لا أقبله على دينى وكرامتى. وإما أن أتقدم أسفاً فى هذه الظروف بطلب إعفائى من حمل هذه الأمانة التى أعتقد عن يقين أنكم تشاركوننى المسئولية فى حملها أمام الله والتاريخ، ولذلك، فليس أمامى إلا أن أضع استقالتى من مشيخة الأزهر بين يديكم بعد أن حيل بينى وبين القيام بأمانتها.

والله أسأل أن يديم عليكم نعمة التوفيق فى خدمة العروبة والإسلام، وأن ينهض الأزهر فى عهدكم حتى يظل للإسلام حصناً وللوطن وللمسلمين فى مختلف الأقطار خيراً وبركة.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

- وما لبث الشيخ محمود شلتوت أن أصابه المرض - كما سبق وحدث للإمام

محمد عبده... عندما حيل بينه وبين إصلاح الأزهر - فتوفى الشيخ شلتوت بعد خمسة أشهر من تقديمه الاستقالة.. وصعدت روحه المطمئنة إلى بارئها راضية مرضية في [٢٧ رجب سنة ١٣٨٣هـ / ١٣ ديسمبر ١٩٦٣م]، في ذكرى الإسراء والمعراج.. بعد عمر امتد سبعين عامًا، كان فيها منارة سامقة للاستنارة والإصلاح والاجتهاد والتجديد.

ولقد كان الشيخ شلتوت من طلائع أئمة الأزهر، الذين تجاوزت شهرتهم وطن العروبة وعالم الإسلام.

- فمنح الدكتوراه الفخرية من جامعة «شيلي» - بأمريكا اللاتينية - سنة [١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م].

- ومنح الدكتوراه الفخرية - أيضًا - من جامعة جاكرتا - أكبر جامعات كبرى الدول الإسلامية.

- كما منح وسام العرش المغربي من الملك محمد الخامس [١٣٢٧ - ١٣٨٠هـ / ١٩٠٩ - ١٩٦١م] - سنة [١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م].

- كذلك، ترك الشيخ شلتوت - غير الشجاعة في الحق.. والنموذج الخلقى الرفيع.. والإنجازات العلمية الكبيرة والنشاط الفكري والدعوى والاجتماعى ذخيرة من الأعمال العلمية التى ضمت مشروعه الفكرى فى الاجتهاد والتجديد.

من أهم هذه الأعمال العلمية:

١ - فقه القرآن والسنة.

٢ - مقارنة المذاهب.

٣ - يسألونك (وهى إجابات عن أسئلة إذاعية).

٤ - منهج القرآن فى بناء المجتمع.

٥ - المسؤولية المدنية والجنايية فى الشريعة الإسلامية.

٦ - القرآن والقتال.

٧ - القرآن والمرأة.

- ٨ - تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام.
 - ٩ - الإسلام والوجود الدولى للمسلمين.
 - ١٠ - تنظيم النسل.
 - ١١ - رسالة الأزهر.
 - ١٢ - إلى القرآن الكريم.
 - ١٣ - الإسلام عقيدة وشريعة - طبعة دار الشروق - العاشرة - القاهرة سنة [١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م].
 - ١٤ - من توجيهات الإسلام - طبعة دار الشروق - السابعة - القاهرة سنة [١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م].
 - ١٥ - الفتاوى - طبعة دار الشروق - العاشرة - سنة [١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م].
 - ١٦ - تفسير القرآن الكريم - (العشرة أجزاء الأولى) - طبعة دار الشروق - السابعة - [١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م].
- ولقد ضمت طبعة دار الشروق لكتبه الأربعة الأخيرة أغلب دراساته الأخرى..
فكانها قريبة من أعماله الفكرية الكاملة.
تلك هى أبرز معالم هذه السيرة العطرة... والمسيرة العلمية الخصبة لهذا الإمام العظيم - الشيخ محمود شلتوت - عليه رحمة الله^(١)...

(١) انظر فى وقائع سيرة الشيخ شلتوت: على عبد العظيم: مشيخة الأزهر (٢ / ١٧٩ - ٢٤٣) طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).

منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت

كان الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م] أبرز فقهاء العصر الذى عاش فيه.. حتى لقد كان الشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦ م] يقول - أمام القضايا الفقهية.. المشكلة - مخاطبًا الفرقاء المختلفين: «آتونى فقيهاً مثل الشيخ شلتوت»؟!

ولم يكن الفقه عند الشيخ شلتوت محصوراً فى النطاق الضيق الذى حبسته فيه العلوم الاجتماعية - الحديثة، فى ظل الفصام النكديين الفقه وهذه العلوم الاجتماعية، وإنما كان وعياً بشمول الفقه لكل مناحى الحياة، فهو علم الوعى بميادين العبادات والمعاملات.. وهل فى حياة الإنسان - العابد لربه المعمر لكونه - إلا ما هو وثيق الصلة بالعبادات والمعاملات؟..

وإذا كانت المقاصد الإسلامية من عبادات المسلم هى «إسلامية معاملاته».. وإذا كانت «معاملاته الإسلامية» هى «شعائر وعبادات».. فإن الفقه الإسلامى قد كان، ويجب أن يظل العلم الشامل لكل ميادين الحياة..

لذلك، وانطلاقاً من هذا الوعى والفهم، لا نستغرب إذا رأينا الشيخ شلتوت - فى هذا الكتاب [منهج القرآن فى بناء المجتمع] - فى كثير من إبداعاته - فيلسوفاً من فلاسفة الاجتماع الإسلامى.

وإذا شئنا - من خلال هذا الكتاب - أن نضرب الأمثال على هذه الحقيقة، فإننا واجدون أن الشيخ شلتوت قد قدم الإسلام، ليس بالمعنى الذى أرادته له الحضارة المادية، عندما سعت إلى عزله عن الحياة.. وإنما قدمه باعتباره:

- دين الحضارة المعمرة للعقل والقلب.. للفرد والمجموع والاجتماع.. للدين

والآخرة «فالإسلام هو دين الحضارة المعمرة لا المخربة، العادلة لا الظالمة، الرحيمة لا الجبارة.. دين ليس يسائر النهضات الحديثة فحسب، وإنما هو دين ونظام إلهي، ينقى الحضارات الحديثة من الطغيان والتهور.. دين يقيم المجتمع الإنساني الفاضل على عمد أربعة:

١- المصلحة..

٢- العدل..

٣- والشورى الحققة الصادقة..

٤- والكون المسخر للإنسان، ليعمل فيه ويكافح».

ودين الاجتماع.. حتى أن تخلف المسلمين إنما يعود إلى الفصل بين هذا الدين وبين الاجتماع.. «فالإسلام هو دين المجتمع، ودين الشؤون الاجتماعية.. أليس الإسلام بكل ما فرضه من عبادات ومعاملات يعمل على تطهير القلوب من الحقد والحسد؟ ويعمل على تقوية أواصر الألفة والمحبة بين الأغنياء والفقراء، وبين الناس جميعاً، ويعمل على عمارة الأرض، وإقامة المشروعات، وإنشاء الحضارات، ويعمل على إعداد القوة التي ترهب الطامعين المفسدين، وتحقق العزة التي جعلها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين؟ أنجد بعد هذا شيئاً من عناصر المجتمع لم يعرض له الإسلام ولم يجعله من أهدافه الأولى؟

الحق والحق أقول: إن المسلمين لم يضعفوا في نهضتهم الاجتماعية إلا من يوم برزت هذه الفكرة الخاطئة، واعتنقها مدبرو الأمر فيهم، وقادة ثقافتهم، فكرة التفرقة بين الدين والاجتماع.. وصرنا نسمع في المسألة الواحدة: أن رأى الدين كذا، ورأى الاجتماع كذا!!».

- والإسلام دين الفكر والعقل والعلم.. «وحسبنا أن رسوله ﷺ لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم.. لقد ارتفع القرآن بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سبباً في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجري على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به: ﴿وَقَالُوا لَوْ

كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ [الملك: ١٠].. وكذلك ارتفع بالعلم، وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].. ثم جعلهم وحدهم هم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال، بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته: ﴿ وَمَنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

- وهو الدين الذي وجه الإنسان إلى الكشف عن أسرار الكون باعتباره عبادة لله.. «فلقد وجه الإسلام الإنسان إلى بحث الكائنات، وتعرف خواطرها وأسرارها، والانتفاع بها في بناء الحياة، على أساس أنها نعمة من الله، وآثار رحمته بعباده، تقابل بالشكر والحمد والثناء، وشكرها هو الإيمان بمصدرها، واستعمالها فيها ينفع الخلق وعمارة الكون..

وليس العلماء - كما جاء في التأويل الفاسد - هم أهل الفتيا بالمسائل الفقهية في الحل والحرمة فقط، وإنما العلماء هم الذين يعلمون أحكام الله وشرائعه على وجهها الصحيح، فيستدلون بما يعلمون على عظمة الخالق وقدرته وحكمته».

- ولأن الوسطية الإسلامية هي وسطية جامعة بين الجسم والروح.. بين الفرد والمجموع.. بين الذات والآخر.. بين الدين والدنيا.. بين السماء والأرض.. بين عالم الغيب وعالم الشهادة بين الدنيا والآخرة.. لذلك كانت هذه الوسطية الإسلامية - الجامعة هي «العين اللامة» لكل ميادين الحياة، وهي المنظار.. وزاوية الرؤية التي من خلالها يرى المسلم كل ميادين الوجود، وجميع العلاقات التي تربط بين هذه الميادين لهذا الوجود.. لذلك رأينا الأحاديث المستفيضة للشيخ شلتوت - في هذا الكتاب - عن هذه الوسطية الجامعة..

● فهناك الوسطية الجامعة للجسم والروح.. «فالإسلام دائماً ينظم بأحكامه واقع الإنسان بما يقف به في الحد الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط. إن الإنسان في واقعه جسم وروح وللجسم حظ ومتعة، وللروح حظ ومتعة، وكمال سعادته إنما يكون باستكمال حظي الجسم والروح معاً.. وإن الطيبات نعم الله على الإنسان،

والله يحب من عباده أن يقبلوا نعمه التي تدعو إليها فطرتهم، ويحب أن يرى أثرها عليهم، ويكره لهم الجناية على فطرتهم بمنعها حقها».

● والفطرة - في الإسلام - جامعة بين شعور الإنسان بالخالق وشعوره بالكون.. جامعة بين كتاب الوحي وكتاب الوجود.. بين السماء والأرض.. بين الدين والدنيا.. فلقد فطر الإنسان على خاصيتين:

١- خاصة الشعور بالإله الخالق.

٢- وخاصة البحث والنظر لمعرفة أسرار الكون، والانتفاع بها في الحياة..

ولقد تضمن القرآن هذين النوعين من التعاليم.. إن التعاليم المحمدية الماثلة في كتاب الله لم تقتصر في مهمتها للإنسان على إحياء شعوره الفطري بالخالق وعبادته، وإنما أوحى إليه في الجانب الإنساني أيضًا بما يحقق قيمته في الحياة، ويقف به في مركزه أمام الكون. وبذلك تطابق كتاب الوحي مع كتاب الكون، وصدق كل منهما الآخر، فامتزجت الروحية بالمادية، وكان الوسط الذي لا إفراط فيه، ولا تفريط.. لقد جددت التعاليم عهد الولاء بين الإنسان وخالقه، وردته إلى فطرتة، ثم ربطت بينه وبين الكون، وهياته بهذا الربط لحياة قوية شريفة، وبذلك كانت الدنيا من الدين، وكان الدين من الدنيا».

- ولهذه الوسطية الإسلامية الجامعة، كانت عمارة الكون عبادة لله.. بل هي العبادة التي خلق الله الإنس والجن للتبذل في محاربتها وميادينها، دونما رهبانية تحجب الإنسان عن الحياة والعمران.. «إن عبادة الله التي خلق لأجلها الجن والإنس، لم يكن سبيلها في هذه الحياة التبذل والانقطاع عن الدنيا، وإنما سبيلها تحقيق إرادة الله في كونه عن طريق العمل في عمارة الكون، وإظهار أسرار الدالة على عظمته ووحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

وهكذا يجب أن يفهم الناس أن الله لا يرضى من عباده أن يزهّدوا في الدنيا هذا الزهد المطلق، وأن ينقطعوا في الصوامع والبيع والمساجد لعبادته ومناجاته، فهو يناجى في الحقل، ويناجى في المصنع، ويناجى في المتجر، ويناجى في المجتمع، وكل تلك مناجاة يسمعها الله، ويتقرب بها العبد لله..

.. وإنى أعتقد أن من أهم الأسباب التي تأخر بها المسلمون، وتخلف ركبهم عن

العالم، شيوع أن الإسلام يعتبر الدنيا، والحرص عليها، والكد في تحصيلها، نقصاً في الدين، وأن كمال الدين إنما هو في التخفف منها والزهد فيها..

وإذا كان الإسلام قد حارب فكرة التبتل والانقطاع عن الدنيا بنصوصه الكثيرة التي حثت على العمل والسعي، وطلبت إلى الناس أن يضربوا في الأرض، وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم، من أرض للزراعة، وأدوات للصناعة، وبحار للتجارة، فإنه قد حارب كذلك، بل أشد فكرة التغالب على الدنيا والعمل في تحصيلها لخاصة النفس، واعتبر هذا الغرض من دلائل التكذيب بيوم الدين..

وكما تسقط المجتمعات من سلوك أفرادها مسلك التبتل، تسقط أيضاً من سلوكهم مسلك الطغيان المالى، الذى يقطع صلة الإنسان بأخيه وصلته بالله..

إن الروحية البحتة، أو المادية البحتة، لا يصلح واحدة منها سبيلاً للسعادة.. وإن الروحية المهيبة أساس للمادية المهيبة، وإن منها ينبع الروح المهيبة للمادة، وبتهذيب الروح المهيبة للمادة تكمل للإنسان سعاده فى دنياه وأخراه، فى فردة ومجتمعه».

- ولهذه الحقيقة، كان للصالح وللصالحات معنى متميز فى الإسلام.. «فليست الصالحات» التى يحث الله على عملها، ويقرن الإيمان بها، هى خصوص الصلاة والصوم والتسبيح والتهليل، وما إليها من العبادات الشخصية التى لا يتعدى نفعها إلى غير العامل، وإنما المراد بها كل ما يصلح به المرء نفسه، وأسرته وأمتة، فهى من الصلاح، لا بمعنى «التقوى والتعبد»، كما يفهمها كثير من الناس، وإنما هى من الصلاح الذى يقابل الفساد، ومنه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

- وحتى يستطيع المسلم تحقيق هذه المبادئ والمثل، لابد وأن يحقق استقلال شخصيته.. واستقلال شخصية المسلم لا يتأتى إلا باستقلال أمتة..

«فالأمة الإسلامية لا تسعد إذا لم تسد حاجتها بنفسها.. ومن هنا قرر علماء الإسلام أن كل ما لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية.. ومعنى أنه من فروض الكفاية، أنه إذا لم يتحقق فى الأمة أثمرت الأمة كلها..

وقد أرشدنا تاريخ الاستعمار أن أهم أسبابه وأول نافذة ينبعث منها تياره الكريه، وريحه الثقيل هو نقص الأجهزة التى تحقق للأمة كفايتها».

● واستقلال الأمة الإسلامية - ليس عزلة الجمود والتقليد.. بل إن هذا الجمود والتقليد هو الذى يحدث الفراغ الفكرى الذى يتمدد فيه الأعداء الذين يتربصون الدوائر بهذا الاستقلال..

وهو - كذلك - الخطر الداهم الذى يدمر مميزات الشخصية الإسلامية. «وإذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون مصادماً لقانون النمو والتناسل الطبيعى، فهو فى الوقت نفسه سلب لمزية الإنسان فى التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم، فيفعل ما يفعل دون عقيدة، ويترك ما يترك دون عقيدة.. وإن ترك المصادر الأولى فى استنباط الأحكام ودراستها، والتعلق بالشروح والتفسير الإنسانية التى اتصلت بالمصادر فى عهود الضغط على الفكر الإسلامى، واتخاذ هذه الشروح ديناً ونصاً يجب اتباعه، قد حرم النظر والاجتهاد فى تلك المصادر، التى جاءت على أساس التقبل لكل خير وصلاح، وطرح كل شر وفساد».

● وإذا كان الجمود والتقليد مدمر الطاقات والإبداع فى الشخصية الإسلامية، فإن التدين الشكلى هو الآخر مدمر للتقوى الإسلامية التى هى الثمرة المبتغاة من وراء كل العبادات.. «فليست التقوى هى ذلكم اللون الشاحب، أو الصوت الخافت، أو الرقبة المنحنية، ولا هى «الهمهمة» بكلمات تعرف بالتسييح والتهليل، ولا «الهزيمة»^(١) بآيات تقرأ وتتلّى، وإنما التقوى ذات عنصر إيجابى يدفع إلى فعل الخير للنفس وللغير، وذات عنصر سلبى يمنع من فعل الشر للنفس وللغير. هذه هى التقوى التى لا يعرف القرآن سواها».

ولمواجهة مخاطر الجمود والتقليد والتدين الشكلى، تحدث الشيخ شلتوت فى هذا الكتاب، عن الفوارق التى ميز بها الفقه الإسلامى بين البدعة والإبداع:

- ذلك «أن الابتداع فى الدين إنما يكون فيما تعبدنا الله به من عقيدة أو عبادة، أو حل أو حرمة. أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه، وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار

(١) الهزيمة: سرعة الكلام، مع التخليط، ودون التدبر للمعانى.

ما نراه موافقاً لمصلحتنا ومحققاً لخيرنا بحسب العصور والبيئات، فإن التصرف فيه من مقتضيات التطور الزمني الذي لا يسمح بالوقوف عند حد الموروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد.

وإذا كان لحياة الأبناء والأحفاد وسائل غير وسائل الحياة لأسلافهم، كان من ضرورة بقائهم، وطيب حياتهم، ومسايرتهم للتقدم الزمني، أن يخلعوا وسائل الأسلاف التي لا تتفق وزمنهم، ويعملوا جاهدين في تلبية عصورهم بما تتطلبه وتقضى به، وإلا تخلفوا عن الركب المجد في السير، وانقطع حبل اتصالهم بهم، وصاروا في عزلة لا يسمع لهم فيها صوت، ولا يعرف لهم فيها وجود..

لم ينكر الله على أحد من خلقه ابتداء شيء من متع الحياة الطيبة، ولا من وسائل قوتها واتساع عمرائها، وإنما كان الذي أنكره ابتداء الناس فيما بين ورسم، وتعبّد به عباده في العقيدة والعمل والحل والحرمة.. وإن آيات القرآن الكريم، وإرشادات النبي ﷺ، وهما أصل النظام الإلهي الإسلامي يدفعان المسلمين إلى مسامرة العالم غربية وشرقية في علومه الكونية، وفي جميع وسائل الخير والتقدم..».

● وللحفاظ على استقلال الأمة، ونقاء مكونات هويتها، تحدث الشيخ شلتوت عن مخاطر الغزو الفكري المهدد لخصوصياتها الاجتماعية. وهي مخاطر عانت منها الأمة المسلمة بسبب الاستضعاف الذي مكن منها الغزو الفكري الذي فرضته عليها حراب الاستعمار.. «فلقد وجدت عوامل الهدم الأجنبية الفرصة سانحة، فأخذت تنفث سموها الفتاكة في أجهزة المجتمع، من اقتصاد واجتماع، وتربية وعقيدة، وإيمان وأخلاق. أخذت بإرسالياتها وكتبها وجمعياتها، والأقلام المأجورة في هدم ذلك البناء الشامخ، واقتلاع شخصيته من نفوس أبنائه وورثته، وبذلك قضى فيما بيننا على العلم الصحيح، وقضى على الرحم العلمي والوطني والإسلامي بين أبناء الأمة..

فإذا كنا نريد حقاً أن ننقذ مجتمعنا من هول ما أصيب به، فإنه يجب علينا أن نؤمن بأن لكل مجتمع خصائص وشئون نفسية وقلبية، عليها نشأ وبها آمن، وأن نؤمن بأن أساس تعليمه المثمر وخدمته المفيدة هو ما طبع عليه من تلك الخصائص وتلك الشئون، وأنها وحدها هي التي تملئ عليه عوامل الثبات والنمو في سبيل ما يرسم له من مناهج الخير والتقدم.

إن القوى المضادة تعمل من كل جانب فى محيطنا على نبذ المبادئ الإيمانية التى تكونت بها شخصيتنا. وإن الجرائم الخلقية والاجتماعية التى تقع فى حياتنا على غير مثال سابق، ونقرأها فى الصحف والمجلات، أوضح مظهر لنجاح هذه القوى المضادة فى ثورتها على شخصيتنا الفاضلة.

ولقد أصبح لزاماً علينا أن نسير فى طريق الكمال التهذيبى، كما نسير فى طريق الكمال الاقتصادى والصناعى والسياسى، وبهذا نستطيع من طريق قريب أن نسترد ما فقدناه من عزة وكرامة.

لا ينبغي لنا أن نصيخ إلى تلك الصيحات التى تنطلق من حين لآخر فى جو مجتمعنا بأسماء خلافة، لها ما وراءها من زلزلة المجتمع فى معتقداته وأخلاقه، ثم فى انسلاخه عن نفسه، وذوبانه فى غيره، هذه الصيحات التى تنطلق كلها باسم المذاهب الحديثة فى الاقتصاد والاجتماع والتربية والإيمان، وهى فى واقعها تدور كلها حول نقطة واحدة، هى العمل على طرح القيم الأخلاقية. والمبادئ الروحية الإيمانية التى تجعل من الإنسان رقيقاً على نفسه، والتى تلبى طبيعته فى الخضوع للضمير الإيمانى الذى يخشاه ويعمل على إرضائه..».

● ولقد عاش الشيخ شلتوت فى عصر انقسمت فيه التوجهات والمذاهب الاجتماعية بين الرأسمالية الغربية وبين الشيوعية الماركسية.. لكن فقه الشيخ شلتوت لتمييز الإسلام فى مذهبه الاجتماعى، ولا يمتاز موقفه وفلسفته إزاء الأموال والثروات، جعله رافضاً للرأسمالية الطاغية «التي نشأت فمزقت الإنسانية، وجعلت أفرادها أشبه بحيوان الغاب، الغنى يطمع فيفترس الفقير، والفقير يحقد فيفترس الغنى، ولكل سلاحه الذى يقتل به أخاه».

وجعلته الفقيه الاجتماعى الذى يقدم فلسفة الاستخلاف الإلهية للإنسان فى الثروات والأموال باعتبارها الحل الإسلامى الوسطى وطوق النجاة من الوقوع فى هاوية الرأسمالية والشيوعية جميعاً.. «فائدة المال - فى الإسلام - يجب أن تعم المجتمع كله.. ولذلك أضافه الله، تنويهاً بشأنه، تارة إلى نفسه، وجعل المالكين له مستخلفين فى حفظه وتنميته وإنفاقه بما رسم لهم فى ذلك: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] ﴿وَلَيْسَتَغْنِيَنَّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ

أَيْمَنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴿[النور: ٣٣].
 وإضافة أخرى إلى الجماعة، وجعله كله بترك الإضافة ملكاً لها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ
 بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
 وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وإذا كان المال مال الله، كان من الضروري أن يكون المال - وإن ربط باسم شخص
 معين - لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع، ويتنفع به الجميع: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ
 لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].
 ومن هنا أضاف القرآن الأموال إلى الجماعة، وجعلها قواماً لمعاشهم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا
 أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ
 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

لقد أشعر الإسلام الأغنياء الذي آتاهم الله من ماله أن هذا المال وإن كان معقوداً
 في ملكيته بأسمائهم، إلا أن حق الانتفاع به مشترك بينهم وبين إخوانهم.. مشترك
 بينهم وبين المصالح العامة التي تحتاج إليها الجماعة».

- ولهذه تجاوزت «الأخوة الدينية» - في الإسلام - حدود المشاعر والعواطف
 لتصبح «أصدق تعبير عن الحقوق والواجبات الاجتماعية، حتى لقد سما الإسلام
 بهذه الأخوة الدينية عن مركز «الأخوة النسبية».. وبها فقدت الأخوة النسبية آثارها من
 ولاية وتوارث إذا تجردت عن الأخوة الدينية، وبها صار المجتمع الإسلامي بالعتيدة
 والإيمان ذا جهاز واحد.. وقد كان من مقتضيات هذه الأخوة التضامن الاجتماعي
 بين المسلمين.. وهذا التضامن الاجتماعي هو أول عناصر الحياة الطيبة للمجتمعات،
 وله شعبتان: تضامن أدبي، وتضامن مادي.. فشعبته الأدبية أساسها من أحد الجانبين
 التوجيه إلى الخير والنصح والإرشاد، والإخلاص في الرأي والمشورة. ومن الجانب
 الآخر الاستماع والتقبل والامثال.

أما شعبته المادية فإن أساسها سد حاجة المعوزين وتفريج كرب المكروبين،
 والمعونة في تحقيق المصالح العامة التي تنهض بحياة الجماعة، ويعم خيرها الأفراد
 على حد سواء.

وقد عنى القرآن عناية كاملة بالحث على البذل للفقراء والمساكين، وفى سبيل الله. وكلمة «فى سبيل الله» من الكلمات الفذة التى جاء بها القرآن، وهى بذاتها تملأ القلب روعة وجلالاً، وتملاً الكون خيراً وصلاًحاً، ولا يخرج عن معناها نوع من أنواع البر، خاصة وعامة».

● ولتأكيد هذه الفريضة - فريضة التضامن الاجتماعى قرن القرآن الكريم بين إنفاق الأموال وبين الإيمان بالله، وجعله آية الإخلاص فى العبادات.. «فأنت لا تجد فى القرآن الكريم ذكراً للإيمان إلا مقروناً بالإنفاق فى سبيله، وإطعام البائس والفقير. فسورة البقرة تبدأ ببيان أوصاف المتقين الذين ينتفعون بالقرآن وهديه ويكون منها ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. ثم تعرض لأصول البر الذى يطلبه الله من العباد، ويكون منها بعد الإيمان ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ويجعل ذلك من دلائل الصدق فى الإيمان والتقوى.

وسورة الأنفال تذكر مقومات الإيمان، ويكون منها بعد وجل القلوب من ذكر الله، وزيادة الإيمان بآياته ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]. وتقول: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

ونرى سورة النساء والحجرات تذكران الإيمان، ولا تذكران معه سوى الإنفاق فى سبيل الله ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٩].. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وهذا أسلوب يضع الإنفاق فى سبيل الله فى مستوى الإيمان.

وإذا قلبنا صفحات القرآن لم نجد له عنوان العقبة، التى تحول بين الإنسان وسعادته، على شىء سوى إطعام الفقير والمسكين، كما أنه لم يجعل عدم التحريض

على شيء من تكاليفه علامة على التكذيب بيوم البعث والجزاء، وعلامة على عدم الصدق في الصلاة وإقامتها، سوى إطعام المسكين ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكَ رَقَبَةٍ﴾ (١٢) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ﴾ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿الْبَلَدُ: ١١ - ١٨﴾، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتِمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون].

وهذا أسلوب يضع الإنفاق في سبيل الله، وإطعام الفقير المحتاج، موضع العقبة والحاجز الذي لا بد من اقتحامه ليصل الإنسان إلى سعادته، إن لم يكن بنفسه فبحض القادرين عليه وإرشادهم إليه. وقد قص الله علينا بعد ذلك أن المجرمين سيسجلون على أنفسهم في الجواب حين يسألون يوم الدين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر: ٤٢].. سيسجلون مع التكذيب بيوم الدين، والخوض في الباطل، إهمال حق الفقير والمسكين ﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣) وَلَوْ كُنَّا نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدينِ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٦].

فالصلاة، على مكانتها في الدين، وعلى أنها الركن الذي يلي الإيمان، لا تقع عند الله موقعها إلا إذا دفعت بصاحبها إلى القيام بحق الفقير والمسكين، وكذلك الصوم والحج، لا نجد لهما في ترغيب القرآن وترهيبه مثل ما وجدناه للإنفاق في سبيل الله. فهل لنا أن نقرر أن الإسلام لا يقيم وزناً لشيء من تكاليفه إذا لم تغرس في قلب المسلم عاطفة الرحمة، ومبعث الإنفاق والبذل والعطاء؟ نعم، هذا هو ما أعتقد، وهو ما يدل عليه القرآن الكريم.

● ولأن المال هو مال الله، استخلف فيه الإنسان ليكون أداة لتحقيق الأخوة الاجتماعية، المعبرة عن الأخوة الدينية، حرم الإسلام الإسراف والترف والتبذير، - وهي الأمراض الاجتماعية المهلكة للأفراد والأمم والحضارات.. «لقد اعتبر الإسلام الإسراف الترفي من موجبات الحجر، احتفاظاً بأموال الله التي هي قوام الحياة وعصبها للفرد والجماعة وتطهيراً لصدور المعدمين من الحقد الذي تولده وتنميه مظاهر السرف المحيطة بهم، وهم محرومون من حاجتهم الضرورية والمعيشة المطمئنة المريحة..

إن الترف منيع شر يملأ القلوب حقداً وضغينة ويقضى على حياة الأمن والاستقرار، ويصل بأصحابه إلى جحود الحق وإنكار الشرائع، ويغرس في نفوسهم الأثرة وفتنة الطبقات، وما وقف في وجه الرسائل الإلهية سوى المترفين الذى رأوا أن فى تلك الرسائل ما ينزل بهم إلى مستوى الفقراء والضعفاء، أو يصعد بهؤلاء إلى مستواهم».

● ولتحقيق هذه المقاصد، التى نبه عليها الشيخ شلتوت، فى صفحات هذا الكتاب، كان محور الحفاظ على الشخصية المعنوية التى رسمها الإسلام للإنسان المسلم وللأمة المسلمة وللحضارة الإسلامية، الفريضة الحاضرة فى كل صفحات هذا الكتاب.. فتميز الشخصية المعنوية الإسلامية هو السبيل الوحيد للامة الإسلامية، التى هى فريضة دينية وضرورة حياتية فى آن واحد.. «وإن خير سبيل لتوحيد المسلمين ولم شعثهم هو رجوعهم إلى شخصيتهم المعنوية التى رسمها الإسلام، والتى على أساسها يجتمعون، وبها يعززون: كتاب الله، الذى هو كتاب الشخصية المعنوية للمسلمين.. وذلك يقتضى اجتماع علماء المسلمين وقادتهم لوضع نظام محكم الحلقات لنشر الدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم، يكون أساسه الإعداد القوى لرجل الدين الذى يقتحم الصعاب، ويمتلك القلوب بعلمه وبيانه وفعله وسلوكه.

وإنشاء منظمة إسلامية اقتصادية وحضرية، مهمتها تنسيق وسائل الاقتصاد والحضارة، وسد حاجات الجماعات الإسلامية بعضها من بعض، فلا يجد المستعمر نافذة يخلص منها إلى استنزاف البلاد وتثبيت قدمه فيها.. وتكوين قوة حربية لتدفع شر الاعتداء، وتخلص الرقاب المسالمة، وترهب أعداء الله وأعداء الإنسانية..».

● ولأن الشيخ شلتوت كان علماً بارزاً فى مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامية، التى تبلورت من حول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولأن هذه المدرسة الإصلاحية - قد عرفت مكانة الأزهر فى دعوة الإصلاح، فلقد تحدث الشيخ شلتوت عن الأزهر، كإمام بين مؤسسات الإصلاح المنوط بها النهوض بأمة الإسلام.. «فالأزهر هو وحده الذى يستطيع إذا هيئت له السبل، ومهدت له طريق البحث والتوجيه، أن يعمل على غرس الروح الدينى السليم فى النفوس، وهو وحده - باعتبار مكانته الدينية - الذى يستطيع توجيه المجتمع، وضم شتات المسلمين فى جميع بقاع الأرض، على أساس

من الوحدة المثالية التي يصفها الله بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* * *

هكذا تحدث الشيخ شلتوت عن [منهج القرآن في بناء المجتمع] حديث الفيلسوف الاجتماعي، والفقيه الذي جعل من الفقه الإسلامي الديوان الأكبر لعلم الاجتماع..

رحمه الله رحمة واسعة.. وجعل من إحياء تراثه، والوعى بمقاصد فقهه إسهامًا في التجديد لفكرنا الإسلامي.. وهو إسهام ندعو الله أن ينفع به، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم.. إنه سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب.

حاجة الإنسان إلى الدين

للشيخ محمود شلتوت

[١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م]

خلق الله الإنسان ليكون خليفة في الأرض، يقيم فيها العمران.. لذلك، كان من مقتضيات اللطف الإلهي والحكمة الربانية أن يُعين الله هذا الإنسان على تحقيق مهمة الخلافة والاستخلاف، بأن يهيئ له من أمره رشداً، وذلك برسم معالم الطريق السوى الراشد لهذا العمران.. هذه المعالم التي نزلت بها رسالات السماء - ديناً - يحدد سبل الرشاد لهذا الإنسان في المعاش والمعاد..

فمع نعمة الخلق.. ونعمة الاستخلاف.. ونعمة تسخير ما في الكون من طاقات لتحقيق العمران.. كانت نعمة الوحي والدين لترشيد سعي الإنسان إلى البناء والتجديد لهذا العمران.. وحتى يكون العمران شاملاً للنفس الإنسانية، وليس فقط للواقع المادي، إذ أن رشاد عمران الواقع المادي مستحيل بدون رشاد عمران النفس الإنسانية، الصانعة لمطلق العمران.

● ولأن العقل الإنساني نسبي الإدراك.. يدرك الظواهر والآثار في عالم الشهادة، ويغيب عنه إدراك الجوهر والكنه، وحقائق عالم الغيب، كان لابد، لإعانة العقل وترشيده، من الدين، الذي هو من العلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط، والذي لا يقف عند عالم الشهادة وحده، وإنما يضرب الأمثال لما في عالم الغيب من حقائق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فالإنسان مادة وروح، والدين هو الذي يربط بالملا الأعلى، فلا يُترك فقط للماديات.

● والدين يزكي العقل دون أن يؤلهه.. كما يزكي الشورى البشرية دون أن يطلق لها العنان فتحل الحرام وتحرم الحلال.. ولذلك كان الدين ضرورة لترشيد العقل

والإرادة والفعل، ولحماية ملكات الإنسان من الانحراف والضلال.. إنه تنمية لنوازع الخير فى الإنسان.. وحراسة لملكات هذا الإنسان من غواية شياطين الجن والإنس والنفس الأمارة بالسوء.

- وإن ثمرات العقول المجردة وقواعدها وقوانينها، إن احترمتها عقول الصفوة والخاصة - عقول الحكماء - فإن الدين هو الضامن لاحترام الكافة القواعد والقوانين النابعة من الدين، الذى يعلو سلطانه لدى الكافة على كل سلطان.

● ذلك هو موضوع هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه [حاجة الإنسان إلى الدين] الذى أبدعه عقل العلامة الإمام الأكبر الشيخ شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣م].

- ونحن إذا شئنا - فى التقديم بين يدي هذا الكتاب - إشارات لبعض ما فيه من إضاءات.. فإن لدينا - على سبيل المثال - حديثه عن:

أن التوحيد الدينى هو الفطرة التى فطر عليها الإنسان.. «فالإيمان بالواحد الأحد شأن فطرى، تنزع إليه النفوس متى سلمت من آفات الخلق، ومثيرات الهوى والتعصب.. وإن من مقتضيات الإيمان به سبحانه الإيمان بأن له هداية يبعث بها من يصطفى من عباده، إذ ليس من المعقول أن يخلق العالم بهذا الإبداع، ويخلق فيه الإنسان مزوداً بقوى التفكير والعمل والكفاح ثم يتركه يهيم فى أودية الضلال كالوحش فى الفلاة.. فالإيمان بشرع الله وهدايته لازم عقلى للإيمان بالله ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠).

وجماع التدين عند الله هو قيام الإنسان بممارسة شرع الله وهدايته.. وبذلك يكون وازع الإنسان نابغاً من ضميره وإيمانه، يخشاه فى سره قبل أن يخشى الناس فى علانيته.. فالتدين الحق عند الله هو الاعتصام بحبله المتين، الذى هو كتابه الذى يربط القلوب بعقيدة واحدة، ويسلك بها سبيلاً واحداً نحو غاية واحدة، هى سعادة الدنيا والآخرة.

وجماع الخير وأصول البر والتقوى، وآية الصدق فى التدين عند الله ثلاثة: عقيدة صحيحة، وخلق فاضل، وعمل مثمر مفيد.

فالعنصر الدينى ضرورة تلبى نزعة طبيعية فى الإنسان.

- والدين هو هداية الله لعباده.. فهو الذى يوجههم إلى النظر فى الكون.. وكل تعاليمه تلبية لطبيعة الإنسان على وجه معتدل، لا إفراط فيه ولا تفريط.. والقصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصالح فى الأرض على أساس قوى متين.

لقد شد الله أزر عباده المؤمنين، وقوى فيهم روح العمل، وأرشدهم أن يستعينوا على تكاليفهم الدينية، وواجباتهم الاجتماعية، ومنحهم الكونية بأمرين لهما خطرهما فى قوتهم واحتمالهم، وهما: الصبر، والصلاة.. والصبر هو الثبات فى القيام بالواجب، وبذل الجهود فى مقاومة الصعاب دون يأس أو هلع. وليس الصبر مجرد الاستسلام والخنوع أمام الحوادث وترقب القدر المجهول.. والصلاة هى رحلات إلهية للخشوع والتذكر والمراقبة.

وإن المدرسة التى يخلو منهاجها من الدين إنما تكون إنساناً لا يزيد كثيراً فى معناه عن هذا الإنسان الآلى.. ومعارف مثل هذه المدرسة لم يجن العالم منها إلا الشقاء والدمار، فالعلم وحده صار أداة تخريب وطغيان أكثر من أن يكون أداة للتعمير والعدل، وبهذا انقلبت الحياة جحيماً لا تحتمل.

- وإن الاعتماد فى تنظيم العالم، والسير بالحياة على الفكرة الإنسانية اعتماد على شفا جرف هار، اعتماد يؤدى بالعالم إلى الخراب والدمار، وإذن فلا بد من تلمس مدد آخر يملك على الإنسان بمصدره باطنه وظاهره وخلوته قبل جلوته.. وليس من ذلك سوى الضمير الدينى الذى يربط الإنسان بالرقيب الذى لا ينام، وبالعالم الذى لا يجهل، وبالقوى التى تؤمن الفطرة بقوته، والذى يتلقى الإنسان به نظم حياته عن ذلك الرقيب العالم، القوى القاهر، فيسلم فى الحياة وتسلم له الحياة.

هذا المدد هو الهداية السماوية التى تعهد الله بها عباده، وآمنت به الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة الإنسان فى هذه الحياة.

فالدين فى حقيقته ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لا تغنى عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعى.

والإنسان فى عصرنا هذا أشد ما يكون حاجة إلى الدين، فإن التقدم العلمى المادى

الذى غزا الفضاء ولم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التى ينشدون، بل زادهم كلبًا على المادة، وتنافسًا جشعًا جر إلى حروب كونية مدمرة، وينذر بأخرى لا يعلمها إلا الله.. فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن تجد هذا الدين - كما أنزله الله - واضحًا ميسرًا، خاليًا من الغموض، والتعقيد، سليمًا من التحريف والتبديل، إلا فى الإسلام، خاتم الرسالات الإلهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة.

● إن حكمة الحكماء والقواعد الأخلاقية الفلسفية لا تعدو أن تكون عملاً إنسانياً لا يكتنه بطبعه الحقيقة الكامنة فى النفس، ولا يحيط بجميع الجوانب التى كثيراً ما تخفى على العقل المحدود فى إدراكه، ومن هنا اضطربت قواعد، وظهرت أخطاء، وتغيرت اتجاهات.. وليس لهذه النكبة من سر سوى انسياق الناس فى حياتهم مع نظم وضعها الإنسان وأملت عليها الشهوات والنزعات..

ولذلك، فلا سلامة للعالم من طغيان القوة والجبروت، ولا من ذلة الضعف والهوان، إلا إذا خلعت الأمم ذات الشخصيات البشرية الطاغية نفسها من إطار تلك الشخصيات، ورمت بها إلى قاع المحيطات، ورجعت إلى هذه الشخصيات المعنوية التى رسمها العليم الخبير بطبائع البشر، طريقاً لسعادته، ونزل بها الروح الأمين على رسل الله..

ولعمري، إن العالم سىظل فى هذه الحيرة وهذا الاضطراب ما دام متمسكاً بأهداب هذه النظم التى افتجرها أساساً لحياته فما ذاق منها إلا الخوف والجوع، والظلم والطغيان.

- إن منا من خدعته المذاهب البشرية وفتن بها، وأخذ يدعو الناس إليها ويحببهم فيها ويصرفهم بها عن دين الله وشرعه.. وإن أشد ما أخشاه أن يتم لهم ما يريدون، فيشيع التحلل من العقائد، والتنكر للأخلاق، وتنسخ من القوانين البقية الضئيلة المتعلقة بالأسرة كما نسخت أخوتها (المدنيات والجنائيات) من قبل، وأصبحت مصادر التشريع فيها صفحات تاريخية يتحدث الناس عنها كما يتحدثون عن قيام الدول وسقوطها!

- إن العقل هو آلة التفكير، والعلم ثمرته.. وكل ما ورد فى القرآن حثاً على التفكير

هو إعلان عن فضل العقل، وإحياء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإحياء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات.. وبذلك كان الإسلام دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم. وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم..

لقد ارتفع الإسلام بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سبباً في عذاب الآخرة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وكذلك ارتفع بالعلم، وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] ثم جعلهم وحدهم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم في نظر الشرع ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام، وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقاً في القيام بمهمته العظمى التي أُلقيت على كاهله منذ قد خلقه، وجعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها، واستخراج كنوزها، وإظهار أسرار الله فيها.. فالعلم، بمعناه الشامل، هو العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الإسلام.

● والتفكير الذي يريده القرآن، والذي هو أول الوسائل للتهذيب الروحي، ليس هو التفكير الجاف، الذي يأخذ العقل به آثار الكون المادية، ثم يطغى بها على الذين لم تهئ لهم ظروف الحياة وسائل تفكيرهم، ولا درجة عقولهم، فهو تفكير شر من الجمود، وعلم شر من الجهل، لا يريده القرآن ولا يعرفه. وإنما يعرف القرآن من التفكير ما يصل بالإنسان إلى معرفة الآثار مسندة إلى مصدرها الذي أنعم بها، وعندئذ يشكر ولا يكفر.. وإن هؤلاء الذين قصروا التفكير على نتائجه هم في نظر القرآن ممن قال فيهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

● ولقد كثرت آيات القرآن الواردة في ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال.. فالجمود عند الموروث، والاكتفاء به مصادم لما تقضى به طبيعة الكون وطبيعة كل حي من النمو والتوليد.. والتناسل الفكرى كالتناسل النباتى والحيوانى، والإنسانى، كلاهما شأن لا بد منه فى الحياة.. والجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون سلب لمزية الإنسان فى التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم، وجناية على الفطرة البشرية وسلب لمزية العقل التى امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله.

● ولقد قامت الوسطية الإسلامية بين المادية البحت والروحية البحت.. إذ ليس فى المادية البحت سوى الطغيان والظلم، والاستعباد والذل، والتحكم الغاشم بالأرواح والأموال والأعراض. وليس فى الروحية البحت سوى الخراب والدمار، وتعطل ما كرمت به الإنسانية من قوى التفكير والإرادة والعمل.

إن فى الرهبانية تعطيل لما كرم الله به الإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل.. وفيها بقاء أسرار الكون ومنافعه كامنة فى أطباق الأرض وأجواء السماء، وقد سخرها الله جميعاً للإنسان وسلطه عليها ومهد له طريق إظهارها، وعمارة الكون بها.

وإن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا باستكمال حظه الجسمى والروحى معاً، واستكمال حظه الاستقلالى والاجتماعى معاً.

وإن لهو الحياة ولعبها ليسا ينصبان على ذات الحياة باعتبار ما فيها من خير ونفع للعباد، وإنما ينصبان على من يتخذ نعم الله فيها سبيلاً لشهوته وهواه، يدنس بهما نفسه، ويميت بهما قلبه.

وإن عبادة الله التى خلق لأجلها الجن والإنس لم يكن سبيلها فى هذه الحياة التبتل والامتناع عن الدنيا، وإنما سبيلها تحقيق إرادة الله فى كونه عن طريق العمل فى عمارة هذا الكون، وإظهار أسرار الله الدالة على عظمتة ووحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

وإن الله لا يرضى من عباده أن يزهدوا فى الدنيا هذا الزهد العام المطلق، وأن ينقطعوا فى الصوامع والبيع والمساجد لعبادته ومناجاته، فهو ينجى فى الحقل،

ويناجى فى المتجر، ويناجى فى المجتمع، وكل تلك مناجاة يسمعها الله، ويتقرب بها العبد لله.

كذلك، فإن الإسلام أشد إباء وإنكاراً للتكالب على الجمع والادخار فى محيط الدائرة الشخصية، وفى خدمة وجوده المادى الخاص، غير مكترث بشيء من جوانب الفضيلة الروحية، ولا الشكر الإلهى على ما هبى له من نعم.

وكما تسقط المجتمعات من سلوك أفرادها مسلك التبتل، تسقط أيضاً من سلوكهم مسلك الطغيان المالى.. فالروحية المهذبة أساس للمادية المهذبة، ومنها ينبع الروح المهذب للمادة، وبتهذيب الروح المهذب للمادة تكمل للإنسان سعادته فى دنياه وأخراه، فى فرد، وفى مجتمعه، وهكذا تعانق روحية الإسلام المادية الفاضلة.

● ولقد نهج الإسلام - كذلك - نهجاً وسطياً فى التنظيم الإسلامى، فبنى تنظيمه للعالم على الواقع، وهو أن الإنسان جسم وروح، وأن للجسم حظاً ومتعة، وأن للروح حظاً ومتعة، وأن للإنسان شخصية مستقلة عن بنى جنسه، وشخصية يكون بها لبنة فى المجتمع الوطنى والإنسانى، وأن له بكل من هاتين الشخصيتين حقوقاً وعليه واجبات، ولا تتحقق سعادة الإنسان إلا باستكمال حظى الجسم والروح على وجه من الاعتدال الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، وإلا بتنظيم حقوقه وواجباته فى علاقته به وعلاقته بمواطنيه وبنى جنسه على وجه من الاعتدال الذى لا إفراط فيه ولا تفريط.. وإن الاستقامة ليست سوى الوقوف بالقوى فى مستوى التوازن، كما أن الطغيان ليس سوى تغلب بعض القوى على بعض.

● ومن موجبات وثمرات استخلاف الله الإنسان فى الأرض، استخلافه له فى الثروات والأموال، على النحو الذى يحقق التكافل الاجتماعى بين الأنام.. ولذلك لفت الإسلام أنظار الناس إلى أنهم مستخلفون فى الأموال، وأنها كلها لله، يضعها حيث يشاء، ويأمر فيها بما يشاء، ومن هنا قرر الإسلام فى الأموال حق الفقير، وحق العاجز عن الكسب، وحق المصالح العامة.. وأعلن القرآن للمؤمنين أن المال فى يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله استخلفهم فى حفظه وإدارته وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة ومفيدة ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نَكَاةً حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ

مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴿٣٣﴾ [النور: ٣٣].. وأشعرهم بالوحدة القوية الموجبة للتكافل والتعاون والإيثار، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ [النساء: ٥]، ولقد اعتبر القرآن أن إطعام الفقير والمسكين هو العقبة الوحيدة التي إذا اقتحمها الإنسان وصل إلى السعادة الحقة، التي لا يشوبها تنغيص ولا ألم ﴿ فَلَا أَقْنَحَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿ ١٢ ﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿ ١٣ ﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿ ١٤ ﴾ بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ ﴿ ١٥ ﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿ ١٦ ﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ﴿ ١٧ ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَمَّةِ ﴿ [البلد: ١١ - ١٨] .

وحسب الفقير أن الله لم يذكر في كتابه شأنًا من الشؤون باسم العقبة إلا في هذا الموضع، موضع تنظيم علاقته بالغنى.

ولقد اعتبر من لا يحض على طعام المسكين من المكذبين بالدين الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿ ١ ﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿ ٢ ﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ ٣ ﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿ ٤ ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ ٥ ﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿ ٦ ﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿ ٧ ﴾ ﴾ [الماعون: ١-٧].

وقال في الذين يكتزون الذهب والفضة - ولا ينفقونها في سبيل الله ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].. وذكر جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ ٤١ ﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿ ٤٢ ﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿ ٤٣ ﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ﴾ [المدثر: ٤١، ٤٤].. وقال في أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْتَّكَاثُرِ ﴿ ١ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ ٢ ﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٤ ﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿ ٥ ﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿ ٦ ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿ ٧ ﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿ ٨ ﴾ ﴾ [التكاثر: ١-٨].

إن الترف غول الأمم، يأكل فيها مكارم الأخلاق، وينزل بها إلى مهاوى التهلكة. ولقد اعتبر الإسلام الإسراف الترفى من موجبات الحجر، احتفاظاً بأموال الله التي

هى قوام الحياة وعصبها للفرد والجماعة، وتطهيراً لصدور المعتمدين عن الحقد الذى تولده وتنميه مظاهر السرف المحيطة بهم، وهم محرومون من حاجتهم الضرورية والمعيشة المطمئنة المريحة.

● وكما للفرد شخصيته المستقلة.. كذلك للأمة والجماعة طابعها الخاص، به يصلح شأنها، وترسمه لها قوميتها الخاصة، التى يكونها دينها ولغتها وتقاليدها.. فإصلاح مجتمع غربى لا يكون طريقه طريقاً لإصلاح مجتمع شرقى، وإصلاح مجتمع غير متدين لا يكون طريقه طريقاً لإصلاح مجتمع متدين.

● ولقد جاء الإسلام تجديدًا لدين الله الواحد.. ولم يكن دينًا جديدًا، وإنما هو - كما نص القرآن الكريم - دين الله، أوحاه إلى جميع رسله.. وعندما كملت الإنسانية وبلغت رشدًا فى العقل والتفكير، أرسل الله محمداً يجدد ويصدق دعوة إخوانه الأولين، ويكملها بما يقتضيه النضج الإنسانى والرشد البشرى.

● والتشريع الإسلامى لم يبلغ حرية الإنسان فى التشريع، وإنما ضبط هذه الحرية بما شرع الله، فوضع الأحكام وأصول التشريعات المنظمة لحياة الإنسان، فلم يترك الناس يشرعون لأنفسهم فى كل شىء، ولم يقيدهم بتشريع معين فى كل شىء، وإنما نص وفوض، نص على أحكام ما لا تستقل العقول بإدراك الخير فيه، وما لا يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأشخاص، وفوض فيما وراء ذلك - معرفة ما تقضى به المصلحة - لأرباب النظر والاجتهاد فى حدود أصوله العامة، وبذلك حفظ الإسلام للعقل الإنسانى كرامته، وصانه فى الوقت نفسه من الاضطراب والفوضى.

● وإعداد القوة فى الإسلام سبيل من سبل السلام.. فلقد شرع إعداد القوة حفظاً لكيان الدولة، ورداً لغائلة المعتدين.. فالقوة فى نظر الإسلام ليست إلا طريقاً من طرق الإصلاح، وسبيلًا من سبل السلم بإرهاب المفسدين ورد المغيرين، وتقوية جانب الخير بشد أزر المصلحين.. وهو لا يقرها للإذلال والتخريب، وإخراج الناس من ديارهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم فى الحياة، ولا يريد إكراهاً للناس على اعتناق الدين.

● وكمال الحشمة - فى الإسلام - آية من آيات الرقى الإنسانى.. فسنة العرى التى يألفها بعض القبائل المتوحشة، وإبداء شىء من مفاتن الجسم، كما نراه اليوم من دعاة

الحضارة الزائفة، مخالف للآدب الإنسانى العام، ومناف لما تقتضيه الطبيعة الآدمية من التحفظ والابتعاد عن مظاهر التبذل وعوامل الفتن.

● ولأن للإسلام أركاناً وسنناً ومعالم تميز أهله، فإن من آمن بأسسه هذه ومبادئه - فى العقيدة والشريعة - كان مسلماً حقاً، تجرى عليه أحكام الإسلام. ومن أخل باعتقاد شىء منها أو خرج على احترامها، خرج عن دائرة الإسلام، وكان من الملحدين فى آيات الله، الكافرين بشرائعه وكتبه، لا تجرى عليه أحكام الإسلام، فلا يحقن له دم، وتبين منه زوجته، ولا يستحق ميراثاً من أقاربه، ولا يصلى عليه إذا مات، ولا يدفن فى مقابر المسلمين.

● أما علاقة الإسلام بالآخرين - من غير المسلمين - فهى علاقة السلم والمسالمة - فلقد دعت هداية الله إلى السلام، إلى حد أنها لم تجعل المخالفة فى الدين الحق سبباً من أسباب العدوان والبغى، ونرى ذلك جلياً فى قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]. ونراه فى المبدأ العام الذى جعله أساساً لمعاملة أهل الكتاب الذين لا يؤمنون برسالة محمد، ذلكم المبدأ المعروف وهو تركهم وما يدينون، والتحذير من التعرض لهم فى شعائهم وأموالهم، والتسوية بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات العامة، وسمت فى كل ذلك حتى أوجبت على المسلمين إعانة المنكوبين منهم، وأباححت الاختلاط بهم، والتعاون معهم، ومصاهرتهم. وما أباحت القتال إلا عند العدوان واستلاب الحقوق، وهنا فقط أباحت القتال ردّاً للبغى، وهو فى الحقيقة تقرير للسلام وإقامة للموازن العادلة ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

● ولأن الأمة الإسلامية قد دخلت فى مأزق حضارى، فإن النهضة المنشودة، التى تخرجها من هذا المأزق، لابد أن تنطلق من الهداية الإلهية التى كانت السبب الأول فى نهوضها الأول.. فعلىنا نحن الشرقيين أن نكون أمة واحدة، لها قلبها الحى

وروحها الوثاب، تحمل مشكاة الدعوة، وتبدد بها ظلمات المادة فى أجواء العالم كله، بعد أن تبدد من سماء نفسها ما تلبدت به من غيوم تلك المادة، ويومئذ تعود لنا مكانتنا الأولى، مكانة المعلم الإنسانى العام.

وسبيل ذلك هو إيجاد الروح الدينى الخالصة، الذى يكون العامل الأول فى غرس البذرة الأولى فى تكوين هذه الأمة، وإنا لن نظفر بهذا الروح الدينى الخالص حتى يكون قد دخل فى إعدادة:

أولاً: فهم الدين واضحا صحيحا من مصادره الأولى، دون التجاء إلى التقيد برأى فرقة خاصة أو مذهب معين.

ثانياً: الوقوف على العقلليات الحاضرة للجماعات، والإمام بنفسية الطبقات والفروق الفردية بين الذكر والأنثى والصغير والكبير.

ثالثاً: إتقان وسيلة التفاهم وطرق التأثير على القلوب المنادة.

رابعاً: وهو الأول فى الاعتبار - تعهده بأخذ نفسه وقلبه على مقتضى الروح الدينى الصحيح.

ويوم أن نظفر بهذا الدين الخالص نستطيع أن نغزو به كل ناحية من نواحي الأمة، حتى تشع فى الشعب كله الروح العالية، وتصير الأمة كلها مطبوعة بطابعه، داعية إلى الخير بأقوالها وأفعالها وأخلاقها ونظمها فى الحياة.

* * *

هكذا تحدث الإمام الأكبر العلامة الشيخ محمود شلتوت عن الإسلام.. وعن حاجة الإنسان إلى هذا الدين.. الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها، والذى استوعب - فى رسالته الخاتمة - أصول الدين الواحد، الذى توالى به رسالات السماء، على امتداد تاريخ هذه الرسالات.. والذى صحح ما طرأ على أمم تلك الرسالات من تحريفات وانحرافات.. حتى صار - فى هذه الرسالة المحمدية الخاتمة - كما وصفه الصحابى حاطب بن أبى بلتع [٣٥ق.هـ - ٣٠هـ / ٥٨٦ - ٥٦٠م] - فى جواره مع المقوقس عظيم القبط، عندما قال له:

«إننا ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه»^(١).

نعم.. إنه الدين الخاتم الخالد - وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

٢٣ ربيع ثانی ١٤٣٦هـ / ١٢ فبراير ٢٠١٥م

(١) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها]، ص ٤٦، طبعة ليدن ١٩٢٠م.

الإسلام والوجود الدولي للمسلمين

للشيخ محمود شلتوت

فى هذا الكتاب - الذى لم ينشر ضمن أعمال الشيخ محمود شلتوت - والذى كتبه لسلسلة «الثقافة الإسلامية»، التى صدرت فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى يطالعنا الشيخ شلتوت إماماً فى ميادين «الفقه المجاهد» فى سبيل بناء الإنسان وعظمة الأمة الإسلامية - وفيلسوفاً فى التذكير بأيام الله..

وإذا شئنا - فى هذا التقديم - وقفات - فى إشارات - إلى بعض المعالم التى جاءت فى هذا الكتاب، فإننا واجدون - على سبيل المثال:

● تعريفاً بمهمة الرسل الذين اصطفاهم الله - سبحانه وتعالى - لتبليغ رسالاته إلى الناس.. «فهم ألسنة الإصلاح الإلهى، ودعاة الخير والتزكية التى يريد الله لعباده، بها ينظمون فطرتهم ويكملون إنسانيتهم، ويصلون بها إلى ما قدر لهم من كمال..».

● أما خاتم هؤلاء الرسل، الذى استوعبت رسالته عقائد الدين الإلهى الواحد، من آدم إلى محمد ﷺ والشريعة الخاتمة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، فإنه صاحب العظمة المتفردة.. إذ «لم تكن عظمته من جنس العظمت البشيرة المألوفة، فهى ليست من عظمة الملوك الطغاة ولا الحكام الجبارين، الذين يستعذبون أنين الإنسانية واستعباد الخلق وإذلالهم. وليست من عظمة القواد الطاعنين، الذين يفسدون فى الأرض، ويسفكون الدماء، ولا يرون السعادة إلا فى الفتك بالضعفاء، والتخريب والتدمير، وترويع الأمنين، وليست من عظمة الأغنياء الموسرين، الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق، ويمنعون حق السائل والمحروم، ثم يسخرون عباد الله فى شهواتهم وأهوائهم بشيء من حطام الدنيا الزائل..

إنها عظمة رحمة وعطف، عظمة هداية وإرشاد، عظمة تثقيف وتهذيب، عظمة إصلاح وتعمير، عظمة سلم وأمان، عظمة تهيب للحياة الفاضلة عدتها، وتعبّد سبلها،

عظمة تساير الدهر، وتستقر في صفحة الخلود، ويستمد العالم منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية. عظمة تتمثل في تلك التعاليم التي وحدث بين قلوب متنافرة، وربطت بين قبائل مبعثرة، واستلت منها الأحقاد والأضغان، وكونت منها أمة مهيبة الجانب، عزيزة المنال، ذات شخصية ثابتة، ونظام محكم متين، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض على دعائم قوية من الإيمان والعلم والمعرفة، والحكمة العدل.. تلك التعاليم هي عنوان العظمة المحمدية المتفردة.

● وفي رسالة صاحب هذه العظمة المتفردة، كان القرآن الكريم - الذي بدأ نزوله في رمضان - هو الحجر الأساسي في بناء هذا الدين.. ففي رمضان كان نزول القرآن على رسول الله ﷺ ليضع حجر الأساس في البناء الشامخ الذي أريد له أن يكون حصناً للبشرية من بوائق الشر، ومنغصات الباطل، وذبذبات الانحلال.. لقد وضع أصول العقائد الحققة، وأمّهات الأخلاق الفاضلة، وجدد نظم المعاملات الاجتماعية، والروابط الشخصية، وأرشد في كل شيء إلى التي هي أقوم.

وبهذا الكتاب عرفت البشرية كلمة الحق في الألوهية والرسالة والبعث والجزاء، وعرفت كيف يرتبط الإنسان بأخيه الإنسان، ارتباطاً يحقق حكمة الله في خلقه، واستخلافه في الأرض.

● وكذلك كانت الشريعة هي الأساس لذلك البناء الإنساني العالمي بناء الإسلام - فالإسلام شريعة وبناء.. والشريعة نزلت على محمد ﷺ ليؤسس بواسطتها البناء الإنساني العالمي، الذي يسهم في نهضة البشرية قاطبة، دون ما نظر إلى جنس أو لون أو دين.. لقد أطلقت تعاليم هذه الشريعة للعقل البشري حريته، ودفعته إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وفكته من السلاسل والأغلال، وعابت عليه التقليد والجمود.

ولقد أسست هذه التعاليم أعظم بناء إنساني عالمي لتحقيق أرقى ما وصلت إليه المساواة، ساوت بين الذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، وقررت أن الناس سواسية، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

ونظرت إلى الشعوب والقبائل نظرة واحدة، وجمعتهم في ثوب واحد، ونادتهم ببناء واحد [يا أيها الناس.. يا بني آدم].

تلك التعاليم التى قررت مبدأ حرية العقيدة، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿[الإسراء: ١٣ - ١٥].

تلك التعاليم التى قررت للإنسانية حق التشريع فى دنياها، وقررت أنه لا سيادة للحاكم عليها، وأنه يسعى لخدمتها بتفويض منها، فلها فيه حق العزل كما لها حق التولية.

تلك التعاليم التى ما تركت فضيلة إلا حثت عليها، ولا رذيلة إلا حذرت منها، ولا أصلاً من أصول التشريع الحى إلا قررت، وطلبت من الناس: شرعاً يسعدون به فى الدنيا، ودنيا ينعمون به فى الآخرة.

● ولم تقف هذه الشريعة عند البناء النظرى، وإنما كان لا بد لها من قوة تجلب الاحترام والنفاذ لهذا التشريع ولهذه التعاليم.. «وإذا كان رمضان يذكرنا ببدء هداية التشريع الإلهى بنزول القرآن، فهو بغزوة بدر يذكرنا بالقوة التى يتركز بها السلطان وتستقر بها الكلمة وتحترم بها الدولة.. فبغزوة بدر تركز سلطان المسلمين ووجودهم وبناء دولتهم، وبها أصبح للمسلمين كيان أدبى، إذ استطاعت الحفنة المهاجرة من مكة، والحفنة المستضيئة من يثرب، استطاعت هاتان الحفنتان أن تحزرا نصراً بلغ ذكره الآفاق، وأن تكتسب الدولة للمسلمين احتراماً وتقديراً معترفاً بهما».

● أما الهجرة.. فلقد كانت.. فى أحداث هذه الرسالة الخاتمة.. هى نقطة التحول فى حياة الإسلام.. كانت ميلاد الدولة.. وبدء التاريخ الإسلامى.. والإعلان عن الوجود الدولى للمسلمين.. فنقطة التحول فى حياة الإسلام هى الهجرة، وهى من الأحداث الفذة التى كانت تهيئاً لتثبيت البناء الإسلامى، وبناء دولة داخل إطار من القوة.

والواقع أن هذه الهجرة البدنية لم تكن إلا أثراً من آثار هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة، وشرائع باطلة، وعادات وتقاليد كان لها فى هدم الإنسانية ما ليس للمعاول القوية فى نقض البناء الشامخ العتيد.. لقد هاجروا إلى التوحيد البرئ،

والإخلاص النقي، والإنابة الحققة، والتوكل الصحيح، ومحبة الخير للخير، والرجوع بالحوال والقوة إلى الله الواحد القهار..

ولم تكن الهجرة فراراً من الأذى، ولا هرباً من التنكيل، ولا التماساً للرزق، ولا خوفاً في العزيمة، ولا خوفاً من الموت في سبيل الله، فقد كانوا يستعذبون الموت في سبيل الخلود، ومن استعذب الموت فقد استعذب كل شيء دونه.. إنما هو الإيمان بالله، يملأ نفس صاحبه عزة وكرامة، هو الإيمان يأبى على صاحبه أن يخلد إلى السكون أو يرضى بالخنوع تحت سلطان القهر.

لقد تمت الهجرة، فكانت مبدأ الوجود الدولي للمسلمين، الذين لم يكونوا قبلها إلا أفراداً مضطهدين معذبين مبعثرين، فكملت لهم عناصر الوجود الدولي فيما بينهم بعضهم مع بعض بتشريعاتهم الداخلية، وفيما بينهم وبين غيرهم بتشريعاتهم الخارجية، ومن هنا كانت الهجرة من بين الأحداث كلها جديرة بأن تتجه إليها الأنظار، ويتخذ منها مبدأ للتاريخ الإسلامي.

إنها مبدأ الوجود الدولي للمسلمين الأولين..

لقد آخى صاحب الهجرة بين المهاجرين والأنصار، كما آخى بين الأنصار بعضهم وبعض، وصار المؤمنون جميعاً بهذا التآخي يداً واحدة على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم.. ذلك أن أرباب العقيدة الواحدة، أو المبدأ الواحد، يجب أن يكونوا كتلة واحدة متماسكة، ويذاً واحدة عاملة، تربط العقيدة بين قلوبهم، والأخوة بين عواطفهم، لا أثر ولا طبقات، ولا سيد ولا مسود..

وإذا كانت الهجرة البدنية لا سبيل إليها للمسلمين الآن، فإن أبواب الهجرة القلبية مفتحة على مصاريعها، وما أحوج المسلمين اليوم إليها، ما أحوجهم إلى الإخلاص في الدعوة والجد في العمل، والصدق في القول، والصبر على المكاره. ما أحوجهم - وأخص أهل الفكر - إلى أن يكونوا كما كان أسلافهم الأمجاد مثلاً حية شريفة للناس، في السيرة والدعوة، والإخلاص والعمل.

● وفي التمهيد لهذه الهجرة.. ولبناء الدولة، وقيام الوجود الدولي للمسلمين.. كانت معجزة الإسراء إلى أولي القبلتين، بأبعادها الروحية، ودلالاتها الدينية والحضارية.. «فلقد كان الإسراء توجيهاً روحياً للصحابة - ولجميع المسلمين من

بعدهم، إلى أن الإسراء بمبدئه «المسجد الحرام» ومنتهاه «المسجد الأقصى» يرسم لهم مهابط الوحى الأول الذى تلقاه إبراهيم وإسماعيل، ومهابط الوحى الثانى، الذى تلقاه موسى وعيسى، وأنها كلها مهابط الرسالات الإلهية، التى جاء محمد لتكميلها والهيمنة عليها، فلا بد أن يخفق عليها دائماً علم التوحيد والإيمان، وأنها المواطن التى يجب أن يعلو فيها سلطان الحق، وأن تطهر رقعتها من عناصر الظلم والفساد..».

لقد أوحى توجه الصحابة والمسلمين من بعدهم فى الصلاة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، أوحى إلى قلوبهم وقواهم ضرورة امتلاك هذه المواطن التى ربطهم بها حادث الإسراء، ثم حادث التوجه فى الصلاة، ففتحوها وثبتوا أقدامهم فيها، وتم لهم ما أرادوا وأراد الله، وأصبحت الكلمة فيها لله وحده، بعد أن كانت للشيطان والهوى.

وها هو ذا قد لعب الشيطان مرة أخرى، وأراد العبث فى مواطن الوحى الإلهى، فهلاً ينتبه المسلمون إلى هذا الإيحاء المزدوج، الذى تنطق به ذكرياتهم، ويتضمن الإشارة إليه كتابهم، وهل يسرون فى طريق هذا الإيحاء كما سار أسلافهم من قبل فيوحدوا كلمتهم ويستردوا مكانتهم، ويطهروا أرض الله المقدسة من عبث العابثين وكيد الكائدين، ويزيلوا عن أنفسهم تلك النكسة التى أصابتهم ففرقت قلوبهم، وشتتت قواهم، ومكنت منهم الأعداء الألداء، وتركت البناء الإسلامى مطمئناً لأنظار العصابات المشاغبة، والأفاقين المتجردين من القيم الأخلاقية، والمعانى الإنسانية؟!

فعلى المسلمين أن ينتبهوا إلى هذا الإيحاء، ويتكثروا فى سبيل المحافظة عليها، كما تكتل أسلافهم من قبل وطهروا بيت المقدس، كما طهروا الكعبة، فليشدوا إليها الرحال، وليحافظوا على المجد والتراث..

● وفى فلسفة الأعياد، والحكمة من اختيار أيامها.. يكشف الشيخ شلتوت عن أسرار اختيار الفطر والأضحى عيدان للمسلمين من بين سائر أيام الله.. ففى أولهما - الفطر - كانت بداية التأسيس - نزول القرآن - وفى ثانيهما - الأضحى - كان الكمال والاكتمال - تمام الدين.. والفتح الأكبر الذى رسخ به البناء، وبدأت أنواره تشع فيما حول نقطة البدء والارتكاز.

«والأمم الناهضة لا تعرف فى تاريخها يوماً أعز ولا أعظم من يومها الأول، الذى وضع فيه أساس بنائها، ويومها الثانى الذى تم فيه صرح البناء.. ومن هنا جعل الإسلام يومى الفطر والأضحى عيدين للمسلمين، إذ كان يوم الفطر - وهو أول يوم فى شوال - مذكراً بنعمة الأساس لبناء الدولة، وهى نعمة التشريع الإلهى بنزول القرآن. وكان يوم الأضحى - وهو العاشر من ذى الحجة - مذكراً بنعمة الإكمال لهذا البناء، وهى نعمة الفتح وإتمام النصر.

إن يوماً تنتهى به رحلة روحية هى رحلة الصوم، وتبدأ به رحلة بدنية روحية هى رحلة الحج وزيارة الله فى بيته الحرام، لجدير بأن يكون عيداً، وأن يكون عيداً فوق الأعياد.

وإذا كان يوم الفطر، يذكر به المسلمون توفيقهم للقيام بواجب الصوم، الذى فرضه الله عليهم فى رمضان، شكراً على النعمة العظمى، وهى إنزال القرآن، فإن يوم الأضحى، وهو اليوم الذى سماه الله فى كتابه يوم الحج الأكبر، يذكرهم بنعمة الإكمال والإتمام للدين تشريعاً، وتقديراً، وللدولة بناءً وتشبيهاً، وعزاً وسلطاناً، وبهذا جعله الله لهم عيداً، وعيداً أكبر..».

● لذلك، كانت الاحتفالات الدينية - فى ملة الإسلام وأمتة - وفقاً على هاتين المناسبتين - الفطر: عيد التأسيس، والأضحى: عيد الكمال والاكتمال - فإذا ذهب البعض إلى إضفاء الطابع الدينى على مناسبات أخرى كان ذلك لوناً من ألوان الابتداع فى الدين.. «إن إقامة الاحتفال باسم الدين لا بد أن تكون مبنية على أساس صحيح من الدين، وذلك كما فى الاحتفال بصلاة الجمعة والعيدين، والوقوف بعرفة، فإذا لم يكن للدين فيه أمر ولا ترغيب، كانت إقامته باسم الدين، وإفراغ صبغة الدين عليه، من الصلاة والقراءة والدعاء افتراء على الدين، وتشريعاً بالهوى، فيما يعمل باسم العبادة والتقرب إلى الله، وهذا باب يهين فتحه للناس وجوهاً كثيرة من صور الابتداع فى الدين من شر ما يصاب به الدين، فبه يدخل فى الدين ما ليس منه، وعن هذا الطريق ينتشر الدين بين الناس بصورة تبعد قليلاً أو كثيراً عن حقيقته التى رسمها الله، ونعبد الناس بها، والتزمها فى العمل رسوله وأصحابه من بعده.

● أما إذا كانت الاحتفالات إنسانية، بعيدة عن إضفاء الطابع الدينى عليها، فلا حرج من هذه الاحتفالات الإنسانية، الخاصة منها والقومية.. «فللناس أن يقيموا ما

شاءوا من الاحتفالات الإنسانية التى يظهرون بها سرورهم بنعم الله الخاصة بهم، كزواج أو ميلاد، أو قدوم غائب، ولهم أن يقيموها ذكريات لحوادث تاريخية، كان فيها فى حياة أمتهم أثر ينبغى أن يُذكر ولا يُنسى.

للناس أن يقيموا هذه وتلك باسم العائلة، أو القومية، لا باسم الدين، يتخذ له مظهرًا دينيًا، تخصص له صلاة معينة، ودعوات معينة، فى أشهر معينة، فى حين أنه لم يرد شىء عنها فى الدين - كما هو الشأن فيما اعتادوه ليلة النصف من شعبان.

وإذا كان للناس أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان فلهم أن يحتفلوا بها احتفالاً قومياً تاريخياً، على ما ذهب إليه أكثر المؤرخين من أنها الليلة التى وُجّه المسلمون فيها من بيت المقدس إلى الكعبة، وبهذا التوجيه كمل ربط قلوب المسلمين بأماكن الله المقدسة: بيت المقدس وإقليمه، والكعبة وإقليمها، وفى هذا الربط إحياء روحى بالمحافظة على تلك الأماكن المقدسة، وبالتضحية فى سبيل تطهيرها من عبادة غير الله، من سلطان غير المسلمين».

● وإذا كان منهاج الإسلام فى الإصلاح إنما يبدأ بإعادة صياغة الإنسان وفق منظومة القيم الإسلامية، وصولاً إلى تعميم هذه الصياغة فى الجماعة والأمة، لتأتى الدولة ثمرة ناضجة للأمة، ولتأتى السياسة ثمرة ناضجة للتربية، فإن سائر الشعائر والعبادات الإسلامية إنما كانت مجاهدات لتحقيق هذه المقاصد الكبرى.. وكنموذج لذلك كان صيام المسلمين فى شهر رمضان.

«إن كلمة رمضان توحى للذين يفهمونه برحلة إلهية، ميقاتها الشهر كله، يخلع فيها المؤمن نفسه من هموم الدنيا وأكدارها، إلى لذة لا يعرفها ألم، وسعادة لا يعرفها شقاء، فيبدأ يومه: باسم الله صُمت، ويختتم نهاره: باسم الله أفطرت. وفيما بين الوقتين يقوم قانتًا، ويركع مسبحًا، ويسجد داعيًا، ثم يرتل وحيه وقرآنه حتى مطلع الفجر. وهكذا دواليك، حتى يبلغ الغاية ويصل النهاية، فيسبغ الله عليه حلة الرضا والغفران، ويعود بها إلى دنياه، وقلبه متعلق بمولاه، يخشى الحرمان بعد العطاء، والغضب بعد الرضا، والطرْد بعد الإيواء، فيظل متمسكًا بجانب التقوى ما استطاع، فيفى للرب بعهد، ويقوم للعبد بحقه. وبهذا يتكرر الدرس كل عام حتى يصير الإنسان مصدر خير دائم لنفسه وللناس».

● وإذا كان الإنسان الذى يقتطع من أوقاته - بين الحين والحين - لحظات يؤدي فيها ما فرضه الله عليه من شعائر وعبادات، إنما يجعل خير أوقاته لله.. فإن هذا الإنسان إذا التزم القيام بواجباته، النافعة لنفسه والناس، فى مختلف ميادين الحياة، إنما يجعل جميع أوقاته لله، حتى لكأنه فى عبادة موصولة على امتداد الحياة.. ذلك «أن القيام بالواجب والإيمان بحسن الجزاء، عاملان قويان فى سعادة الفرد والمجتمع، ففى القيام بالواجب طمأنة النفس وراحة الضمير، وانسراح الصدر، وقوة العزيمة، وإدراك للسمو الروحى الذى يجعل الخير كله فى بذل ما وجب، لا لشيء سوى أنه وجب.

أما الإيمان بحسن الجزاء، فهو العامل النفسى الوحيد الذى يدفع الإنسان إلى المغامرة والتضحية والجهد فى سبيل المجد، وإلى البذل بكل ما يستطيع غير متردد ولا متشكك فى أن الجزاء الأوفى سيناله على ما قدم من عمل، أو بذل من نفس أو نفيس».

● وإذا كانت الحرية هى القيمة الأعلى والأعز لدى الإنسان، حتى لقد رفع الإسلام مقامها إلى مقام الحياة، فإن العبودية لله، وإفراد الذات الإلهية بالطاعة، هى قمة التحرير للإنسان من العبودية لما سوى الله - من الطواغيت واللذات والشهوات - لذلك «كانت الحرية مطلباً عزيزاً لا يضحى به إلا فى سبيل مجد هو أعز منه، وأن ذلك المجد هو طاعة الله ورضوانه ومغفرته..».

* * *

تلك لمحات - فى إشارات - إلى بعض ما سيجد القارئ - فى هذا الكتاب - من إشراقات سجلها قلم هذا الإمام العظيم الشيخ محمود شلتوت - أحد أبرز فقهاء القرن العشرين. والذى كانت حياته جهاداً فى سبيل الاجتهاد والصلاح والإصلاح.. والذى خلف لأُمَّته من الاجتهادات والإنجازات ما جعل حياته ممتدة وحاضرة فى عقول المسلمين وأفئدتهم إلى ما يشاء الله..

رحمه الله رحمة واسعة.. ونفعنا بعلمه.. إنه سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب

رمضان ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

الشيخ محمد الغزالي

[١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ - ١٩١٧ - ١٩٩٦ م]

بطاقة حياة الشيخ محمد الغزالي

(.. لو كنت «ملكاً» لأبيتُ إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء!..)

الشيخ محمد الغزالي..

هو «الفقيه - الداعية - المجدد» الشيخ محمد الغزالي السقا.. مصرى المولد، والنشأة.. ولد - لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة - في قرية «نكلا العنب»، مركز «إيتاي البارود»، محافظة «البحيرة» بدلتا مصر يوم السبت ٥ من ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ / ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٧ م. ولقد اختار له والده اسم: محمد الغزالي، تيمناً بحجة الإسلام أبو حامد الغزالي؛ لنزعة صوفية لدى الوالد.

وكان الشيخ الغزالي أكبر أخوته - السبعة - ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال.

ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، والتحق - طالباً للعلم الإسلامى بالمعهد الدينى التابع للأزهر الشريف، بمدينة الإسكندرية، فحصل على الشهادة «الابتدائية» سنة (١٩٣٢ م).. ومن نفس المعهد - القسم الثانوى حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة (١٩٣٧ م)..

● وفى سنة (١٩٣٧) التحق بالتعليم العالى الأزهرى كلية «أصول الدين» - بالقاهرة.. وفيها تلقى العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم: الشيخ عبد العظيم الزرقانى، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.. وتخرج فى «أصول الدين»، فنال

شهادة «العالمية» سنة (١٩٤١م) .. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة (١٩٤٣م).

● وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة (١٩٣٧م) التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين: الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) وأصبح عضواً بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية.

● ولقد تزوج الشيخ الغزالي وهو لا يزال طالباً بكلية أصول الدين، وأنجب من الأولاد تسعة .. يحيى منهم ولدان - ضياء وعلاء - وخمس سيدات ..

● كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إماماً وخطيباً بأحد مساجد القاهرة .. فلما نال شهادة العالمية سنة (١٩٤١م)، عين - في العام التالي سنة (١٩٤٢م) - بوزارة الأوقاف: إماماً وخطيباً بمسجد «العتبة الخضراء» بوسط القاهرة .. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد .. والوعظ بالأزهر الشريف .. ووكيلاً، فمديراً للمساجد .. فمديراً للتدريب .. فمديراً للدعوة والإرشاد في ٢ يوليو سنة ١٩٧١م .. فوكيلاً لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة الإسلامية، في ٨ مارس سنة ١٩٨١م.

● ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدى الشيخ حسن البنا، وفي صحافة جماعة الإخوان - التي أصبح من كتابها - حتى أطلق عليه لقب «أديب الدعوة» .. وكتب إليه الأستاذ البنا خطاباً - في (١٩٤٥م) - يقول له فيه:

«أخى العزيز الشيخ محمد الغزالي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: قرأت مقالك «الإخوان المسلمون والأحزاب» فى العدد الأخير من مجلة «الإخوان»، فطربت لعبارته الجزلة ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا - أيها الإخوان المسلمون - اكتب دائماً، وروح القدس يؤيدك، والله معك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. حسن البنا».

● ولقد تحمل الشيخ الغزالي نصيبه من المحن والمكاره التي أصابت جماعة الإخوان المسلمين .. فقضى فى معتقل «الطور» - بشبه جزيرة سيناء - قرابة العام،

سنة (١٩٤٩م) .. وأل من عام فى سجن «طره»، إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة (١٩٦٥م).

● ولما شارك فى «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» سنة (١٩٦٢م)، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف.. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرتة مظاهرات جماهير المساجد.. وفى سنة (١٩٧٤م) كان له - هو والشيخ محمد أبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التى أدخلت على قانون الأحوال الشخصية، فكان يرى أن مشكلة مصر هى فى عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة فى تعدد الزوجات. فضاعت الدولة بمعارضته، ومنعته من الخطابة بجامعة عمرو بن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته فى وظائف الدعوة، حتى لقد ألغوا المنصب الذى كان يشغله (مدير عام الدعوة)! فوجد نفسه على «حصير» - دون مكتب - فى «سندرة» ملحقة بمسجد صلاح الدين - بالقاهرة - فجلس على «الحصير» يشتغل بالتأليف!..

● ولما أحس باقتراب المخاطر منه إبان التحقيقات مع صالح سرية - المتهم الأول فيما عرف بقضية «الفنية العسكرية» الذى ذكر أنه زار الشيخ الغزالي مرة! سعى إلى الخروج من مصر، فسافر إلى المملكة العربية السعودية، أستاذًا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - فأمضى بالجامعات السعودية: ما بين سنة (١٩٧٤م) وسنة (١٩٨١م). وفى (١٩٨١م) - الذى رُقى فيه إلى منصب وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة - قدم استقالته من الوزارة، عندما اختلف مع سياسة الدولة فى الصلح مع إسرائيل.

● وكان تعرّف الشيخ الغزالي على الواقع العربى الإسلامى خارج مصر - قد بدأ مبكرًا.. ففى سنة [١٩٥٢ - ١٩٥٣م] شغل وظيفة رئيس «التيكة المصرية» بمكة المكرمة.. وفى الأعوام من سنة (١٩٦٨م) إلى (١٩٧٣م) أمضى شهر رمضان فى دول الكويت وقطر والسودان والمغرب.. وشارك فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر بانتظام - سنويًا - منذ سنة (١٩٨٠م) وعمل فى قطر - أستاذًا زائرًا - ما بين سنة (١٩٨٢م) وسنة (١٩٨٥م) وعاش بالجزائر ما بين سنة (١٩٨٥م) وسنة

(١٩٨٨م) منشأً وراعياً لجامعتها الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر، ومشرفاً على مجلسها العلمى وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر [١٩٧٤ - ١٩٨٨م] عاش واقع الأمة، واستوعب مشكلاتها، وأعطى لجماهيرها، وغدا أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام.

● ولقد امتلك الشيخ الغزالي حرية المفكر، واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينات، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين - لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبي فكان تفرغه للدعوة والتأليف.. وظل محافظاً على استقلالية الفكر، حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان فى سنوات عمره الأخيرة.

● وإذا كان الشيخ الغزالي قد تتلمذ على حسن البناء، الذى تتلمذ على رشيد رضا: تلميذ محمد عبده - أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى فلقد حدد الشيخ الغزالي منهاج هذه المدرسة التى ينتمى إليها مشروعه الفكرى التجديدى فى معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامى مدرسة الرأى والأثر.. والموازنة بينهما - كما هو الحال عند ابن تيمية - مع ميل للأثر.. ومدرسة الاختيار الشخصى والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة - حدد منهاج مدرسته، التى وازنت بين «الرأى» و«الأثر»، على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك «بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلاً للنقل.

وهى تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الأحاد، وهى ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكاراً حاسماً أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده، من ثم فهى تنكر التقليد المذهبى، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقى بالاً إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة»^(١).

فهو عَلمٌ متميز من أعلام هذه المدرسة، التى تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها فى هذا الإطار.

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص ٦٩ - ٧٧، طبعة دار الوفاء، القاهرة، سنة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

● ولقد كان الشيخ الغزالي يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول: إنه «قلب تقى، وعقل ذكي» معبراً - بذلك - عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع - فى مصادر المعرفة - بين كتابى الله: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور.. وفى سبل المعرفة، بين العقل والنقل، والتجربة والوجدان.. ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالي فى «القدوة» منافساً لعطاءه فى «الفكر»، كما برئ مشروعه الفكرى من الفصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية، والماضى والحاضر والمستقبل جميعاً.

- وفى مواجهة الاستبداد المالى والمظالم الاجتماعية: قدم عدالة الإسلام فى العديد من الآثار الفكرية.. من مثل: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» و«الإسلام فى وجه الزحف الأحمر».. إلخ.

- وفى مواجهة الاستبداد السياسى: دافع عن الشورى الإسلامية فى كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسى» و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»... إلخ.

- وفى مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب قدم: «من هنا نعلم» و«دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» و«الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه» و«صيحة تحذير من دعاة التنصير»... إلخ.

- وفى مواجهة الجمود والحرفية والتقليد قدم: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» و«تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة» و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»... إلخ.

- ولتجديد الذات الإسلامية: قدم عشرات الكتب، من مثل: «خلق المسلم» و«عقيدة المسلم» و«جدد حياتك» و«فقه السيرة» و«كيف نفهم الإسلام؟» و«الجانب العاطفى من الإسلام» و«سرتأخر العرب والمسلمين» و«نظرات فى القرآن» و«كيف نتعامل مع القرآن؟»... إلخ.

- ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالى فى حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية

هى إحياء الأمة بالإسلام، وتحريكها بطاقتها الإحيائية.. «الفجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التى توقفت فى وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!.. وسوف تتلاشى التحديات التى تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجا، حكاما وشعوبا»^(١)!

● وكان داعية لتحرير العقل الإسلامى من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة، وبين الفكر الإسلامى غير المعصوم، ورفض الادعاء بأن الأولين لم يدعوا للآخرين مجالا فى الاجتهاد والتجديد، «فالإسلام هو صائغ الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. ومصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.. والأئمة الأوائل كانوا روادا فى تأسيس الفقه الإسلامى، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار..»^(٢).

● وكان يرى أن صلاح دنيا الناس - بالعدالة الاجتماعية - شرط لصلاح قلوبهم بدين الإسلام.. فعدالة الإسلام هى الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب.. «إذا من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية!.. أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريا!.. فلا بد من التمهيد الاقتصادى الواسع، والإصلاح العمرانى الشامل، إذا كنا مخلصين حقاً فى محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقاً فى هداية الناس لرب العالمين!»^(٣).

● وكان يدعو - فى فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم - إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد، الذى هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية للطواغيت، وآيات الله الكونية، الماثلة فى الأنفس والآفاق، والتى على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان.. والقصاص القرآنى، كأداة للتربية والتزكية، ومعالم على طريق الاعتقاد الدينى.. ونبأ الغيب والبعث والجزاء،

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص ١٩، و«وهموم داعية»، ص ١٧، طبعة سنة (١٩٨٣ م).

(٢) دستور الوحدة الثقافية، ص ٨٥ - ٩٣.

(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص ٦١، ٦٢، طبعة سنة (١٩٨٧ م).

ودوره في بناء الأخلاق.. والتربية والتشريع، لصلاح الدنيا، الذي يتأسس عليه صلاح يوم الدين^(١).

● وكان مدافعاً عن سنة رسول الله ﷺ، فهي مع القرآن: «قوام الإسلام، وهي الامتداد لسنن القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه، وكما أنه لا فقه إلا بسنة، فلا سنة بغير فقه.. والحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول من غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه.. والأحكام في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني»، فهي بيان نبوي للبلاغ القرآني، وإرادة من الله لنبيه؛ ليفصل ما أجمله القرآن^(٢)..

● ولقد عاش الشيخ الغزالي حياته وقلبه معلقاً بالمساجد.. وكان حلم حياته - الذي حققه عندما كان مسؤولاً عن الدعوة بوزارة الأوقاف - أن تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها، تُلقي فيها الدروس المنظمة في علوم الدين والحضارة الإسلامية.. حتى لقد كان آخر الأوراق التي كتبها إلى الندوة التي عقدت بجامعة الأزهر - يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦ م - حول المساجد والدعوة الإسلامية - والتي حال سفره دون حضوره لها - كانت بمثابة «الوصية» التي كتبها؛ لتحويل المساجد إلى جامعات للثقافة الإسلامية.. ولقد اتخذتها «الندوة» «توصيات» لمداولاتها.. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام!..

● ولقد شُرُفتَ بعضوية الشيخ الغزالي العديد من المجامع الفكرية والمؤسسات العلمية.. من مثل: «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف، و«المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» بالأردن، و«المعهد العالمي للفكر الإسلامي» بواشنطن، و«الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت... إلخ.. إلخ.

● كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز.. من مثل:

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، طبعة سنة (١٩٩٤م).

(٢) دستور الوحدة الثقافية، ص ٣٣، ٣٤، ٣٦ - ٣٨، و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، ص ١١٨، ١١٩، طبعة سنة (١٩٨٩م)، و«هذا ديننا»، ص ١٩٧، طبعة سنة (١٩٦٥م).

- ١ - وسام الأسير - وهو أعلى وسام بالجزائر - سنة (١٩٨٨م) ..
 - ٢ - جائزة الملك فيصل العالمية - لخدمة الإسلام - سنة (١٩٨٩م) ..
 - ٣ - جائزة الامتياز - من باكستان - سنة (١٩٩١م) ..
 - ٤ - جائزة الدولة التقديرية - من مصر - سنة (١٩٩١م) ..
 - ٥ - جائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام - سنة (١٩٩١م) ..
- ولقد عاد الشيخ الغزالي للإقامة الدائمة بمصر - فى منزله رقم (١٠) بميدان الدكتور سليمان - بحى الدقى بالقاهرة - منذ سنة (١٩٨٨م) .. وكانت أسفاره إسهاماً فى الملتقيات العلمية والفكرية .. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة - حيث خطب فى عيدها الخمسين، ممثلاً للأزهر الشريف سنة (١٩٩٦م) - وأمضى بين مسلمى أمريكا - فى تلك الرحلة - ثلاثة أسابيع ..
- وبعد أسابيع من عودته، سافر إلى المملكة العربية السعودية، للمشاركة فى المهرجان الوطنى للثقافة - الجنادرية - حيث لى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها - فى قاعة الملك فيصل - والقلم فى يده يدون نقاطاً للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة ١٧ شوال سنة ١٤١٦هـ / ٩ مارس سنة ١٩٩٦م؛ ليدفن «بالبقيع»، فى المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

* * *

كتاب مائة سؤال عن الإسلام

للشيخ الغزالي

فى مطلع القرن الهجرى الخامس عشر، اعتزمت « دار ثابت » - لصاحبها الصديق أسامة خالد - نجل العلامة الشيخ خالد محمد خالد [١٣٣٩ - ١٤١٦هـ / ١٩٢٠ - ١٩٩٦م] - إصدار عدد من الكتب التى تستشرف مستقبل الإسلام فى مطلع هذا القرن الهجرى الجديد..

وكان شيخنا محمد الغزالي [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ - ١٩١٧ - ١٩٩٦م] فى طليعة العلماء الذين اعتزمت الدار استكتابهم فى هذا المشروع..

ولقد اقترح الشيخ خالد محمد خالد على ابنه أسامة أن يطلب منى وضع مائة سؤال كى يجيب عنها الشيخ الغزالي الذى كان يدرّس، يومئذ، بجامعة قطر - لتكون إجاباته معالم استشراف مستقبل الإسلام فى واقعنا الحضارى المعيش..

ولقد وضعت الأسئلة المائة.. وقام الأستاذ خالد باستبدال بعضها.. وأرسلها إلى الشيخ الغزالي.. الذى قال عنها: «إنها وضعت بحكمة، وسيقت إلى هدف، وأن الإجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الإسلامية، وتجلو غبارًا كثيرًا عن حقائق الرسالة الخالدة».

● وإذا كان الشيخ الغزالي قد خلف لنا تراثًا زادت كتبه على الستين.. وبلغت دراساته ومحاضراته وخطبه ومقالاته ومحاوراته عدة آلاف.. فإن إجاباته عن هذه الأسئلة المائة عن الإسلام - ماضيه وحاضره ومستقبله - وعن أمة الإسلام - عالمها وواقعها المعيش - إنما تمثل «معالم المشروع الحضارى» لهذا العالم الجليل، الذى مثل واحدًا من أبرز مجددى الإسلام فى القرن العشرين..

ولقد نثرنا الفكر الذى أبدعه الشيخ فى هذه الإجابات.. وألفنا بين معالمه.. وقمنا بتصنيف مفرداته.. فجاءت هذه المعالم لهذا المشروع الحضارى.. الذى حرصنا على أن نقدمه بنص كلمات الشيخ.. والذى جاء فيه عن معالم هذا المشروع:

١. الإسلام:

هو عنوان جميع الرسالات التي هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا.. وحقيقته التي بلغت تمامها وأخذت صورتها الأخيرة في رسالة محمد ﷺ.. ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين:

أولاهما: حسن معرفة الله..

وثانيهما: الانقياد له وتنفيذ أوامره..

ولقد كانت النبوات السابقة محلية ومؤقتة.. أما النبوة العامة الخالدة فهي نبوة محمد ﷺ وحده لا يشركه في ذلك نبي من السابقين..

وبعد أن زود الإسلام الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإلهي، وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه.. فانتفاء عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل..

والخمس التي بنى عليها الإسلام هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت..

هذه دعائم البناء، ودعائم البيت غير جدرانته وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه.. إلخ.. إنني أشعر بأن الإسلام هو الدين الأوحى لمواجهة هذا العصر. أليس عصر العلم؟ بلى، وكذلك ديني دين العلم الذي أهاب بالناس أن يبحثوا كل شيء: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن العلم مؤمن لا ملحد، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق. وما كفر العلم - في الأغلب الأعم - إلا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات. وأنا أؤيده في ذلك كله!

إنني أرى بلادة الكفر ضربًا من الحيوانية! أو هي أقرب منه. أليس يقول ربي: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].. وإن الزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب، أو شائعة تُنشر لغرض خسيس!

إن روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية، ومن محبة العلم يجيء هذا الدعاء ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١٤٤]. وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلعًا في العلم، واستكشافًا لآفاقه..

وما يسمى بالعلم المادى أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله - أرجح موضوعاً وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديماً وحديثاً، ولم تكسب الإنسانية منها إلا الحيرة والجدل والغرور.

وعلى المسلم أن يجيد الصناعات المحدثه، وأن يألف استخدامها واستصلاحها، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وعلينا أن نقتبس من جهود البشر ما يحقق الأهداف التى يتفق عليها العقل والنقل، وإذا سبقنا غيرنا إلى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به.

وإن الحضارة الحديثه - برغم مقابحها الكثيرة - تجاوزت مع العقل والفطرة فى ساحات علمية ودستورية واسعة، ومن حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها..

إن هذه الأمة الإسلامية لا تصلح إلا بدينها وحده، بعد استكمال العناصر الناقصة منه - وهى خطيرة - وبعد استبعاد الخرافات الملتصقة به - وهى كذلك!..

إن أمتنا بطبيعتها سوف تستعصى على كل حل غير إسلامى، وسوف تبذل المحاولات الدامية لإكراهها على تجرع أدوية لا تريدها، وسوف تتبدد الطاقة - طاقة الشعب والدولة معاً - بين الأخذ والرد.

وفى غضون هذا التناقض الداخلى يكسب الاستعمار العالمى معاركه، ويفرض نفسه!.. إن الإسلام لم يجيء لهدم موسى وعيسى، بل جاء لإحياء ما قالوه وضاع فى غمار الماضى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].. فإذا كان الإسلام رسالة لإصلاح العالم بوحي الله، فكيف يعجز عن إصلاح الأمة حملته وبلغته؟!..

وإن العرب ما دخلوا التاريخ إلا بهذا الدين، وما عرفت لهم حضارة، وتمت لهم قيادة، وتحققت لهم سيادة إلا تحت راية الإسلام، فكيف تُكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها وتاريخها؟! إن هذا تكليف لها بالانتحار! وتلك هى المهمة القذرة التى ينفذها بعض الساسة المرتدين..

إن حكام المسلمين من زمان قريب آذوا الله ورسوله، واستهلكوا شعوبهم حتى فנית أو كادت خصال الإباء والأنفة، لطول إذلالهم لمن أعز الله، وإعزازهم لمن أذل الله!.

هل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإسلام؟! وهل كل حل حسن إلا الحل الإسلامي؟!.

وربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيراً أو طويلاً وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء. ولكن أمتنا تحوّل مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لا يدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام، وستذهب جميع المحاولات الأخرى سدى، لا محالة.

غير أن الحل الإسلامي لا يؤخذ من أفواه الجهلة والكذبة..

إن الإسلام: قلب تقى وعقل ذكى.. قلب خاشع وفكر فاضل، وأمانات مرعية فى تقلب المرء على ظهر الأرض منذ رشده إلى أن يلتقى ربه..

ومعنى أنى مسلم أنى أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه، وأؤمن كذلك بعيسى كواحد من حواريه الذين يحبونه وينصرونه، كل ما هنالك أنى أضُم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين إيماناً برجل آخر هو أخ لهما ومحى لتعاليمهما، رجل تلقى من ربه هذه العبارة ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

إن الإسلام انتقل بالحياة البشرية نقلة حاسمة فى عدة مجالات:

١ - نقى عقيدة الوحداية من كل شوائب الشرك..

٢ - رفض أى عنصر فى الإيمان يناقض العقل..

٣ - أقر المساواة فى الحقوق والواجبات على اختلاف الألوان والأديان..

٤ - خفف من ويلات الحروب وحرّم الدمار الشامل..

- إن الإسلام يمزج بين الدين والدولة والعبادات والمعاملات.. وإن المبدأ

الإسلامى الأول فى التربية هو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩]..

٢. الذات العليا:

إننى أعُدُّ الباحثين فى ذات الله مرضى! فنحن - على تفاهتنا - لا نعرف من نحن؟ فكيف تعرف الذات العليا؟!

والأفهام البشرية فى ذات الله تفاوتت تفاوتاً بعيداً بين التجسيد والتجريد، فكُتِّبَ العهد القديم صوروا الله يبكى ويندم ويمشى ويقعد ويأكل ويشرب ويضرب، إلى جانب ما له من صفات رفيعة..

ومن أغرب الصور أنه جلس مستلقياً على قفاه ممتدداً على الأرض واضعاً قدمًا فوق أخرى! وفلاسفة اليونان المؤلهون - وفى مقدمتهم «أرسطو» [٣٨٤-٣٢٢ ق.م.] - صوروا الله منزهاً عن كل شىء، حتى عن الصفات التى يعلم بها ويقدر بها، فهو عالم بذاته قادر بذاته، وبالغوا فى التجريد، حتى كان الله معنى لا ذات!

فإذا تجاوزنا الأفهام البشرية إلى الوحى الأعلى، واستمعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أوصافاً تُقَرَّبُ معنى الألوهية إلى الحس الإنسانى، من غير تجسيد، وتبلغ بها كملاً لا يتناهى من غير تجريد.

المسلم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فيشعر بأن الله قريب منه، ومطلع على دخيلته، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستو على عرشه محيط من وراء خلقه.. إنه يحس بالله دون أن يجسده، وينزه الله دون أن يفقده..

إن اللغات على كثرتها من وضع البشر، وقد أَلْفَوْها ليعبروا بها عما يريدون من معان، وما يستخدمون من أدوات، وشئون الألوهية فوق اللغات وفوق واضعيها، فإذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئاً يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب.

وإذا كان عبد الله بن عباس يقول: إنه ليس فى الدنيا من أوصاف الجنة إلا الأسماء، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعها أذن، فكيف بالحديث عن رب العالم خالق الجنة والنار؟!

إن موضوع العلم هو المادة، وما تولد منها، فإذا اتصل الأمر بشىء وراء المادة توقف بحثه..

ولا ريب أن العلم المادى تقدم فى عصرنا تقدماً عظيماً، ووصل إلى كشف باهرة، ولقد استفدتُ من هذا العلم فى دعم إيمانى. وزادنى إجلالاً لربى..

إن السموات حق، ولا نعرف كنهها، والملائكة حق، ولا نعرف كنهها.. ولم نُكَلَّفْ بذلك، وليس فى العلم ما ينافى ذلك..

وهناك - فى ميدان العلم - مقررات علمية مستيقنة لم يوجد فى الإسلام ما يخالفها، وهناك نظريات تشبه الاجتهاد الفقهى عندنا، لا يمكن التعويل عليها أو التسليم المطلق بها، وعسى أن ينقض البحث العلمى فيها اليوم ما أبرم بالأمس، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم.

هذه النظريات العائمة لا نترك من أجلها رأياً لفقيه، ولا حديث آحاد.. لم؟.. وافترض الصواب والخطأ واحد فى الطرفين؟

إننا سنستبقى ما لدينا على حاله حتى يُقطع الشك باليقين..

ويؤسفنا أن الكهان فى ميدان العلم أكثر من الكهان فى ميدان الدين، وأنهم يحاولون بجرأة ترويج نظريات مهترئة، وإكسابها أمام القاصرين طابع اليقين.

إن أسماء الله الحسنى هى تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل، ومن مشاعر البشر المأنوسة، وإلا فلا يعرف الله إلا الله، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ «سبحانك لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

ومعرفة أسماء الله الحسنى ليست تصوراً نظرياً للكمال الذى تومئ إليه، إنها إحساس المؤمن لا بد أن تختلط بشئون الحياة التى يحياها، وتملى عليه السلوك الذى يلائمها.. فلا يمكن عزلها عن الكون والحياة، فالإيمان بالله لا يتم داخل صومعة معتمة، لا ضوء بها ولا حراك ولا جهاد.

إن علماء الكون يشعرون بضالة أمام أبعاده وأغواره، فكيف يكون الشعور أمام من أبرزه من عدم، وبنى فأوسع؟

٣. البعث والجزاء:

إن إنشاء الحياة فى عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم، فلماذا نستبعد بعثاً يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا؟

إن انتشار الجهالة لا يعطيها وجاهة! وإذا كان منكرو البعث كثيرين، فليسوا إلا قطعاً من الغافلين أو المستغفلين!

إن العدالة لا تتحقق في هذه الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعابرة توسدوا التراب، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون.

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع، ورد لا اعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين، هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولا بد من مراعاته.

والذي نحسبه نحن أن الزمان سوف يندم كما يندم الوزن عند رواد الفضاء، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟

وأن رب العالمين سيجعل الخلق في حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه في الدنيا، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملئية بكل ما كان منهم وحكم الله فيه.

والجزء مادي وروحاني معاً، إنه للإنسان الذي عبد بجسمه وعقله، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته في وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز، وليس هناك بته ما يدعو لهذا التعسف في التفسير.

والنظر إلى مادية الإنسان بأنها معرة، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها.

نعم، إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى، معها الرضوان الأعلى والاستغراق في شهود أمجاد الألوهية: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين في احتقارهم للبدن، وفهمهم أن التسامى لا يحصل إلا بسحقه، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الآخوية لا وجود للبدن فيها، وأن النعيم أو الجحيم معنويان وحسب.

وقد سرى هذا الخطأ - كلاً أو جزءاً - إلى بعض متصوفة المسلمين، فاعتنقوه، وحسبوه دلالة ارتقاء، وتجرد، فظلموا بهذا المسلك دينهم، وأوقعوا خللاً سيئاً في موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز.

إن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين: جسمه من هذه الأرض خلق ونما، وروحه من نفخة - من الله سبحانه وتعالى، فهو ليس حيواناً وليس ملاكاً، وفي كيانه تتجاوز المتناقضات، من غرائز مادية، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها، وتغذى على نتاجها يرجع الجسد ليلبي، ويفنى منه ما شاء الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

أما الروح فله مستقر آخر.. إن الشخصية الإنسانية لا تفنى بالموت. وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر.. وإنه كما يسافر أحدنا من بلد إلى بلد يسافر الموتى من مكان إلى مكان، حيث تبدأ حياة الآخرة، ويبدأ الحساب الرهيب تمهيداً للمحاكمة الكبرى يوم النشور..

وهذه المرحلة المتوسطة هي البرزخ كما ذكرت الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ﴾ [١١] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].. ويشبه ما يلقاه الفجار في البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون في قبضتهم.. هناك تحقيق ابتدائي سريع، ثم يُرمى المتهمون في السجن ريثما يُقدمون للقضاء في محكمة كبرى..

ويشبه ما يلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفاً تقررت مكافأته، أو عبقرياً منح جائزة سنوية، إنه يجاء به مكرماً، ويستريح في إحدى الغرف الأنيقة ريثما يأخذ ما تقرر له..

٤. القرآن الكريم:

إن القرآن كتاب يتحدث في العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشؤون المحلية والدولية، ويصف الكون، ويسرد التواريخ، مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء.. وألفاظه ومعانيه من عند الله..

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عن السلف، إذ أن سليقتهم اللغوية مكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله، والحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو

يتلو كتابه بلغوا شأواً لا يضارع فى السمو الفكرى والتربوى، فليس عجباً أن ينطلقوا مشاعل هدى فى أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور.

إن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن، وهو مقطوع بثبوته كلمة كلمة..

وهناك فارق ضخم بين تاريخ الإسلام- فى نشأته الأولى- وتاريخ الدينين السابقين عليه، أعنى اليهودية والنصرانية، إن الإسلام تحول على عجل إلى دولة قائمة لها سلطات وطيدة، أما النصرانية فلم تقم لها دولة إلا خلال القرن الرابع لوجودها. وإذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسى على عهد مبكر، فإن كيانها قد تلاشى كل التلاشى بعد قليل، وضاعت مقدساتها كلها. وهذا الفارق يفسر كيف بقى كتاب الإسلام مصوناً، وكيف تعرضت كتب أخرى للعوادى الماحقة.

لقد ظل النبى ﷺ يتلقى القرآن فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة فى قلوبهم ويسجله الكتبة فى صحفهم، وكان هذا القرآن معروفاً للعدو والصديق.

وعندما انتقل بنى القرآن إلى المدينة باشر هناك سلطات رئيس الدولة.. وظل القرآن ينزل عشر سنين أخرى، الكتبة يسجلون بإشراف الرسول عليهم، والحفظة يختزنون العلم فى صدورهم، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته فى الصلوات الخمس، وفى قيام الليل، وفى مجالس التلاوة، وفى خطب الجمعة، الأفراد والجماعات مقبلة على قراءة الكتاب العزيز..

حكومة قائمة ترى القرآن دستوراً ومناهاً، فهى تحفظه وتحافظ عليه، وترسل الوفود به إلى الآفاق. من أين يتطرق الريب إلى كتاب هذه بيئته الأولى؟

ما عرفت الدنيا منذ بدء الخليقة مثل هذا الصون لكتاب من الكتب.

ومضت دولة النبوة، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة، وظلت هذه الدولة ثلاثين عاماً شرق فيها الإسلام وغرب، وأثر عن جيوشها أنها كانت لا ينتهى لها هدير بالتلاوة أناء الليل وأطراف النهار.

ومضت دولة الخلافة، وجاءت دول أخرى كثيرة، فماذا حدث خلالها للقرآن؟
كان تواتره يمتد ليشمل أجيالاً أخرى، وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم

والدور والقصور.. وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

إن القرآن هو السجل الجامع للعقيدة التي بلغها المرسلون، وتواصوا كابرا عن كابر أخذ الناس بها وتنشئتهم عليها..

ومنذ أربعة عشر قرناً لم يتغير شيء من هذه الثلاثة: الشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، والقرآن هو القرآن. لقد أحكم الله آيات القرآن الكريم، ويسر فهمها وذكرها، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية، والمسالك الفردية والاجتماعية. وليس هناك آية أبداً يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ، أو تعطيل عملها، تصريحاً أو تلميحاً.

ويؤسفني أن ناساً كثيرين يريدون أن توضع شرائع الإسلام على الرف، أو يحكم على بعضها بالإعدام تمهيداً لإنفاذ الحكم فيها كلها.

والأمر لا يحتاج إلى الحيلة، فلنقل: إننا نتجاوز النص إلى روح النص، أو النقل إن الظروف التي نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير، فليتغير النص تبعاً لذلك!

ما أسهل تطبيق الإسلام بهذه الطريقة، أو جعله اسماً لا حقيقة له، أو جعله شكلاً لا موضوع له!..

ولقد بدأ سمسرة الاستعمار تنفيذ الخطة، فسمعنا من يقول: إن الضرائب تغني عن الزكاة! ومن يقول: إن الصلاة والصيام يعطلان الإنتاج، فلا حرج من التنازل عنهما! ومن يقول: إن حرمة لحم الخنزير لقذارة مراعية قديماً وقد زالت الآن هذه العلة! ومن يقول: إن العردة في الطريق هي سر تحريم الخمر، فمن يتناول منها قليلاً في بيته فلا حرج!.. إلخ..

وهكذا تنهد أركان الدين وتضيع معالم الحلال والحرام باسم «روح النص» و«تغير الظروف»، ويمنع انتفاع الناس بالإسلام، بل يمنع دخولها فيه! وينفسح المجال بعد ذلك للإلحاد، أو للأديان الخرافية! ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص من كان تمهيداً للقضاء على العبادات والعقائد والتاريخ والتراث واللغة، فسائر مقومات الأمة..

إننا لسنا من المتعصبين للفقهاء الظاهري، بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من أدلة الشريعة، ومع أغلب الفقهاء في رعاية المصلحة المرسلة، واحترام جملة القواعد التي تحكم الفكر التشريعي عندنا.

إنه لا شكاة من نص معين، ولا شكاة من أمر أو نهى عن محرم، الشكاة من فهم ضيق لأحد النصوص، أو من واجب لم يرد به أمر، أو من تحريم لا يسنده نهى، وعلاج هذا الخلل ميسور، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين.

- وإن القصص القرآني جزء من التاريخ المهم، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذولب.. إنها سرد واع موجه للتاريخ الإنساني ليس الغرض منه الإلهاء أو التشويق!، بل الغرض منه التربية والتوعية، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهمها لتكون عظة دائمة!

وإن اتهام القرآن بأنه يعرض خيالات فنية أو يمزج في سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مسوغ له، وهو في نظرنا بلاهة نشأت عن اتباع المستشرقين.

والمستشرقون يحسون ما في كتبهم من غثاثة وعوج وبعد عن الحق، ويريدون الإيهام بأن القرآن لا يزيد على غيره. وهذا كذب لا يروج عند عاقل.

إن القرآن ليس كتاباً فنياً في الجغرافيا أو التاريخ، إنه يهتم بالجانب الإنساني والاجتماعي وحسب.. ومن ثم كان القصص القرآني مجالاً رحباً لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المتنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحي حتى قيام الساعة.

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، وليس المهم تحديد موقع، أو حتى تحديد الشخص، فما يفيدنا أن نعرف «هوية» ذى القرنين، أو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى.. المهم تقديم الشفاء النفسي والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق.

إن سير الأفراد والأمم تخضع لسنن دقيقة، وإن ازدهار الحضارات وانطفائها، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء، وإنما يقع وفق قوانين صارمة، بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطراداً، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار.

إن العلوم المدنية متروكة للاجتهاد المطلق، وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء، ولما كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا، فإن دائرتها ليست وقفاً على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار، والسياق العالمى فيها يجرى دون توقف. وقد أفهمنا المعصوم - صلوات الله عليه - أننا فى هذا الضرب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة فقال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»

وليس للوحى الإلهى دخل فى البحوث الكيماوية أو الكشف الفلكية أو الإنتاج الصناعى.. إلخ.. وليس فى تاريخ الثقافة الإسلامية علم دينى بعيد عن الحياة، وعلم مدنى بعيد عن الدين، ولم يقع انقسام العلم إلى دينى ومدنى إلا فى عصور السقوط والاضمحلال.

وإن منطق الملاحظة والتجربة هو منطق قرآنى المنبت.

- وللنسخ معنيان:

أحدهما سائغ لا ريبه فيه، وهو تخصيص عام أو تقييد مطلق، أو إظهار حكم ما بطريق التدرج.

والثاني: محو حكم سابق بآخر لاحق، وهو عند التحقيق العلمى لا وجود له فى القرآن الكريم.

بيد أن حمى النسخ أصابت قومًا من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلامًا غريبًا. وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات، وهذا كلام منكر، وقد رفضه الراسخون فى العلم.

لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون فى مهازل، وعلة هذا أنهم بعيدون عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم.. فما من آية فى كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها.

إنه لا نسخ فى القرآن الكريم أبدًا، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج فى التشريع..

وإن الآيات نوعان: تكليفية وكونية. والمقصود بالآيات الكونية خوارق العادات التى يعجزها الله لتأييد أنبيائه.. أما الآيات التكليفية فهى كلمات الله المتضمنة هُداة

لعباده.. والنسخ يقع فى الأولى ولا يقع فى الأخرى، فإن المعجزة التى تصلح لأمة لا تصلح لأخرى.. فالنسخ ليس فى آيات تكليفية أو أحكام شرعية، وإنما هو فى حقيقة المعجزة التى تصحب رسالات المرسلين..

ومن الشائعات التى انطلقت فى ميدان النسخ أن هناك قرآناً أنزل ثم سحب! والمعروف فى ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذى يفيد اليقين، وأن خبر الواحد لا يثبت قرآناً أبداً، فالزعم بأن قرآناً كان، ثم رُفع كلام لا يلتفت إليه.

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكاماً جاءت فى السنة الشريفة، وذلك مثل نسخ استقبال قبلة بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام. واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآنى، وإنما كان بإلهام إلهى عن طريق السنة التى يهذى إليها قلب الرسول الكريم.

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠].

٥. الرسول ﷺ:

لقد اتفق دارسون شخصية محمد ﷺ على أن قدراته الروحية خارقة للعادة، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدوراً ويوسع آفاقاً، وينقل جيلاً من البشرية الضيقة إلى الرابانية الرحبة المشرقة..

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق مكنون من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبست يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع^(١)

إنه وحده الأسوة الحسنة فى الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة.. ولا يُعرف

(١) من شعر الصحابى عبد الله بن رواحة.

فى تاريخ الهداية رجل مثل محمد ﷺ أحسن صوغ النفوس وإيقاظ ملكاتها وإدارتها بأعظم ما فيها من طاقة، وجعلها تدفع ولا تندفع، وتؤثر لا تتأثر..

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمداً ﷺ وحده هو الإنسان الأول، والقمة الأولى، فى تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدها.. وإن المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد وصحبه. إن سيرة الرسول لم تكن سيرة رجل يعيش فى صومعة، وإنما كانت سيرة عابد مجاهد صومعته الدنيا كلها.

إن الأبواب كلها موصدة أمام من حرم التأسى بمحمد ﷺ فهو إمام الاتقياء وسيد المرين.. وأنا أحد الأرقاء لجميل محمد، الشاعرين بعظمته، والمتابعين لسيرته..

٦. السنة النبوية:

إن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة، أو بتعبير آخر: لن يكون فقيهاً فى السنة قصير باع فى فقه القرآن الكريم. والكتاب والسنة معاً دعامتا الدين..

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكان الرسول ﷺ ويحسب أن القرآن وحده كافٍ فى هداية الناس دون بيان من صاحبه، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عبادته، وهذا خطأ بالغ، فإن القرآن ليس نقطة عثرنا عليها فى فلاة، ولا كتاباً نظرياً يستطيع كل أمرئ أن يفسره على هواه ضارباً عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه..

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الإنسانية الطويل.. إنه عندما يتكلم يبلغ عن الله، ويصدر عن فؤاد موصول بنور السموات والأرض: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِنَّا وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله، كلاماً جُمع بطريق الجراف أو سُجل دون وعى. لا، إن جميع الضوابط التى يمكن حشدتها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين.

ثم إن السنة العملية وصلت إلينا بطريق التواتر الذى وصل به القرآن نفسه، فلا مجال لإنكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة، أو الزكوات المحسوبة.

ولا يتعارض حديث مع كتاب الله أبداً، وما يبدو حيناً من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع..

لقد ظل النبى ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة، اختلفت فيها الأحوال، وتباين الأفراد، وتشعبت القضايا.. ووضع كل حديث بإزاء المقصود منه، أو معرفة النطاق الذى يصح فيه، هو عمل الفقهاء، وهو عمل لا مناص منه وإلا حرّفنا الكلم عن مواضعه.

والذى أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء ومن يعينهم الأمر من الولاة والقضاة والدعاة والمتخصصين فى أى مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل.. أما رجل الشارع أو الشخص العادى، فإن أربعين حديثاً تكفيه وتغنيه..

والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه، وعلى ضوئها نصلّى الخمس، ونحج البيت، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية، وهناك أحكام كثيرة فى الفروع أجمع عليها الفقهاء، ولا يخرج على هذا الإجماع مؤمن، أما ما كان موضع خلاف، فالأمر فيه على اتساع، يعتنق أى مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج.

ولقد قال الفقهاء: السنة المشهورة تخصص عموم القرآن.. وهذا التخصص أو التقييد هو تفسير ممن تلقى الوحي للمراد الإلهى، ومن أحق من نبي القرآن بتفسيره؟ ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم، بل هو بيان وتوضيح.

أما أخبار الآحاد، التى لم تبلغ حد التواتر، فهى عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمى، وشذ بعض الحنابلة فروى عن إمامه أنها تفيد القطع، وهذا فهم مردود.. إن أحاديث الآحاد يعمل بها فى الفروع، أما العقيدة فتحتاج إلى نص متيقن ثابت بالتواتر.

والقرآن أصل الإسلام والسنة فرع يجيء، بعدة بيان وتفسير.

إنه لا سنة بغير فقه.. وإن عرض الحديث النبوى دون فقه صالح لون من تحريف الكلام عن مواضعه، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف..

وإن الأساس العتيد للعلوم تستمد مكانتها من قيمة النقل، وصحة المعنى، ولذلك قال العلماء: الإسناد من الدين ما شاء!

وقيم الشبوت تتفاوت تفاوتاً شاسعاً بين التواتر المقطوع به وأخبار الأحاد المعتبرة التى يرفضها البعض، أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بالفضائل، أو بمناقب الرجال.

على أن ما استقر عليه الأمر فى دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدر الحكم شرعى عملى، وأن القضاة والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثيم..

٧. الصلاة:

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية تمدّه بالحرارة، وتجدد ما بلى من خلاياه، وتحفظ عليه عافيته، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها على التحليق وتمنعها من الإسفاف وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول، وشتى الأهواء والأفداء!

وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقيه الانحراف، ورضا يقويه الطرد، ونعمة تقرّ بها عينه، وسداداً يقويه الحيرة.. والظفر بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

إن الصلاة تورث الخشوع والأدب والخشية، وهى معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملاء الأعلى، إنها - إن أقيمت كما شرع الله - توبة كاملة تمحو الخطايا محوًا، وتطهر النفس. قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون أبقى ذلك من درنه شيئاً؟ قالوا: لا يبقى ذلك من درنه [قذاه] شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا».

وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لا مناص منه للصلاة.. ونستطيع جعل الوضوء رمزاً لفلسفة الإسلام فى تكريم الجسم الإنسانى وإعزازه، إذ إن هناك عقائد تعلن حرباً على هذا الجسم.

والإسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها، بل ضم إلى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة، ويجلب الاحترام.. والتجمل شىء غير التبرج، فالتبرج إهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل نحو الإثم، أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعى فى إطاره العادى

المعتدل، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة، والإسلام يرفض تشبه الجنسين بالآخر، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كريهة الرائحة، كلا، فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ.

ولقد أضاف الله الزينة إلى نفسه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].. إن الله يريد وضاعتنا، فلم نرد نحن الدمامة والرائحة؟!

والوضوء ليس شرطاً في ذكر الله سبحانه وتعالى، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه في أوقاته كلها، جُنباً أو طاهرًا، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم - فيما أرى - وتستطيع الحائض ذلك، والمؤمن لا ينجس أبدًا، والجنابة عارض لبدهن يمكن الخلاص منه على عجل.

● والمرء عندما يتأمل في كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية، ووصفاً لله قائماً على الحق المطلق، الحق الذي لا يتغير بين مشرق ومغرب..

إن الأذان يوقظ فؤادي، ويعرفني بربي على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة. وإن الكون كله، لا الأرض وحدها، يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهي تهيب بالبشر أن يهرعوا لمرضاة الله..

● وإن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تنساب إلى النفوس من لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه، ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر.. ولذلك:

١- يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا.. فهي ليست درساً نظرياً بقدر ما هي حقيقة تشرح وتغرس.

٢- عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر في تسلسل منطقي مقبول.

٣- ولحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة، ولا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية، بل الموضوعية.

٤- ولا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصباً لوجهة نظر إسلامية محدودة، فإن المسجد يجمع لا يفرق.. ومما يزرى بالخطيب ويضع موعظته أن يكون في واد، والناس والزمان والمكان في واد آخر.

وأكره أن تكون الخطبة تحرشاً شخصياً أو تهجماً سياسياً، أو تعليقاً مقصوراً على الأحداث العابرة، فإن المساجد لم تبني لشيء من هذا، وتشريع الخطبة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر في آفاق الكون وشئون الناس على نحو ما وضع القرآن الكريم: ﴿سَرُّهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

٥- وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع. ولقد قال عمار بن ياسر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مثنى [علامة] من فقهه، فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة».

٦- وهناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة.. ولا يجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سرّداً مجرداً فيحدث فوضى في ميدان التكاليف الشرعية.. كما أن الإسهاب والتفصيل في ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له، ويكتفى بالإلماح إلى ما جاء في القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق. فالكلام عن عالم الغيب لا يقبل إلا من المعصوم وحده، والمسلمون مجمعون على أن الشريعة لا منبع لها إلا الكتاب والسنة.

٧- ومن الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحياناً شيئاً من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية والسياسية تنويعاً بالحضارة اليانية التي أقامها الإسلام في العالم، مع الإشارة إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التي أحدثها القرآن الكريم، واليقظة الإنسانية التي صنعها الرسول ﷺ، ويكون الغرض من هذه الخطب - على اختلاف موضوعاتها - أن تُرجع إلى المسلمين ثقافتهم بأنفسهم ورسالتهم العالية.

٨- وطبعي أن تتعرض الخطبة لذود المفساد النفسية للفلسفات الأجنبية والنزعات الإلحادية التي تسربت إلى الأمة الإسلامية.. وذلك بعرض الحقائق الإيجابية في الإسلام، والرد على الشبهات دون عناية بذكر مصدرها، لأن

المهم هو حماية التراث الروحي والعلمي، وليس المهم تجريح الآخرين وإلحاق الهزائم بهم.

٩- وقبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغي أن تكون في ذهنه صورة بنية لما يريد أن يقوله، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام، ليطمئن أطمئناناً كاملاً إلى صحة القضايا التي سوف يعرضها، وإلى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية.. فالتحضير المتقن دلالة احترام المرء لنفسه ولسامعيه.. والمهارة في الارتجال لا تغنى عن حسن التحضير.

١٠- والإيجاز في الخطبة أعون على تثبيت الحقائق، وجمع المشاعر والأفكار حول ما يراد بثه من تعاليم..

٨ الزكاة:

إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية: ﴿حُذِرْنَ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وإن الدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهد في مصالحها، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم، ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوان!

لقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة، وجعله جزءاً من كيان مشترك أو جسد واحد، وأفهمه أن الإيمان يقتضى محبة الآخرين والرحمة بهم، واحترام مصالحهم، وقد يقتضى الإيثار والعطاء المبرأ من المن.

ومن قديم والناس يكرهون استخراج المال من خزائنتهم، ويودون لو بقى لهم وحدهم، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة، ويكسر حداثتها، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يفيئوا إلى أمر الله، وهكذا فعل الخليفة الأول، فهل يتكرر ما فعل؟

إن محنة الدين في المجتمعات التي تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم، والثوار ما كانوا حاquدين على الوجود الإلهي قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومسغبة البائسين.

يجب أن نضمن للكادح ثمن عرقه، وجزاء سعيه.

وأنا اختار في الأرض الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر، كما اختار القول بأن الزكاة في جميع ما تخرجه الأرض من حبوب وفواكه وثمار.. فالزكاة ليست عبادة محصنة يستحيل فيها التغيير، بل هي عبادة مربوطة بحكمة، وتترتب عليها مصالح متجددة.

ويجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين لترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة، تبين كم تساوى عشرين مثقالاً من ذهب، ومئتا درهم من الفضة، وخمسة أوسق من الحبوب، وماذا يتركه التضخم من آثار في قيمة الأنصبة؟

لقد أقام الإسلام شعار «في سبيل الله» ليخلع الإنسان من أثرته، ويدفعه إلى ربه، فالإنفاق ينبغي أن يكون في سبيل الله، والجهاد ينبغي أن يكون في سبيل الله، والسعى في هذه الدنيا ينبغي أن يكون في سبيل الله، بل المحيا والممات جميعاً في سبيل الله.

- إن الإسلام منح الفرد حق التملك ما دام السبب مشروعاً.. وإن ازدهار العمران وتوقد الملكات، وتضاعف الإنتاج إنما يجيء مع سباق الحوافز الخاصة، ورغبة البشر في الكسب، والمزيد من الكسب، لأنفسهم وأولادهم.

وقد أقر الإسلام حرية التملك، وإن كان قد أثقلها بالقيود التي تمنع سطوة الأنانية، وطغيان الاستغناء.

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسى تجد الإثراء الحرام، واستغلال السلطة إلى أبعد الآماد، وسوق المغانم إلى الأقارب والأتباع والحواشى..

وإن العمل هو المصدر الأساسى للثروة، وعلى الدولة أن تمهد ميادينها لكل قادر، وأن تحارب البطالة بكل ما لديها من قوة..

وإن المجتمع الإسلامى يجب أن يعاد تشكيله وفق القانون الإلهى الفذ ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِيِّ الْأَعْيَبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْشُكْرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، أما عوائد المترفين والقاعدين فلتطوح معهم إلى الجحيم.

وإن الدول النامية - المقترضة - تندرج من سيئ إلى أسوأ، وها هي قد أوقفت برامج التنمية وعجزت عن سداد الأقساط، والفوائد المقررة، ويوشك أغلبها أن يعلن إفلاسه.

أما الدول الدائنة فقد كانت فرحة بقدرتها على الإقراض وفرصتها في أكل الربا.. ثم ذاقت وبال أمرها بعد تدهور أحوال المدين وظهور عجزه.

حتى إعادة جدولة الديون لا تحقق خيرًا، فإن هذه الإعادة تؤدي إلى خسارة ٨٠٪ من القيمة الأصلية للدين.

ولو طبقت الأنظمة المحاسبية على هذه المؤسسات لأعلنت إفلاسها.. أليس هذا هو المحق الذي توعد القرآن به المرابين؟

إن الاحتكار جريمة خلقية واجتماعية، وهو أقصر طريق لأكل أموال الناس بالباطل، وإشباع النهم الفردى من حاجة ذوى الحاجات.

ولعل من أدهى العلل التى وفدت بها الحضارة الحديثة حرق بعض المحاصيل الزراعية حتى لا يرخص السعر الذى حدده الباعة.. والكفر، كالجنون فنون!

والذى نراه إبقاء سوق العرض والطلب، وإطلاق المنافسة الحرة بين الأفراد والشركات، وتدخل الدولة بالتسعير الجبرى إذا أحست سوء الاستغلال.

ولقد فرض الله الزكاة تطهيرًا للنفس من رذيلة الشح، ومساعدة الفقراء على رد الضوابط والأزمات، وإسهامًا فى الدفاع عن العقيدة.. إلخ.. وحد القرآن الكريم مصارف الزكاة فى ثمانية أصناف لا يجوز أن تعدوها إلى غيرها.. أما دائرة الضريبة، فهى أوسع مصادر ومصارف، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسى والعسكرى والحضارى للأمة، ومنها ينفق الجهاز الإدارى.

ولقد حدد الإسلام نسب الزكاة، ومستحقّيها، لكن النشاط الإسلامى العالمى الممتد يفرض على المسلمين بذلاً لا يقف عند حد، كى يبلغوا رسالة الله، ويحسنوا الدفاع عنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ [التوبة: ١١١]، ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ [التوبة: ٤١]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ٢١٦].

ويظهر أن كلمة «النفقة» تشمل الصدقات المفروضة والنافلة، وتشمل أنواع البذل التي يفرضها العمل لله في شتى الميادين. وربما تمر بالمسلمين أيام يكلفون فيها بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة، لا يستبقون شيئاً.

٩. الصوم:

إن شريعة الصوم هي حرمان الواحد، ابتغاء ما عند الله.. وإن ربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبي ﷺ في قوله: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»

إن كلمتي «إيماناً واحتساباً» تعنيان جهداً لا يُستعجل أجره، ولا يُطلب اليوم ثمنه، لأن بآذله قرر أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه.. نازلاً عند قوله ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ [النبا: ٣٩]، فالصوم يرد النفس إلى القليل الكافي، ويصدها عن الكثير المؤذى.. ولعل أهم ثمرات الصوم الحق إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما..

إن الإنسان الذي يملك شهواته قوة خطيرة، والشعب الذي يملك شهواته قوة أخطر، فهل نعقل؟! فلا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!

أعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتوح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها، أو قلة العادات التي تُعجز عن العمل إن لم تتوافر.. يضع الواحد منهم تمرات في جيبه وينطلق إلى الميدان، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم، وإلا توقفوا..

وقد اعتمد غاندى على هذا السلاح عندما حارب بريطانيا العظمى..

كان الإنتاج البريطاني يعتمد على الاستهلاك الهندي.. وقرر غاندى أن ينتصر

بتدريب قومه على الاستغناء، نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات «مانشستر» نأكل الطعام بدون الملح ما دامت الدولة تحتكره، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم.. وفي ذلك قال الشاعر القروي سليم الخوري [١٨٨٧ - ١٩٨٤م]:

لقد صام هندي فجوع دولة	وما ضار علجا صوم مليون مسلم
تجشم عن أوطانه صوم عامد	مجشم أوطان العدا صوم مرغم
وخلا بلاد الظالمين بلادُه	تضيق بجيش العاطلين العرمم
وألقى على «مانشستر» في ظل رهبة	تضج بأشباح الشقاء المخيم
أهاب بآلات الحديد فعطلت	مصانع كانت جنة المتنعم
وشل دواليب الرخاء بصرخة	أدارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست	جسوم البرايا بالقشيب المنمم
تهدمها أسرار نفس عجبية	تجول بذو الهيكل المتهمم
فيالك من عارٍ، لديه تصاغرت	جبابر أبدان، وعقل ودرهم!
وراحت ملوك المال تشكو ببابه	من الظلم، بالظالم المنظلم!

وأحفظ للشيخ الكبير محمد الخضر حسين [١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ / ١٨٧٦ - ١٩٥٨م] - شيخ الأزهر الأسبق.. كلمة عظيمة: «لست أنا الذي يُهدد، إن كوبًا من اللبن يكفيني أربعًا وعشرين ساعة»!

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩ - ١٣٧٣هـ / ١٨٨٢ - ١٩٥٤م]، وقد حذروه من غضب جهات عالية: «أيمنعني ذاك من التردد بين بيتي والمسجد؟ قالوا: لا. قال: لا حظ إذن! ليس هناك ما يُخاف!».

ولقد خط هذا النهج على بن أبي طالب عندما قال: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره!».

على أن هناك حقيقة مؤسفة، هي أن الصُّوم قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرون!

١٠. الحج:

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم

وحاضرهم، وهو من الناحية الروحية إذكاء مشاعر، وتجديد عاطفة، ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجهات الجامعة التي تكفل مصلحة المسلمين العليا.

فهل يسمع المسلمون شيئاً ذا بال عندما يحجون هذه الأيام؟!

١١. مقاصد الشريعة:

إن الدين الذى أعتنقه قام على معجزة عقلية، تعرّفنى أن الله واحد فى الأرض والسماء لأنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفى القرآن الكريم مئات الآيات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله، وبعده عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الأبواب، وترى أنهم الناس حقاً! وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبى [٣٠٢-٣٥٤هـ / ٩١٥-٩٦٥م]:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان!
والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرأها فى المصحف.

إن العقل الإسلامى تحيط به غشاوات سميكة، ولا بد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة. ولا بد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية وهم لا يصلحون لا لدنيا ولا لدين.

إن الإسلام يريد أولاً عقلاً سليماً وفكراً مستقيماً.. وإن صحة النظر إلى الأمور، ودقة الحكم على الأشياء تجيء أولاً، ثم تجيء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك.

إنى لم أفر كتاباً منسوباً إلى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم.

إن ديننا قوامه العقل، ومعجزته إنسانية خالدة.. ولعمرى ما وجد العقل منذ بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا كتاب يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل!

كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر

وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة أو كما يعبرون في عصرنا بالمادة وما وراء المادة.

لا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان إلا هذا القرآن. إن التفكير فريضة إسلامية.. كما يقول الأستاذ العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م].

وألوا الألباب هم الذين يتفكرون في خلق العالم.. ولا يجادلون في اكتناه الذات العليا، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها.. وكما قيل: ما يعز على العقل فهمه شيء، وما يحكم العقل باستحالته شيء آخر!

إن أثر القرآن الكريم في الفكر الإنساني عميق، إنه هو الذي أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل! لقد كرم الله الإنسان بالعقل، فكل ما أضاع العقل حرام.. وكل ما ثبت تغييبه للعقل، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكري فهو محرم بيقين!

وجمهور الأطباء والمربين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات في العهود الأخيرة، وأظن أنه لا يمنع من عقاب شاربها إلا الخوف من التشبه بالإسلام!

إن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للغربيين من وراء هذا الانحطاط المبين.

- ولقد جاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الأشهر الحرم. قال ﷺ «ألا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم أشهد - ثلاثا - ويلكم، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

ونظر عبد الله بن عمر إلى الكعبة وقال: ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، وحرمة دمه وماله وعرضه!

وفي الحديث كذلك «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا.. ولو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتروا في دم مؤمن لكبهم الله في النار».

وبعد النفس يجيء المال، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة، فما من أحد يستغنى

عن المال ليطلع ويلبس ويقوت عياله، ويصون مروءته، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمل كيانها وتدبر مصالحها، وتستبقى ذاتها.

١٢. العمران الإنساني:

إن الحياة الصحيحة في الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها. إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزي. كلا، إن له حقوقه المصونة، لا في الضرورات فقط، ولكن في المتاح والزينة! لكن على شرط أن يعرف المنعم ويشكره.

وحق على أهل الإيمان أن يتمكنوا في الدنيا، ويقدرُوا عليها بسعة العلم وقوة العمل، لأن الله لم يخلق عباده كي يعيشوا على هامش الحياة أو يضطرب في أيديهم زمامها، وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا فَلْيَافِكُوا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣]. ولهذا التمكن ثمرتان:

الثمرة الأولى: حسن ارتفاع الأرض، واستغلال خيراتها في رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين.

والثمرة الثانية: تطويع ما في الأرض من قوى لدعم الحق، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشي وفق ما شرع الله، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

لماذا انفتح باب الاختراع في الدين، وهو شر؟ ولم يفتح باب الاختراع في الدنيا، وهو خير؟ ولماذا كرر الاتقياء الصلوات والصيام، والذكر والاستغفار، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا، على حين قلت أو صغرت الأرصدة في ميادين الأمر والنهي والجهاد المدني والعسكري، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر، ومسابقة الأمم في تنمية النشاط العمراني وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟

الحق المر أن الفساد السياسي من وراء هذه البلبلة الفكرية، فإن الرجل التقى قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة، فإذا هو يدفع رأسه ثمنها! وقد يؤثر لنفسه وبنيه مالاً، فإذا مصادرة جائزة تجتاح كل ما جمع، وقد يبرز في ميدان

ثقافى أو أدبى أو صناعى فإذا هو يُسَوم: أيعطى ولاءه للحاكم الفذ، أم يختفى؟
أما الحياد فلا!

الفرار من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تُبتدع أو خلوات قصية تُقصد،
ويُعْتَزل بها المجتمع.

إن الفساد السياسى من وراء انهيار الأمة الإسلامية، وضياها دنيا ودينًا.. وإن
التزوير فى أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية، وإن أى فرعون لا
يوجد إلا حيث يكون الأوغاد والأذنان. وإن العمل الصالح، الذى هو صفو الإيمان،
هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة، وقد يكون فلاحه أو صناعة أو إدارة،
وقد يكون سفرًا أو إقامة، وقد يكون قتالًا أو سلامًا.. إنه مسلك غير محدود لباعث
واحد هو حب الخير، وطلب الإصلاح..

- ولقد وضعتُ لتعمير سيناء خطة تقوم على إنشاء مستوطنات، أساسها ثلاثة
رجال: إمام مسجد، ومهندس زراعة، وضابط جيش، وتركت اختيار الأماكن
للمتخصصين.

- والأصل فى الأشياء الإباحة، ولا تحريم إلا بنص قاطع.

والواقع أن نفرًا من سوداوى المزاج ولعوا بالتحريم، ومنهجهم فى الحكم على
الأشياء يخالف منهج نبي الإسلام ﷺ الذى ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما
لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه..

ولم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق.. فإذا كان الغناء مقروناً
بالمحرمات فهو مرفوض، أما إذا برئ منها فلا شىء فيه..

والموسيقى كالغناء. وقد رأيت فى السنة أن النبي ﷺ مدح صوت أبى موسى
الأشعرى وكان حلواً، وقد سمعه يتغنى بالقرآن - فقال له: «لقد أوتيت مزماراً من
مزامير آل داود»! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك.

إن الألحان تختلف فى تأثيرها وصداها النفسى، فإذا كان هناك مجال لا اعتراض
فعلى الأصوات الخشنة والألحان الطرية المائعة.

إن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو، ولو رزقنا بفنانين ذوى

شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون إلى عوامل للبناء لا للهدم، ولإثارة المشاعر النبيلة لا لإهاجة الغرائز الدنيا.

١٣. الوسطية الإسلامية:

إن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط.. والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم، ويحذرها من الخطوط المنحرفة يسارًا.

والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع، وغالبًا ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح..

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينًا بالابتداع والحماس الكاذب، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهى بالجحود والتمرد..

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعًا.. في شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير، ويحب الإنفاق المعقول.. وفي مجال العلم الديني رأيت أناسًا متبحرين في المنقول والمعقول، بهم فقه واسع، ومحفوظات كثيرة، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ..

ومن المحزن أن هناك انفصالًا في علومنا الدينية بين الفقه والتصوف، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانًا إلى الجنون، وجعل الفقهاء أحيانًا يمثلون القانون العاتى الأصم.

والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة، فهي تتعلم وتعلم وتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إذا اقتضى الأمر الدفاع، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمته الدينية والمدنية.

وفي الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام، وانتقص أطرافه بحقوق الضعفاء والمتعبد.. وبذلك ضمن نجاة الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة..

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوي للمال، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال، حتى قيل في كتبهم: لأن يلج الجمل في سم الخياط أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات!

ولقد جاء الإسلام ففرض المسلكين، وعد المال وسيلة لما بعده، وقال النبي ﷺ «إن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحبه المسلم، هو لمن أعطى منه ليتيم ولمسكين وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة».

إن الإسلام عد العمل للحياة عبادة، وعد المال قوام الحياة وسياجها.

١٤. الفقه الإسلامي:

إن كلمة الفقه في ثقافتنا التقليدية تشبه كلمة الفكر في عصرنا الحاضر، فإذا وصف أحد الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك أن في ذكائه حدة، وفي بحثه عمقاً، وفي نظره بعداً.

ويوجد ناس صالحون قليلو الفقه، لعلمهم المعنيون بقول القائل: من أصحابي من أرجو دعوته وأرفض شهادته!.. والواقع أن هناك متدينين لا تقبل فتاواهم ولا أحكامهم، كبعض الخوارج، وبعض الصوفية، وبعض المحدثين، فإنهم مع نقاء سرائرهم لم يرزقوا الحكمة والوعى، ولم يحسنوا العمل بما يعلمون، لأنهم حرموا الفقه!

ولقد تناول الفقه الإسلامي شئون الحياة كلها، فهو مع المرء في يقظته وفي فراشه، وفي خلوته وجلوته، وفي سفره وإقامته، وفي أدق شئون جسده، وفي علاقته بالدولة، وفي علاقته بشتى الملل والأجناس.

إن القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والأخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية، ورسم للأسرة وللدولة جميعاً ما شاء الله من شرائع وتوجيهات. وسيرة محمد ﷺ لم تكن سيرة رجل يعيش في صومعة، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق، كما يشرف في الوقت نفسه على توزيع المال في المجتمع، والإمساك بدفة الحكم، وشئون الحرب والسلام، أي أن صومعته كانت الدنيا كلها.

وإن فقهاء الإسلامى يتسع طوًلاً وعرضاً ليشمل كل شىء، إنه يتحدث فى شئون العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج، ويتحدث فى شئون الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ومواريث، ويتحدث فى الشئون التجارية من بيع وإيجار وشركات وكفالات وحوالات.. إلخ.. ويتحدث فى الجنح والجنائيات المتعلقة بالعرض والدم والمال، ويشرع أنواع الحدود والقصاص، ويتحدث فى الشئون الدولية، وفيما قد يقع من حرب أو يعقد من صلح أو هدنة أو أمان.. إلخ.

وإن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصاً كثيرة للتصرف فى نطاق الشريعة على هدى من مبادئها..

ومن الموضوعات الجديرة بالدراسة الجادة: تقنين الفقه الإسلامى وصب أحكامه فى مواد محدودة، يتصرف القاضى على ضوءها، وفى نطاقها..

ولقد قرر المسلمون بالإجماع أن العلم النظرى وحده لا يكفى فى إعطاء قيمة أدبية لإنسان، لا بدمعه من تجرد لله، وصلابة فى الخلق، ونزاهة فى السلوك، واستعلاء على إغراء الحكم والمال.

إن ضيق الخلق والأفق يجبر على المسلمين البلباء، وما كان الفقهاء قديماً يرون الخلاف مثار فتنة، بل وجدنا الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠م].. يقول: «الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة» مع رفضه لكثير من آرائه!

إن هؤلاء الأئمة الأعلام صنعهم الإسلام ولم يصنعوه!.. وإن التعصب المذهبى منكور بين العامة، وأرى أنه بين الفقهاء جريمة غليظة.

وإن فوضى الإفتاء والتقاضى قديماً هى التى انتهت بإغلاق باب الاجتهاد، وتجميد الفقه كله، وما تبع ذلك من ركود وتراجع.. لقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهاء ألف عام.

وللإجماع - فى الفقه الإسلامى معنيان:

١- إجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله ﷺ.. ولما كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يعد انفلاتاً من الإسلام وخروجاً على الدين.

٢- أما الإجماع الآخر فهو اتفاق أهل النظر، وأرباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصلحة، أو تطبيقاً للقواعد الفقهية المعتمدة، أو ما شابه ذلك من الأدلة.. ويجب احترام هذا الإجماع، والتزام الأفراد به، وإذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه فهو ينسخ بإجماع آخر من أهل الذكر وأصحاب الحل والعقد.. والخروج على هذا الإجماع قد يكون فسوقاً أو عصيانياً، وربما لابسه ما يؤدي إلى الكفر.

وإجماع الأئمة الأربعة على حكم ما، أو على فهم ما لا يسمى إجماعاً إذا كانت ثمة مذاهب لصحابة أو تابعين أو مجتهدين آخرين.

ولقد سوى الفقهاء - من قديم - بين جحد العقيدة وبين إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة..

والخلاف العلمى يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الاتباع.. ولقد رأيت لابن حزم [٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م] آراء كان فيها أولى بالحق من غيره، وأقوم قيلاً، كما رأيت لابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م] فقهاً ناضحاً بالذكاء والتألق..

- وإن القوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه لها وظيفة مقررة، ووظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكرياً وسياسياً، وفرض إرادة الغالب عليها!! إنها تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية، أو مسخ حقيقى لكيانها الروحى والعقلى، والهدف الأخير لها هو الإتيان على الإسلام من القواعد!

إن القوانين الرومانية وثنية الأصل، أرضية النزعة، لا علاقة لها بالسماء.. ومن حق المسلمين فى كل شبر من أرضهم أن يرفضوا القوانين الوضعية، وأن يعلنوا عليها حرباً قائمة، فهى الوجه الرسمى لغلبة الجاهلية على دولتهم، وهى الأساس الموضوع لضرب بقايا الإسلام الخلقية والاجتماعية، بل هى الجرثومة المتحركة لمحو الإيمان من القلب وجعل الولاء لله ورسوله صفرًا..

ومن السماجة التى لا قرار لها أن يستغرب أحد المطالبة بحكم الله، وأن يعرقل سير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء..

وإن الصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظمتها، وبين حراس الإسلام والأوفياء لثمراته وتاريخه وأمته..

ونحن لا نزعم أن القوانين الوضعية شر كلها، فهي من صنع الإنسان الذي يصيب ويخطئ، ويضل ويهتدى، وربما تضمنت أمورًا جديرة بالقبول، خصوصًا عندما تعمل في الميدان الإدارى أو الدستورى..

ولكن ذلك لا ينسينا أمرين:

أولهما: أنها جعلت إقصاء الإسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير.

والآخر: أنها تنقل إلينا قيم وأعراف أقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

وعندما نشرع فى رد قوانيننا كلها إلى فقهننا الإسلامى، فسنجد أنفسنا أمام ينابيع دفاقة وثرورات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير.. وما علينا إلا أن نحسن التأسى ونسرع المسير..

- وإن عقوبات الحدود رادعة، تحقق الأمان.. قد تكون نجد والحجاز أقل حضارة من الولايات المتحدة، بيد أن ظلام الإرهاب والإجرام والتوجس والفرع لا وجود لها فى هذه الأرجاء الفيحاء. ما السبب؟ إقامة الحدود.

لو أن عربة محملة بالذهب مشت من شمال اليمن إلى أول الشام ما فكر أحد فى اعتراضها، إذ الناس رجالان، إما خائف من الله فهو يعاف أكل السحت، وإما خائف من شريعته فهو واقف عند حده، لا يتعرض لقطع اليد، ولا لقطع العنق!

ولم يقل أحد إن الجائع تقطع يده إذا سرق ما يقوته، وإنما تقطع يد الباطل المعتدى على كسب الآخرين وكدهم، والذي يبنى سلوكهم على الظلم والفساد.. إن المسلحين المتظاهرين على النهب والسلب، المتعاونين على الإثم والعدوان وقطع الطريق وإشاعة الفوضى، فإن قتلهم حق.

ثم إن الذى شرع الحدود ندب المؤمنين إلى الستر على المنحرفين، ومنحهم فرصة متاب لعلهم يراعون.

- إن فقه الفروع ثانوى فى رسم السلوك الإسلامى.. وإن شغل العامة به لون من

الثروة الدينية المعطلة للإنتاج والمضيعة للطاقة على الجهاد.. وإن اتباع أى رأى لإمام ثقة، خطأ أم صواب فى نظر الغير، لا حرج فيه، ولا يلد عداوة لأحد.

إنه إذا كان القتال الغبى لا مساغ له من أجل العقيدة.. فكيف إذا كان فى سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة؟ إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحظورة!

- إن الفقه الإسلامى يحتوى على كل ما يهيم البشرية من المهد إلى اللحد.. والفقه الذى ورثناه مع مطالع القرن الخامس عشر الهجرى يعد أغنى فقه فى العالم، والمهاد الذى يتحرك فوقه لا نظير له فى دنيا الناس..

وعلم الفقه له مكانته فى الثقافة الإسلامية، لكن مكانته تجيء بعد علوم العقيدة والأخلاق..

إن أركان الدين ومعالم الإيمان ودعائم الأخلاق ومعاهد الشريعة هى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم..

وإن الفقهاء الأربعة - أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وابن حنبل - كانوا قممًا فى التقوى والمعرفة والنصح للأمة، وإقصاء مشاعر الرغبة والرغبة من كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته.. إنهم رجال كبار، لكنهم ليسوا معصومين، ولا فرض أحدهم نفسه على الأمة، ولا كلفنا باتباع واحد بعينه منهم، وإنما نحترمهم لقول الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

والذى ضخم الخلاف الفقهى هو جهل الغوغاء الذين يقدمون فقه المضمضة والاستنشاق على رعاية العهود والأمانات!. وهذا ضلال مبين.

وكذلك طول أجل الاستبداد السياسى فى تاريخنا، فقد أخرس الألسنة عن الكلام فى الفقه الإدارى والدستورى والدولى، وضمانات الشورى والمال العام، وأغرى أهل البطالة بالثروة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية «وضع اليدين» فى أثناء الصلاة ولا تتحرك لضرب الاستعمار المغير، ومحو الأسباب التى جلبته.

إن فقه الكتاب والسنة لا يشرح له إلا أهل النباهة والتقوى..

ولقد كنت أول الأمر ناقماً على إغلاق باب الاجتهاد، ولكن لما انكسر الباب وتحديث في الإسلام من يعقل ومن لا يعقل، بل كان صوت المرتزقة أعلى من صوت المخلصين! عذرت الذين أغلقوا الباب، وأطفئوا الفتن. أيعنى هذا أنني لا أريد فتح هذا الباب؟ كلا.. إن الاجتهاد التشريعي خصوصاً فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية. والذي أدعو إليه أن تقوم مجامع كبيرة من علماء راسخين، لا يخافون في الله لومة لائم، يحيون الاجتهاد الجماعي القديم، ويقومون بعملين مهمين:

العمل الأول: إنعاش وإحياء الفقه الدولي لتحديد أوضاعنا العالمية، وإعادة النظر في أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردي، ومظالم المستبدين، وإنشاء شرائع إدارية تضبط شئون العمال وتوزيع الأموال، وتصور الحقوق الخاصة والعامة.

إننا متخلفون بضعة قرون في هذا المجال، ولا يجوز ترك الإسلام يفتسه هذا الموت الأدبي!

العمل الثاني: هو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة وغربلة أحكامها، فمن الغرور القول بأن مذهباً انفراد بالصواب كله، ومذهباً آخر يغلب عليه التخليط.

ووجود مجمع فقهي إسلامي عالمي، يجتهد فيما جد من قضايا، وفيما عانينا من فرقة، وضعف أمر لا بد منه.

- إننى لست ظاهرياً، لكننى أتبع الدليل حيث كان، وكثيراً ما أرفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه، لأن وجهات نظر أخرى بدت لى أرجح.. والشيء الذى أتشبه به فعلاً وتركاً ما انعقد إجماعنا عليه.

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة، وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام، فهذا ظلم للإسلام، وربما كان صدأً عن سبيل الله.. إنه لا قداسة لاجتهاد، والخلود لكتاب الله وسنة رسوله.

وبداية أننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومن لا قدم لهم فى علوم الشريعة.

ومع سير الزمن أرى أن تُغلغل النظر في الاجتهادات الفقهية لعرف بدقة نتائجها التطبيقية. وغايتي خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التي بلغتها الإنسانية كلها في هذا العصر الخطير.

إن المتواتر يحكمنى، والصحيح يلزمنى.. أما المرويات الأخرى فلا اكترأث.. وإن العرف السائد يُحكم عليه ولا يُحتكم إليه، والأساس المرعى هو كتاب الله وسنة رسوله.

ونحن نؤكد أن النصوص على العين والرأس، وأن الخلاف الفقهى وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح، ولا قداسة لإحداها.

ولست من هواة التغلغل فى الفروع الفقهية، فإن أصول العقيدة والأخلاق والتشريع تهمنى وتستغرق وقتى، وما أنظر فى الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقصى المتزمتين والمعلولين عن أماكن الصدارة.

لقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره! أو أصبح البحث فى صور العبادات وأشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة.

وربما اختلف الفقهاء: أيقراً المصلى وراء إمامه أم لا؟ بيد أنهم متفقون على أن الخشوع روح الصلاة، وأن من فقد هذا الخشوع فقدت صلاته قيمتها، سواء قرأ أو صمت.

إننى أميل إلى إغلاق باب الاجتهاد فى فقه العبادات، وإبقاء حق الاختيار، أو ما يسمى بالاجتهاد الانتقائى، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة وندع ما عدها من الشروة الطائلة التى آلت إلينا.

إن الخطأ الفقهى مأجور، أما الخطأ الخلقى فهو إثم. وتربية اللحية من سنن الفطرة، وتربية النفس من أركان الإيمان.

١٥. التَّصَوُّفُ:

إن التراث الصوفى يتضمن أحياناً قضايا فى ذروة الشرف والسناء، كما يتضمن أحياناً أخرى شطحات لا وزن لها، بل ينبغى طرحها والنأى عنها.

وهناك طرق صوفية تخدم السلطات الغاشمة، وتحبى البدع والخرافات، وقلما ارتفعت لها راية فى ميدان جهاد..

ونحن نحذر من التصوف الفلسفى الذى نقل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدۃ الوجود، ومشى وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام.. كما أن هناك تصوفاً ضاهى الرهبانية اليهودية والنصرانية، وأعلن حرباً على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها.

لكن هناك تصوفاً نبت فى أكناف الإيمان والإسلام والإنسان، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل، واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية، ودفعها إلى التفانى فى مرضاة الله، والحس الدقيق بوجوده وشهوده، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة، وإن كانت أحوالهم نكدۃ فيما يرى الناس، حتى يقول قائلهم: «حبسى خلوة، ونفى سياحة، وقتلى شهادة!».

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة، فالتكاليف تُودى برضا واستحلاء، لا بتعب ومعاناة، والمعاصى تُترك باستغناء واستعلاء.. ولقد أشار إلى ذلك الله ﷻ بقوله: «ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً».

وفى قراءتى وتجاربى رأيت أناساً على خط من علوم الشريعة وأحكام الفقه، بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف والرغبة فى التسامى، والحب للآخرين.. كما رأيت أناساً فى مشاعرهم لطف، وفى مسالكهم إثارة، لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الإسلام..

كلا الصنفين مسيء ومقصر! والواقع أن العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له، بلاء على الإسلام وعائق عن الانتفاع به. فالدين عقل وعاطفة، وعلم وأدب، ونظر صائب وبصيرة نيرة، ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية، ومتصوفون صفر الأيدى من قوانين الشريعة وضوابطها! والراسخون فى العلم سالمون من هذه الآفات، ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم [٦٩١ - ٧٥١هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] والغزالى وابن الجوزى [٥٠٨ - ٥٩٧هـ / ١١١٤ -

١٢٠١م] وغيرهم، يرى رجالاً على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلى.

ولقد أشرف أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ / ١١٥٨ - ١١١١م] على تفكير أرسطو وأفلاطون [٢٢٧ - ٣٤٧ ق. م] واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حاله يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!

لقد أهدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري [٧٠٩هـ / ١٣٠٩م]، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابى [الجانب العاطفى من الإسلام].. وإذا كان سعد زغلول [١٢٣٣ - ١٣٤٦هـ / ١٨٥٧ - ١٩٢٧م] قد وصف أدب «الرافعى» [١٢٩٧ - ١٣٥٦هـ / ١٨٨٠ - ١٩٣٧م] بأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم، فإننى مع إكبارى للرافعى وأدبه - أرى أن كلمة سعد أصدق ما تكون فى حكم ابن عطاء الله، رحمه الله.

والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادى، وتشرب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض..

وإن الأبواب كلها موصدة أمام من حُرِم التأسى بمحمد ﷺ فهو إمام الأتقياء وسيد المرين.

لقد تشعبت المعرفة الدينية شعبتين، بعدما توحدت زماناً، فإذا متصوفة لا فقه لهم، وفقهاء لا قلوب لهم! ثم مضى الانحراف إلى مداه، فإذا المتصوفة يفقدون الإخلاص والتجرد ويمسسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق، وإذا الفقهاء يخلفون بعدهم مقلدين لا يدوقون حكمة نص، ولا يحسنون الاجتهاد النازلة! وإن الذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار من الوثنية، يأباه الإسلام، وتحرم به الذبيحة.

إن الخاصة الأولى فى الإسلام تعليق القلوب بالله وحده، وإسلام الوجوه إليه، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب. ولقد رأيت من زوار الأضرحة ما يثير التقزز ويوجب الإنكار. والذى أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد، ولكنه واجب، بل هو متعين، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبارهم دار حرب!

إنهم يكرهون التجسيد اليهودي، والتعديد النصراني، وأنواع الوثنيات البوذية، والهندوكية والعربية القديمة، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامي، بل يقاتلون دونه بكل ما أتوا. فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم، ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟. أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفسى لا يقل عن المرض الذى يعانى منه هؤلاء!

إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك.

ونحن، من الكتاب والسنة، نعرف أن المؤمن ينظر بنور الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَعْرِفُ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، لكن ليس من النظر بنور الله أن نفتح أبواب الرجم بالغيب لكل إنسان مهما اجتهد فى عبادته وتقواه، ليقول فى دين الله كلاماً لا برهان له به إلا المعاناة الخاصة والكشف الذاتى..

إن قسم السمعيات فى ديننا يشمل الأمور الغيبية التى لا تُعرف إلا عن طريق المعصوم، فالصراط والميزان، وثواب القبر وعقابه، وشئون الملائ الأعلى، وبعض الأوصاف الإلهية، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه. وفى باب السمعيات لا تُقبل الروايات المعتلة، ولا الأسانيد والمتون المختلفة..

١٦. نظام الحكم فى الدولة الإسلامية:

إن شبكة التشريعات الإسلامية تتناول الفرد من المهد إلى اللحد، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق إلى عقد المعاهدات، والأمة الإسلامية بهذا المنهاج أمة رسالة تعمل بها وتدعو إليها.

والدولة الإسلامية هى التى تحمى العقيدة وتقيم الشريعة. وكما يصلى الناس وراء إمامهم فى المسجد، وهم يعبدون الله، ولا يعبدون هذا الإمام، كذلك يمضى الناس وراء حاكمهم لإرضاء الله وإقامة دينه لا لإعلاء الحاكم وإشباع نهمه فى السلطة، أو تملقه طلباً لدنيا، وارتقاباً لمغرم.

والأمة الإسلامية هى مصدر السلطات التى تنشأ بين ظهرانيها، أعنى أنها وحدها

صاحبة الحق فى اختيار الرجال الذين يلون أمرها، وفى محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال، وفى ذمهم أو الثناء عليهم، وفى معاقبتهم إن أساءوا، وفى عزلهم إذا شئت.. والأمة وحدها هى التى تنتخب من تتوسم الخير على يديه، وتراه أقدر على مقاليد الحكم، وأجمع لخلال القوة والأمانة.

وإن الوثنية السياسية هى علة العلل، لأنها هى التى تحمى الوثنية الدينية، وتستبقى الخرافات والمظالم، وتمد حقها المزعوم على حساب ما لله من حقوق.

- والخلافة نظام بعيد عن الفرعونية، والكسروية، والقيصرية. والخليفة رجل تختاره الأمة - أى أنه برضاها جاء - وتنظر فى مبلغ وفائه لرسالتها ودينها فتستبقيه ما وفى، وتستبعده إن عجز، وكما عبر ابن حزم [٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م] «إنه الإمام الذى يجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله، فإن زاغ عن شىء منهما منع من ذلك، وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه، فخلع وولى غيره».

إن الخلافة إنما تمثل للمسلمين، أبوة روحية وثقافية مهيبة، وترمز إلى ولاء المسلمين لدينهم، واستمسакهم بوحدتهم الكبرى وأخوتهم العامة.

ولقد كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمى «الرجل المريض»، ثم ذهب الرجل المريض، واقتسمت تركته حكومات أخرى! وإن الرجل المريض عاد مرة أخرى فى أشخاص رجال يحكمون أمهم كرها! ويعالجون عللها بجهل! ويسكتون الناصحين بكبر! ويفلسفون الهزائم المخزية حتى يبقوا فى الحكم إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً!

- وأول معالم الدولة الإسلامية الشورى.. ويقول الحسن البصرى [٢١-١١٠هـ / ٦٤٢-٧٢٨م]: «الناس ثلاثة: رجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل! فالرجل الرجل من له رأى ومشورة، والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له، والثالث من لا رأى له ولا مشورة».

وروى ابن بردويه عن على بن أبى طالب: سئل رسول الله ﷺ عن العزم - يعنى قوله تعالى ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] - فقال: «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم».

إن الله تعالى وصف المسلمين بهذه الكلمة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وهو قول فصل، ليس بالهزل! إنها مبدأ مقرر، وفريضة محكمة، ولا بد من إنشاء أجهزتها، وإمدادها بأنواع الخبرة، وتنظيم إشرافها على شئون الدولة، وتمكينها من تقليص أظافر الاستبداد الفردى، وضمان مصالح الجماهير.

وإن أجهزة الشورى المنظمة «المحترمة» الملزمة، هى التى تحفظ حدود الله، وهى التى تأخذ على أيدى الظلمة وتقى الأمة شرهم، وتنفذ قول الرسول الكريم: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده».

ولقد أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب؛ ورأيتها تطويراً جيداً لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديماً.. فإذا أذئاب لولاة الجور الذين أهانوا الإسلام وأمتة يقولون فى صفاقة نادرة: هذا اقتباس أجنبى، والشورى عندنا لا تقيّد حاكماً!

وتأملت فى أحوال القائلين فرأيت ناساً يخزى بهم الحق، وتستخفى المروءة، ويسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة، وتدّين شائء، فقلت فى نفسي: الأوروبيون فى نظم الشورى قلّدوا النبوة والخلافة الراشدة، وهؤلاء العرب قلّدوا الحجاج [٤٠ - ٩٥هـ / ٦٦٠ - ٧١٤م] والمعتصم [١٧٩ - ٢٢٧هـ / ٧٩ - ٨٤١م] وبقية السلاطين! ما أكثر ما ظلّمت أمتنا بالمتقولين الجهلة!

إن القول بأن الشورى لا تلزم الحاكم والقول بأن الانتخاب بدعة، والزعم بأن نقد الحاكم نقض للبيعة، وأن على الجمهور أن يصبر على غضب المال، وضرب السياط.. إلخ.. كل ذلك من وحي خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم.

إننا نحذر الأمة من العلم الدينى المغشوش، ومن فتانين يهدمون الحق على حين يبنى غيرهم الباطل. إن الداهية الدهياء، فى عصرنا هذا، متحدثون عن الإسلام لا فقه لهم فى الدين، ولا بصر لهم بتاريخ المسلمين، يصورون الحكم الإسلامى تصويراً منكراً، ويقررون أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان، يقولون: الحكم الإسلامى لا تقيده الشورى، ولا يسمح بأحزاب معارضة، ولا يعترف بمبدأ الانتخاب، وحق الكثرة فى فرض نفسها!

إنهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية، ويؤيدون الحجاج والسفاح [١٣٢ -

١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤م وكل مفتات على الأمة.. إنهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشدة، والملوك الذين حكموا الإسلام ولم يحكمهم الإسلام.. وهم بفكرهم وسلوكهم امتداد لزاوية الانحراف الثقافي والسياسي في التاريخ القريب والبعيد، وبعضهم له إخلاص الدبة التي قتلت صاحبها، وللبعض الآخر باع طويل في الارتزاق والأكل على موائد الحاكمين!

إن الإصلاح في الميدان السياسي كالإصلاح في الميدان العقائدي له رجاله المرموقون.. وإن الاستبداد السياسي أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيه من الضياع ما غشيه..

وأمامي الآن فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل، وتحرف الكلم عن مواضعه، فتحت عنوان [هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟] جاءت هذه الكلمات:

«ذهبت طائفة من المعتزلة، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر، أما أهل الحق - وهم أهل السنة والأثر - فقالوا الصبر على طاعة الجائر أولى».

والواقع أن الجبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى، وما تربى إلا أذناباً للحاكمين، وحوايا للمستبدين.

إنها تصور الفكر السائد عند جمهور من المتدينين، وهو الفكر الذي حاربه زعماء الإصلاح وأئمة العلم، وبينوا بعده السحيق عن دين الله.

وما أدري كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة، ومقاومة المنكر، وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد ماتت موتاً مادياً وأدبياً!

إن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأعاجاد، وأن يرخسوا الدماء والأعراض..

إن المسلمين الساكتين على الظلم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر.

- إنه لا بد من كيان سياسي وثقافي موحد للمسلمين حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم..

فالترباط الإسلامى ضرورة حياة فى مواجهة ملل ونحل تنظر للمسلمين بكره،
وتود لهم العنت، بل الضياع!

فمع عمق الفجوة بين الهندوكية والشيوعية والصليبية واليهودية، رأيت الكل
يعالجون الوجود الإسلامى بالقتل، فلنقم للإسلام دولته الجامعة، ولتعد إليه
خلافته الضائعة، وليتعلم المسلمون من أخطائهم الماضية كيف يحترمون الصواب
ويلتزمون به.

إنه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين، بل إن هذه الدولة
ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ما يخرج عن نطاقها إلا عدد محدود، يرنو إليها
ويستظل من بعيد بحمايتها.

إن العصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنشورة، إنه عصر التكتلات الكبيرة
القادرة على الحياة والمقاومة الذاتية!

على أن عودة الدولة الإسلامية الواحدة تحتاج إلى تمهيد واسع، يعيد المسلمين
أولاً إلى دينهم الحق، ويملاً أفئدتهم وألبابهم برسائله وعقائده وشرائعه وفضائله..
كما تحتاج إلى بصر حاد بأخطاء الماضى وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها.

وغنى عن البيان أن هذه الدولة الجديدة ليست مركزية، إنها مجموعة من الأقطار أو
الولايات لها حكوماتها المحلية، ومجالس شوارها، وضرائبها، وشخصيتها المعنوية،
يتكون منها بعد ذلك كيان الدولة الكبرى، ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطاته العامة.

إننا عندما نطلب عودة الخلافة الإسلامية، وقيام حكم الكتاب والسنة، فنحن
نرنو إلى المبادئ الشريفة التى وعها عهد الخلافة الراشدة، ونريد تجنب أخطاء
السلطين، والانتفاع بكل جهد إنسانى للخلاص من الاستبداد والمستبدين.

١٧. حقوق الإنسان:

إن حقوق الإنسان وحقوق الشعوب هى الوجه المقابل فى ديننا لعقيدة التوحيد
وأحسب أن سدنة الوثنية السياسية لا يقلون شرّاً ولا أذى عن سدنة الأصنام.

لقد خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان، وليسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان!
لكن المتأمل فى تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع!

من الذى أنزل بالبشر هذه الكوارث؟

إن الذى فعل ذلك بعض البشر، ناس لديهم فضول سلطة وثروة، استغلوا سلطانهم وغناهم فى إيذاء الآخرين والحييف عليهم.

وأخيرًا استطاع نفر من أولى العزم وحماة الحقيقة أن يقلموا الأظافر الحادة، وأن يروضوا الطبائع النهمه، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمى الضعاف..

إن حقوق الإنسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد، فعندما نؤمن بالله الذى لا يُعبد غيره ولا يُشرع غيره ولا يحكم غيره، عندئذ تسقط الوثنيات كلها، عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية.

ونحن نلاحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة، ذلك لأن الفرعنة مرض نفسى شائع بين الحكام المستبدين.. إن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان الذى لا ينحنى إلا لربه وحده.

ولقد جاء فى خطبة أبى بكر الصديق: «.. إنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك الله أن يعمهم بعقاب». أو أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

إن الظلمة أجبى الناس، ويوم يحس أحدهم إنه إذا لطم أحدًا ارتدت اللطمة إلى خده، فكر ألف مرة قبل أن يعتدى. إنهم لا يزارون إلا فى الخلاء، ولا يمتدون إلا فى الفراغ. والويل للشعوب الجبابة! إنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد.

- وللإنسان حقوق مالية تفرضها له الأخوة العامة بين المسلمين. فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. قال ابن حزم: ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه!

- وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعًا، ميسور الأخذ.

- إننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم «لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الإنسانية التى تجعلهم يرقبون الأحداث فى العالم، فإذا وجدوا ظلمًا شهروا به، ومزقوا الأستار عنه، وألبوا الدنيا عليه.

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التي تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم القائل: «إذ عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها».

- ولقد جعل الإسلام المواطنين المخالفين فى العقيدة فى ذمته وعهده وشرفه! يوفر لهم الحماية المادية والأدبية على نحو لم تعرفه ولن تعرفه دولة أخرى. وهذا سر بقاء الطوائف الدينية المخالفة بين ظهرانى المسلمين دون حرج أو عنت، على حين فنت القلة الإسلامية أو اعتلت تحت سلطان العقائد الأخرى.

- وإن تكوّن المذاهب الكثيرة، واختلاف وجهات النظر، هو أثر طبيعى للحرية الفكرية التى وفرها الإسلام لأتباعه.. وكذلك وجود أحزاب سياسية تسعى للحكم وتستكمل له أهفته وهى بعيدة عنه، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية.

واستكشاف عظمتة، وتقرير حقوقه، العمل وحرية الإيذاء، أنا أقول ما أشاء وأفعل ما أشاء، ولكن تقف مشيئتي عندما تبدأ حرية غيرى وحقوقه، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس [١٤٦ - ١٩٨ هـ / ٧٦٣ - ٨١٤ م] خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربى، وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامى بالبحث فى ذات الله - متأثر بالفلسفة الإغريقية - ويترك البحث فى المادة وخصائصها.

إن الحرية الفكرية عندنا انكمشت واعتلت العهود المتأخرة، وكادت تموت، وذلك تبعاً لاضمحلال الحرية السياسية فى حياتنا العامة، وغلبة الحكم الفردى.

ومع ما أصاب الحريات إجمالاً من علل، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج، وما أحب داراً أخرى غير دار الإسلام يقع فيها هذا التسامح.

إن الارتداد عن الدين نقص متعمد متبجح للأسس التى يقوم عليها المجتمع وللدستور الذى تقوم عليه الدولة، والزعم بأن الملك سائغ زعم سخيف.

وتزداد خطورة الردة على كيان الدولة إذا علمنا أن الغزو الثقافى ظهير وعهيد للغزو العسكرى! وأن أعداء الإسلام يرون محو شخصيته فى الداخل بفنون من الحيل، وأن الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح!

إن الارتداد هو خروج على دولة الإسلام بغية النيل منها ومنه، والإتيان عليها وعليه، ومقاتلة المرتدين - والحالة هذه - دين.

ونحن نرفض كل عائق أمام حرية الفكر، ونضع كل عائق أمام حرية الهدم، أى أمام تقويض الإسلام شريعة وعقيدة.

- إن للإنسان إرادة حرة بها كلف، وبها صح اختياره، وبها تم جزاؤه. وكون الله أعانه على ما أراد لنفسه، أو أضج له ما بذر فى أرضه، أو أمده بالتيار الكهربائى الذى أنار بيته لا ينفى مسئوليته التامة عما فعل!

والأساس أن هذا الذى شاء الله إضلاله، أضل نفسه أولاً، فأتى الله له مراده، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال فى موضع آخر: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ومن السفاهة الظن بأن الله أزاع طالب هدى، أو أضل من اتبع سبيل المؤمنين! فحيث يكون التكليف الإلهى تكون الإرادة الحرة، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية فى الدنيا والآخرة! فإذا انعدمت الإرادة لسبب ما فلا مسئولية البتة، وكيف يكلف الإنسان بما لا يطيق الله سبحانه يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال لى أحدهم: كيف يكون للإنسان اختيار وإرادة الله نافذة فى خلقه جميعاً؟.. قلت: إن الله فاوت بين خلقه، فهناك فارق بين الجدار والحمار والإنسان! الجدار لا يحس، والحمار لا يعقل، والإنسان يحس ويعقل، وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحمار! ومن العقل أن نميز بين الأقدار التى تحيط بنا، والأعمال التى طولبنا بها ونسأل غداً عنها.

١٨- المرأة:

لقد جاء الإسلام فكرم الأنثى وأوصى بالبشاشة فى مولدها، ورعاها طفلة وفتاة وأماً.. وأعطاه فى المجتمع حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى العبادة

حق التردد على المسجد من الفجر إلى العشاء، وفي التعليم ما تكمل به إنسانيتها فلم يقصرها على نصيب محدود!

وكان أن علا شأن المرأة فبايعت، وجاهدت، وحقت لنفسها ما يشرف نوعها، وظفرت المسلمة بما لم تظفر به امرأة أخرى!

- إن رؤية الرجال للنساء ممكنة في المسجد، وفي أثناء التردد عليه، لكن أي رؤية؟.. مع غض البصر، وأدب النفس، فإذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعاود النظر ليمتلي، فذلك مرفوض، له النظرة الأولى وليس له الثانية!

وإن خروج المرأة من بيتها لا يجوز أن يكون مع تبرج الجاهلية القديمة أو الحديثة. إن مكثها فيه أولى من هذا الخروج السيئ.

وإن للاستعفاف ملابس سابغة تلف الجسد وتنفي الريبة، وتنطق بأن هذه المرأة تقية نقية، أما الملابس الخليعة المتبرجة التي تستفز الشهوات فهي تغري السفلة، وتشم منها الذئاب رائحة معينة.

والمرأة تخرج للعمل إن احتاجت إليه أو احتاج العمل إليها، وبعد توفير ضمانات لصون وحماية الشرف ومروضة الله. ولها أن تقاتل في البر والبحر، كما فعلت قبل ذلك صحابيات، وما يمنعهن الإسلام من غزو الفضاء إذا أتاحت لها مواهبها ذلك. أما تكليفها بالكدح لتقتات، ولتوفر مهراً للرجل المنتظر، فلا.. ولا..

إن العلاقات بين الجنسين قضية تالية لما هو أهم منها، وهو غرس الإيمان الصحيح، ثم إنضاج المعاني المبنية عليه من إخلاص وتوكل ورغبة ورهبة وولاء وبراء، ثم إقامة الأخلاق الاجتماعية من صدق وبر ووفاء ورحمة.

- وإن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها، فحق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى.

- وإن المثقفة التي تحيا خارج بيتها ليست خيراً من الجاهلة التي تعيش داخل البيت.. إنها نعمة حتمية أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد، وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هي المهادر الوثير لهذا الامتداد..

إن الرجال هم حاملوا الأعباء الثقالة في قافلة الحياة السائرة، سواء كانوا أساتذة أو

ساسة، أو أجراء أو باعة، فهم يعودون إلى بيوتهم فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول. والبيت الذى تكون قاعدته امرأة تنفح هذه المعانى بيت رفيع القدرة، بل هو بيت يحتوى على أثمن الكنوز.. إن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف.

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة، بيد أن هذه الأعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الأول الذى لا يشركها فيه أحد.

على أن هناك ميادين للأعمال لا بد أن يكثُر فيها النساء، أولها الميدان الطبى، ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعليها.

وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت، حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها.

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة. عندئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعاً، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته.

إن الإسلام عندما يدعم مكانة المرأة يحصنها من الصور الحيوانية التى أبرزتها فيها الحضارة الحديثة، وجعلتها محوراً لإثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة.

إننى غيور على الأعراض كأشد المتزمتين، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان.

إن بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية فى أغلب المجتمعات، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التى تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق.

إن أفلاطون فى مدينته «الفاضلة»، يجعل المرأة مشاعاً بين الآخرين، فما تكون إذن المدنية المدنسة؟! على أن عقلية السجان هى الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب. وتعاليم الإسلام الصحيحة هى الأمل فى بناء عالم متراحم مصون.

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ماعدا الوجه والكفين.. ولقد قرأت نحو اثنى عشر حديثاً فى أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبى ﷺ فما أمر واحدة منهن بتغطية شىء من ذلك، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون.

ومن الناس من يحظر رؤية النساء للرجال والرجال للنساء مطلقاً، واستدل لرأيه بما روى من كراهية الرسول ﷺ أن يرى نساءه عبد الله بن أم مكتوم ويرى ابن حجر [٨٥٢هـ / ١٤٤٩م] أن ذلك كان لسبب خاص، هو أن عبد الله أعمى لا يحسن تعهد ثيابه، وستر بدنه كله.

وهو تعليل اضطر إليه ابن حجر لما رأى الحديث يخالف الصحاح.

إن ابن حجر رد حديث: «أفعميا وان أتما» بطريقته الخاصة، فتغاضى عن السند، وتأول المتن، لكن ابن العربي [٥٤٣هـ / ١١٤٨م] رفض الحديث سنداً ومتناً، وقال عن «نبهان» - راوى هذا الحديث - إنه مجهول.. ونبهان هذا كان خادماً لأم سلمة رضى الله عنها، ولم يعرف بين أهل العلم بشيء، وحديثه إذا كان قد خالف ما رواه البخارى فى رؤية عائشة للأحباش عند عرضهم الرياضى، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضاً تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمرها النبى ﷺ أن تقضى عدتها عنده.

إن تردد المرأة على المساجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر..

إننا نريد التزام خط إسلامى صحيح لا علاقة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن.

- إن الغرب قد وضع المرأة موضعاً لا يرضاه دين. وإن التبرج وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العارية.

ولقد حشرت النساء فى أعمال شتى تيسر فيها الخلوة، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون!.. بل إن الحضارة الغربية فى إباحتها للرقص، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة قد أرخصت قيمة الأسرة، وجعلت الزواج محدود الأثر فى حماية الأعراس، وقصر كلا الزوجين على صاحبه!

وقد نتساءل عن مكانة الدين فى هذه الجاهلية السائدة؟ إن اليهودية مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب، والنصرانية مشغولة بالحمالات الصليبية على بلاد الإسلام، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة!

لقد اعتبرت الحضارة البشرية السائدة فى العالم اللذات الجسدية حقوقاً طبيعية،

ولم تر فى الاعتراف بها ما ينافى الأخلاق، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العلمية، من مدنية وعسكرية، وسبقت سبقاً بعيداً.

وعندى أن تقاليد الغرب إن وصفت بأنها لا شرف لها، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها، الأولى فاضحة والأخرى فادحة، وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك كثيرة ومتشابهة.

- وفى قضية تعدد الزوجات، أريد أن أسأل أولاً: هل الإسلام مبتدع التعدد، مخالفاً بذلك للأديان التى سبقته؟.. إن الأديان كلها، وثنية أو سماوية، أباحت التعدد، فلماذا يُسال الإسلام عنه ويؤاخذ به؟!

وأسأل الرجال الذين تظلمهم حضارة الغرب فى عدة قارات: ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرته بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟

لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليلية لا خليلية؟! لماذا يُرمى ابنها لقيطاً، أو ينشأ زنيماً، لا ينسب لأبيه الحقيقى؟!

إننى اتهم إخواننا أهل الكتاب - [فى المغرب] - بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وأنهم - من الناحية الجنسية - استباحوا الأعراض واجتاحوا الفروج، ويسروا الشذوذ، ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة إلا فى حضارتهم المادية الموغلة فى الإثم!.

وإن المجتمعات الأوروبية والأمريكية والأسترالية كادت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسدية لا علاقة لها بالخلق والدين، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة.

والإسلام يرفض هذا الفكر وآثاره كلها.

إن تعدد الزوجات جائز بشرطه المادية والأدبية، فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد.. والحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخسه إلا لئيم.. وسياج الأسرة لا يقيمه إلا الخلق الزكى، والأسر التى يمسكها القانون هى أسر على الورق وحسب.

- وطلاق السنة - كما صح عن صاحب الشريعة - لا يطبق!.. وإنما المؤلف هو طلاق البدعة، فقد أمضيت آثارها كلها بوحشية.

وعندما تيقظ فقيه ذكى كابن تيمية إلى أن طلاق البدعة باطل منكور الآثار تعرض لنقد شديد.. ومما يثير الدهشة أن أنصار ابن تيمية فى عصرنا لا يوافقونه على إبطال طلاق البدعة!

- وكيف يكون الإشهاد على الطلاق ناقلة مع التوكيدات فى قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

ويغلب على الظن أن التقاليد التى ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير فى هذا الاضطراب..

إن التحقيق العلمى يوجب احترام شريعة الخلع التى أهملت، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق.

لقد رأيت - فى موضوع المرأة - أحاديث موضوعة وأحاديث واهية صححها الفرض المدخول، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها، واجتهادات اكتنفها الخطأ والصواب.

- وإن من حق الأم أن تؤخر الحمل بعد ولادتها سنتين تتم فيهما الرضاعة، وتقوى على حمل جديد، ويشترط أن يتم ذلك بموافقة الزوجين، وباتباع وسيلة لا تضر الأم.. وهذا التنظيم فردى لا جماعى، وهو لا يضع رقماً معيناً للأولاد، فما تقدمه الأقدار هدايا جديرة بالحفاوة..

وإن قصة تحديد النسل بين المسلمين خاصة تخفى وراءها فضيحة إنسانية تضحك وتبكي!.. هذه الفضيحة هى ضمور المواهب البشرية فى أجيال من الناس تمشى فوق مناجم الذهب، وتكسل عن أخذ ما بها! وتعجز عن افتتاح أبوابها!

إن حدود الجغرافية التى رسمت لدار الإسلام وشعوبها فى هذا العصر حدود وهمية مزورة لا اعتراف بها من الناحية الدينية.. فلكل مسلم أن يطلب رزقه فى أى مكان ينشده بين الأطلسى والهادى، دون أى قيد، وخيرات الأرض الإسلامية متاحة لكل من ينطق بشهادة التوحيد، لا يحجبه عنها مولده فى قطر من الأقطار.

وإن الأموال التي تنفق للإغراء بتحديد النسل، لو أنفقت في تحريك الأجهزة العقلية المتوقفة عند هؤلاء لكان ذلك أجدى!

إن القوم يريدون أن يقل النسل بين المسلمين خاصة لأغراض معروفة! وإن جهودًا هائلة في الإنتاج الزراعى والصناعى تجمد عمدًا فى أسلحة الدمار الشامل!

١٩. الجهاد:

إن الجهاد الإسلامى حق، لكن الوسائل الصحيحة ليست العنف والنزق والحماس الطفولى، بل هى خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبي حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم فى أغلب الجبهات!.. إن الإيمان أَس، والجهاد حارس..

وما من أيام الجهاد فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام النحسات التى يذوق فيها المسلمون هزائم فى كل ميدان، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!

غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس، إنه جهاد الكلمة، وجهاد البحث والدرس، وجهاد المال والقانون.. وأخيرًا الجهاد بالنفس حتى لا نفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية..

إن من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا، إنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا!.. لماذا يباح لليهودى أن ينتمى إلى توازنه وأن يهتدى بنصوصها على تحديد الأرض التى يريد لها من كيانه، ولا يباح للمسلم أن ينتمى إلى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء؟!

لماذا يكون الإيمان من خلال تعاليم القرآن رجعية محفورة، ويكون الإلحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدمًا محترمًا؟!

إننا لا نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة يأبأها. إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة.. وبذلك تنجح فى صد الطغاة ودحر العدوان..

إن الجهاد المالى صفو الجهاد النفسى، وإن الأمم التى تتسول الإيمانات من الدول الكبرى لن تعلق لها رسالة ما دامت يدها السفلى..

إن القتال فرض على المسلمين فرضاً، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين، واضطروا لخوضه دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْبِيَاءُ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِمْ وَأَكْبَرُوا كُفْرَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا وَكَانَ اللَّهُ مُتَوَسِّطُ بَيْنِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَظَوُّرٌ لِلنَّاسِ وَالْغُلُوبِ [الحج: ٣٩، ٤٠].

أترى المطرود من وطنه لأنه مؤمن بربه يُعد مهاجماً إذا قاتل طارديه؟!.. إن الدهشة تملككني عندما رأيت كُتَّاباً يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب في الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة!!

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذي يدعوه فيه إلى الإسلام. لقد غضب هذا الكسرى غضباً شديداً، وكلف واليه على جنوب الجزيرة، أن يأتيه بمحمد هذا؟

إن المؤرخين الأوروبيين غضاب لأن الإسلام قاتل الرومان! فهل سأل أحدهم نفسه: ما الذي جاء بالرومان إلى الشام وآسيا الصغرى؟ وما الذي جاء بهم إلى مصر والشام والشمال الإفريقي؟

أكان الإقناع طريقاً إلى إخراج أولئك المستعمرين من أرض احتلوها أكثر من عشرة قرون؟ هل أفلح الإقناع في إنهاء استعمار البيض لجنوب إفريقيا؟

إنه المنطق نفسه الذي اتبع في وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم ودورهم وأُجِّتوا إلى العراق! واعتُبروا إرهابيين معتدين على اليهود الأمنيين الطيبين!

إن الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هي الطريق الفذ لمحو الاستعمار الطويل.

ونحن لا نعرف في تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد، ما غضب لنفسه قط، ما غضب إلا لله وحده.

إن الإسلام بنى خطته في الحياة على استحالة زوال الأديان كلها، واكتفى بأن يبقى مذكراً بالحق، منكرًا للهوى، وترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِلْتَكُمْ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَلْبَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل في سبيل الله، ويعد مسيئًا إذا تخلف عنها:

الموطن الأول: منع الفتنة في الدين.

الموطن الثاني: تأمين الدعوة ليعرض المسلمون ما عندهم على غيرهم عرضاً غير مقرون برغبة ولا رهبة.

الموطن الثالث: عند الحفاظ على الدم والمال والعرض، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين، عليه أن يناضل لتبقى له، ولا يحل له أن يقبل الدنية في دينه أو دنياه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٣٩) وَجَزَؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩، ٤٠].

ويمكن أن ينضاف إلى هذه المواطن جهاد المجرمين الذين يحيون في الميدان العالمي على القرصنة والتفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيًا كانوا وأين كانوا..

أما القتال لنصرة جنسية، أو لأطماع شخصية، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمفروض، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد وردت في القرآن آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ، والتعلم المجرد، وترك الناس أحرار بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!

إن الإسلام يأبى الإكراه في الدين، وإن كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

- لقد روى البخاري: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

وإن مصدر الخطأ في فهم «أقاتل الناس».. فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلها! وهذا غلط بإجماع العلماء، فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى.

لماذا؟ لأن المهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام في تصديهم لنا، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين، بل إذا كسر الله شوكتهم، وبقوا على أديانهم، وجردناهم من أسلحة العدوان، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا هاجمهم أحد، وعليهم - والحالة هذه - أن يسهموا في نفقات الحرب.

وإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور، فهل يتناول الوثنيين كلهم؟ الجواب لا! ففي حديث آخر صحيح إلحاق للمجوس بأهل الكتاب: «وسع سنة أهل الكتاب».

الحق أن الحديث في مشركى العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موثقاً مأخوذاً، وقد مُنح هؤلاء أربعة أشهر ليراجعوا أنفسهم ويصححوا موقفهم، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية في أوائلها ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخر رمق فلا يلومون إلا أنفسهم.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاءت كلمة (الناس) عامة في الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس...».

والجواب: أن (آل) - كم يقول علماء اللغة - للعهد. تأمل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فكلمة (الناس) الأولى: تعنى بعض المنافقين. والثانية: تعنى الكفار. وهذا هو المعهود فى أذهان المخاطبين. وتأمل قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ٣] إن الناس هنا ليسوا البشر جميعاً، إنهم العرب وحسب.

إن الحرب شىء كربه حقاً، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها. وفى الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان، وإنما أذن فى حرب تحمى بها الحقوق وتُصان الحقائق، وتبقى منها بيوت الله قائمة لعبادته وحده: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣١) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ [الحج: ٤٠].

ورب البيت لا يُطالب بالاستسلام للص المغير إثارةً للسلامة، وصاحب العقيدة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف.

إن الفتوح الإسلامية كانت شيئاً خارقاً للعادة.

وإن الأدلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلباً للغنيمة جريمة، وأن المجرمين لا يُفتح لهم ولا يُفتح عليهم، فعن أبى هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يتغى عرضاً من الدنيا، فقال: «لا أجر له» فأعاد عليه ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا أجر له».

وإن الصحابة جميعاً، والتابعين معهم، يعلمون أن القتال طلباً لمغنم دنيوى مهلكة للدين، ومن ثم خرجوا للجهاد، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا، مقبلة على طلب الآخرة، وذلك سر فلاحهم ونصرهم على عدوهم.

إن الإيمان حوّل الصحابة إلى زلازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد، فإذا قيل: يا خيل الله اركبى، وإلى الله رغبى.. رأيت الرجال يتسابقون إلى الموت موقنين بأن بعده الجنة.

والحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد فؤاداً أشجع ولا ذراعاً أشد من فؤاد محمد وذراعه.. لقد قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، فوالذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله».

وإنها لمعجزة ما عرف خبرها إلا محمد وحده.. إنه الإنسان الملهم العابد المجاهد صاحب هذا التغيير الحاسم فى تاريخ البشر. لقد جعل القمم سفوحًا والسفوح قممًا، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم بالعلم والتربية، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالترف والمعصية.

لقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمدًا وحده هو الإنسان الأول والقمة الأولى فى تاريخ الحياة من أزله إلى أبدها.

- إن المسلم هو أول المدافعين عن الوطن، وأول المحامين عن العشيرة، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم، لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان.

والمؤمن سلاح لأخيه، عضد له فى الشدائد، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلها، لا بقوته وحده، وهذا الشعور الجماعى من معالم الجماعة المسلمة. قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه»، وفى رواية: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، وإن أحكم مرآة أخيه». وقال: «من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة».

ولقد سخر الاستعمار الحكم الفردى لإشاعة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر، فأصبح أحد لا يلوى على أحد! ولكى تحيا لابد من إحياء التناصر بين المسلمين.

- ولقد كانت قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟!

فى هذه الأرض قامت رسالات وانتهت، وفيها نهضت دول وثلاثت.. ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله..

وأنا أتساءل: ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟

أيكفى فى معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين؟

لا.. إن الله عزلهم نهائياً عن القيادة الدينية التى كانت لهم، وحرّمهم من الوحي وشرف إبلاغه، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة، وكانت ليلة الإسراء

والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول. فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل، وأصبحت الأمة العربية لا العبرية هي الوارثة لهدايات السماء! ولولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم.

وإذا فقد عرب فلسطين أساسهم الدينى أمام أتباع التوراة ضاعت فلسطين. وعندما يزهد غيرهم فى معتقداته الإسلامية فسينطلق التبشير العالمى دون عائق، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة.

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لابد أن ينتهى بهذه النتائج.

٢١. الإسلام والعروبة:

إن الفكرة القومية عرفتها أوربا فى القرنين الأخيرين فقط، ثم نقلها الاستعمار الثقافى إلى بلادنا ليطيح بوحدتها الكبرى، فالقول بأن العرب عرفوها وقتلوا باسميها الروم والفرس ضرب من الهراء الموغل فى السخف.

إن الإسلام وحده هو الذى رفع العرب إلى مستوى آخر، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم، ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور.

وأنا مصرى عربى الإسلام، ولولا لغة الوحي ما كانت لى صلة بالعرب، اللغة وحدها لا الدم والعرق أو الجلد تمنينى إلى هذا الجنس، وما يسرنى أن أكون هاشمياً، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب!

ولقد كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإسلام أو مستنكرة له، يقودها من لا علاقة له بالله أبداً..

إنه لا يجوز للجنس العربى أن يعدو قدره، ويفتات على غيره، وينسى أن الإسلام ولى نعمته ومقيم دولته، وحافظ كيانه وداعم أركانه.

إن الإسلام لم يكن فورة جنسية، ولا نزعة استقلالية عن التدخل الأجنبى، كما يريد نشر ذلك المستشرقون والمبشرون والعروبيون!.. إنه حركة إنسانية عامة تعلقو على الأقاليم والأوطان، تربط الناس بربهم ليستهدوا به وحده، ويستلهموا منه وحده، وليكونوا فى القارات سواسية فى الكرامة والولاء، فلا سجود إلا لله ولا حكم إلا لله.

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق، وهذا الرباط وحده هو الذى يجعل العرب أمة قائدة رائدة، فإذا هت صلتها به، فهى تخون أساس وجودها، وهى ستتحول حتمًا من رأس إلى ذنب! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير إلى أمة يدحرجها الآخرون إلى الشر أو إلى الهاوية.

إن العرب بهذا الدين أضحى لهم تاريخ جديد، وافتتحوا به صفحة مجد باذخ ما كان لهم به عهد من قبل.

وإن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء، تعرف الله، وتلتزم هداة وترفض الفلسفات المادية، والرغبات المجنونة فى عبادة الحياة ونسيان ما بعدها.

وإن الله باختياره المسجد الحرام قبلة لكل مصل فى الدنيا يضاعف على العرب نبته، ويتم عليهم نعمته.

إن الإسلام حول العرب إلى ربانيين بعدما كانوا شياطين وجعلهم نماذج تحتذى فى ميادين العبادات والمعاملات، فكانت قيادتهم خيرًا وبركة، وكانت فتوحاتهم الفكرية الروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية الخارقة..

٢٢. التاريخ:

الإسلام وحى معصوم لا ريب فيه، أما الفكر الإسلامى فهو عمل الفكر البشرى فى فهمه، والحكم الإسلامى هو عمل السلطة البشرية فى تنفيذه، كلاهما لا عصمة له. ولا غرابة فى وجود أخطاء فى تاريخنا الثقافى والسياسى، وإنما الغرابة فى التستر على هذه الأخطاء أو الاستمحاء فى معالجتها والتعفية على آثارها.

لقد تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضود فى بنى أمية، إلا أنه من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه، لما يلي:

(أ) إن الخلفاء والملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاءهم للإسلام، وأن التغير فى أشخاص الحاكمين لا يعنى التغير فى القوانين أو الأهداف الإسلامية، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى كما تركوا للفقهاء حرية الحركة، ما لم يمسوا سلطانهم فى الزعامة.

(ب) إن العلم الديني مضى في طريقه يوسع الآفاق ويربى الجماهير، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية، أى أن الإسلام الشعبى مع ازواره عن السلطة بقى قديرًا على الامتداد والتأثير.

(ج) مع أن الدولة كانت عربية، تتعصب لجنسها، فإن الجماهير والت تعاليم الإسلام وحدها، وألقت قيادها فى أغلب العواصم لفقهاء ودعاة ومربين من الأعاجم.

ومن النكسات التى أصابت جماعة المسلمين، وأوهنت قواهم من قديم، انفصال الحكم عن العلم، وسيركل منهما فى مجرى اختص به.

وفى انفصال الحكم عن العلم ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديرتين بالنظر العميق:

الأولى: هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب.

والأخرى: رداءة الأوعية الحاملة للفق، وطلبها للدنيا تحت أقدام المستبدين.

ومع ما تعرض له التاريخ الإسلامى من مد وجزر، وذبول وازدهار، فإن الأمة الإسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر البشرى، وجعلت خصومها يراجعون أنفسهم، ويجمدون بعض مواريتهم أو يتخلون عنها.

إن الأمة الإسلامية برغم تعاسة الظروف التى ألمت بها، أرست قواعد خير كثير فى هذه الحياة، وما يبقى لها بعد معادلات الحذف والإضافة يزينها ولا يشينها.

صحيح أن المسلمين اليوم فى أوضاع بالغة السوء، وصحيح أن فساد الحكم حقب طويلة من وراء هذا الانحدار، بيد أن الأمة الجريحة لا تزال أنبل من قاتليها، ولا تزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير، وأحق بالتقديم، ولا يزال المسلمون برغم جراحاتهم الخطيرة أولى بالله، وأعرف برسالاته، وأملك لأسباب العافية، وأحق بالبقاء.

٢٣. السلف والخلف:

لا يوجد مسلم يحجب ولاءه عن السلف، أو يرفض الاستقامة على نهجهم. كيف وهم دعامة الدين وحرصه الشديد، وحاملوه إلينا نقيًا قويًا؟.

لقد درسنا فى الأزهر، ونحن طلاب، مذهبى السلف والخلف فى آيات الصفات، أعنى التفويض والتأويل، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب، وترك لمن يشاء أن يختار ما شاء من أقوال.

وقد اخترت رأى السلف لأنه فى نظرى أعرف بوظيفة العقل الإنسانى وقدراته، ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الثثرة الدينية التى تضيع الوقت سدى، ولأنه احترام مصادره الأصلية، وازدرى فكر اليونان.

ومع ذلك، فقد تعمقت فى فهم أفكار الخلف، وأستطيع القول بأن جمهورتهم حرصوا على توحيد الله وتوقيره، وأن دراستهم لابد منها فى فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب، وأن الأفضل الآن تحنيط هذه الدراسات ووضعها فى المخازن للذكرى والتاريخ..

فالنزعة العقلية المعاصرة لا تحب أن تسمع بحثاً عن: هل الله عالم بذاته؟ أو بصفة زائدة على الذات؟ إن هذا اللون من الفكر أسمى لغوا.

وعلى معتنقى فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم، فالمدى فسيح. أما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفى هو نصرة الدين، وأن إلحاق الهزائم بالأشاعرة قربى إلى الله، فذاك الآن نوع من البطالة.

٢٤. المدنية الحديثة:

إن المدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادى الذى أذهل الناس عن كل شىء إلا نداء غرائزهم..

إن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى، وإن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن إنسان العصر الأول فى غرائزه وشهواته.

وإذا كان ثمة فروق فى الوسائل لا فى البواعث والغايات، بل لقد قيل فى إنسان العصر الحاضر: إن عضلاته أكبر من عقله.

إن الإسلام عقل يرفض الخرافة، وقلب يكره الرذيلة، والرجل الأبيض - قائد هذه الحضارة ورائدها - إنسان طافح الأنانية، يشده إلى منافعه ألف رباط..

ولقد كان الجنس الأبيض وطلّاعه الغازية المكتشفة يعبدون أنفسهم، ويقدمون مصالحهم، ولا تحكمهم إلا شريعة الغاب!

لقد اكتشف الإنجليز أستراليا، فماذا فعلوا بسكانها؟ لقد شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصدوا جمهرتهم.

ولم يكن سكان أمريكا الأصليون أسعد خطأ من أستراليا. لقد تتبعتهم حرب الإبادة من بلد إلى بلد.

إن مأساة هؤلاء المتحضرين أنهم ارتقوا علمياً وهبطوا خلقياً، وأنهم عبيد لذاتهم العاجلة.

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عند ما ينسى الله واليوم الآخر، لا سيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه! وإن المنكور هو انعدام التوازن في أية حضارة بين جوانبها المادية والأدبية.. وإن العلم مهما تقدم لا يغني عن الإيمان، والإيمان الذي نحترمه هو الذي يعانق العقل وتزدان به الحياة..

- ولقد نظرت إلى جموع المستشرقين - وهم قوم ذوو ثقافة واسعة - وقد لفتهم ضغائن غبية ضد محمد ﷺ - فأدعوا عنه أنه، كبنى جنسه، محب للنساء.

إن هؤلاء المستشرقين قرأوا في العهد القديم أن سليمان جمع في عصمته ألفاً من النساء سبعمائة من الحرائر وثلثمائة من الإماء، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟.. لا.. نصف العشر؟.. لا.. ربع العشر؟.. لا!

ومع ذلك، فسليمان نبي حكيم، ومحمد دون ذلك!

ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة؟!.. إنني أمقت الذكاء الخبيث والثقافة المسفة، وعندى أن امرأة حصاناً غافلة أشرف من موسى عبقرية، وأن رجلاً ساذجاً يعرف ربه أشرف من خبير في الذرة يعبد نفسه!

إن الحضارة المادية التي تسود العالم، تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكثر باليوم الآخر.. والعالم الآن ينحني لصنم من حجر، ولكنه يتفانى في أصنام حية قامت شواخص مهيبة في دنيا الحكم والمال، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب.

لقد نجحت الحضارة الحديثة فى ميدان البحث المادى، وتعمقت فى الدراسات الكونية كلها، وهذا النجاح - فى رأى يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم، وأدنى إلى منهجه، فإن التفكير فى الكون، أرضه وسمائه وما بينهما، مطلب إلهى لا ريب فيه ..

ونحن معجبون بالقدرة التنظيمية التى جعلت الإدارة فناً رفيع المستوى، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردى والهوان السياسى، وإن كان الغربيون قد جعلوا هذه الثمار حكراً على الرجل الأبيض.

ومع هذا السبق البعيد، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجرى فى ضبط الغرائز، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشرى، وكبح الأثرة المسعورة، وجعل المرء يحب غيره ويغار على حقوقه أو على الأقل يعدل مع غيره، ويعترف له بحقوقه طوعاً لا كرهاً!

وقبل ذلك فشلت هذه الحضارة فى التعرف على رب العالمين، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه فى الأزمات والاطمئنان إليه فى المخاوف.

لكن .. من أين تُطرق الخلل إلى هذه الحضارة حتى أنه ليهدد مستقبلها؟ السبب الأول ناشئ - فيما أرى - من خيانة أهل الأديان لرسالات الله، فالاسترخاء العقلى ألحد العلم وأساء الظن بالوحي كله.

لقد نسيت هذه الحضارة الله كل النسيان، ولم تأخذ أى أهبة للقاءه، إنها تعبد اليوم الحاضر، وتجدد ما وراءه، وتعبد الجسد وتعالى بمطالبه وحدها.

ولا تزال هذه الحضارة الحديثة - تحترف التفرقة العنصرية - وتتعامل مع الأجناس الملونة ومع معتنقى الإسلام خاصة بمشاعر الضغن والزرارة!

إن الحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها نقائص ونقائص كثيرة .. وذلك يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحي الله والاستهداء به فى متاهات الظنون، ومتشعبات الهوى، إنه لا بد من دين لندنيا الناس ..

ونحن المسلمون نملك الوحي الخاتم، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى

وعيسى ومحمد جميعاً، فإن كتابنا جمع لباب الدين، وتضمن جملة الحقائق التي يفتقر إليها البشر، ليوفوا بحق الله أولاً، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين في هذه الحياة.

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفاً منا ما بقينا على تخلفنا الشائن، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذي لدينا، وما بقينا - على غنانا - نتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة.

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا، ولنوثق إيماننا، ولنتمسك بالخصائص التي زكت وارتقت بها أمتنا، وهى ما قرره الآية الكريمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم، إننا الجبهة الأولى فيه: فلما أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون، وطريق العودة ممهد لا مسدود!

أنا أريد من أمتنا أن تقتبس من حضارة الغرب ما يوافق أو يتواءم مع فطرة الله فى موارثنا.. وما أيسر التوفيق بين التقدم الحضارى وموارث الدين والخلق، والوفاء بحقوق الله.

لقد انتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوروبيين فى عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم أو أخلاقهم. إنهم فعلوا أو لم يفعلوا، وقادوا لم ينقادوا.

٢٥. أهل الكتاب:

إن من أهل الكتاب أناساً أوتوا سعة فى العلم، ونزاهة فى الحكم، ورغبة إلى الله، آمنوا بموسى ومحمد جميعاً، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين، ويناصبوهم العدا. وقد أشار القرآن إلى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى منوهاً بسيرتهم وعدالتهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

ولقد التقيت بالدكتور «موريس بوكاي» [١٣٣٨ - ١٤١٨هـ / ١٩٢٠ - ١٩٩٨م] فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر، وسمعته يتحدث بإعجاب واحترام شديدين

عن أسلوب القرآن في تناوله للحقائق العلمية والتاريخية، وكيف عصم من الأخطاء التي تورطت فيها كتب مقدسة أخرى.. وقد سأله أحد الناس: لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب: قلما أسير إلا متوضئاً!

وقد أسلم بعض المستشرقين محمد غالبوا قيود التقاليد، ونلاحظ أنه إذا أسلم عشرة آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودى واحد! إن النصارى أرق قلوباً وألين عريكة ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصٌ وَرُهْبَانٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿ [المائدة: ٨٢ - ٨٤].

وهناك أهل كتاب خطوا إلى الأمام خطوة واحدة، فقالوا: إن محمداً رسول حقاً، ولكن إلى العرب وحدهم!

وهناك أهل كتاب حبسوا في نطاق ما ورثوا، لا يعرفون عن محمد شيئاً، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين.

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دَيْنٌ في أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا لسداده، تُرى متى ينهضون؟! وحساب هؤلاء إلى ربهم! والذي أراه أنهم مكلفون - في غياب الوحي عنهم - بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرة على نقد الموروثات الرديئة واتخاذ موقف ما منها.

ولا أظن أن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرائي المسلمين، والذين جند الاستعمار العالمي نفراً منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسى وخانوا الجوار!

والغريب أن [بعض] أهل الكتاب [في الغرب] - بعد خمسة عشر قرناً من مطلع الرسالة الخاتمة - لا يزالون كما هم، لم يثوبوا إلى رشدهم، تهدد الفلسفات المادية وجودهم، ويزحف الإلحاد الأحمر على حضارتهم، وبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المقبل، يتجاهلون كل شيء إلا ضرورة القضاء على الإسلام، وإبادة أهله!

سمعت واحدًا من أهل الكتاب يقول: من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء، نزوح تسعًا منهن، من الصعب تصديق أنه نبي!

قلت: ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى ببناته وهو مخمور!.. ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بإحدى قريباته خداعًا واغتصابًا! ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد في سبيل الله، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى يتفرد بها!

هؤلاء في موازينك أنبياء عظام.. أما محمد الذي تزوج بعض الأرامل وعاهدهن على ترك الدنيا وزينتها، وطلب منهن أن يقرن الليل معه متعجرات، وما تزوج واحدة إلا لسبب اجتماعي، وعرض عليهن جميعًا مفارقتهم إن رغبن في المنهاج العاجل، محمد، بعد هذا كله، ليس جديرًا بالنبوة. إن الزناة في منطق العميان أولى بها منه!

إن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الآن الأمة الإسلامية، وتقترب المناكير للإتيان على رسالة محمد، وتشويه سمعته، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله.

٢٦. العلمانية:

لقد رأيت في أرجاء البلاد العربية أناسًا ينتمون إلى «العلمانية» ويستبعدون بعنف كل إثارة للإسلام في ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه.

وتفرست في وجوه هؤلاء وأعمالهم فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية. فيهم مسلمون - كما يقال - يكرهون ما أنزل الله، وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكي يكثر السواد ويشبعوا الأحقاد، ويتظاهرون - مع ذلك - بالحياد!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى إسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمة، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض، فكيف يُقبل الدين مهاجمًا وترتضى سياسته وتُحترم سطوته؟ ويُرفض الدين مدافعًا، ويُعتبر إشراكه في التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة؟!!

إن الملاحدة خلطوا خلطاً قبيحاً بين الحق الذى نزل من عند الله وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين..

وهل يمكن للشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه أن يكون سوياً رشيداً؟! إن مثل هذا المخلوق مصاب يقيناً فى بصيرته وسيرته، وإنكاره لربه أحسن من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم.

وقد تكون له موهبة علمية، لكن ذلك لا يرفع خسيسته. وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه.

وما الوطن؟ قطعة من الأرض. وما القوم؟ قبيل من الناس. فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرمًا؟!

إن الشخص الذى يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ فى أمر ما، فهو معتل الضمير، زائع التفكير، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان.

إن شرح حقيقة التوحيد فى الأسلوب القرآنى يمحو آثار الإلحاد، وينفى شبهات الملحدين.. إن الصفر لا يصنع شيئاً، والعدم لا ينشئ وجوداً، ومن ظن أن العالم كان معدوماً ثم عراه الوجود من غير شئ فهو أحمق.

إن العلماء مشدوهون أمام سعة الكون التى لم تعرف لها إلى اليوم نهايات، أفلا يكون رب الكون أكبر من الكون نفسه؟ بلى، والله أكبر..

إن العالم ليس له من ذاته وجود. إن وجوده طارئ عليه من الخارج. أترى المصباح الكهربائى عندما تغمز «الزر» فيضيء؟ إنه لا يضيء أبداً من ذاته، لابد من تيار خارجى يسرى فيه فيتوهج. إنه معد فقط للاستقبال، وإشعاع ما يجيئه من جهة أخرى، كذلك الكون! إن وجوده ذاتاً وصفاتاً مُفاض عليه من أعلى، وإذا انقطع التيار الذى يمدّه تلاشى واستخفى فلا أثر له، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وإذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرًا، فليعلم واقعه المر! إنه امرؤ معتل الفكر، مصاب بداء عقلى ينفر لا يقلل عن الجذام! بل ربما كان المجذوم أشرف خلقًا وأصح فكرًا..

إن أثر الإيمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية، إنه يتحمل حينًا ليظفر بالراحة بعد حين! كما قيل لأعرابى: تصوم فى هذا اليوم الحار؟! فقال: أصومه ليوم أحر منه!

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها، فما يعرفون إلا هذا السراب، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه، وما يرمقون السماء بنظرة رجاء، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان.

مررت يومًا بأحد شوارع القاهرة، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها، وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت فى نفسى: انتهى أمرها. إن كثيرًا من القادة والساسة لا يرقون بحياتهم فوق هذا المستوى الحيوانى، يظنون أمرهم انتهى عندما ينفقون كهذه الدابة. إلا ما أحقر الكفر، وأسوأ تصوره للوجود!

٢٨. الإسلامو فوبيا:

«جروسيوس» [١٥٨٣ - ١٦٤٥م] أبو القانون الدولى، قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعى مجيز لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى، إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة!

و«جيتليس» هاجم فرنسوا الأول [١٤٩٤ - ١٥٤٧م] لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانونى [١٥٢٠ - ١٥٦٦م] - الخليفة العثمانى [١٥٣٥م]، مع أن هذه المعاهدة أقامت سلامًا بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية.. وذلك على أساس أن المعاهدة تقيم تعاونًا بين ملك مسيحى وبين غير المؤمنين!

وها قد طلع العصر الحديث.. وقيل إن للإنسان حقوقاً، وللشعوب كرامات! فهل اختفت الموارد القادرة في تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن؟ إن قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب، لقد طرد شعب مسلم من داره، وحلت محله إسرائيل، وقالت الدولة الراعية: لقد خلقت إسرائيل لتبقى.. وستتبع فلسطين أقطار أخرى ما دامت جزء من دار الإسلام، لأنها في نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب!!

إننا لا نحب هذا التقسيم، ولكن غيرنا ألجانا إليه، وإذا تركه تركناه.

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على الإسلام! وأترك الكلام للمؤرخ العالمي «هبريت فيشر» [١٨٢٤ - ١٩٠٧م]:

«لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب، إذا اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية. ففي الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها تفضي إلى تنصير الوثنيين فحسب، ولكنها أيضاً ستفضي إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق! كان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الأكبر، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين. تلك هي خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس - بابا روما - منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤م في مرسوم بابوي إلى ملك البرتغال. وفي هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع «كولومبس» [١٤٥١ - ١٥٠٦م] ليكشف الطريق إلى الهند غرباً»^(١).

لقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضاري الحديث قد محا أحقاد الماضي، ويسر للناس جميعاً أن يتعارفوا لا أن يتناكروا، فلما وقعت مذابح لبنان [سنة ١٩٨٢م]، رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط!

(١) من كتاب [أصول التاريخ الأوربي الحديث] ترجمة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس.

رأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون في هؤلاء بيت المقدس وآخر القرن الرابع الهجري!

٢٩. التجديد:

إن التجديد المنشود هو حماية الأصل مما اعتراه وتنقيته مما شابه وعكر رونقه، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القدر، وإزالة الغبار عن صورة غطى الإهمال ملامحها. وإن حركات التجديد والإصلاح تخبو أو تضيء، وتكبو أو تمضي بمقدار موقفها من آفات تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولما كان تجديد الإسلام عوداً إلى الأصل النازل من السماء، فإن المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد وصحبه..

والمشغولون بتجديد الفكر الإسلامى ينبغي أن ينظروا في هدف الوسائل المطلوبة، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف، ويبرز محاسن الإسلام، ولا عليهم أن يقتبسوا أمن هنا ومن هناك..

إن تجديد الفكر الدين يتطلب عقلاً أنضج وقلباً أذكى، يتطلب بصراً بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة، وفقهاء في الشرع لا مجرد مقلدين، وبصراء بالتربية والثقافة لا عبيد تقاليد سائدة وأصحاب دراسات عفنة.

إن مجددي الإسلام بذلوا جهوداً جبارة ليعود إلينا الوعي الغائب..

٣٠. الصحوة الإسلامية:

لست بعيداً عن ميدان الصحوة الإسلامية، بل أحسبني واحداً من الكادحين في جنباته، لقد تلقيت العلم عن مجاهدين ذوى صلابة، ثم قمت بتعليم شباب سبقوني سبقاً بعيداً في إحراز الرضوان الأعلى، لأنهم ماتوا شهداء في سبيل الله..

إنني لمست بيدي صحوة الإسلام في هذه الأيام، وصافحت بحرارة وحب رجالاً يقاتلون عن بقايا الإسلام في «الفلبين» على شواطئ الهادي، ورجالاً آخرين يحرسون موارث الإسلام على شواطئ الأطلسي.. وبين الشاطئين المتباعدين قامت مدارس

تجاهد بالقلم وكتائب تجاهد بالسلاح، تزود الغزوين الثقافى والعسكرى عن أرض فيحاء نام ساستها حيناً من الدهر، فدفعوا ثمن نومهم ذلاً فادحاً واستعماراً فاضحاً..

إن الصحة الإسلامية حقيقة قائمة، ولكن الإعداء لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين، وأرهب للنفس.. إنها تكتنفها أخطار هائلة، يشارك فى صنعها مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون، وملاحدة وكتابيون، ومصارحون ومداهنون، وأناس غرباء وأناس من جلدتنا..

والمستشرقون الأوروبيون يعرفون طبيعة الإسلام، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعينى ذئب جائع..

تدبر قول المستشرق الألمانى «باول شمتر» فى كتابه [الإسلام قوة الغد العالمية] - الذى صدر من نصف قرن تقريباً: «إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوروبا، وهتاف يجوب آفاقها، ويدعوها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذى بدأ يصحو».

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحة الإسلامية من معدن إسلامى صاف، يجددون سيرة سلفنا الأول، فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده..

إن أية يقظة إنسانية إنما تنهض بدءاً وختاماً على حدة العقل وسناء القلب.. وإذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجى من اللائمة، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقبي، ومن هنا رأينا الحساب شديداً للمنهزمين فى أحد!.. قيل لهم دون مواربة لما سألوا عن سر هزيمتهم: ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن حاضر المسلمين يقبض الصدر، وقد يبعث على التشاؤم، ولكنى واثق من أن هذه المحنة ستنجلي كما انجلت محن أخرى فى أيام مضت..

على أن انجلاء المحن لا يشبه انقشاع السحب، نرقبه نحن مكتوفى الأيدي.. كلا، لا بد من عمل جاد وسعى لا غب.. لا بد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقيناً وخلقاً ونشاطاً وفكراً.

إن المحنة ليست جهلنا، وإنما هي تبدل بعض الرؤساء.. وانفصال العلم عن الحكم في أغلب البلاد الإسلامية.

وأرى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلفة بتكوين هذه الأمة الجديدة، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء..

إن الدول الإسلامية يجب أن تتقارب وتوهي الحدود بينها، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة، أو بتكوين اتحادات إقليمية.. على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين جميعاً في كيان واحد، أو جسد روحه الإسلام..».

- هكذا أبدع الشيخ الغزالي معالم مشروعه الحضارى.. وفيها تناثرت العبارات التى يمكن أن نصنعها فى باب..

٢١. الحكم الغزالية:

وذلك من مثل:

- ١- الإسلام قلب تقى وعقل ذكى.. قلب يكره الرذيلة، وعقل يرفض الخرافة.
- ٢- إن انتهاء عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل.
- ٣- لا يعرف الله إلا الله.
- ٤- إن أسماء الله الحسنى هي تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل.
- ٥- إن العرب ما دخلوا التاريخ إلا بالإسلام.
- ٦- إن انتشار الجهالة لا يعطيها وجهة.
- ٧- إن الزمان سوف ينعدم كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟
- ٨- منذ أربعة عشر قرناً والشمس هي الشمس والقمر هو القمر والقرآن هو القرآن.
- ٩- إن سير الأفراد والأمم، وازدهار الحضارات وانطفاءها إنما يخضع لسنن دقيقة.
- ١٠- إن القوانين الاجتماعية لا تقل دقة واطراداً عن القوانين العلمية.

- ١١- إن العلوم المدنية ليست وفقاً على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار.
- ١٢- ليس للوحى الإلهى دخل فى البحوث الكيميائية أو الكشف الفلكية أو الإنتاج الصناعى.
- ١٣- إن انقسام العلم إلى دنى ومدنى لم يقع إلا فى عصور السقوط والاضمحلال.
- ١٤- إن منطق الملاحظة والتجريب هو منطق قرآنى المنبت.
- ١٥- الكتاب والسنة معاً دعامة الدين. ولا يتعارض حديث مع كتاب الله أبداً. والقرآن أصل الإسلام والسنة فرع يأتى بعده بياناً وتفسيراً. والشرعية لا منبع لها إلا الكتاب والسنة.
- ١٦- إن أربعين حديثاً تكفى الشخص العادى وتغنيه.
- ١٧- إنه لا سنة بغير فقه.
- ١٨- إن الإسناد من الدين، ولولاه لقال من شاء ما شاء.
- ١٩- إن الصلاة معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملاء الأعلى.
- ٢٠- الموضوع رمز لفلسفة الإسلام فى تكريم الجسم الإنسانى وإعزازه.
- ٢١- التجميل هو إبراز الجمال الطبيعى. أما التبرج فهو تهيج الغرائز. يميل بها نحو الإثم. وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر.
- ٢٢- المؤمن لا ينجس أبداً. والجنابة عارض يمكن الخلاص منه على عجل.
- ٢٣- إن المسجد يجمع ولا يفرق.
- ٢٤- إن الكلام عن الغيب لا يقبل إلا من المعصوم وحده.
- ٢٥- يجب أن نضمن للكادح ثمن عرقه وجزاء سعيه.
- ٢٦- يجب أن يكون الإنفاق والجهاد والمحميا والممات جميعاً فى سبيل الله.
- ٢٧- لقد أقر الإسلام حق التملك، وأثقله بالقيود التى تمنع سطوة الأثرة وطغيان الاستغناء.

- ٢٨- حيث يكون الخلل السياسى يكون الإثراء الحرام.
- ٢٩- إن العمل هو المصدر الأساسى للثروة.
- ٣٠- إن الاحتكار جريمة خلقية واجتماعية، وهو أقصر طريق لأكل أموال الناس بالباطل.
- ٣١- إن الكفر، كالجنون، فنون.
- ٣٢- ربما تمر بالمسلمين أيام يكلفون بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة، لا يستبقون شيئاً.
- ٣٣- الصوم هو حرمان الواجد ابتغاء ما عند الله.
- ٣٤- إن الإنسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر.
- ٣٥- من المؤسف أن الصَّوام قلة، وإن امتنع عن الطعام كثيرون.
- ٣٦- إن ديننا قوامه العقل، والقرآن معجزة عقلية، وأولوا الألباب هم الناس حقاً، وهل الإنسان إلا عقله؟
- ٣٧- العقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرأها فى المصحف. وبعد العقل السليم تجيء الطيبة والنية الحسنة.
- ٣٨- لماذا انفتح باب الاختراع فى الدين، وهو شر؟ ولم ينفتح باب الاختراع فى الدنيا، وهو خير؟!
- ٣٩- لماذا زادت الأرصدة من النوافل؟ وقلت الأرصدة فى ميادين الجهاد وتنمية العمران؟!
- ٤٠- إن الفساد السياسى من وراء انهيار الأمة الإسلامية وضياعها دنيا ودينا، وإن أى فرعون لا يوجد إلا حيث يوجد الأوغاد والأذئاب.
- ٤١- لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق. وإن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو.

- ٤٢- الإسلام دين وسط. والحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط.
- ٤٣- إن أئمة الفقه كانوا قَمَمًا في التقوى والمعرفة والنصح للأمة، صنعهم الإسلام ولم يصنعوه.
- ٤٤- إن التعصب المذهبي جريمة غليظة.
- ٤٥- الإجماع لا ينسخ إلا بإجماع آخر من أهل الذكر.
- ٤٦- الخلاف العلمى يرجح بقوة الدليل لا بكثرة الاتباع.
- ٤٧- إن القوانين الوضعية هي الوجه الرسمى للجاهلية الوثنية، تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية، وهدفها الأخير الإتيان على الإسلام من القواعد.
- ٤٨- إن الذى شرع الحدود ندب المؤمنين إلى الستر على المنحرفين لمنحهم فرصة متاب.
- ٤٩- إن شغل العامة بفقه الفروع ثرثرة تبدد الطاقات.
- ٥٠- إن علم الفقه يأتى بعد علوم العقيدة والأخلاق.
- ٥١- إن طول أجل الاستبداد السياسى قد أخرس الألسنة عن فقه الشورى والدستور والأموال.
- ٥٢- إن فقه الكتاب والسنة لا يرشح له إلا أهل النباهة والتقوى.
- ٥٣- لا بد من المراجعة والغربة للمذاهب الفقهية السائدة.
- ٥٤- إنه لا قداسة لاجتهاد، والخلود لكتاب الله وسنة رسوله.
- ٥٥- إن المتواتر يحكمنى، والصحيح يلزمنى، والعرف السائد يحكم عليه ولا يُحتكم إليه.
- ٥٦- إن الخطأ الفقهي مأجور، أما الخطأ الخلقى فهو إثم.
- ٥٧- إن تربية اللحية من سنن الفطرة، وتربية النفس من أركان الإيمان.
- ٥٨- إن الدين عقل وعاطفة، ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا قلوب لهم، ومتصوفة لا فقه لهم.

٥٩- إن الأبواب كلها موصدة أمام من حُرِم التأسي بمحمد ﷺ فهو إمام الاتقياء وسيد المربين.

٦٠- إن تعليم زوار الأضرحة أجدى من تكفيرهم.

٦١- الأمة هي مصدر السلطات.

٦٢- إن الوثنية السياسية هي التي تحمى الوثنية الدينية.

٦٣- الخلافة الإسلامية بعيدة عن الفرعونية والكسروية والقيصرية. هي الأبوة الروحية للمسلمين، والشورى أول معالمها.

٦٤- إذا هابت الأمة أن تقول للظالم يا ظالم فقد ماتت مادياً وأدبياً.

٦٥- إن المسلمين الساكتين على الظلم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر.

٦٦- إن العصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنشورة، إنه عصر التكتلات الكبيرة.

٦٧- إن حقوق الإنسان هي الوجه المقابل لعقيدة التوحيد.

٦٨- إن سدنة الوثنية السياسية لا يقلون شراً عن سدنة الأصنام.

٦٩- إن الظلمة هم أجبن الناس، لا يزأرون إلا في خلاء، ولا يمتدون إلا في فراغ، والويل للشعوب الجبابة.

٧٠- إن حرية الفكر هي المهاد الأول والأوحد لمعرفة الله.

٧١- إن الارتداد عن الدين نقص للأسس التي يقوم عليها المجتمع والدستور.

٧٢- إن الغزو الثقافي ظهير يمهد للغزو العسكري.

٧٣- حيث يكون التكليف الإلهي تكون الإرادة الحرة، وتكون المسؤولية.

٧٤- إنني غيور على الأعراض كأشد المتزمتين، لكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان.

٧٥- إذا وصفنا تقاليد المرأة الغربية بأنها لا شرف لها، فإن تقاليدنا لا عقل لها. الأولى فاضحة والأخرى فادحة، وبين الإفراط والتفريط خط وسط يجب التزامه.

- ٧٦- إن سياج الأسرة هو الخلق الزكى، والأسر التي يمسكها القانون هي أسر على الورق وحسب، وما بين الزوجين من وشائج لا يرضه إلا لئيم.
- ٧٧- إن الجهاد الإسلامى ليس العنف والنزق والحماس الطفولى، وإنما هو جهاد الكلمة والبحث والدرس وجهاد المال والقانون وجهاد النفس الحارس للأرض والعرض والإيمان.
- ٧٨- إن الأمم التى تتسول الإعانات تعلقو لها رسالة ما دامت يدها السفلى.
- ٧٩- ليس فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ﷺ ما غضب إلا لله.
- ٨٠- لا قتال إلا لمنع الفتنة فى الدين، وتأمين الدعوة إلى الله، والحفاظ على الدم والمال والعرض وتحرير المستضعفين.
- ٨١- إن الحرب شىء كرىه حقاً، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها.
- ٨٢- إن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد فؤاداً أشجع ولا ذراعاً أشد من فؤاد محمد وذراعه.
- ٨٣- إن المسلم هو أول المدافعين عن الوطن، ولكى نحيا لابد من إحياء التناصر بين المسلمين.
- ٨٤- ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الدينية إلا الضياع؟!
- ٨٥- الإسلام هو الذى رفع العرب، وجعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور.
- ٨٦- أنا مصرى عربى الإسلام. وما يسرنى أن أكون هاشمياً، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب.
- ٨٧- إن رباط العروبة بالإسلام وثيق، وإذا وهى رباط العرب بالإسلام تحولوا حتماً من رأس إلى ذنب.
- ٨٨- إن الإسلام وحى معصوم. أما الفكر الإسلامى والحكم الإسلامى فلا عصمة لهما.

- ٨٩- من النكسات التي أصابت المسلمين انفصال الحكم عن العلم.
- ٩٠- لقد قيل في إنسان العصر الحاضر: إن عضلاته أكبر من عقله.
- ٩١- إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر.
- ٩٢- إن العلم مهما تقدم لا يغنى عن الإيمان.
- ٩٣- إن الإيمان الذي نحترمه هو الذي يعانق العقل وتزدان به الحياة.
- ٩٤- إنني أمقت الذكاء الخبيث، وإن امرأة حصاناً غافلة أشرف من مومس عبقرية، وإن رجلاً ساذجاً يعرف ربه أشرف من خبير في الذرة يعبد نفسه.
- ٩٥- إن العالم الآن لا ينحنى لصنم من حجر، لكنه يتفانى في أصنام الحكم والمال التي خافها الناس أكبر مما خافوا رب الأرباب.
- ٩٦- إنه لا بد من دين لدنيا الناس.
- ٩٧- إن أمتنا، رغم جراحاتها، لا تزال أنبل من قاتليها، فهي الأولى بالله، والأعرف برسالاته، والأملك لأسباب العافية، والأحق بالبقاء.
- ٩٨- يجب أن نقتبس من الغرب ما يتواءم مع فطرة الله في موارثنا. لقد نقلت اليابان صناعة الغرب، دون أن يتحول اليابانيون إلى أوروبيين في عقائدهم أو لغتهم وآدابهم أو أخلاقهم، لقد فعلوا، ولم يفعلوا، وقادوا ولم ينقادوا.
- ٩٩- إن عصابات من المبشرين والمستشرقين المستعمرين تقاتل الآن الأمة الإسلامية، وتقترب المناكر للإتيان على رسالة محمد، وتشويه سمعته، وإطلاق الأكاذيب حوله.
- ١٠٠- لقد تفرست في وجوه العلمانيين، الذين يستبعدون الإسلام عن ميادين التربية والقانون والثقافة والتوجيه، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية. فيهم مسلمون - كما يقال - يكرهون ما أنزل الله، وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكي يكثر السواد ويشيعون الأحقاد، ويتظاهرون - مع ذلك - بالحياد!
- ١٠١- إن إنكار الملحد لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم.

١٠٢- إن خيانة الوطن والقوم جريمة كبرى، فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يُعد مجرمًا؟!

١٠٣- إن الصفر لا يصنع شيئًا، والعدم لا ينشئ وجودًا، ومن ظن أن العالم كان معدومًا ثم عراه الوجود من غير شيء فهو أحمق. ألا ما أحقر الكفر، وأسوأ تصويره للوجود.

١٠٤- إن النصارى أرق قلوبًا وألين عريكة، وإذا أسلم عشرة آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودى واحد.

١٠٥- إننا لا نحب تقسيم العالم إلى دار حرب ودار سلام، لكن غيرنا هو الذى ألجأنا إليه، وإذا تركه تركناه.

١٠٦- إن حركات التجديد والإصلاح تخبو أو تمضى بمقدار موقفها من آفات تحريف الغالبيين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

١٠٧- إن التجديد يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء، وخبراء بالسنة لا مجرد رواه، وفقهاء فى الشرع لا مجرد مقلدين.

١٠٨- إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة، ولكن الإعداد لسحقها يشارك فيه مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون، وملاحدة وكتّابيون، ومصارحون ومداهنون، وأناس غرباء وأناس من جلدتنا. ولست أخاف أولئك كلهم إذا كان قادة الصحوة من معدن إسلامى صاف، يجددون سيرة سلفنا الأول، فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده.

١٠٩- إذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجى من اللائمة، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقبي.

* * *

هكذا تحدث العالم الربانى.. الفقيه.. المجدد.. الحكيم.. صاحب القلب النورانى.. شيخنا الجليل محمد الغزالى عليه رحمة الله.

المرأة فى منهاج الشيخ الغزالى

صاحبة الكتاب - السيدة الفاضلة سهيلة الحسينى واحدة من نجباء مدرسة شيخنا محمد الغزالى، عليه رحمة الله.

وإذا كانت مدرسة الشيخ الغزالى الفكرية قد استقطبت الملايين من عشاق الوسطية الإسلامية، والاستنارة الفكرية، والغيرة على حرمان الإسلام، والسعى الجاد لإنهاض الأمة.. فإن لصاحبة هذا الكتاب مكانة متميزة فى هذه المدرسة الفكرية الكبرى.

فهى قد تتبعت الآثار الفكرية لشيخنا الجليل.. ووعت ما ضمنته من قضايا واجتهادات ونظرات.. ثم هى قد تتلمذت على يد الشيخ تلمذة مباشرة عندما أقامت معه ومع أسرته الصلوات الروحية التى استمرت السنوات الطوال، حتى كانت أثيرة لديه، يخصها بالرعاية والاهتمام..

وفوق كل ذلك فالسيدة سهيلة الحسينى كاتبة مجيدة، امتلكت قدرات متميزة فى الفكر العربى والإسلامى، صاغت صياغة أدبية مشرقة، تشى بتمكن من أساليب التعبير، جميلة ومتميزة معاً.. والتميز فى أساليب التعبير خصيصة للممتازين والتمتيزين من الكتاب.

والغريب - مع ذلك - هو تهييبها من النشر لهذه الكتابات.. ولقد كانت تعرضها على شيخنا الغزالى رحمه الله - فكان يثنى عليها، ويشجعها على مواصلة الإبداع.. وفى السنوات الأخيرة من حياته نصحتها بأن تعرض عليّ مخطوطات كتبها، فسعدتُ بالاطلاع عليها، كما سعد بها شيخنا الجليل، وظللت أتمنى أن ترى هذه الكتابات النور؛ ليعم الانتفاع بها، فحرام أن تظل هذه الإبداعات حيصة المخطوطات، بينما تمتلئ المكتبات بما يجب أن تنتزه عنه الأوراق!..

وإذا كان هذا الكتاب - [المرأة فى منهج الإمام الغزالى] - هو أول إبداعات السيدة

سهيلة الحسينى بعد وفاة شيخنا الجليل.. فإنه العمل الفكرى الأسبق عن فكر شيخنا بعد انتقاله إلى رحاب مولاه.. فلصاحبه فضل الريادة لميدان الدراسات التى تنتظرها جماهير أمتنا عن آثار واجتهادات ونظرات إمامنا الجليل.

ويزيد من أهمية وقيمة هذه المبادرة الرائدة خطر القضية التى يعرض لها هذا الكتاب، والتى احتلت مساحة واسعة من فكر الغزالى وآثاره واجتهاداته، منذ فجر كتاباته وحتى عمله الفكرى الأخير..

إن هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء والباحثين قد جاء ثمرة للوعى الناضج بكل جوانب المشروع الفكرى للشيخ الغزالى، بل والمعايشة القرية لحياة شيخنا الجليل - عليه رحمة الله - ولو أن باحثاً أمضى السنوات لإعداد رسالة جامعية عن المرأة فى فكر الشيخ الغزالى لما بلغ هذا المستوى العميق والدقيق والمحيط الذى بلغته السيدة سهيلة فى هذا الكتاب.

لقد قدمت خدمة فكرية عظيمة للقراء والباحثين، عندما فتحت باب الدراسات العلمية الجادة فى فكر الشيخ الغزالى؛ ليتواصل الانتفاع باجتهاداته الفكرية وبجهاده العلمى، الذى نحن فى أمس الحاجة إليه.

وإذا كنت على ثقة من أن قراء هذا الكتاب سيسعدون كل السعادة بالجهد العلمى المبذول فيه.. فإننى على ثقة كذلك بأنهم سيشترون معنى فى الرغبة أن ترى كل إبداعات هذه الكاتبة الفاضلة النور فى وقت قريب.

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق^(١)..

دكتور/ محمد عمارة

(١) انظر كتاب [المرأة فى منهج الإمام الغزالى]، سهيلة الحسينى، طبعة دار الرشاد، القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

مقدمة ميثاق الأسرة فى الإسلام

لماذا هذا الميثاق؟

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

قبل الغزو الفكرى الذى جاء إلى الأمة الإسلامية فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة - التى قادها «بونابرت» - على مصر والشرق [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] لم تكن هناك حاجة إلى وضع المواثيق والفلسفات التى تحدد سلوك المسلمين فى مختلف ميادين الحياة - الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية - ذلك أن المرجعية الإسلامية كانت هى الوحيدة الحاكمة، التى تحدد كل المفاهيم والفلسفات فى سائر هذه الميادين.

ولقد كانت المشكلات التى تعانى منها الحياة الإسلامية مقصورة على «التطبيق» لهذه المفاهيم الإسلامية الواحدة، والتى تحكم حتى الاختلافات الفقهية الفرعية التى يثمرها الاجتهاد فى إطار وحدة هذه المرجعية ومفاهيمها وفلسفاتها، ومدى اقتراب «الواقع والتطبيق» من «المثل» التى حددها الإسلام.

لكن الغزو الفكرى الغربى قد أحدث تغييرًا أساسيًا، وذلك عندما زرع فى المجتمعات الشرقية الإسلامية مرجعية حضارية أخرى - وضعية علمانية لا دينية - غدت منافسًا شرسًا لمرجعية الإسلام.. الأمر الذى استوجب تمييز المفاهيم الإسلامية عن نظيرتها الوضعية العلمانية اللادينية فى مختلف ميادين الحياة..

- فبدأت فكرة ضرورة وأهمية تقنين الفقه الإسلامى كبديل متميز عن القانون الوضعى العلمانى.
- وبدأت البلورة للرؤية الإيمانية الإسلامية للكون والحياة - لبداية الخلق.. والمسيرة.. والمصير.. ومكانة الإنسان فى الكون - كبديل متميز عن الرؤية الوضعية والمادية للكون والحياة.

- وبدأت البلورة لمذهب الإسلام في الثروات والأموال والعدل الاجتماعي مذهب الاستخلاف - كبديل «للبرالية الرأسمالية» و«الشمولية الشيوعية» في الاقتصاد والاجتماع.

ولأن الغزو الفكري قد تسلل إلى ميادين الحياة الإسلامية تدريجياً، وبكل أساليب الخداع، بل وبواسطة الغش والتدليس في خلط المفاهيم ومضامين المصطلحات، وذلك كي لا يستفز الحس الإسلامي فتنتفض الأمة لمقاومته.. ولأن الدوائر التي تخطط لهذا الغزو كانت على علم بمكانة الأسرة في منظومة القيم الإسلامية - مكانة «الحرام».. و«العرض».. و«الشرف» - فلقد جاء الغزو لميدان الأسرة متأخراً، وفي مرحلة عموم البلوى لكل ميادين الحياة.. جاء في الوقت الذي أصبحت فيه الأسرة المسلمة «محاصرة» بهذا الغزو الفكري الغربي من جميع الجهات والاتجاهات!

ومع تصاعد موجات التغريب وزيادة هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية، واجتياح العولمة الغربية للخصوصيات الثقافية والقيمية غير الغربية - في العقدين الأخيرين من القرن العشرين - بدأ الاقتحام الغربي لحرمت الأسرة المسلمة، والانتهاك لمقدسات منظومة قيمها التي حددها الإسلام وصاغتها المرجعية الإسلامية.. الأمر الذي فرض ويفرض على مؤسسات العلم والفكر والعمل الإسلامي صياغة البديل الإسلامي في هذا الميدان.

دور منظمات الأمم المتحدة في التمكين للغزو الفكري الغربي

لقد شرع الغزو الفكري الغربي منذ العقدين الأخيرين للقرن العشرين، في صياغة منظومة قيمه في «الحداثة وما بعد الحداثة».. صياغتها في موثيق ومعاهدات أخذ في عولمتها تحت ستار الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها؛ وذلك لإحلال هذه المنظومة القيمية - المصادمة لكل القيم الدينية - محل منظومة القيم الإسلامية، وفي ميدان الأسرة على وجه التحديد.

وإذا كانت قوى الهيمنة الغربية المعاصرة، ترفع - في ميدان السياسة - شعار «الفوضى الخلاقة» التي تتغيا من ورائها تفكيك المجتمعات الإسلامية وبعثرة مكونات وحدتها، وفق معايير عرقية ولغوية ومذهبية وطائفية، ليتأبد نهب ثروات هذه المجتمعات، بمنع التماسك والتضامن والوحدة الإسلامية من الجهاد لتحرير

الأوطان والثروات، فلقد غدت الهجمة الغربية على حصون الأسرة المسلمة بمثابة «المعركة الفاصلة» فى هذه الغزوة وهذا الاحتواء.. الذى يتغيًا إحداث الفوضى فى عالم الأسرة لتفكيكها والقضاء على مقوماتها.. ومن ثم تفكيك الأمة.. المكونة من الأسر والعائلات.

وإذا نحن أخذنا نموذجًا واحدًا من «الوثائق» التى يصوغها الغرب، ويضمونها منظومة قيمه فى الحداثة وما بعد الحداثة، ثم يسعى لعولمتها، وفرضها على الحضارات غير الغربية تحت ستار الأمم المتحدة وأعلامها.. لنرصد من بين فصولها وموادها عددًا من معالم الهدم والتدمير لمنظومة الأسرة المسلمة فى القيم والأخلاق، فإننا واجدون فى وثيقة «مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية» الذى عقد بالقاهرة - من ٥ حتى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤م - نموذجًا «لإعلان الحرب» على الأسرة ومنظومة القيم والأخلاق التى حددها لها الإسلام.

فإذا كان الإسلام - انطلاقًا من الفطرة الإنسانية السوية - قد بنى الأسرة على العلاقات الشرعية والمشروعة بين ذكر وأنثى، لتحقيق - بهذا التمايز والتكامل - سعادة الإنسان، ولتحقيق - بالتوالد والتناسل - بقاء النوع الإنسانى، ولتكون هذه الأسرة هى اللبنة الأولى فى تأسيس بناء الأمة.. فإن وثيقة مؤتمر السكان - وبصريح العبارة - تعلن الحرب على هذا المعنى الإنسانى للأسرة، وتدعو إلى «تغيير الهياكل الأسرية» معتبرة ذلك التغيير هو «المجال الحيوى لعمل الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية»، فكل هذه المؤسسات مدعوة: «بالحاح لإعطاء الأولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير هياكل الأسرة»^(١).. وذلك حتى لا تكون - فقط - أسرة شرعية مؤسسة على علاقة مشروعة بين ذكر وأنثى.. وإنما لتضم كل ألوان العلاقات - بين رجل ورجل، أو بين امرأة وامرأة - مدخلة بذلك الانقلاب كل ألوان العلاقات الشاذة والمحرمة شرعًا وفطرة فى إطار «الأسرة» التى يعترف بها القانون ويحميها ويرتب لها الحقوق!

(١) [مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية]، الفصل الثانى عشر، الفقرة ٢٤، الترجمة العربية الرسمية، طبعة سنة ١٩٩٤م.

وإذا كان الإسلام قد ضبط المتعة الجنسية، لتكون سبيلاً شرعياً للعفة والإحصان والإنجاب، فجعل «الجنس مشروعاً» فإن وثيقة مؤتمر السكان تطلب - فقط - أن يكون «الجنس مأموناً» أى لا يؤدي إلى الأمراض، وتطلقه وتحرره من ضوابط الشرع، ليكون حقاً من حقوق الجسد - كالطعام والشراب - مباحاً «لجميع الأفراد» وليس فقط «الأزواج» ومن كل الأعمار، بما فى ذلك المراهقون والمراهقات!!

«الصحة التناسلية والصحة الجنسية» التى جاءت مصطلحاتها الأكثر شيوعاً وتكراراً فى هذه الوثيقة - هى «حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة التى تجعل الأفراد - [وليس فقط الأزواج] - قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة^(١).. والصحة الجنسية والصحة التناسلية هى كالاتياجات التغذوية، حق من حقوق البنات والفتيات المراهقات^(٢)...»!!.

وإذا كان الإسلام قد أطلق على عقد الزواج، الذى تؤسس به الأسرة، وصف «الميثاق الغليظ» المؤسس على قيم المودة.. والرحمة.. والسكن.. والسكينة فجاء فى القرآن الكريم: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].. ﴿وَمِنْ عَائِشَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].. فإن وثيقة مؤتمر السكان تؤسس «العلاقة» التى تسميها «أسرة» على مجرد الالتقاء الاختياري المؤسس على «الإباحة والإباحية» ولذلك فهى تنزع عن هذه العلاقة الصفة الشرعية.. حتى لقد خلت كل فصول هذه الوثيقة وبندوها خلواً تاماً من كلمتى «الله» و«الدين»!

وإذا كان الإسلام يحض على الزواج المبكر لإحصان البالغين من الشبان والشابات وإعفافهم، فإن وثيقة مؤتمر السكان تحرّم وتجزم الزواج المبكر، وتستعيص عنه بدائل منها الزنا المبكر! فدعو «الحكومات إلى أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حيثما اقتضى الأمر.. ولا سيما بإتاحة بدائل تغنى عن الزواج المبكر..»^(٣).

(١) المصدر السابق، الفصل السابع، الفقرات ١ - ٥.

(٢) المصدر السابق، الفصل الرابع، فقرة ٢.

(٣) [مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية]، الفصل الرابع، فقرة ٢١.

أى أنها تدعو إلى «تقييد الحلال» وإلى «إطلاق الحرام» الذى جعلته حقاً من حقوق الجسد لجميع الناشطين جنسياً من كل الأعمار.. وبين جميع الأفراد.. وعلى اختلاف ألوان هذه العلاقات..!

وفى الوقت الذى يقيم فيه الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة - وخاصة فى إطار الأسرة - على قواعد المودة والرحمة والسكن والسكينة.. ويجعل «النساء شقائق الرجال» - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف - ويقرر للنساء من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات بالمعروف المتعارف عليه: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

تذهب وثيقة مؤتمر السكان - انطلاقاً من الطابع المادى للحضارة الغربية - إلى تحويل هذه العلاقة إلى علاقة تجارية مادية «تشبهاً» فيها القيم والمثل والأخلاقيات.. فتتحدث عن «تمكين المرأة» بدلاً من الحديث عن «إنصافها ومساواتها» بالرجال.. وتدعو إلى «دمجها بشكل تام فى الحياة المجتمعية»، وإلى المشاركة الكاملة للرجل فى تربية الأطفال والعمل المنزلي^(١) فتصادم بذلك تقسيم العمل الفطرى الذى ساد الحياة الإنسانية على مر التاريخ.

والأكثر إمعاناً فى الغرابة والشذوذ أن الغرب الذى يتفاخر بالحديث عن الحرية والليبرالية وحقوق الإنسان، ينكر على الأمم والحضارات الأخرى حقوقها فى أن تختار منظومة القيم التى تريد!! ويسعى - بالترهيب والترغيب - إلى فرض مفاهيمه وفلسفاته على العالمين.. حتى يعلن - فى وثيقة مؤتمر السكان - توجيه المعونات التى يقدمها لتنفيذ ما صاغه فى هذه الوثيقة من قيم وفلسفات، فتتكرر - فى هذه الوثيقة - عبارات «الالتزام» و«الإلزام» التى تقول: «ينبغى للحكومات أن تلتزم على أعلى مستوى سياسى بتحقيق الغايات والأهداف الواردة فى برنامج العمل هذا»^(٢).. وإعمال الضمانات وآليات

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع، فقرة ٢٦.

(٢) المصدر السابق، الفصل السادس عشر، الفقرة ٧.

التعاون الدولية لكفالة تنفيذ هذه التدابير^(١).. وينبغي على الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تنظم استعراضاً منتظماً لتنفيذ برنامج العمل هذا^(٢)..».

وعندما طلبت بعض الدول النص - فى الوثيقة - على أن يكون «تنفيذ السياسات السكانية حقاً سيادياً يتمشى مع القوانين الوطنية..» رأينا الوثيقة تجهض هذا الحق - بعد النص عليه - وذلك بالنص على أن يكون هذا الحق فى إطار «الامتثال للمعايير الدولية لحقوق الإنسان»^(٣) وهى المعايير التى صاغها الغرب لتعبر عن فلسفته فى هذا الميدان!..

أما الإغراء والترغيب الذى قدمه الغرب - فى هذه الوثيقة - فهو المساعدات فى مجالات «التنمية» التى تساعد على انتشار هذا الانحلال.. فنصت هذه الوثيقة على أنه «ينبغي للمجتمع الدولى أن ينظر فى اتخاذ تدابير مثل نقل التكنولوجيا إلى البلدان النامية لتمكينها من إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية وغيرها من السلع الضرورية اللازمة لخدمات الصحة التناسلية، وذلك للاعتماد على الذات فى هذا الميدان»^(٤)!!

نعم.. هذا هو الميدان الذى يساعد فيه الغرب الدول النامية كى تعتمد على الذات!.. ميدان «إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية.. وغيرها من السلع الضرورية لتحقيق المتعة الجنسية المأمونة للأفراد.. من مختلف الأعمار»!!

الرسالة التى يحققها ميثاق الأسرة

وهكذا.. ومن خلال هذه الأمثلة - وهى مجرد أمثلة - من وثيقة مؤتمر السكان - وهى مجرد وثيقة من وثائق عديدة - يتم الغزو والاجتياح لآخر حصون الأمة الإسلامية، ولمنظومة القيم الحاكمة لهذا الحصن، حصن الأسرة المسلمة.

الأمر الذى استوجب وفرض الوضع والصياغة لهذا الميثاق - ميثاق الأسرة فى

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع، الفقرة ٩.

(٢) المصدر السابق، الفصل السادس عشر، الفقرة ٢١.

(٣) [مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية]، الفصل الثانى، المبدأ ٤.

(٤) المصدر السابق، الفصل السابع، الفقرة ٢٣.

الإسلام - ليكون - مع مذكرته التفسيرية - دليلاً يبين الطريق للإنسان المسلم - رجلاً كان أو امرأة - ومرجعاً للمجتمعات الإسلامية، ومنظماتها الأهلية.. ولحكوماتنا الوطنية.. ومنظماتنا الإقليمية.. بل ورداً على موثيق الغزو وأيديولوجياته، التى تحاول - مع امتداداتها السرطانية فى مجتمعاتنا - اجتياح آخر حصون الإسلام وأمتة.. حصن الأسرة فى عالم الإسلام.

إننا والغرب أمام مفهومين مختلفين للحرية، ينبع كل واحد منهما من فلسفة النظر إلى مكانة الإنسان فى الكون، وعلاقته بالذات الإلهية.

ففى الإسلام: استخلف الله الإنسان فى الأرض؛ لأداء الرسالة التى عهد بها إليه، وفى الحدود وبالضوابط المرسومة له، فحرية الإنسان فى الإسلام محكومة بنود عقد وعهد الاستخلاف، المتمثلة فى الشرائع الإلهية.

بينما هذا الإنسان - فى الرؤية الوضعية الغربية - هو سيد الكون، الذى لا سلطان على عقله إلا لعقله وحده.. ولا حدود لحرية إلا إرادته واختياره، والتى لا يضبطها سوى ما يضعه بنفسه لنفسه من قوانين.

ولقد أدرك علماء الإسلام - منذ بدايات الغزو الفكرى الغربى للشرق الإسلامى هذا الفارق الجوهرى فى مفهوم الحرية.. فانتقد العالم المجاهد عبد الله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] المفهوم الغربى للحرية فقال:

«ولئن قيل: إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد فى أموره الخاصة، قلنا: إن هذا رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية.. أما الحرية الحقيقية فهى عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.

ولئن كان ذلك سائغاً فى أوروبا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم»^(١).

إننا أبناء دين أضفى القداسة الدينية على منظومة القيم الحاكمة لمؤسسة الأسرة،

(١) عبد الله النديم، مجلة [الأستاذ]، العدد ١٩، ٨ جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ، ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٩٢م، ص ٤٣٩.

عندما أقامها على «الميثاق الغليظ» الجامع لقيم المودة والرحمة والسكن والسكينة. كما رسم هذا الدين المعالم والطرق والوسائل لحل مشكلات هذه الأسرة - من الإعراض.. إلى النشوز.. إلى الشقاق - وجعل «التحكيم.. والشورى» السبل لإصلاح هذه المشكلات.

ونحن أبناء الحضارة التي وضعت هذه القيم الدينية وجسدتها في الممارسات والتطبيقات على امتداد تاريخ الإسلام.. حتى لقد رأينا «مؤسسة الأوقاف»، وهي المؤسسة الأهلية الأم - التي مولت صناعة الحضارة الإسلامية وتجديدها - ترصد الأوقاف الواسعة على مؤسسة الأسرة فتيسر الزواج.. وتحل مشكلاته.. الأوقاف التي تُيسر:

- ١- تزويج المحتاجين والمحتاجات.
 - ٢- وتقديم الحلى وأدوات الزينة ومستلزمات العرس للعرائس الفقيرات.
 - ٣- وتقديم حليب الرضاعة - المحلى بالسكر - لإعانة الأمهات المرضعات.
 - ٤- وتأسيس الدور لرعاية النساء الغاضبات اللواتي لا أسر لهن، أو من تسكن أسرهن في بلاد بعيدة.. فتؤسس هذه الأوقاف لهن الدور، التي تقوم على رعايتها نساء مدربات، على رأسهن مشرفة تهيب الصلح للزوجات الغاضبات من أزواجهن..
 - ٥- وحتى الأوقاف المرصودة على رعاية الأيتام واللقطاء.
- هكذا صاغ الإسلام للأسرة ميثاقاً من القيم والأخلاق.. ووضعت الحضارة الإسلامية هذه القيم في التطبيق - قدر الإمكان - ومع تفاوت في التطبيق الذي يقترب فيه «الواقع» من «المثال» على امتداد تاريخ الإسلام.
- ومن هنا - وفي مواجهة الغزو الغربى لحصن الأسرة المسلمة - تأتي الأهمية البالغة لهذا الميثاق - ميثاق الأسرة في الإسلام - تلك الأهمية التي لا تقف عند كونه السياج الذى يحمى الأسرة المسلمة فى المجتمعات الإسلامية.. وإنما تمتد - هذه الأهمية - إلى حيث تجعله «إعلاناً عالمياً إسلامياً» ينطلق من عالمية الإسلام، وهداياته للعالمين، ليكون طوق نجاة للأسرة - كل أسرة - على امتداد القارات والحضارات..

وذلك عندما يدعو - باسم الإسلام - أهل الحكمة والفطرة الإنسانية السوية - من مختلف الديانات - إلى كلمة سواء.

إنه بديل إسلامى لكل ما يرفضه الإسلام فيما يتعلق بالأسرة.. تقدم به الأسرة المسلمة - عبر منظماتنا النسائية الوفية لدينها - إلى المؤتمرات العالمية «إعلاناً إسلامياً عالمياً» لإنقاذ الأسرة من الانحلال الذى تفرضه عليها العولمة الغربية.

تلك هى رسالة هذا الميثاق.. وهذه هى مكانته.. ومقاصده.. التى ندعو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لها أسباب التحقيق والتمكين.. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظر كتاب [ميثاق الأسرة فى الإسلام]، اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل، طبعة القاهرة (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

تحرير المرأة بين العقل والجنون

(١)

إن الفارق بين الدعوة إلى تحرير المرأة وإنصافها، والحركات التي عملت على هذا التحرير والإنصاف - سواء في البلاد الغربية أو الشرقية - وبين النزعة الأنثوية المتطرفة (Feminism) التي تبلورت في الغرب في ستينيات القرن العشرين، والتي تقلدها قلة قليلة من النساء الشرقيات.. إن الفارق بين هاتين الدعوتين والحركتين وفلسفتهما ومطالبهما هو الفارق بين العقل والجنون!

فأقصى ما طمحت إليه دعوات وحركات تحرير المرأة، هو إنصافها... من الغبن الاجتماعي والتاريخي الذي لحق بها، والذي عانت منه أكثر كثيرًا مما عانى منه الرجال، مع الحفاظ على فطرة التميز بين الأنوثة والذكورة، وتمايز توزيع العمل وتكامله في الأسرة والمجتمع، على النحو الذي يحقق مساواة الشقين المتكاملين بين الرجال والنساء.. وذلك حفاظًا على شوق كل جنس إلى الآخر، واحتياجه إليه، وأنسه بما فيه من تمايز، الأمر الذي بدونه لن يسعد أى من الجنسين في هذه الحياة.

ولقد كانت الدعوة الغربية إلى تحرير المرأة - منذ القرن التاسع عشر - أثرًا من آثار الحداثة الغربية، التي أرادت تجاوز التراث الفلسفي والاجتماعي والقانوني الغربي، المعادى للمرأة والمحقق لشأنها.. مع التأويل للتراث الديني الغربي اليهودي والنصراني المعادى للمرأة، وذلك دون إعلان للحرب على الدين ذاته، ولا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها عندما خلقهم ذكرًا وإناثًا.. وأيضًا دون إعلان للحرب على الرجال.

أما النزعة الأنثوية المتطرفة (Feminism) التي تبلورت في ستينيات القرن العشرين فإنها أثر من آثار «ما بعد الحداثة» الغربية، تحمل كل معالم تطرفها الذي بلغ بها حد الفوضوية والعدمية واللاأدرية والعشبية والتفكيك لكل الأنساق الفكرية الحديثة التي

حاولت تحقيق قدر من اليقين الذى يعوض الإنسان عن طمأنينة الإيمان الدينى، التى هدمتها الحداثة بالعلمانية والمادية الوضعية منذ عصر التنوير الغربى العلمانى.

لذلك، كانت النزعة الأنثوية المتطرفة هذه «ثورة - فوضوية»، تجاوزت وغيّرت «ثورات الإصلاح».. وكانت حرباً على «الفطرة السوية»، بما فى ذلك فطرة الأنوثة ذاتها!

لقد تبنت هذه النزعة الأنثوية مبدأ الصراع بين الجنسين - الإناث والذكور - انطلاقاً من دعوى أن العداء والصراع هما أصل العلاقة بينهما.. ودعت إلى ثورة على الدين.. وعلى الله.. وعلى اللغة.. والثقافة.. والتاريخ.. والعادات والتقاليد والأعراف، بتعميم وإطلاق! وسعت إلى عالم تتمحور فيه الأنثى حول ذاتها، مستقلة استقلالاً كاملاً عن عالم الرجال.. وفى سبيل ذلك، دعت إلى الشذوذ السافر بين النساء، وإلى «التحرر الانحلالي»، وبلغت فى الإغراب مبلغاً لا يعرف الحدود! الأمر الذى جعل هذه النزعة الأنثوية المتطرفة كارثة على الأنوثة، ووبالاً على المرأة، وعلى الاجتماع الإنسانى بوجه عام.. بل وجعلها - إذا انتصرت وعمت - مهددة للوجود الإنسانى.. نعم، حتى للوجود الإنسانى ذاته!

وكى لا يظن الذين لا يعلمون أن هناك مبالغة فى التصوير.. وكى لا ندع مجالاً لتمويه المموهين.. فيكفى أن نقدم نماذج شاهدة ومبررة من مقولات وشعارات وفلسفات هذه الحركات الأنثوية المتطرفة.

- فأب هذه النزعة الأنثوية الفرنسية - الاشتراكية الفرنسية «فورييه» [١٧٧٢- ١٨٣٧م] قد دعا إلى تحرير المرأة على كل الأصعدة: البيتى.. والمهنى.. والمدنى.. والجنسى، وقال: «إن العائلة تكاد تشكل سداً فى وجه التقدم!».
- وفيلسوف هذه النزعة هو «ماركيوز - هيرت» [١٨٩٨-١٩٧٩م] قد جعل من أسس «نظريته النقدية»: التأكيد على انعتاق الغرائز الجنسية وإطلاق الحرية الجنسية بلا حدود، سواءً من ناحية الكم أو الكيف، أى حتى حرية الشذوذ.. بل وتمجيده، باعتباره ثورة وتمرداً ضد قمع الجنس، وضد مؤسسات القمع الجنسى.. معتبراً التحرر الجنسى عنصراً مكماً ومتمماً لعملية التحرر الاجتماعى.. ورافضاً ربط الجنس بالتناسل والإنجاب!

• كما رفضت هذه النزعة ربط الممارسة الجنسية بالأخلاق، فقال «فوكو - ميشيل» [١٩٢٦ - ١٩٨٤م]: «لماذا يجعل السلوك الجنسي مسألة أخلاقية، ومسألة أخلاقية مهمة؟!».

• أما فيلسوفة هذه النزعة الأنثوية - الكاتبة الوجودية - «سيمون دي بوفوار» [١٩٠٨-١٩٨٦م] فقد اعتبرت «الزواج السجن الأبدى للمرأة، يقطع آمالها وأحلامها!»، واعتبرت «مؤسسة الزواج مؤسسة لقهر المرأة، يجب هدمها وإلغاؤها!»، وأنكرت أى تمييز طبيعي للمرأة عن الرجل، فلا يولد المرء امرأة، بل يصير كذلك، وسلوك المرأة لا تفرضه عليها هرموناتها ولا تكوين دماغها بل هو نتيجة لوضعها!».

وجعلت من الدين ومن الألوهية عدوًا لهذه الفلسفة الأنثوية «فالدين - برأيها - كان محايدًا عندما لم يكن للآلهة جنس، ثم انحاز الدين للمرأة عندما أصبحت الآلهة إناثًا، ثم تحوّل إلى عدو للمرأة بسبب التفسيرات الذكورية للدين.

ولقد نجحت هذه الحركات الأنثوية الغربية فى الضغط على المؤسسات الدينية الغربية - تلك التى خانت رسالتها - حتى أصدرت فى سنة ١٩٩٤م طبعة جديدة من العهدين القديم والجديد، سميت «الطبعة المصححة» تم فيها تغيير المصطلحات والضمائر المذكورة، وتحويلها إلى ضمائر محايدة!..

ولقد تبلورت لهذه النزعة الأنثوية المتطرفة معالم فلسفتها التى تقرر:

«أن المرأة مالكة لجسدها.. وحرّة فيه، تتصرف فيه جنسيًا مع من تشاء، ووفق ما تشاء».. بما فى ذلك حرية التصرف فى الجنين - بالإجهاض - لأنه جزء من جسدها.. فالتعبير الحر عن الجنس هو جزء من الحرية، حتى لو اتخذ شكل الشذوذ السحاقي.. وحتى لو اتخذ شكل احتراف البغاء، طالما خلا هذا الاحتراف للبغاء من الاستغلال التجاري!..

كما تقرر هذه الفلسفة «أن الغيرة عاطفة برجوازية ينبغى التخلص منها» و«أن الحياء مرض يجب العلاج منه»!.. و«أن العفة تخلف وكبت للحرية الجنسية».. ولا بد من تجريد الحب من أية ضوابط.. باستثناء العاطفة والشهوة!..

ورأت هذه الفلسفة فى «الأمومة: قوالب جامدة وجائرة، لأنها لا تحقق للمرأة

عائداً مادياً!!.. ورأت في «الإنجاب» عبودية للمرأة.. تسميها «سيمون دي بوفوار» «عبودية التناسل»!!..

ودعت هذه الفلسفة الأنثوية إلى «حرية الاقتران وحرية الافتراق في أى لحظة، وذلك بين أى فردين مثلين أو مختلفين!!.. وإلى جعل «تربية الأطفال مسئولية الدولة والمجتمع، لا المرأة والأسرة!!.. ووصلت هذه النزعة إلى الحد الذى قامت فيه منظمة أنثوية أمريكية اسمها: «حركة تقطيع أوصال الرجال».

* * *

وإذا كانت هذه الفلسفات والأفكار والدعاوى قد بلغت في الإغراب الشاذ والشذوذ الغريب هذا الحد الذى رأيناه.. فإن الأمر الأكثر شذوذاً وإغراباً، هو السيطرة والانتشار اللذين حققتهما هذه النزعة الأنثوية المتطرفة فى المجتمعات الغربية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين.

فـ٦٠٪ من أعضاء المنظمات الأنثوية فى أمريكا سُحقيات!!.. وهذه المنظمات الأمريكية - وأمثالها فى الغرب - هى المسيطرة على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، ومن خلالها فرضت وتفرض شذوذها الفكرى والسلوكى على العالم أجمع، من خلال المواثيق «الدولية» التى تُعوّل تحت علم مؤتمرات المنظمة الدولية.. من وثيقة مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤ م.. إلى وثيقة مؤتمر بكين سنة ١٩٩٥ م.. إلى وثيقة مؤتمر المرأة سنة ٢٠٠٠ م.. إلى وثيقة الطفل.. ووثيقة إلغاء جميع أشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW).

وكما تقول الأستاذة الأمريكية «كاثرين فورث»: «إن المواثيق والاتفاقات الدولية التى تخص المرأة والأسرة والسكان.. تصاغ الآن فى وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: «الأنثوية المتطرفة»، و«أعداء الإنجاب والسكان»، و«الشاذون والشاذات جنسياً».. وإن لجنة المرأة فى الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيداً، وأن الحرية الشخصية لا بد أن تكون مطلقة.. ولقد انعكس هذا المفهوم «للحرية» فى المواثيق التى صدرت عن هذه اللجنة. فالتوقيع على اتفاقية الـ (CEDAW) يجعل معارضة الشذوذ الجنسى حتى ولو برسم كاريكاتورى عملاً يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، لكون هذه المعارضة معارضة لحقوق الإنسان».

تحرير المرأة بين العقل والجنون

وبعبارة الأستاذ الأمريكي «ريتشارد ويلكنز»: «فإنه بموجب اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل، فإن للأطفال حرية التعبير، وحرية التعبير الجنسي.. ولذلك فمن ينكر حق الطفل في ممارسة الجنس مع الكبار لا ينتهك حقوق الأطفال فحسب، بل ينتهك حقوق الكبار أيضًا!.. ولقد أصبح الاعتراف القانوني بحرية الشذوذ الجنسي شرطاً من شروط الدخول إلى الاتحاد الأوروبي.. وهو ضمن الشروط المطلوب من تركيا المسلمة تحقيقها!».

ولقد سارت مظاهرات في عواصم الغرب تندد بمصر لمحاكمتها بعض الشواذ.. وطالبت برلمانات عدة في تلك العواصم - وخاصة في أمريكا وألمانيا - بقطع المعونات عن مصر بسبب ذلك الموقف من الشذوذ والشواذ!..

ووفق هذه المواثيق التي فرضتها هذه الحركات الأنثوية المتطرفة على العالم، أصبح من حق المراهقين والمراهقات ممارسة الشذوذ الجنسي والإتيان بالرفقاء والرفيقات إلى المخادع، تحت سمع وبصر الوالدين.. ومن يعترض يمكن محاكمته قانونياً في البلاد التي صدقت على اتفاقية الـ(CEDAW)!!

فنحن أمام دين جديد لقوم لوط الجدد!.. وكما يقول البروفيسر الأمريكي «ويلكنز»: «فإن المجتمع الغربي قد دخل دوامة الموت، ويريد أن يجرّ العالم وراءه...» وكأنما شعارهم يقول: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

(٢)

يعجب المرء ذو الثقافة الشرقية والتراث الفكري والحضاري الإسلامي، من هذا الانتشار الذي حققته الحركة الأنثوية المتطرفة في المجتمعات الغربية.. ومن شيوع هذا الجنون الانحلالي الذي بشرت به ودعت إليه هذه الحركة، حتى أن نسبة السحاقيات في (المنظمة الوطنية للنساء) بأمريكا - وهي كبرى المنظمات النسائية - تصل إلى ٦٠٪ من عضواتها!

ويتزايد عجب المثقف الشرقي من تحول هذه النزعة الشاذة - فكرياً وسلوكياً - إلى قسمة بارزة في مشروع الهيمنة الغربية على العالم، فحرية الشذوذ عُدت جزءاً أصيلاً من المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان، يفرضها الغرب على العالم.. والحرية الجنسية عُدت كذلك جزءاً من حق الإنسان في الحرية.

بل إن السحاقات قد سيطرن على لجنة المرأة في الأمم المتحدة، وبدأت مرحلة عولمة هذه الفلسفة الفوضوية الشاذة في مواثيق دولية، يفرضها مشروع الهيمنة الغربية على العالم، ويقوم بعولمتها تحت علم الأمم المتحدة.. ويكفى أن نشير إلى أن الوفود النسائية الغربية إلى المؤتمر الدولي للسكان - الذي انعقد بالقاهرة ١٩٩٤م - قد ضمت جمهوراً من الشاذين والشاذات، الذين جاءوا للتظاهر في شوارع القاهرة الإسلامية، للدعوة إلى حرية الشذوذ، ولم يمنع تظاهريهم إلا الخوف على حياتهم من جمهور المسلمين المصريين!

وإذا كانت هذه الوفود الأثوية المتطرفة قد مُنعت من التظاهر في شوارع القاهرة، فلقد نجحت في أن تضمن الوثيقة الصادرة عن المؤتمر الكثير من معالم هذه النزعة الشاذة في مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان.

فدعت هذه الوثيقة - بإلحاح - إلى «تغيير هياكل الأسرة».. أي إلى مصادمة الفطرة التي فطر الله البشر عليها، والتي اجتمعت عليها الديانات - السماوية والوضعية - وكل الثقافات والحضارات.. وذلك حتى تُقنن «لأسر الشاذين والشاذات»، و«أسر الالتقاء الحر بين الأفراد»!.. وجاء في هذه الوثيقة: «والحكومات والمنظمات الحكومية الدولية والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية مدعوة «بالإلحاح» - (لاحظ بالإلحاح) - إلى إعطاء «أولوية» - (لاحظ أولوية) - للبحوث الحيوية - (لاحظ الحيوية) - المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية»!..

وبدلاً من الجنس الشرعي والمشروع والحلال، دعت هذه الوثيقة إلى تقنين الحرية الجنسية المسئولة، كحق من حقوق الجسد، يتمتع بها كل الناشطين جنسياً من كل الأجناس والأعمار، ذكراً وإناً، حتى البنات والمراهقين والمراهقات!.. «فالصحة التناسلية - التي هي حالة من الرفاهية الجنسية المأمونة - هي حقٌ لجميع الأفراد» (لاحظ «الأفراد» وليس «الأزواج»).. و«ينبغي أن تسعى جميع البلدان إلى

تحرير المرأة بين العقل والجنون

القيام بتوفير رعاية صحية تناسلية لجميع الأفراد، من جميع الأعمار.. للبنات.. والفتيات.. المراهقات - وتلبية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين؛ كي ما يتمكنوا من التعامل مع نشاطهم الجنسي بطريقة إيجابية ومسئولة.. وينبغي أن تكون برامج الرعاية الصحية التناسلية والجنسية مصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتاة المراهقة.. وأن تصل إلى المراهقين والرجال والبنين والمراهقات، بدعم وإرشاد آبائهم.. ويجب أن توجه الخدمات بدقة، وعلى الخصوص نحو حاجات فرادى النساء والمراهقين.. فالمراهقون الناشطون جنسياً يحتاجون نوعاً خاصاً من المعلومات والمشورة والخدمات فيما يتعلق بتنظيم الأسرة - كما أن المراهقات اللاتي يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومجتمعهن المحلى خلال فترة الحمل ورعاية الطفولة المبكرة!».

فإلى جانب الأسرة - التي سميت تقليدية - والتي رأتها النزعة الأنثوية المتطرفة سجنًا للمرأة وقيداً على حريتها.. هناك «أشكال الاقتران الأخرى» التي دعت الوثيقة إلى إباحتها وتقنينها.. وهناك «الثورة الجنسية» التي رأت إباحة وتقنين النشاط الجنسي لكل الناشطين جنسياً، من كل الأعمار، بشرط أن يكون مسؤولاً - لا يفضى إلى الأمراض - وليس مهماً أن يكون شرعياً ومشروعاً!..

وإذا كان «الزنا المبكر» - للمراهقين والمراهقات - وحتى للأطفال - هو حق من حقوق الجسد الإنساني بنص هذه الوثيقة.. التي فاقت وتفوقت على قوم لوط!.. فلقد ذهبت في الشذوذ إلى الحد الذي جرّمت فيه «الزواج المبكر»!.. فقالت: «إن الهدف هو الحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة.. وعلى الحكومات أن تزيد السن الأدنى للزواج حيثما اقتضى الأمر.. ولا سيما بإتاحة بدائل تُغنى عن الزواج المبكر!»..

فالتحريم هو للزواج المبكر.. والبدائل لهذا الزواج المبكر هو النشاط الجنسي المسؤول لكل الناشطين جنسياً من كل الأعمار!

وعلى دَرْب مصادمة الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، والتي ارتضتها وسعدت بها الإنسانية عبر تاريخها، على اختلاف الديانات والثقافات والحضارات.. فطرة تكامل عمل المرأة والرجل في الأسرة والمجتمع.. ذهبت وثيقة مؤتمر السكان

إلى إدانة عمل المرأة فى الأسرة، لأنها «أنشطة اقتصادية غير مدفوعة الأجر تضطلع بها المرأة والأسرة»!.. وفى ذات الوقت دعت هذه الوثيقة «إلى اشتراك المرأة فى جميع جوانب الإنتاج، والعمالة، والأنشطة المدرة للدخل»!.. بل ودعت إلى دمج الرجل فى المنزل، ودمج المرأة فى المجتمع»، فقالت هذه الوثيقة: «ويتعين على الزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة الرجال الكاملة فى حياة الأسرة، بما فى ذلك تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلى.. وإدماج المرأة بشكل تام فى الحياة المجتمعية، مع تخفيفها من مسؤوليات العمل المنزلى»!..

* * *

نعم.. يعجب المرء ذو الثقافة الشرقية والتراث الفكرى والحضارى الإسلامى من سيطرة هذا الشذوذ الفكرى والسلوكى على المجتمعات الغربية - وهى مجتمعات زاخرة بالعاقرة والعقلاء والحكماء - ومن تمكن الحركات الأنثوية المتطرفة من بعث وتقنين «مذهب اللذة والشهوة»، والسعى إلى عولمته وفرضه على العالم، كجزء من حقوق الإنسان.

لكن.. يبدو - وهذا من باب التفسير لا التبرير - أن تراث الحضارة الغربية فى هذا الباب كان عوناً لهذه النزعة الأنثوية المتطرفة على الإغراق والإغراب فى هذا الميدان.. واختلاف هذا التراث الغربى فى مذهب اللذة - عن تراثنا الشرقى والإسلامى فى العفة - هو الذى يصيب العقل الشرقى والإسلامى بهذا القدر من الاستغراب والتعجب إزاء هذه الأفكار وهذا السلوك.

إن للغرب تراثاً قديماً فى مذهب اللذة والإباحية والشذوذ، عرف واشتهر منذ الفيلسوف اليونانى «أبيقور» [٣٤٣ - ٢٧٠ ق.م] الذى أعلن أن «الخير هو اللذيد.. وأى فعل يعتبر خيراً بمقدار ما يحقق لنا من لذة!».

ولقد أدرك جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] - بعبريته الإسلامية - أن التنوير الغربى وخاصة عند فلاسفته «فولتير» [١٦٩٤ - ١٧٨٨ م] و«روسو» [١٧١٢ - ١٧٧٨ م] هو بعثٌ جديد لمذهب اللذة الأبيقورى القديم، وإحياء للدهرية والإلحاد فى مواجهة الدين والإيمان.. فقال عن هذين الفيلسوفين التنويريين: «أنهما نبشا قبر أبيقور الكلبى، وأحيا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى،

وغرسا بذور الإباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى».

وهذا الذى بعثه وأحياه التنوير الوضعى المادى الغربى فى اللذة والإباحية - هو الذى رأيناه ونراه عند النزعة الأنثوية المتطرفة، التى صعدت موجتها المجنونة مع «ما بعد الحداثة» منذ ستينيات القرن العشرين.

وفى إطار التراث الغربى الحديث لمذهب اللذة والإباحية هذا، نقرأ قول الفيلسوف الإنجليزى «هوبز» [١٥٨٨ - ١٦٧٩م]: «إن ما يسعد الإنسان ويسره هو الخير، وإن ما يؤلمه هو الشر!..» ونقرأ قول «فوكو ميشيل» [١٩٢٦ - ١٩٨٤م] - وهو من فلاسفة ما بعد الحداثة -: «نستخلص الحقيقة من اللذة.. وتشكل اللذة غاية بذاتها، فهى لا تخضع لا للمتعة ولا للأخلاق ولا لأية حقيقة علمية!..» ونقرأ قول «أنجلز» [١٨٢٠ - ١٨٩٥م] - فيلسوف الشيوعية الجنسية والاقتصادية -: «إن الزواج والأسرة باقيا مدة تأجج الحب الجنىسى الفردى.. وحين يستنفد الميل استنفادًا كاملاً، أو حين يحل محله حب جديد مشوب بالعاطفة، يغدو الطلاق عملاً حسناً بالنسبة للطرفين، كما بالنسبة للمجتمع.. وإن الشيوعية سوف تحول العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية، لا تعنى أحداً سوى الأشخاص المرتبطين بها، ولا يكون من حق المجتمع أن يتدخل فيها، ويتحقق هذا التحول يوم يلغى النظام الشيوعى الملكية الفردية، ويشرع بتربية الأطفال تربية جماعية، فيقوض دعائم مؤسسة الزواج الحالية!».

ونقرأ فى إطار تراث اللذة والإباحية هذا - أيضاً - كلمات المفكر الألمانى «أجست بيبل» [١٨٤٠ - ١٩١٣م]: «إن إشباع الغريزة الجنسية مسألة شخصية تماماً، شأنها شأن إشباع أى غريزة أخرى، فلا أحد يحاسب عليها أمام الآخرين، ولا يملك قاض غير مفوض حق التدخل فيها، إن مسألة ما سأكله، وكيف سأشرب وأنام وألبس، هى من شئونى الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لمضاجعتى لشخص من الجنس الآخر».

ونقرأ كذلك كلمات «إيجور شافاريفتش» - التى تصف دور الاشتراكية والشيوعية الأوربية فى تحطيم الأسرة وفى الإباحية الجنسية: «إن العملية الاشتراكية إلزامية لتجانس المجتمع تهدف أصلاً لإفساد الأسرة وتحطيمها، ولن يكون ذلك بتدنيس

الحب الزيجي وتهشيم آحاديته (رجل واحد مع امرأة)، ومن هنا فإن الحركات الاشتراكية تسعى في مرحلة التبشير إلى التأكيد على حرية الجنس.. وهذه قمة التساوى أو المساواة!».

وإذا كانت فوضوية ما بعد الحداثة قد اقترنت بفوضوية الإباحة الجنسية، منذ ستينيات القرن العشرين، فإن لهذه الفوضوية تراثاً أوروبياً، نجده عند فلاسفة هذه النزعة ومنهم «باكونين» [١٨١٤ - ١٨٧٦ م] الذى قال: «إن الدين: جنون جماعى!.. وإن المسيحية: حانة سماوية للتخدير وأخذ المسكنات!».

هكذا وجدت النزعة الأنثوية المتطرفة لمذهبها فى اللذة والإباحية والشذوذ، تراثاً غربياً انطلقت منه على هذا الطريق، دونما قيود أو حدود.. والمصيبة الكبرى أنها تسعى لتعميم هذا البلاء على الحضارات ذات الموارىث المختلفة عن موارىث الغربيين!

(٣)

فى تفسير النزعة الصراعية، التى اتخذتها الحركة الأنثوية المتطرفة الغربية ضد الرجل، حتى لقد طمعت فى عالم بلا رجال! وأطلقت إحدى المنظمات على نفسها اسم «حركة تقطيع أوصال الرجال»! معتبرة الرجل مستعمراً للمرأة، يعاملها معاملة الأبيض الغربى للزنجية! إذا ذهبنا إلى تفسير هذه النزعة الصراعية المتطرفة - دون أى تبرير لها - فلا بد وأن نضع فى الحسبان تراث النزعة الصراعية التى ميزت الحضارة الغربية وفلسفاتها ونظرياتها الأساسية.

• ففلسفة السياسة عند «ماكيافيللى» [١٤٦٩ - ١٥٢٧ م] هى القوة.. والمجد للأقوياء المصارعين لتحقيق السلطة القوية.. والاحتقار للأخلاق المسيحية، لأنها أخلاق الضعفاء والعبيد..

• والفيلسوف الإنجليزى «هوبز» [١٥٨٨ - ١٦٧٩ م] هو صاحب شعار: «الإنسان ذئب الإنسان!».

• و«داروين» [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] هو الذى حول النزعة الصراعية إلى نظرية أراد

أن يبرهن بها على أن الحياة هي ثمرة للصراع الدائم بين الأحياء.. وأن البقاء في هذا الصراع هو للأقوى، لأن الأقوى هو الأصلح والأحق بالبقاء.

• و«هيجل» [١٧٧٠ - ١٨٣١م] الذي اعتبر - في الحداثة الغربية - أرسطو العصر - هو الذي جعل التاريخ حقاً تنسخ الواحدة فيه الأخرى، لينتهي هذا التاريخ عند الدولة القومية الأقوى!..

• و«ماركس» [١٨١٨ - ١٨٨٣م] هو الذي نقل هذه النزعة الصراعية من عالم الأحياء إلى الاجتماع، فرأى أن المطلق هو التناقض والصراع بين الطبقات.. وأن هذا التناقض والصراع هو سر التقدم والمحرك للتاريخ.

ولقد استمرت هذه النزعة الصراعية، مكوّناً أساسياً في النظريات الغربية، وفي الممارسات الإمبريالية الغربية مع الشعوب التي ابتليت بالاستعمار الغربي، حتى لقد رأى الرجل الأبيض الغربي في صراعه ضد الشعوب غير الغربية وثقافتها وموارثها الحضارية ومنظوماتها القيمية رسالة حضارية تمدينية، يطبق بها الرجل الأبيض «القانون العلمي» في الصراع..

وهو ذات الفكر الذي نراه اليوم عند «صموئيل هنتجتون» في (صدام الحضارات)، وعند «فوكوياما» في (نهاية التاريخ).. وهو ذاته الفكر الصراعى الذى تبنته الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة ضد عموم الرجال.. فهو - إذن - التراث الغربى فى النزعة الصراعية، الذى انطلقت منه هذه الحركة الأنثوية المتطرفة.

* * *

وفى تفسير هذا الغلو الذى سلكت طريقه هذه الحركة الأنثوية الغربية، عندما لم تقنع بتحرير المرأة وإنصافها فطمعت فى عالم تنفرد به المرأة، وتتمكن من التمرکز فيه حول ذاتها، مطلقة عنان الفوضوية لمفهومها عن حرية المرأة - فى تفسير هذا الغلو - دون تبريره - لا بد أن نرى هذا الغلو الأثوى فى سياق نزعات الغلو التى تميزت بها المسيرة الحضارية الغربية.. فالغلو الكهنوتى، الذى جعل الدنيا والدولة وسائر العلوم ديناً خالصاً، لها ثبات الدين وقداسته.. هو الذى أثمر رد فعله، الموازى والمساوى له.. أثمر الغلو العلمانى، الذى جعل الإنسان سيّداً للكون، بدلاً من الله.. وأضفى على العقل الإنسانى الإطلاق، بدلاً من الدين واللاهوت، وذلك عندما رفع

شعار: «لا سلطان على العقل إلا العقل!..» وعزل السماء عن الأرض، بالعلمانية التي رفضت أى تدبير سماوى أو برعاية إلهية - للدولة والسياسة والاجتماع، بل وللقيم والأخلاق أيضًا!..

فنحن - فى المسيرة الحضارية الغربية - أمام نزعة للغلو، سارية فى العديد من النظريات، ومتخذة شكل الثنائيات المتناقضة والمتصارعة: «العقل والنقل.. الفرد والمجموع.. «الذات والآخر».. «الدين والدولة».. الدنيا والآخرة.. عالم الغيب وعالم الشهادة.. «المادية والروحانية».. دونما وسطية جامعة، تجمع عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة لتكوّن موقفًا ثالثًا متميزًا لكنه ليس مغايرًا تمامًا لقطبى الظاهرة.

فلغلو التبعة الأنثوية المتطرفة أيضًا تراث فى الغلو الذى تميزت به مسيرة النظريات الفكرية فى النموذج الحضارى الغربى بوجه عام.

ويكفى فى هذا المقام أن نشير إلى نماذج من احتقار المرأة فى التراث الغربى، لنرى كيف كان غلو الحركة الأنثوية الغربية تطرفًا آخر، وجنوحًا إلى التمرکز حول الأنثى يواجه جنوحًا آخر فى احتقار الإناث!..

ففى التراث الفلسفى الغربى.. نقرأ «لسقراط» [٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م]: «للرجال السياسة وللنساء البيت»!.. ونعرف أن «أفلاطون» [٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م] كان مشجعًا للشذوذ الجنسى - الذى كان شائعًا فى المجتمع اليونانى - ويقال إنه كان شاذًا.. «وكان يأسف لأنه ابن امرأة!.. وظل يزدري أمه لأنها أنثى!.. وكان يرى أن الحب الحقيقى هو ما كان بين الرجل والرجل، ويرى الجمال المبهج فى الشبان»!.. ولقد دعا - فى جمهوريته - إلى «أن نساء محاربينا يجب أن يكن مشاعًا للجميع، فليس لواحدة منهن أن تقيم تحت سقف واحد مع رجل بعينه منهم، وليكن الأطفال أيضًا مشاعًا بحيث لا يعرف الأب ابنه ولا الابن أباه»!.. كما دعى إلى «تدريب النساء وهن عاريات تمامًا مع الرجال فى الحلبة».. وقال أيضًا: «على نساء الحراس أن يقفن عاريات، ما دمن سيكتسين برداء الفضيلة»!..

ونعرف - أيضًا - أن «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠] هو القائل: «إذا قصدت النساء فخذ السوط معك»!.. وأن «فرويد» [١٨٥٦ - ١٩٣٩ م] قد زعم «أن الرجل يمثل كامل

تحرير المرأة بين العقل والجنون

الإنسانية.. وأن المرأة، بما أنها ليست رجلاً، أو أنها رجل ناقص جسدياً - إذ لا قضيب لها - تعيش آسفة أن لا تكون رجلاً»!..

فهذا الغلو في احتقار المرأة - بالتراث الفلسفى الغربى قد أثمر غُلوا سلكت طريقه الحركات الأنثوية الغربية..

ومثل ذلك الغلو في احتقار المرأة ودونيتها، نجده في التراث الدينى الغربى..
فالخطيئة الأولى - التى حملت البشرية تبعات أوزارها هى فى هذا التراث - مسئولية المرأة وحدها!..

والحمل والولادة واشتياق المرأة لزوجها هى عقوبة أبدية للمرأة على ارتكابها للخطيئة الأولى!..

والزواج ليس مودة ورحمة، وإنما هو تسلط من الرجل على المرأة!.. هكذا جاء فى سفر التكوين - بالعهد القديم - فلقد سأل الرب آدم:

- «هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها؟»

- «فأجاب آدم: إنها المرأة التى جعلتها رفيقاً لى، هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة فأكلت».

- فقال الرب للمرأة: أكثر تكثيراً أو جاع مخاضك، فتنجبى بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك!..

وفى هذا التراث اليهودى، الذى أصبح مع المسيحية تراثاً للحضارة الغربية «اليهودية - المسيحية» - يصلى اليهودى كل صباح صلاة الشكر لله لأنه لم يخلقه عبداً ولا وثنياً ولا امرأة!.. وللرجل - فى هذا التراث - قتل أولاده وتقديمهم قرابين!.. وله بيع بناته إماء!.. وفى سفر الخروج: «إذا باع رجل ابنته أمة.. لا تخرج كما يخرج العبيد»!..

ولم يكن موقف التراث النصرانى للحضارة الغربية من المرأة بأفضل من التراث اليهودى.. ففى رسالة «بولس» الأولى إلى أهل «كورنثوس» ذلك أن الرجل عليه ألا يغطى رأسه، باعتباره صورة الله ومجده، أما المرأة فهى مجد الرجل، فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة،

بل المرأة وجدت لأجل الرجل، لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع».. (إصحاح ١١: ٧-١١).

وفى هذه الرسالة أيضًا: «لتصمت النساء فى الكنائس، فليس مسموحًا لهن أن يتكلمن، بل عليهن أن يكن خاضعات على حد ما تُوصى به الشريعة أيضًا، ولكن إذا رغبت فى تعلم شيء ما فلتسألن أزواجهن فى البيت، لأنه عار على المرأة أن تتكلم فى الجماعة».. (إصحاح ١٤: ٣٥).

وبسبب هذا الموقف المحتقر للمرأة، رفضت وترفض كل الكنيس اليهودية وجميع الكنائس النصرانية - ونحن فى القرن الواحد والعشرين - أن تحمل المرأة شرف الكهنوت، وولاية رجل الدين وحمل أمانة الدين وأسرار اللاهوت.. بينما حملت المرأة هذه الأمانة - فى الإسلام - منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام!!.. ولقد ظل هذا الموقف المحتقر للمرأة، فى التراث الدينى للحضارة الغربية، ثابتًا ومرعيًا..

فالقديس «بونا فتييرا» [١٢٢١ - ١٢٧٤ م] يقول: «إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم شاهدتم موجودًا بشريًا ولا موجودًا موحشًا، لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه. وإذا ما تكلمت فإن ما تسمعون هو فحيح الأفعى»!!..

أما القديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥ - ١٢٧٧ م] فهو القائل: «لا وجود فى الحقيقة إلا لجنس واحد، هو الجنس المذكر، وما المرأة إلا ذكر ناقص، ولا عجب إن كانت المرأة - وهى الكائن المعنوي والموسوم بميسم الغباء - قد سقطت فى التجربة - (الخطيئة الكبرى) - ولذلك يتعين عليها أن تظل تحت الوصاية»!!..

أما القديس «أغسطين» [٣٥٤ - ٤٣٠ م] فلقد دعا إلى: «إخضاع النساء للرجال كما يخضع العقل الضعيف للعقل الأقوى»!!..

فهل نجد غرابة فى غلو النزعة الأنثوية المتطرفة، عندما تركزت حول ذاتها، واحتقرت الرجل، وأعلنت عليه الحرب.. هل نجد غرابة فى رد الفعل المغالى هذا أمام هذا التراث الدينى للحضارة الغربية، ذلك الذى حمل كل هذا الازدراء والاحتقار والدونية تجاه الإناث، مطلق الإناث؟!..

لقد اكتفت الحداثة الغربية - منذ عصر التنوير فى القرن الثامن عشر - بتأويل هذا التراث الدينى «اليهودى النصرانى».. أما ما بعد الحداثة، فإنها لم تقنع بالتأويل، فتجاوزته إلى إعلان الحرب على هذا التراث - الذى رأته تُراثاً ذكورياً، لا بد أن يتحول عن ذكوريته - ولقد عاملت ما بعد الحداثة هذه المنظومة الدينية والقيمية والأخلاقية معاملةً لكل الأنساق الفكرية الحداثيّة، فاجتاحتها بالفوضوية والعدمية والتفكيك.

وفى إطار ما بعد الحداثة هذه كان غلو النزعة الأنثوية المتطرفة رد الفعل المغالى على الاحتقار والدونية تجاه المرأة فى تراث الحضارة الغربية، الفلسفى منه والدينى على حد سواء!..

(٤)

لم يكن موقف التراث الغربى، القانونى والسياسى، إزاء احتقار المرأة ودونيتها بأقل غلو من موقف التراث الفلسفى والدينى.. وفى هذا تفسير - وليس تبريراً - لغلو النزعة الأنثوية الغربية فى الرفض لكل هذه الموارد.

ففى القانون الرومانى الذى يمثل مع الفلسفة اليونانية كلاسيكيات النهضة الأوربية - كان الاحتقار للمرأة، وحذفها من الحياة، هما موقف هذا القانون.. فلم يكن للعبء ولا للمرأة أى كيان.. وكل الحقوق وجميع الشرف كانا وقفاً على الرجال السادة الملاك الأشراف من الرومان.. ومن عدا هؤلاء - وفيهم جميع النساء والعبيد والفقراء وسكان المستعمرات - هم برابرة وهمج، محرومون من كل الحقوق.. حتى حقوق تطبيق القانون الرومانى عليهم!

وحتى التراث السياسى والقانونى للثورة الفرنسية ١٧٨٩م لم يكن موقفه من المرأة بأحسن حالاً، ولا أقل احتقاراً لها من الموارد الغربية فى الفلسفة.. والدين.. والقانون..

ورغم إسهام المرأة الفرنسية فى هذه الثورة، فلقد أعدمت حكومة الثورة داعية حقوق النساء «مارى كوز» ١٧٩٣م.. وأغلقت جميع النوادى والجمعيات النسائية - بل وقررت الجمعية التأسيسية - التى ما زال المتغربون يتغزلون فيما أصدرت من

موثائق لحقوق الإنسان والمواطنة. أصدرت هذه الجمعية التأسيسية قرارًا يقول: «إن الأولاد، وفاقدى العقل، والقاصرين، والنساء، والمحكومين بعقوبات بدنية وشائنة، لن يكونوا مواطنين»!!..

لقد جردت هذه الثورة المرأة من حقوق المواطنة.. حتى شاع فى الفكر الاجتماعى والسياسى الغربى:

- «أن المرأة سوداء بالنسبة للرجل الأبيض»!!..

- «وأن النساء آخر مستعمرة للرجل»!!..

واستمر هذا الوضع المزرى والدونى للمرأة - بدرجات متفاوتة فى المجتمعات الغربية - حتى منتصف القرن العشرين.. ففى ١٩٠٣م كانت سيدة مصرية - نفيسة إسماعيل باشا حمدى مالكة لبعض الأسهم فى شركة قناة السويس - الفرنسية - فلما طلبت من الشركة بيع أسهمها، كان جواب الشركة أن هذا ليس من حقها، وإنما هو حق زوجها، لأن القانون الفرنسى - حتى ١٩٠٣م -، لم يكن يعترف بحق المرأة فى التصرف بأموالها!!.. ولما استفتت المرأة مفتى الديار المصرية يومئذ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] أفتى برأى الإسلام الذى قرر للمرأة ذمة مالية مستقلة وحرية فى التملك والاستثمار والإنفاق، مثلها مثل الرجل تمامًا، منذ ظهور الإسلام!!..

وظلت المرأة الأمريكية محرومة من الحقوق المدنية، وتُعامل مُعاملة الزوج، حتى أصدر الكونجرس الأمريكى إعلان الحقوق المدنية فى ١٩٦٤م!!.. وإلى ما قبل ١٩٢٠م كان الفكر السائد فى أمريكا يقول: «لأن المرأة والعبيد قد وهبوا أنفسهم لتوفير احتياجات الحياة، فقد تمتع رجل الأسرة بحرية الاشتغال بالسياسة»!!.. وحتى ستينيات القرن العشرين، وقبل سن الكونجرس الأمريكى لإعلان الحقوق المدنية ١٩٦٤م «لم تكن مسئولية المرأة الأمريكية عن تصرفاتها تزيد على مسئولية الأطفال والحمقى والمجانين»!!..

بل وحتى اليوم فإن ٢٥٪ من نساء أمريكا ما زلن يتقاضين أجورًا أقل من الرجال عن العمل المتساوى، فى ذات الموقع، وبذات المؤهلات!!.. ونسبة النساء المحرومات من تكافؤ الفرص فى الحصول على العمل هى ضعف نسبتها فى الرجال!!.. ولم

تحرير المرأة بين العقل والجنون

يدخل مجلس الشيوخ الأمريكي سوى امرأة واحدة!.. أما مجلس النواب فلم تزد عضواته عن إحدى عشرة امرأة!.. ومن بين ٦٧٥ قاضياً فيدرالياً ليس هناك سوى ٨ قاضيات!..

فهل يستطيع منصف أن ينكر دور احتقار التراث الغربى للمرأة - الفلسفى منه.. والدينى والقانونى والسياسى وغلو هذا التراث فى هذا الاحتقار برد الفعل العنيف فى غلوه، ذلك الذى اتخذته الحركة الأنثوية فى الغرب تجاه الرجل.. والدين.. والله.. واللغة.. والتراث.. والتاريخ.. والقيم.. والعادات والتقاليد والأعراف؟!.. إنها دوامة الغلو، فى الأفعال وفى ردود الأفعال، تلك التى حكمت موقف التراث الغربى من المرأة، وموقف المرأة من هذا التراث.. وهى الدوامة التى أثمرت - من بين ما أثمرت - حركة أنثوية - فى أمريكا - ٦٠٪ من أعضائها سحاقيات.. وجعلت هؤلاء السحاقيات يسيطرون على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، فيصغْنَ شذوذهن «دينًا» جديداً لقوم لوط الجدد، ثم يعملن على عولمة هذا «الدين» الشاذ والبائس فى أرجاء العالمين!..

لقد عرفت الحداثة الغربية الصيحات المنكرة التى زعمت «موت الإله».. و«موت الميتافيزيقا» (أى الغيب والدين).. ثم جاءت ما بعد الحداثة الغربية بالفوضوية والعدمية واللاأدرية، فزعمت «موت المؤلف».. و«موت الحقيقة».. و«موت المعنى».. و«موت التاريخ».. و«موت الأسرة».. و«موت العفة».. و«موت الحياة».. وأخيراً - فى النزعة الأنثوية المتطرفة - «موت الرجل».. بل لقد تحدث البعض - من الغربيين - عن «موت الغرب» - الذى أعلن كل هذا الوفيات!..

* * *

ولقد كان طبيعياً أن يثمر هذا الشذوذ الفكرى للحركات الأنثوية شذوذاً فى الممارسة والسلوك.. وكان طبيعياً لكل ذلك أن يثمر الثمرات المرة والبائسة فى تلك المجتمعات.. وهى ثمرات تعبر عن الأرقام الصارخة، التى تنظر فى شذوذ واستغراب للقلّة من النساء الشرقيات اللاتى ما زلن يبشرن بالنموذج الغربى فى «تحرير» المرأة، وللقلّة المتغربة من مثقفينا الذين يتجاهلون الواقع الاجتماعى البائس لكثير من المجتمعات الغربية، فلا يتورعون عن الدعوة إلى «اللاحق بالغرب»، وإلى التبشير بالنموذج الغربى حلاً للمأزق الذى يعيش فيه العرب والمسلمون.

إن الثمرات المرة للشذوذ الفكرى وللثورة الجنسية التى قنتتها المجتمعات الغربية حقوقاً للإنسان، تجسدها الأرقام التى تقول:

- فى السويد: هناك ٩٥٪ من الجنسين عندهم تجارب جنسية قبل الزواج.. لا كمجرد نزوة أو خطأ.. وإنما كممارسة طبيعية ومعادية.. تبدأ منذ التلمذة فى المدارس، التى يتم فيها التدريب - نعم التدريب!.. على الممارسة الجنسية والنشاط الجنىسى.. والتى تقوم فيها صيدليات لتوزيع الواقى الذكرى وحبوب منع الحمل على التلاميذ والتلميذات.. وتتم فيها الرعاية للحوامل المراهقات!..

- وفى النمسا: أكثر من ٥٠٪ من حوادث الطلاق تتم بسبب العنف المنزلى!..
- وفى إنجلترا: أكثر من ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك.
- وفى ١٩٩٢ ارتفع العنف المنزلى ٤٦٪.. وبلغت نسبة النساء اللاتى يتعرضن لضرب الزوج أو الشريك ٢٥٪ من النساء!.. وفى ١٩٨١ م كانت نسبة النساء اللاتى يعشن مع رجل دون رباط رسمى ٨٪.. فارتفعت هذه النسبة ١٩٨٨ إلى ٢٠٪.. وكانت نسبة العائلات المنفردة.. أى الأطفال الذين يعيشون مع عائل واحد ١٤٪ سنة ١٩٦١ م.. فارتفعت إلى ٢٧٪ سنة ١٩٩١ م.. وتشكل النساء ٩٠٪ من هذه العائلات المنفردة.. وفى ١٩٨٤ كانت نسبة طلب الزوجة للطلاق ٧١٪ من حالات الطلاق.. وعدد حالات الطلاق ١٦٠٠٠٠ حالة، بينما كان هذا العدد قبل خمسين عامًا ٧٠٠٠ حالة فقط - أى بزيادة ثلاثة وعشرين ضعفًا!.. وتراجعت نسبة الزواج ١٦٪.. وأصبحت نسبة الأطفال غير الشرعيين ثلث أطفال إنجلترا.. وهم فى ايسلندا ٥٧٪ من الأطفال!..
- وفى الدانمارك: كانت نسبة المواليد غير الشرعيين ٥٪ سنة ١٩٦٠ م.. فارتفعت إلى ١١٪ سنة ١٩٧٠.. ثم إلى ٣٣٪ سنة ١٩٨٠ م.. ثم ٤٦٪ سنة ١٩٩٠ م.. وقريب من هذه النسبة فى الدول السبع الغنية فى أوروبا - فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وأيرلندا.
- وفى ثلاث دول أوروبية فقط - هى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا - ٢٥ مليون امرأة تعيش وحيدة، إما لعدم الزواج، أو بسبب الطلاق والتفكك الأسرى..

تحرير المرأة بين العقل والجنون

- وفى بنجلاديش والبرازيل وكندا وكينيا وبابوا وغينيا الجديدة وتايلاند، تمثل جرائم قتل الشريك لشريكته أكثر من نصف جرائم القتل ضد النساء!..
- وفى الفلبين وسريلانكا وتايلاند نصف مليون طفلة فى البغاء الرسمى فقط الرسمى للأطفال!..
- والإنفاق العالمى سنة ١٩٩٩م على تجارة الدعارة يبلغ ٢٠ تريليون دولار.. وهذه هى التجارة العالمية الثالثة، بعد تجارة السلاح.. وتجارة المخدرات!..
- وفى هذا العالم ٦ ملايين امرأة تحاول الإجهاض كل عام.. وهو ما يعنى قتل ٦٠ مليون طفل سنوياً!.. حتى لكأن حرب الإباحة الجنسية التى أعلنتها الحركات الأنثوية المتطرفة قد فافت فى ضحاياها كل الحروب العالمية!.. ومع إباحة الإجهاض فى روسيا سنة ١٩٢٠م.. وفى إنجلترا سنة ١٩٦٧.. وفى كندا سنة ١٩٦٩م.. وفى أمريكا سنة ١٩٧٣م، فلقد استمرت نسبة المواليد غير الشرعيين فى الازدياد!..
- أما أمريكا التى تريد عولمة نموذجها القيمى، وفرض طريقتها فى الحياة على العالمين، فإن ٨٠٪ من نسائها قد فقدن البكارة قبل الزواج.. وفى سنة ١٩٨٤م حدث ٢٩٢٨ حادثة قتل على يد أحد أفراد العائلة.. وثلاث القتيلات قتلن على يد الزوج أو الشريك.. وأكثر من مليون امرأة سنوياً تبلغ باعتهاء زوجها أو شريكها عليها.. و ٩١٪ من الاعتداءات لا تبلغ للشرطة.. وتقتل يومياً أربع نساء بسبب الضرب المبرح بالمنزل.. ومن ٢ إلى ٤ مليون امرأة تعرضن للاعتداء عليهن سنوياً.. ٥, ١ مليون زيارة للطبيب تتم سنوياً بسبب اعتداء الزوج.. وفى سنة ١٩٩٣م كانت تغتصب امرأة كل دقيقة، وغالب الضحايا فى سن تقل عن ١٧ سنة.. وفى أمريكا أعلى نسبة طلاق فى العالم.. ونصف عدد الزيجات ينتهى بالطلاق.. ولقد نشرت مجلة (يو. إس. نيوز) فى أغسطس سنة ١٩٩٤م دراسة عن مكتب الإحصاء تقول إن ٢٧٪ من أطفال أمريكا - ١٨ مليون طفل - يعيشون مع أحد الوالدين - بعد تفكك الأسرة - وهذا الرقم هو ضعف ما كان عليه سنة ١٩٧٠م.. وغالب هؤلاء الأطفال يعيشون على الإعانات الاجتماعية للدولة.. وهم الأكثر تعرضاً للفقر والحرمان.. والأكثر رسوباً فى المدارس..

و ٨٠٪ من جرائم القتل عائلية.. و ٤٨٪ منها مسرحها البيت.. ومن سنة ١٩٦٠م إلى ١٩٩٠م ارتفعت معدلات الجريمة ٥٠٠٪!.. وفى سنة ١٩٨٥م كان فى أمريكا نصف مليون مدمن هيروين، ومليون متعاطى مهلوسات.. و ٢٠ مليون متعاطى ماريجوانا أو كانابيس.. و ٦ ملايين مزور وصفات طبية للحصول على المخدرات.. و ٢٠ مليون متعاطى كوكايين بصورة منتظمة - ومجموعهم نحو ٤٧, ٥ مليون أمريكى، أى نحو ٢٠٪ من سكان أمريكا - وهناك ربع مليون مراهق يقتل سنوياً بسبب المخدرات.. وفى إحصاء سنة ١٩٨٥م فإن ثلثي طلبة الثانوية فى أمريكا يتعاطون أحد أنواع المخدرات.. و ٩٣٪ منهم يشربون الخمر.. وحوالى ٤٠٪ منهم يشربونها بإفراط!.. ولقد بلغ عائد الرأسمالية الأمريكية - التى يقولون إنها نهاية التاريخ بلغ عائدها من الاستغلال الجنسى لدعارة الأطفال - الأطفال فقط - مليارى دولار سنوياً!.. ومع كل هذه الإباحية فلقد تناقص عدد سكان أمريكا - بالنسبة للعالم من ٦٪ سنة ١٩٥٠م إلى ٥٪ سنة ١٩٨٨ إلى ٤٪ سنة ٢٠١٠م - كما هو متوقع!..

- أما فرنسا: فإن تقرير «المعهد الوطنى الفرنسى للأبحاث الديموجرافية» - ديسمبر ١٩٩٩م - يقول: إن كل عشرة أزواج يوجد تسعة منهم خارج الإطار الشرعى للزواج - أى بدون عقد كنسى أو مدنى أو حتى عرفى وأن ٥٣٪ من الأمهات الفرنسيات يضعن مولودهن الأول خارج مؤسسة الزواج.. وربع هؤلاء المواليد يفقدون الأب مدى الحياة.. وهذه النسبة فى زيادة مطردة، فلقد كانت ٦٪ سنة ١٩٦٧م.. ووصلت إلى ٢٠٪ سنة ١٩٨٥م.. وتجاوزت ٤٠٪ سنة ١٩٩٧.

فهل بعد هذا الجنون الفكرى والأخلاقى للحركات الأنثوية الغربية.. وهذه الثمرات الاجتماعية المرة والمدمرة، يجوز لنفر من المتغربين والمتغربات فى بلادنا الدعوة إلى اتخاذ ذلك النموذج الغربى فى «تحرير» المرأة قدوة لنا نحن العرب والمسلمين؟.. والدعوة إلى اللحاق بالغرب فى هذا الميدان؟!.. أى الدعوة إلى السقوط فى هذا المستنقع الذى تجاوز أصحابه ما ذهب إليه القدماء من قوم لوط.. أولئك الذين استحقوا سخط الله وغضبه، فأنزل عليهم ما أنزل من العذاب!.. وهل هذا هو «التقدم».. وهذه هى «التقدمية» التى يدعوننا إليها هؤلاء المتغربون البؤساء؟!..

لو أن الأفكار والفلسفات والممارسات الشاذة للحركات الأنثوية الغربية، والتي تدعو إلى التمرکز حول الأنثى، والطمع في استقلال المرأة عن عالم الرجال، حتى ولو بالشذوذ السحاقى.. واعتبار المعركة ضد الرجل.. ومحاربة الزواج الشرعى، والأسرة والإنجاب.. والثورة على الله.. والدين.. واللغة.. والتاريخ.. والفطرة.. والأعراف..

لو أن هذه الأفكار والفلسفات والممارسات كانت وقفاً على المؤمنين والمؤمنات بها، والداعين والداعيات إليها - فى الغرب - لما استحققت منا كثير اهتمام.. بل لو أن هذه الأفكار والفلسفات الشاذة كانت مذهباً للحضارة الغربية، لقلنا: إن هذا هو حقهم فى الاختيار وفى الاختلاف.. ولكل وجهة هو موليتها.. وليس فى جهنم أزمة إسكان!..

لكن الذى يفرض علينا الاهتمام بهذا الشذوذ الفكرى، الذى وضح فى الممارسة والتطبيق، هو أن الغرب، كحضارة مهيمنة، يفرض علينا - نحن المسلمين والشرقين - وعلى كل العالم جنون هذه الأفكار والفلسفات - وذلك عندما يعولمها، ويضع عليها أختام وشعارات وأعلام الأمم المتحدة - التى يسيطر عليها.. والتى استولت الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة على لجنة المرأة فيها ونجحت فى صياغة هذا الشذوذ «وثائق دولية» منذ مؤتمر السكان ١٩٩٤م وحتى اتفاقية CEDAW ووثيقة حقوق الطفل.. فغدى هذا العوج الفكرى والشذوذ السلوكى جزءاً من المنظومة الغربية التى يراد فرضها - بالعولمة - على العالمين..

ومن نافذة التغريب، الذى نجح فى تحويل نفر من مثقفينا إلى «صنابير» يسيل منها كل ما هو غربى، بدأ التبشير فى بلادنا بهذا الشذوذ الفكرى فى الحركة النسوية الشرقية - العربية والإسلامية.

- فالكاتبة المغربية «فاطمة المرينسى» - التى تعيش فى باريس وتكتب بالفرنسية - تقول: «لقد قدس الزواج الإسلامى هيمنة الرجل المطلقة»!..
- والكاتب السورى «محمد شحرور» يرى أن عورة المرأة هى فقط - ما بين الإلية

وما تحت الإبطين والثديين، وما عدا هذه «الجيوب» من جسد المرأة لا عورة فيه، ولا جناح في عرضه على الكافة!..

- والكاتب الفلسطيني «هشام شرابي» - الذى أصبح أمريكياً، يكتب بالإنجليزية - يدعو «إلى ترجمة القرآن للغة العامية ليحصل له ما حصل للكتاب المقدس فى المناخ الأوروبي!..»، كما يدعو إلى تعميم «الأتاتوركية» فى العالم الإسلامى لاستئصال التقاليد الإسلامية!..

- والكاتب المصرى المرموق «أحمد بهاء الدين» يدعو إلى ربط الأخلاق بالضمير، بدلاً من الإسلام.. وإلى تاريخية الشريعة الإسلامية، باعتبارها «شريعة البداوة»، التى لا تصلح للمجتمعات المتحضرة، فيقول: «لا بد من مواجهة الدعوات الإسلامية فى أيامنا مواجهة شجاعة، بعيداً عن اللف والدوران. إن الإسلام كغيره من الأديان، يتضمن قيماً خلقية يمكن أن تستمد كنوع من وازع الضمير، أما ما جاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية، فقد كانت من قبيل ضرب المثل، ومن باب تنظيم حياة فى مجتمع بدائى إلى حد كبير، ومن ثم فهى لا تلزم عصرنا ومجتمعنا!..»

- أما الأدبية المصرية «د. نوال السعداوى»، فلقد ذهبت إلى حد القول.. «شعرت أن الله تحيز للصبيان فى كل شىء!..»

ولم يقف زحف هذا الشذوذ الفكرى عند قطاعات النخبة المتغربة.. وإنما ذهبت العولمة إلى استخدام التمويل لمئات المنظمات التى تسمى «منظمات المجتمع المدنى» التى تبشر بهذا العوج الفكرى، والتى يحدد لها الغرب جدول أعمالها فى الميزانيات التى تمول تنفيذ جدول الأعمال هذا..

ولمعرفة حجم هذا الاختراق، يكفى أن نعلم حالة المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧م من فلسطين.. ففيها ١٢٠٠ منظمة غير حكومية، تلقت سنة ١٩٩٧م معونات قدرها ٩, ٦٨ مليون دولار، من أصل إجمالى المعونات المقدمة لفلسطين والبالغة ١٥٢٧ مليون دولار، أى أن هذه المنظمات - العاملة فى خدمة الأجندة الاجتماعية الغربية - قد حصلت على ٥٪ من المعونات، بينما لم تحصل الزراعة والصناعة الفلسطينية إلا على ٢٤ مليون دولار، أى ٢, ١٪ من المعونات!..

تحرير المرأة بين العقل والجنون

وعن رسالة هذه المنظمات، تقول الباحثة الفلسطينية «خلود المصري»: «إن الأطر النسوية المدعومة لا تخرج في وضع أولوياتها عن الالتزام بأولويات وثقافة الجهات المانحة لها، من أجل استمرار الدعم المالي فحسب، وهى بالضرورة تختلف عن أولويات مجتمعنا الفلسطيني»..

ويكفى أن نشير إلى أن هذه المنظمات «التي تضرب بسيوف الممولين»!.. قد أقامت الدنيا ولم تقعد لها حول موضوع «ختان الإناث» - الذى هو عادة قديمة منذ الفراعنة، وليس تشريعاً دينياً.. والذى تقل ممارسته بالتطور الاجتماعى والتعليمى فى الوقت الذى سكنت فيه هذه المنظمات «النسائية» عن الاغتصاب المنظم الذى مارسه الصرب ضد أكثر من ستين ألف امرأة بوسنية، تحت سمع وبصر الممولين الغربيين!.. فضلاً عن الصمت القاتل لهذه المنظمات إزاء ما يحدث للمرأة الفلسطينية بواسطة الوحشية «الصهيونية - الأمريكية»!..

* * *

إن أحداً لا يطلب إغلاق المنافذ الفكرية التى يأتى منها الوافد الغربى، حتى ولو كان هذا الوافد شاذاً - كأفكار الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة - لكننا ندعو، عند تبنى الأفكار الوافدة، إلى النظر فى سياقها وملابساتها والموراث الفكرية والدينية والقانونية والسياسية التى أثمرتها، لندرك هل هى «مشارك إنسانى عام» نفتح له عقولنا ومجتمعنا؟..

أم أنها ردود فعل مغالية لفعل مغالى فى احتقار المرأة ودونيتها؟..

لقد ثارت الحركة الأنثوية الغربية ضد الدين - فى اليهودية والنصرانية - الذى حمل المرأة وحدها وزر الخطيئة الأولى الذى جعل زواجها واشتياقها لزوجها وحملها وولادتها عقوبة لها على هذه الخطيئة، إلى غير ذلك من الأفكار التى حملت الكثير من التمييز ضد المرأة إلى حد الدونية والاحتقار.. فإذا جاز تفسير أو حتى تبرير ثورة الحركة الأنثوية الغربية ضد موروثةا الدينى باعتباره رد فعل مغالى ضد تراث مغالى فى احتقارها كامرأة.. فهل يجوز لعاقل أن يأخذ هذه العهدة الغربية والنتيجة الغربية - وهى خصوصية غربية - ليغرسها فى سياق إسلامى، موارثه الدينية والحضارية مغايرة تماماً - بل مناقضة - لهذه الموارث الغربية؟!..

لقد حملت اليهودية المرأة كل أوزار الخطيئة الأولى، وبرأت آدم منها.. وذلك عندما سأل الرب آدم - كما جاء في سفر التكوين:

- «هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟»

- «فأجاب آدم: إنها المرأة التي جعلتها رفيقاً لي، هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة فأكلت».

- فقال الرب للمرأة: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك، فتنجبي بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك»!..

فإذا جاءت الحركة الأنثوية الغربية لتثور على هذا التراث الديني، الذي كتب عليها اللعنة.. ولتثور على الزواج والإنجاب، اللذين تحدث عنهما هذا التراث كعقاب!.. فهل يجوز لأي منا أن يردد هذه المقولات كالبيغاوات، ويسير في طريق التقليد لهذه الموارد الغربية وردود أفعالها، كما يصنع القردة المحترفون للتقليد؟!..

إن القرآن الكريم قد أرسى دعائم المساواة بين آدم وحواء.. فهما مخلوقان من نفس واحدة.. ومتساويان.. في أهلية الخطاب الإلهي لهما وفي التكليف.. وفي وسوسة الشيطان لهما معاً.. وفي استجابتهما معاً لهذه الوسوسة الشيطانية.. وفي الفعل.. وفي نتيجة الفعل.. وفي المراجعة.. وفي العقاب.. وفي الأوبة والتوبة.. وفي القبول والغفران.. متساويان في كل ذلك، كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَيَكَادُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٩﴾ فوسوس لهما الشيطان لبدي لهما ما وري عنهما من سوء نيهما وقال ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿٢٠﴾ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴿٢١﴾ فدل لهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء نيهما وطفا فاحصان عليهما من ورق الجنة وناديهما ربهما ألم أنهماكما عن يلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿٢٢﴾ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿٢٣﴾ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتنع إلى حين ﴿٢٤﴾ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿٢٥﴾ [الأعراف: ١٩: ٢٥].

بل إن القرآن الكريم كأنه يحمل آدم قدراً أكبر من المسؤولية، فيقول: ﴿فَأَكَلَا

تحرير المرأة بين العقل والجنون

مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا وَكَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿ طه: ١٢١ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه: ١١٥]..

فهل هناك عقل لدى الذين يثورون على هذا القرآن تقليداً للذين ثاروا على العهد القديم؟!..

وإذا كانت النصرانية قد جعلت «الرجل صورة الله ومجده، أما المرأة فهي مجد الرجل. والرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل».. فإن القرآن الكريم قد قال: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فالذكور والإناث جميعاً من نفس واحدة.. وبعضهم من بعض.. ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١] ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧].. ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُوَلِّیْنَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَیْنِ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَیْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]..

وحتى (الدرجة) التى للرجال على النساء، فى الأسرة، وهى «القوامة» فإنها زيادة فى المسئولية، وليست استبداداً.. فالقوام هو دائم القيام.. وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] « فإن هذه القوامة تفرض على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء»!.. ثم إن هذه «القوامة»، التى هى القيادة والرعاية، للمرأة فيها نصيب كبير.. يشير إليه الحديث النبوي: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».. الرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» - رواه البخارى ومسلم - وصدق رسول الله ﷺ: «النساء شقائق الرجال» - رواه الترمذى والدارمى وأبو داود - فهل مع اختلاف موقف موروثنا الدينى من المرأة عن موقف الموروث الغربى منها، يجوز لعاقل بنى الدعوات الأثوية الغربية، وإعلان الحرب على الإسلام؟!..

بقى أن أقول - فى نهاية التقديم: إن الفضل فى كثير من الحقائق التى أشرت إليها فى صفحات هذا التقديم، إنما يعود إلى هذا الكتاب الذى أقدم بين يديه.. وإنى على يقين بأن القراء والباحثين سيجدون فيه عملاً فكرياً متميزاً تزهو به المكتبة العربية والإسلامية..

بارك الله فى صاحب هذا الجهد الفكرى المتميز، الباحث الواعد مثنى الكردستاني.. وبارك لنا فى هذه الثمرة الطيبة من ثمرات بحثه الجاد.. ووفقنا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه^(١).

دكتور/ محمد عمارة

القاهرة فى (٢٧ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ / ٢٧ يونية ٢٠٠٣م)

(١) انظر كتاب [حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر] لمثنى أمين الكردستاني. طبعة دار القلم - الكويت - القاهرة سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

الدكتور عبد الرزاق السنهورى

بطاقة حياة السنهورى باشا

الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ / ١٨٩٥ - ١٩٧١م].. هو أديب الفقهاء، وفقه الأدياء، وعميد فقهاء القانون المدنى فى العالم العربى .. وأحد أعظم القضاة فى القرن العشرين، وصاحب الأحكام التى انتصرت لحريات الأمة - عندما رأس مجلس الدولة - فى مصر إبان مرحلة الغليان السياسى والاجتماعى التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م.

وهو فوق كل ذلك: إمام الفقه الإسلامى، الذى جعل رسالة حياته العمل على تقنين الشريعة الإسلامية، وتجديد الفقه الإسلامى، لتعود الشريعة الإسلامية مصدر القانون الحديث، والرباط الموحد لشعوب الشرق فى الجامعة الشرقية وعصبة الأمم الإسلامية، التى هى الصورة العصرية للخلافة الإسلامية.

- ولد السنهورى بمدينة الإسكندرية فى ١٩ صفر سنة ١٣١٣هـ / ١١ أغسطس سنة ١٨٩٥م فى أسرة فقيرة، لوالد كان يعمل موظفًا صغيرًا «بمجلس بلدى الإسكندرية».. ولقد توفى والده سنة ١٩٠٠م - وهو فى السادسة من عمره - تاركًا سبعة من البنين والبنات..

- ولقد بدأ السنهورى تعليمه فى «الكتاب».. ثم انتقل إلى «مدرسة راتب باشا الابتدائية».. وبعد حصوله على شهادة الابتدائية التحق بمدرسة العباسية الثانوية - بالإسكندرية - ومنها حصل على شهادة الثانوية سنة ١٩١٣م، وكان متفوقًا طوال سنوات دراسته.. وجاء ترتيبه - فى الثانوية - الثانى على جميع طلاب مصر.

- وفى نفس العام (١٩١٣م) التحق السنهورى «بمدرسة الحقوق» بالقاهرة - مرحلة التعليم العالى الجامعى وكانت الدراسة فيها باللغة الإنجليزية.. وبسبب رقة حاله

الاجتماعية، وحتى يواصل دراسة الحقوق، جمع إلى الدراسة العمل موظفًا بمراقبة الحسابات في وزارة المالية، إلى أن تخرج في الحقوق، ونال درجة «الليسانس» سنة ١٩١٧م.. وكان ترتيبه الأول على جميع الطلاب.

- وإبان دراسته للحقوق، تفتحت ملكاته الأدبية، مواكبة ومعبرة عن مشاعره الوطنية والإسلامية.. هذه المشاعر التي تكونت في تيار الوطنية والجامعة الإسلامية - فتلك هي مدرسة الزعيم الوطني الإسلامي مصطفى كامل باشا [١٢٩١ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] التي تأثر بها السنهوري في مرحلة التكوين.. ولقد عبر عن هذه الحقيقة من حقائق تكوينه المبكر فقال: «إن الجيل الذي أنا منه تتلمذ في الوطنية لمصطفى كامل قبل أن يتلمذ لزغلول، وإنني مدين بشعوري الإسلامي لرجال آخرين غير هذين الرجلين، أذكر منهم الكواكبي وجاويش وفريد وجدي، أما عبده وجمال الدين فلم أحضرهما في حياتهما، وتركنا من الكتابة شيئًا قليلًا لم يمكنني من أن أتأثر بأفكارهما، ولكنهما تركا أبلغ الأثر في نفسي، ويعتبرهما العالم الإسلامي بحق أكبر المصلحين في العصر الحديث.

لقد قلت لصديق - وأنا في الخامسة عشرة -: «إن أملِي في الحياة قد تعيّن بين مصطفى كامل وسعد زغلول، والفرق بينهما: أن مصطفى كامل بدأ أن يكون وطنيًا فجاءت عظمته من الوطنية، أما سعد فبدأ أن يكون عظيمًا فجاءت وطنيته من العظمة..».

● وكان يقرض الشعر أحيانًا - وشعره جيد - ولقد عبر عن اهتماماته العامة بشؤون أمته وعن انتماؤه الإسلامي وهو طالب بمدرسة الحقوق سنة ١٩١٦ - فقال:

أأرضي أن أنام على فراشي

ونوم المسلمين على قتاد؟!

وأهناً في النعيم برغد عيش

وقومى شُتتوا في كل واد

فلا نعمت نفوس في صفاء

إذا نسيت نفوساً في الصفاد

- ولأن نفسه كبيرة، ومقاصده عظيمة، فلقد جعل من فقره ومعاناته الاجتماعية

حواضر للسير الحثيث على طريق العظمة والعظماء.. وعبر عن هذه الحقيقة من حقائق حياته فكتب يقول: «شئ يشترك فيه أكثر العظماء: حياة الشظف والفاقة التي عاشوا فيها أول حياتهم، فنفتحت في أخلاقهم روح الصلابة، وعودتهم مكافحة الشدة، فأذاقوا الحياة بأسهم بعد أن أذاقتهم بأسها».

- وتشهد مذكراته في سنوات الابتعاث - التي دونها في «أوراقه الشخصية» - على أن وطنه وأمه وإسلامه وتجديد الفقه الإسلامي وتقنين الشريعة الإسلامية، ونهضة الشرق بالإسلام، ونهضة الإسلام بالشرق كانت هي شغله الشاغل، والحلم الذي سهر على رسم معالم تحقيقه، جاعلاً منه رسالته في الحياة..

- وإذا كانت مصر قد ابتعثت ابنها عبد الرزاق السنهوري إلى فرنسا ليتخصص في القانون وينجز رسالة الدكتوراه، فإن الرجل العظيم قد أنجز في تلك السنوات الخمس أضعاف المطلوب والمأمول.. أنجز رسالة للدكتوراه في القانون - عن «القيود التعاقدية الواردة على حرية العمل» - بالفرنسية - من جامعة «ليون» - سنة ١٩٢٥م.. وأنجز رسالة للدكتوراه في العلوم الاقتصادية والسياسية.. وأنجز دبلوماً من معهد القانون الدولي بجامعة باريس.

ومع هذه الإنجازات العلمية، وتعبيراً عن الهم الإسلامي، الذي كان أكبر هموم حياته، تصدى - وهو الذي سقطت الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م إبان غربته عن وطنه.. وقرأ حملات التشويه لهذه الخلافة - عبر تاريخها في كتاب «الإسلام وأصول الحكم» - الصادر سنة ١٩٢٥م - للشيخ على عبد الرزاق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧-١٩٦٦م].. وشهد فرحة الغرب الأوروبي بتحطيم وعاء الوحدة الإسلامية ورمز الجامعة الإسلامية.. تصدى السنهوري لهذا الحدث الذي زلزل كيان الشرق والإسلام، فأنجز رسالة أخرى للدكتوراه - بالفرنسية - عن «الخلافة الإسلامية وتطورها، لتصبح هيئة أمم شرقية» - سنة ١٩٢٦م.

- وفي منتصف سنة ١٩٢٦م عاد السنهوري من باريس إلى وطنه مصر.. وعُين مدرساً للقانون المدني في كلية الحقوق بالجامعة المصرية..

- وبعد عام من عودته إلى مصر عقد قرانه في ٥ مايو سنة ١٩٢٧م.. وبني بزواجه في الشهر التالي في ٢ يونيو سنة ١٩٢٧م.. وسافرا في رحلة إلى أوروبا دامت ثمانية يوماً.

- وبدأ السنهورى فى مصر - منذ ذلك التاريخ مرحلة التأليف للكتب.. والتربية للشباب والرجال.. لا بالتدريس والفكر وحدهما، وإنما أيضًا بالمواقف ونماذج القدوة والسلوك.

بدأ التأليف فى: أصول القانون.. وعقد الإيجار.. ونظرية العقد.. كما بدأ التربية لطلابه على خلق الرجولة، فقال: «نصيحته إلى الطلبة هى: أن يتمسكوا بالرجولة، والمعنى الذى أقصده من الرجولة هنا هو أن تكون شجاعتهم مستمدة من نفوسهم. لا من الملابسات الخارجية، وإذا كنت أنصحهم بعدم الخنوع عند وقوع الظلم، فإنى لا أكون أقل نصحاء لهم بعدم التمرد عند إطلاق الحرية.. فالخنوع للظلم والتمرد على الحرية هما على قدر واحد من الدلالة على الضعف النفسى، فليطهروا أنفسهم من ضعف الخنوع ومن ضعف التمرد، حتى يكونوا رجالاً يدخرون فى أنفسهم قوة ذاتية تكون عدتهم فى التغلب على الصعاب».

- وواصل - فى حقل الفكر - الدعوة إلى تجديد الفقه الإسلامى، بتقنيته، وفتح باب الاجتهاد فيه، ومقارنته بالمنظومات الفقهية العالمية، ليستفيد من فنون صياغتها، وليفيدها بمبادئه ونظرياته وقواعده المتقدمة.. والدعوة إلى تكامل وشمول الإسلام للدين والدولة، مع تمييز الجانب العقدى فى الإسلام - الذى هو خاص بالمسلمين - عن الجانب المدنى لإسلام الحضارة والمدنية والثقافة والشريعة وفقه المعاملات - والذى هو الميراث الحلال للأمة والشرق بملله المتنوعة وأممه وشعوبه وقومياته المختلفة.. فالشرق هو الإسلام، والإسلام هو أساس الرابطة الشرقية.. فكتب عن الدين والدولة فى الإسلام.. وعن الرابطة الشرقية.. وكان العيد الخمسون للمحاكم الأهلية سنة ١٩٣٢م المناسبة لجهود فكرية كبيرة ومتميزة قدمها السنهورى فى الدعوة إلى العمل على إعادة الشريعة الإسلامية إلى عرش القانون والتشريع والقضاء من جديد.

- وفى هذه المرحلة من حياة السنهورى دخلت أحلامه فى تجديد الفقه الإسلامى، واستدعاء حاكمية الشريعة الإسلامية مرحلة النضج، عندما وضعت هذه الأحلام فى الممارسة الفكرية والعملية، فلم تعد مجرد أمنيات طيبة يتناها السنهورى الشاب.. وعن ذلك النضج لأحلامه، وهذه الواقعية التى صبغت أفكار شبابه.. كتب فى ذكرى عيد ميلاده الأربعين - ١١ أغسطس ١٩٣٥م - يقول: «أمضيت العشرين عامًا الأولى

من حياتى تلميذًا فى المدرسة، وأمضيت العشرين عامًا الثانية تلميذًا فى مدرسة الحياة، فهل كسبت من التجارب ما يكفى لخلق رداء التلمذة وخوض غمار الحياة؟ كنت من عشرة أعوام أجيّش بالعواطف المتدفقة، وأحب المجد والعظمة. كنت ممعناً فى أحلام الشباب، كنت أستمّد المجد من الخيال. أما اليوم، فعواطفى قاربت النضوب والجفاف، وقد هجرت الخيال إلى الحقيقة، وأصبحت لا أرى المجد إلا فى أن أكون نافعًا. نافعًا لنفسى، ونافعًا لأهلى، ونافعًا لبلدى، ونافعًا للناس..».

هكذا حمل السنهورى منذ فجر حياته - هموم أمته - وهكذا تحولت هذه الهموم - فى مرحلة الممارسة العملية - من نطاق الحلم والخيال والتخطيط على الأوراق إلى ميادين العمل والإبداع والإنجاز.. فى التربية.. والتدريس.. والتقنين والتشريع.. وفى المواقف الكبيرة التى تجسد القيم والأحلام، نماذج حية للأسوة والافتداء فى واقع الحياة.

- ولم تكن طريق الإصلاح - أمام السنهورى خالية من الأشواك والصعاب والعقبات.. ففى مرحلة الممارسة والتطبيق اصطدم بالعقبات، وكان عليه أن يقدم التضحيات.. ففى سنة ١٩٣٤م، وإبان توالى حكومات الأقلية - الموالية للقصر الملكى والاستعمار الإنجليزى حكومات الانقلاب على الدستور والقانون - أنشأ السنهورى «جمعية الشبان المصريين» - وكان قد كتب منذ سنة ١٩٣٢م عن الحركة الشبابية الداعية إلى «الرابعة الشرقية»، والتى كان فى طليعتها الشاب «فتحى رضوان» وصحبه.. فكان أن فصل السنهورى من الجامعة بسبب ذلك.. ثم أعيد إلى الجامعة ثانية.

- وفى المحيط الأسرى.. رزق السنهورى فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥م - بابنته «نادية» - الدكتورة نادية - التى أدرها الله لترعى تراثه، وتحى ذكره - والتى كانت عواطفه إزاءها تثير ملكاته الشعرية فيداعبها - شعرًا - وهى فى السادسة من عمرها - فيقول لها وعنها:

بنيتى	نادية	بنية	غالية
رأيتها	مرة	لاعبة	لاهيّة

ولها رفيقة عمرها ثمانية
سألته ما الفرق فى السن ينادية؟
فأجابت: أنا أصغر عامين عماهيه
قلت: إذن بعد عا مين أنما سواسية
فأجابت: وهل ترا ها على سنها باقية؟!

- وكان الشهر الذى ولدت فيه ابنته نادية - ديسمبر سنة ١٩٣٥ م - هو ذاته الذى سافر فيه إلى بغداد - بدعوة من الحكومة العراقية - بعد المعاهدة التى خُطت بالعراق نحو الاستقلال السياسى.. والتى فتحت الباب أمام العراقيين لتجديد وتحديث حياتهم القانونية والتشريعية والقضائية.. فدعوا الدكتور السنهورى ليقود - فى بغداد - هذا التجديد.

وفى العام الدراسى الذى أمضاه - السنهورى - ببغداد أنجز أعمالاً عظيمة، ما زالت راسخة حتى اليوم فى المجتمع العراقى، فلقد:

- أنشأ ببغداد كلية الحقوق.. وتولى عمادتها.

- ومجلة القضاء - التى أصدرها على أسس جديدة - وأسهم فى تحريرها.

- وبدأ خطة إعداد القانون المدنى العراقى الجديد، الذى ينظم الفوضى القانونية التى كانت سائدة هناك - فى العهدين العثمانى.. والاستعمارى الإنجليزى وهو العمل الذى خطط السنهورى لجعله خطوة متقدمة على القانون المدنى المصرى، تقترب أكثر فأكثر من هدفه فى أسلمة القانون فى كل أنحاء الوطن العربى.. فبدأ إنجاز هذا العمل الكبير بدراسة مقارنة لكل من:

١- مجلة الأحكام العدلية - العثمانية - التى كانت مطبقة فى العراق منذ العهد العثمانى والتى هى تقنين لفقه المذهب الحنفى فى المعاملات.

٢- وكتاب محمد قدرى باشا «مرشد الحيران فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، ملائماً لعرف الديار المصرية وسائر الأمم

الإسلامية»، وهو الذى يمثل خطوة أكثر تقدماً من مجلة الأحكام العدلية فى تقنين الفقه الإسلامى تقنياً عصرياً مضبوطاً.

٣- والفقه الإسلامى فى مصادره العديدة، بمختلف المذاهب الإسلامية - والذى رجع السنهورى إلى أمهات مصادره - ليستمد منها القواعد والمبادئ والنظريات والأحكام وفلسفة التشريع.

٤- والقانون المدنى المصرى، الذى استلهم السنهورى منه الثراء والغنى فى فن الصياغة والتقنين.. كما جعل منه سبيلاً لمقارنة عطاء الفقه الإسلامى بالمنظومات القانونية الغربية، التى مثلت منبعاً رئيسياً من منابع هذا القانون المصرى.

٥- ودرس فى كلية الحقوق العراقية أصول القانون، ومقارنة مجلة الأحكام العدلية مع القوانين المدنية الحديثة، فلقد كانت مقارنة الفقه الإسلامى بالمنظومات القانونية الأخرى - عنده - من أعظم السبل لتجديد هذا الفقه.

٦- وألف كتابين لطلاب كلية الحقوق..

وبعد هذا العام الدراسى الحافل بالإنجازات - اضطر السنهورى للعودة إلى مصر بسبب مرض والدته.

- وفى مصر - بعد العودة من بغداد - ترك السنهورى الجامعة المصرية إلى سلك القضاء، فأصبح قاضياً بالمحكمة المختلطة - بالمنصورة - حتى السنة ١٩٣٩ م.

- وفى سنة ١٩٣٩ م عين وكيلاً لوزارة المعارف العمومية.. استمر فى هذا المنصب حتى ١٦ مايو سنة ١٩٤٢ م..

- ثم انتقل للاشتغال بالمحاماة.. لكنه تركها، وعاد إلى العراق ثانية فى أغسطس سنة ١٩٤٣ م، وذلك لاستكمال العمل الذى بدأه فى وضع القانون المدنى العراقى الجديد.. وأخذ ينجز هذا العمل الكبير، مستلهمًا فى وضعه كنوز الفقه الإسلامى.. حتى لقد عبر عن ذلك شعراً خاطب فيه الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان، فقال - فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣ م:

أبا حنيفة هذا فقهم بقيت منه الأصول وقامت أفرع جدد

ماذا على الدوحة السماء إن ذهبت منها الفروع وظل الجذع والوتد
وبعد أن بدأ السنهورى العمل - رئيسًا للجنة وضع القانون المدنى فى ٣٠
أغسطس سنة ١٩٤٣م - طلبت الحكومة المصرية - وكان يرأسها مصطفى النحاس
باشا [١٢٩٣ - ١٣٨٥هـ / ١٨٧٦ - ١٩٦٥م] - وكانت فى مرحلة الوفاق مع
الاحتلال الإنجليزى بمصر، إبان الحرب العالمية الثانية ضد النازية والفاشية - وفى
مرحلة المواجهة مع الاتهامات التى أثارها مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ /
١٨٨٩ - ١٩٦١م] فى «الكتاب الأسود» - طلبت من الحكومة العراقية طرد
السنهورى من بغداد، فرفضت الحكومة العراقية.. وحدثت أزمة بين الحكومتين،
تدخل لحلها رئيس وزراء سوريا - سعد الله الجابرى [١٣٠٩ - ١٣٦٦هـ / ١٨٩٢ -
١٩٤٧م] عارضًا على الحكومة المصرية استضافة السنهورى فى دمشق - كحل
وسط - ليضع هناك القانون المدنى السورى، ويستكمل القانون العراقى.. وبالفعل
انتقل السنهورى إلى دمشق - فى نوفمبر سنة ١٩٤٣م، واستقر فيها حوالى ثمانية
أشهر.. لكن إصرار الحكومة المصرية على موقفها، وتهديدها العراق وسوريا
بمنع الأساتذة المصريين من السفر إليهما.. اضطر السنهورى إلى العودة إلى مصر
فى يوليو سنة ١٩٤٤م.. وفى مصر التحق به عدد من الأساتذة العراقيين لاستكمال
وضع القانون المدنى العراقى.

ولقد عكست مذكراته - فى «أوراقه الشخصية» - مشاعر هذه الأزمة.. فالقانون
المدنى العراقى - الذى سافر لإنجازه - «أرادوا ألا يتم، ويريد الله إلا أن يتمه»!..
وفاضت بهذه المشاعر شاعريته - بدمشق فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣م - فقال:

إذا ما نابنى خطب كبير أقابله بعزم منه أكبر
ومن تعركه أحداث شداد يعاركها فيكسر أو فيصهر

- وفى ١٥ يناير سنة ١٩٤٥م تولى السنهورى وزارة المعارف العمومية - فى وزارة
أحمد ماهر باشا [١٣٠٥ - ١٣٦٤هـ / ١٨٨٨ - ١٩٤٥م].. ثم تولى نفس الوزارة
- بعد اغتيال أحمد ماهر باشا - فى وزارة محمود فهمى النقراشى باشا [١٣٠٥ -
١٣٦٨هـ / ١٨٨٨ - ١٩٤٨م] التى تألفت فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥م، وبقي فيها حتى

فبراير سنة ١٩٤٦ م.. ثم تولى ذات الوزارة - للمرة الثالثة - فى وزارة النقراشى الثانية - فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ م - وبقي فيها حتى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م - عند اغتيال النقراشى.. ثم تولاها للمرة الرابعة - فى وزارة إبراهيم عبد الهادى باشا فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م، وبقي فيها حتى ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٩ م.. عندما انتقل من وزارة المعارف إلى رئاسة مجلس الدولة.

- وإبان توليه وزارة المعارف العمومية شارك فى وفد مصر لدى مجلس الأمن الدولى، حيث عرض الوفد - برئاسة النقراشى باشا - قضية مصر، ومطلبها فى جلاء جنود الاحتلال الإنجليزى عنها.

كذلك استمرت جهوده فى مشروعاته الكبرى لتقنين القوانين المدنية الجديدة للعراق.. وسوريا.. ومصر.. فأنجزها جميعاً فى تلك السنوات.. ولقد عبر عن فرحته بإتمام العمل بالقانون المدنى المصرى فى أغسطس سنة ١٩٤٩ م - فقال شعراً:

إنى ختمت بذلك القا نون عهداً قد مضى وبدأت عهداً
وأقمت للوطن العز يز مفاخرًا وبنيت مجدًا
كما عبر عن سعادته بامتداد إنجازاته - فى القانون المدنى - إلى البلاد العربية - عبر عن ذلك شعراً - فقال:

جهود منهكات مضنيات وصلت الليل فيها بالنهار
وكنت إذا استبد اليأس يومًا أسل عزيمة الأسد المثار
إذا افتخروا بمال أو بجاه فقانونى من الدنيا فخارى
- وفى الأول من مارس سنة ١٩٤٩ م حلف السنهوري باشا اليمين رئيسًا لمجلس الدولة المصرى.. وسجل فى «أوراقه الشخصية» - دعاءه لربه: «اللهم تولنى بهذاك وتوفيقك فى هذا العمل الجديد».

وكانت مصر تمر بمرحلة من الغليان، استشرى فيها الفساد، واهتزت الأرض من تحت قوائم نظام الحكم الذى أصيب بالعجز والشيخوخة والفساد.. كما أصاب

العجز الأحزاب التقليدية، فلم تنهض بمهام التغيير.. وأراد النظام معالجة أزمته بالبطش بالحريات العامة، وحرمان القوى الاجتماعية والسياسية الجديدة من فرصها في التغيير.. فكان السنهوري على رأس مجلس الدولة - حصن الأمة وملاذ حرياتها في سنوات الأزمة والغليان والتحوللات.

ولم يقف عمله بمجلس الدولة عند «عدالة القاضى.. ونزاهة المحكمة» - التى يخاصم الناس إليها الدولة والسلطة - وإنما كان الرجل واعياً بأنه يقود تغييراً قومياً لإصلاح كل مؤسسات الحكم، بدءاً بإصلاح السلطة القضائية، وتطلعاً إلى إصلاح السلطتين التشريعية والتنفيذية - فكتب فى مذكراته - ٢٣ مارس سنة ١٩٥٠ - يقول: «نظام الحكم فى مصر فى أشد الحاجة إلى الإصلاح والاستقرار، ويبدو لى أنه يصعب البدء بإصلاح السلطة التشريعية، أو بإصلاح السلطة التنفيذية، على أهمية هاتين السلطتين، فيجب إذن، البدء بإصلاح السلطة القضائية، ويكون هذا الإصلاح فى النظم، بحيث يكفل استقلال هذه السلطة استقلالاً تاماً، وبحيث تستطيع السلطة أن تقوم بوظيفتها بما ينبغى من النزاهة والحيدة، ثم يكون هذا الإصلاح فى رجال القضاء أنفسهم، فيختارون من بين الرجال القادرين على تأدية هذه الرسالة المقدسة، من ناحية الخلق ومن ناحية الكفاية..».

- وفى سنة ١٩٤٩م منحته الحكومة الفرنسية وسام «ليجيون دوينر» لتنظيمه - أثناء وزارته للمعارف - تعليم الفرنسية - كإحدى اللغتين الأجنبية - فى المدارس الثانوية.. وكتب - فى مذكراته - عن تسلمه للوسام: «.. ويعلم الله أننى لم أعن بتنظيم هذه اللغة، إلا لأن التلاميذ المصريين فى حاجة إليها، ولو أن وساماً مصرياً منح لى لقاء هذه الخدمة الوطنية لاستسغت ذلك. فالحمد لله الذى أراد ألا أمنح وساماً أجنبياً إلا لسبب خدمة وطنية».

- ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م تعاون معها، وعلق عليها الآمال فى الإصلاح.. لكنه اختلف مع مجلس قيادة الثورة فى «أزمة مارس سنة ١٩٥٤م» - بسبب انحيازه للدستور والحريات والقانون - فسيرت «هيئة التحرير» - التنظيم السياسى للثورة - والبوليس الحربى، والمباحث العسكرية مظاهرة من الدهماء والغوغاء المأجورين،

يقودها الضباط، وتوجهت إلى مجلس الدولة، فاقتحمته واعتدت على الدكتور السنهوري.

ولقد كتب في مذكراته - عقب خروجه من المستشفى الذي عولج فيه من آثار هذا الاعتداء - في ١٥ مايو سنة ١٩٥٤ م - فقال: «يقول شوقي في رثاء المرحوم أحمد أبو الفتح:

يا أحمد القانون بعدك غامض قلق البنود مجلل بسواد!!
لما خرج النبي ﷺ من الطائف، وقد أصم من فيها آذانهم عن دعوته، وقذفته الأولاد بالحجارة، قال يخاطب ربه:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك.. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وهي سطور بليغة في التعبير عن مأساة العدوان عليه، وهو في حصن القضاء!!..

- وفي سنة ١٩٥٣ م أثمرت جهود السنهوري افتتاح «معهد الدراسات العربية العالية»، الذي أراده معهداً لخدمة الفقه الإسلامي.. وكتب في مذكراته - في ذكرى عيد ميلاده ١١ أغسطس سنة ١٩٥٣ م: «.. وقد شاء الله أن يكون هذا العام هو الذي يفتتح فيه معهد الدراسات العربية العالية، فاللهم وفقني إلى خدمة الفقه الإسلامي في هذا المعهد، واجعل جهودي في خدمته نواة لغرس عظيم».

- ومنذ ذلك التاريخ وحتى وفاته في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٩١ هـ / ٢١ يولييه سنة ١٩٧١ م - كرس السنهوري سنوات حياته، وجميع جهوده للشرعة الإسلامية..

والفقه الإسلامي.. والوحدة العربية.. والجامعة الإسلامية.. وتحديث وتجديد القانون، على امتداد الوطن العربي الكبير.

- وعندما انتقل إلى بارئه.. كان قد خلف لأمته - غير السيرة العطرة.. والقذوة الحسنة - تراثاً في العدل والقضاء، وحيثيات للأحكام المتميزة، التي يباهى بها القضاء المصري حتى الآن.. وصروحاً من القوانين المدنية التي لا تزال المجتمعات العربية تعيش عليها وبها حتى الآن.. ومئات البحوث والمقالات والمحاضرات، في الشريعة الإسلامية.. والفقه الإسلامي.. والقانون المدني.. والإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.. والوحدة العربية والشرقية والإسلامية.

وذلك غير أعمال فكرية أساسية، لا تزال حتى الآن المرجع للعقل القانوني العربي.. من مثل كتبه:

١- الوسيط في شرح القانون المدني: وهو في عشرة أجزاء، تقترب صفحاتها من خمسة عشر ألف صفحة.

٢- الوجيز - في ثلاثة أجزاء.

٣- رسالته الأولى للدكتوراه - عن «القيود التعاقدية الواردة على حرية العمل» - سنة ١٩٢٥ م.

٤- رسالته الثانية للدكتوراه - عن «الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح هيئة أمم شرعية» - سنة ١٩٢٦ م.

٥- عقد الإيجار سنة ١٩٣٠ م.

٦- نظرية العقد.. سنة ١٩٣٤ م.

٧- الموجز في النظرية العامة للالتزامات سنة ١٩٣٨ م.

٨- أصول القانون - بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حشمت أبو ستيت - سنة ١٩٣٨ م.

٩- التصرف القانوني والواقعة المادية - دروس لقسم الدكتوراه سنة ١٩٥٤ م.

١٠- مصادر الحق في الفقه الإسلامي في ستة مجلدات - تبلغ صفحاتها نحواً من

ألف وخمسمائة صفحة.. ولقد صدرت أجزاء هذا السفر النفيس فى أعوام ١٩٥٤ و١٩٥٥ و١٩٥٦ و١٩٥٧ و١٩٥٨ و١٩٥٩ م.

وهو بناء فكرى كصاحبه الذى أبدعه - مما تباهى به أمتنا وحضارتنا غيرها من الأمم والحضارات^(١).

* * *

(١) انظر فى ذلك كله: «عبد الرزاق السنهورى فى أوراقه الشخصية» إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى. طبعة الزهراء للإعلام العربى القاهرة سنة ١٩٨٨ م. «مجلة قضايا الدولة» عدد خاص عن «الفقيه الإمام عبد الرزاق السنهورى» القاهرة - يونيه سنة ١٩٨٩ م. و«مجلة القانون والاقتصاد» عدد خاص - فى مجلدين كبيرين - مقالات وأبحاث للسنهورى، وعنه - القاهرة سنة ١٩٩٢ م.. ود. محمد عمارة «إسلاميات السنهورى باشا» - فى مجلدين - طبعة دار السلام سنة ٢٠١٠ م.

المدنية الإسلامية

للدكتور السنهورى

[١٣١٣-١٣٩١هـ - ١٨٩٥-١٩٧١م]

إن الإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية أكثر تهذيباً من المدنية الأوروبية،
والرابطة الإسلامية هي المدنية الإسلامية، وأساسها الشريعة الإسلامية، وأمتنا
أمة ذات مدنية أصيلة، وليست الأمة الطفيلية التي ترعّع لمدنيتها ثوباً من فضلات
الأقمشة التي يلقيها الخياطون!

السنهورى..

فى الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة وعالم الإسلام، اقترن
«التغريب» الثقافى «بالاحتلال» العسكرى، فلم تكتف هذه الغزوة التى تسلحت بفكر
النهضة الأوروبية الحديثة - لم تكتف - كسابقتها الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ -
١٢٩١م] - باحتلال الأرض ونهب الثروة، وإنما عملت على احتلال العقل لتغريب
الفكر وتحويل «قبلة» الشرق الإسلامى الفلسفية والثقافية نحو أوروبا، بقطع صلات
العرب والمسلمين الفكرية بموروثهم الحضارى ومدنيتهم الإسلامية، وذلك تأييداً
وتأييداً للضم والتبعية والإلحاق.

ولما كان التغيير التغريبى فى ميدان القانون أسرع، ولأن القانون هو أداة السلطة
الاستعمارية الحاكمة، كان الاختراق الاستعمارى لمؤسسات ومنظومات القانون فى
بلادنا - التى استعمرت - أسبق من الاختراقات الأخرى فى ميادين التعليم والثقافة
والأفكار وأنماط العيش والحياة.

ولأن السنهورى باشا كان أخبر خبراء القانون فى وطننا العربى، فلقد كانت معرفته
كبيرة، وكان إحساسه عميقاً بحجم وخطر ومرامى هذا الاختراق القانونى الغربى،

الذى زاحم الشريعة الإسلامية الغراء، وأزاح فقه معاملاتها الإسلامية من فوق عرشه العتيد.

فنايليون بونايرت [١٧٦٩-١٨٢١م] الذى هُزِمَتْ حملته العسكرية على مصر، وجلت جيوشه عنها [١٢١٦هـ-١٨٠١م] عاد - بعد وفاته! - فاخترق بقانونه واحتل الكثير من بلاد العالم العربى، حدث ذلك فى الجزائر سنة (١٨٣٠م)، وفى مصر سنة (١٨٧٥م) وسنة (١٨٨٣م) وفى المغرب سنة (١٩١٣م)، وفى لبنان عقب الحرب العالمية الأولى.

ومن هنا نفهم معنى أن وطنية السنهورى تنتمى إلى مدرسة مصطفى كامل - مدرسة الجامعة الإسلامية، والاستقلال الحضارى أكثر من انتمائها إلى مدرسة سعد زغلول، التى ركزت أغلب جهودها على تحرير الأرض وتحقيق الاستقلال السياسى، ونفهم - كذلك - البعد الوطنى والدافع الحضارى فى جهود السنهورى التى مثلت رسالة حياته، و«بوصلة» إنجازاته - لمجابهة هذا الاختراق القانونى، الذى رسخت أقدامه - بالتدرج المدروس - على امتداد جبهات ومؤسسات التشريع والقضاء فى العالم العربى.

ولأن الهدف الاستعمارى من وراء تغريب القانون. علاوة على ضرب الوحدة العربية والرابطة الإسلامية، بهدم وحدتها القانونية - هو إحلال المرجعية الغربية محل مرجعية الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، وصولاً إلى تغريب الفكر والثقافة ورؤية الكون وأنماط العيش والحياة، أى: وصولاً إلى إحلال كامل المدنية الأوربية ونموذجها الحضارى محل المدنية الإسلامية، لأن هذا كان المقصد الأعلى للاستعمار من وراء البدء بتغريب القانون، وجدنا وعى السنهورى باشا عالياً بضرورة بعث المدنية الإسلامية لتكون خيارنا للنهضة العربية الإسلامية المنشودة، ووجدنا ربطه بين أسلمة القانون والاستقلال السياسى، ووجدنا - من ثم - نقضه ورفضه للدعوات التى نادى بإحلال المدنية الغربية ونموذجها الحضارى محل مدنية الإسلام وحضارة المسلمين.

وإذا كانت السلطات الاستعمارية قد فرضت بحرابها تغريب القانون، فلقد عهدت بتغريب الثقافة إلى «جيش» من المثقفين الذين صنعتهم على عينها مدارس

الإرساليات التبشيرية الاستعمارية - وخاصة الفرنسية منها في لبنان - نعم، لقد خرّجت هذه المدارس الفرنسية «جيش الغزو الفكرى والثقافى»، بل إن القناصل الفرنسيين في بيروت هم الذين صكوا هذا التعبير - تعبير «الجيش» - فوصفوا هدف إقامة هذه المدارس الفرنسية - لأبناء الطائفة المارونية - بأنه تكوين «جيش متفان لفرنسا فى كل وقت، يجعل البربرية العربية - «كذا» - تنحنى لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»^(١)!!.. ولقد هاجرت «كتيبة» من هذا «الجيش» إلى مصر، وأقامت فيها المنابر الإعلامية والثقافية، والمنتديات والصالونات الفكرية والمؤسسات الثقافية، وأخذت فى حماية الاستعمار الإنجليزى، وبمعاونته تمارس «حملة شرسة، وناعمة» من التغريب الفكرى والثقافى لإحلال المدينة الغربية محل المدينة الإسلامية^(٢).

فأول صوت ارتفع بالدعوة إلى إحلال العاميات محل العربية الفصحى - لغة القرآن ولسان الإسلام والشريعة والفقه والتراث، وعامل الوحدة بين العرب والمسلمين، لإقامة القطيعة بين الأمة ومدينتها الإسلامية، تمهيداً لإحلال المدينة الغربية محل المدينة الإسلامية - كان صوت واحد من هذه «الكتيبة الثقافية»، هو أمين شميل [١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ/ ١٨٢٨ - ١٨٩٧ م]، والذى رد عليه عبد الله النديم سنة (١٨٨١ م) فى «التنكيث والتبكيث» بمقال يلخص عنوانه - مجرد العنوان - الوعى الحضارى بمرامى أعمال هذه «الكتيبة التغريبية».. مقال عنوانه: «إضاعة اللغة تسليم للذات»!

- وأول صوت ارتفع فى بلادنا مبشراً بالفلسفة الإلحادية فى النظرية الداروينية، كان صوت واحد من هذه «الكتيبة» شبلى شميل [١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ/ ١٨٦٠ - ١٩١٧ م] شقيق أمين شميل!

- وأول صوت ارتفع بالدعوة إلى تعميم العلمانية فى الثقافة والفكر والمجتمع - بعد علمنة القطاع الأكبر من القانون والقضاء - كان هو صوت فرح أنطون [١٢٩١ -

(١) من مراسلات القناصل، محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، سنوات [١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٤٨، ١٨٩٧، ١٨٩٨ م]، انظر كتابنا (الإسلام والتعددية)، ص ٢٥٥، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م، وكتابنا «هل الإسلام هو الحل؟»، ص ٢٢، طبعة القاهرة، الثانية، ١٩٩٨ م.

(٢) يستخدم السنهورى مصطلح «المدينة»، بمعنى «الحضارة».

١٣٤٠هـ / ١٨٧٤-١٩٢٢م] أحد أفراد هذه «الكتيبة»، والذي تصدى له الإمام محمد عبده [١٢٦٥-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م] في مجلة «المنار».

- أما مجلة «المقتطف».. التي أسسها اثنان من فرسان هذه «الكتيبة»: يعقوب صروف [١٢٦٨-١٣٤٥هـ / ١٨٥٢-١٩٢٧م]، وفارس نمر [١٢٧٢-١٣٧٠هـ / ١٨٥٦-١٩٥١م] - فلقد ظلت لأكثر من ستين عامًا [١٢٩٣-١٣٧١هـ / ١٨٧٦-١٩٥٢م] تترجم من العلم الغربى النظريات ذات الفلسفة المادية والظلال الإلحادية والإيحاءات اللادينية، لتُحل نموذج العلم الغربى، ذى النزعة المادية، محل نموذج العلم الإسلامى، الذى وظفته حضارتنا فى دعم التدين وتنمية الإيمان، ولقد كانت هذه المجلة - التى تسترت بالعلم لتشيع المادية والشك والعلمانية والإلحاد - «الديوان الفكرى» الذى جمع هذه الكتيبة من كتائب جيش الغزو الفكرى، والتى لعبت أخطر الأدوار فى إشاعة التغريب فى حياتنا الثقافية، حتى لقد تحدث عنها وعن القائمين عليها عبد الله النديم فقال: «إنهم أعداء الله وأنبيائه، الأجرء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيميائية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هى إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان..»^(١).

- أما جريدة «المقطم».. التى كانت أركان حرب الإعلام للاستعمار الإنجليزى فى مصر - فلقد أصدرها ثلاثة من فرسان «كتيبة التغريب» هذه، هم يعقوب صروف، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس [١٢٦٩-١٣٢٨هـ / ١٨٥٣-١٩١٠م]، ولقد دام عمرها عمر الاستعمار الإنجليزى فى مصر [١٣٠٦-١٣٧١هـ / ١٨٨٩-١٩٥٢م]، ووصفها عبد النديم بأنها: «الصحيفة الإنجليزية التى تصدر فى مصر»^(٢).

- ولقد تربى على أيدى هذه الكتيبة الفكرية، وتعلم فى منابرها ومنتدياتها الثقافية، واستعار منهاهجها المتغربة نفر من صفوة المثقفين والمفكرين المصريين، بعضهم عن كراهية للإسلام، وعمالة حضارية لأوروبا، من مثل سلامة موسى [١٣٠٥-

(١) مجلة «الأستاذ»، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٢٣، ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق، العدد الثانى والأربعون، ص ١٠٢٩.

١٣٧٧هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٨م]، الذى امتلك من الجرة ما بلغ به حد الوقاحة فأعلن عن مرامى هذه المدرسة التغريبية، وقال: «كلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامى أغراضى، وهى تتلخص فى أنه:

- يجب علينا أن نخرج من الشرق، وأن نلتحق بأوروبا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد حبى لها، وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.

- أريد تعليمًا أوروبيًا، لا سلطان للدين عليه، ولا دخل له فيه.

- وحكومة كحكومات أوروبا، لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون.

- وأدبًا أوروبيًا، أبطاله مصريون، لا رجال الفتوحات العربية.

- وثقافة أوروبية، لا ثقافة الشرق، ثقافة العبودية والتوكل على الآلهة.

- واللغة العامية، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن.

- والتفرنج فى الأزياء، لأنه يبعث فىنا العقلية الأوروبية. هذا هو مذهبى، الذى أعمل له طول حياتى، سرًا وجهرة، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب!«^(١).

هذا هو مشروع إحلال المدينة الأوروبية محل المدينة الإسلامية، الذى بشر به الموارنة، خريجو مدارس الإرساليات الفرنسية التبشيرية، والذى تبناه - فى مصر - سلامة موسى؛ كراهة فى الإسلام، وعمالة حضارية لأوروبا، كما تبناه عدد من المفكرين والمثقفين، انبهارًا به، واجتهادًا خاطئًا عندما توهموا أنه السبيل إلى التقدم والتحرر من الاستعمار الأوروبى، ثم عادوا فراجعوا مواقفهم هذه أو تراجعوا عنها - بدرجات متفاوتة - فى مراحل نضجهم الفكرى، من أمثال أحمد لطفى السيد باشا [١٢٨٩ - ١٣٨٣هـ / ١٨٧٢ - ١٩٦٣م]، ومحمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٦م]، وعلى عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦م]، وطه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣م].

(١) سلامة موسى «اليوم والغد»، (ص ٥ - ٧)، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م وانظر كتابنا: «الإسلام بين التنوير والتزوير»، (ص ٩٧ - ١٥٧) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

وفى سياق هذا المد التغيريى، الذى عمل أصحابه على إحلال المدنية الأوروبية محل المدنية الإسلامية، وفى مواجهته، علينا أن نقرأ صفحات جهاد السنهورى باشا فى سبيل بعث المدنية الإسلامية، لتكون صيغة نهضتنا الحديثة، وتركيزه على تميز هذه المدنية الإسلامية، وأيضاً تقدمها على المدنية الأوروبية.

ففى هذه الصفحات - من فكر السنهورى تحدث عن تميز المدنية الإسلامية، لأنها مؤسسة على الدين الإسلامى، المتميز عن الدين المسيحى، فالأول دين العقل والقلب، والثانى دين القلب فقط، والإسلام دين الفرد المندمج فى الأمة والمجتمع بينما المسيحية دين الفرد المندمج فى الله وملكوت السماء، والإسلام دين العمل وتحقيق الذات، بينما المسيحية دين التضحية وإنكار الذات، والإسلام دين الأرض والسماء، بينما المسيحية تدير ظهرها للأرض وتجعل مملكتها فى السماء، والإسلام يسعى إلى عمارة الأرض، بينما المسيحية - فقط - إلى خلاص الروح.

وعلى هذا التمايز بين الدينين قام ويقوم التمايز بين المدنية الإسلامية - المؤسسة على دين الإسلام وشريعته - وبين المدنية الغربية، التى لم تقم إلا على عزل المسيحية واستبعاد اللاهوت.

وإذا كانت الغاية هى نهضة الشرق، فإن المدنية الإسلامية هى أساس الرابطة والجامعة الإسلامية.. وهى حتى بالمعايير النفعية - أكثر تهذيباً من المدنية الأوروبية.

ولقد ميز السنهورى بين رفضه للمدنية الأوروبية وبين ضرورة الاستفادة من العلم الأوروبى، والإنجازات المادية للحضارة الغربية.. فالتقليد للمدنية الأوروبية طفيلية لا تليق بأممتنا، بينما الاستفادة من علوم الغرب وتطبيقاتها هو استلهاً للمشارك الإنسانى العام، سبقنا إليه الأوروبيون عندما أخذوا نظيره من حضارتنا الإسلامية إبان نهضتهم الحديثة.

كما نبّه السنهورى على أن المدنية الإسلامية هى مدنية الشرق، بأمنه وأديانه، لا مدنية المسلمين وحدهم، لأنها هى الجانب الثقافى والقانونى من الإسلام، الوثيق الصلة بالشرق، وبإبداع كل أممه وملله ودياناته، بينما الجانب العقدى والشعائرى من الإسلام خاص بالمسلمين وحدهم، كما أن الجانب العقدى من الديانات الأخرى خاص بالطوائف الشرقية التى تدين بهذه الديانات.. حتى إن مصطلح «الأمة

الإسلامية» يصبح - عند السنهورى - شاملاً لكل الشرقيين، فهم - على اختلاف مللهم الدينية - مسلمون فى الثقافة الإسلامية، التى وحدتهم جميعاً.. بهذه الرؤية الواضحة والعميقة والمنطقية، خاض السنهورى باشا معركته الفكرية على جبهة المدينة الإسلامية.

- فتحدث عن إسلامية هذه المدينة الشرقية، انطلاقاً من جمع الإسلام بين الدين والمدينة، فقال: «أريد أن يعرف العالم أن الإسلام دين ومدينة، وأن تلك المدينة أكثر تهذيباً من مدينة الجيل الحاضر»^(١) والرابطة الإسلامية يجب أن تُفهم بمعنى المدينة الإسلامية»^(٢).

ولقد استشهد السنهورى على أن المدينة الإسلامية، ومن ثم الرابطة الإسلامية، وكذلك مصطلح «الأمة الإسلامية» إنما هى روابط جامعة لكل أمم الشرق، على اختلاف معتقداتها الدينية.. فهى عوامل وحدة، وليست عوامل فرق أو طائفية.. استشهد على هذه الحقيقة بكلمات أحد الأساتذة الفرنسيين، الذى قال فى تعريف «الأمة» - الجماعة الإسلامية -: «عندما نستعمل اصطلاح الأمة الإسلامية، فإننى لا أعنى بذلك الإشارة إلى مجتمع من المسلمين فقط، وإنما أقصد بذلك مجتمعاً له طابع فذ من المدينة قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية، التى عاشت وعملت معاً جنباً إلى جنب تحت راية الإسلام، والتى قدمت لنا بذلك تراثاً مشتركاً لجميع سكان الشرق الإسلامى، بنفس الصورة ولنفس الأسباب التى اعتبرنا بها حضارة الغرب مسيحية، وهى تراث مشترك ساهم فيه جميع الغربيين بمن فيهم اللادينيون والمفكرون الأحرار والكاثوليك والبروتستانت»^(٣).

يتبنى السنهورى هذا التعريف «للأمة الإسلامية» - وهو المرادف لشعوب الشرق وأممهم - ثم يعلق عليه، مقترحاً التوسع فى معنى المدينة الإسلامية فيقول: «ولا أرى ما يمنع التوسع فى معنى «المدينة الإسلامية» على النحو الذى قرره الأستاذ الفرنسى.. وأرى أن المدينة الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من

(١) الأوراق الشخصية، ليون فى (١١-١١-١٩٢٢م).

(٢) المصدر السابق، لاهى فى (١٥-٨-١٩٢٤م).

(٣) المصدر السابق: ليون فى (١٧-١٠-١٩٢٣م).

المقيمين في الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية^(١).

فهي مدنية إسلامية، مؤسسة على الشريعة الإسلامية.. لكنها لا تقف عند الجانب العقدي في الإسلام - وهو الخاص بالمسلمين - حتى تكون خاصة بالمسلمين دون سواهم.. وإنما هي رباط جامع.. وإنجاز مشترك.. وميراث حلال لكل شعوب الشرق وأممه، على اختلاف دياناتها.. ومن ثم فهي خيارهم جميعاً في النهوض المنشود.. ولقد أفاض السنهاوري باشا في المقارنة بين الإسلام والمسيحية، لا لمجرد المقارنة بين الدينين، وإنما ليؤكد على تميز المدنية الإسلامية - المؤسسة على شريعة الإسلام وثقافته وفقه معاملاته - عن المدنية الغربية - التي وإن استبعدت الدين المسيحي، فلقد تأسست على التراث المسيحي - أفاض في هذه المقارنة، لهذا الغرض، فقال - ضمن ما قال -: «الإسلام والمسيحية دينان تمكن مقارنتهما كل بالآخر، فإن الروح التي تسود كلاهما تختلف عن الأخرى.. إنما المسيحية أتت لتخاطب الفرد وتنادى قلبه.. أما الإسلام فأتى - على الأخص - ليخاطب المجموع البشري، وينادى العقل قبل القلب؛ فبينما تنظر المسيحية إلى الفرد باعتباره فرداً غير مندمج في جمعية ما، وإن كان لا بد من اندماجه، فذلك الاندماج يكون في الذات الإلهية، ينظر الإسلام إلى الفرد باعتباره فرداً من مجموع سياسي منظم، ولذلك كان الإسلام ديناً سياسياً واجتماعياً.. والمسيحية، بطبيعة أنها دين الفرد والقلب، تبعث على التضحية وإنكار الذات، والإسلام، بطبيعة أنه دين المجموع والعقل، يبعث على العمل.. وهذا يعزل الدوى الهائل الذي أحدثه انفجار المسلمين في بقاع الأرض..»^(٢). ولذلك «امتاز الإسلام على المسيحية بأن المسلمين استطاعوا أن يبنوا مدنية زاهرة مع محافظتهم على عقائد الإسلام، أما المسيحيون فلم يستطيعوا أن يتمدوا إلا عندما تركوا الدين المسيحي بالفعل..»^(٣).

فالمدينة الإسلامية هي إسلامية، بينما المدنية الأوروبية وضعية علمانية لا دينية، وإن تعصبت للمسيحية، واعتمدت على تراثها.

(١) الأوراق الشخصية، ليون في (١٨-١٠-١٩٢٣م).

(٢) المصدر السابق، ليون في (٤-١١-١٩٢٤م).

(٣) الأوراق الشخصية، باريس في (٢٨-٢-١٩٢٤م).

وانطلاقاً من هذا التميز للمدينة الإسلامية عن المدينة الغربية، وهو المؤسس على تميز الإسلام عن المسيحية، أفاض السنهورى فى النقد والنقض لتيار التقليد للمدينة الغربية، الذى أراد أهله إحلال هذه المدينة الغربية محل المدينة الإسلامية، فى نهضتنا الحديثة المنشودة.. نقض السنهورى ورفض هذا الخيار الغربى فى المدينة.. ودعا إلى بعث مدينتنا الإسلامية، خياراً حضارياً نهضوياً.

وفى ذلك قال: «أرى أن الأمم الشرقية أمامها أمران لا محيص عنهما: إما أن تجرى مع المدينة الغربية، وهذا الطريق ليس مأموناً، وإما أن تَحْتَطَّ لنفسها مدينة تصل فيها الماضى بالحاضر، مع التحوير الذى يقتضيه الزمن، فتحفظ لنفسها شخصيتها، وتستطيع أن تجارى تسابق - الغرب، بدلاً من أن تجرى وراءه..»^(١).

وركز حديثه عن مصر، التى كانت تموج بالتيارات المتصارعة حول «الخيار الحضارى» أياكون إسلامياً؟ أم أن المدينة الغربية هى الخيار؟ فانتقد السنهورى تيار التغريب، الداعى إلى تقليد الغرب فى المدينة، وقال: «هناك رأى يقول: إن على مصر أن تنظر إلى المدينيات الغربية فتختار من كل أحسنه».

وأرى أن أكبر ضعف فى هذا رأى أنه ينسى أن مصر لها مدينة أصيلة، وحاجتها الآن هى جعل هذه المدينة ملائمة للعصر الحاضر، وليست مصر الدولة الطفيلية الحديثة التى ترقع لها ثوباً من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون..^(٢).

ومصر تخسر كثيراً إذا انصرفت بعد استقلالها إلى تقليد الأوربيين فى مدينتهم تقليداً تاماً، ونسيت أنها من أهم الدول الشرقية، إن مصر فى حاجة إلى نهضة علمية، وخاصة إلى إحياء الشريعة الإسلامية وبث روح العصر فيها، وكل مصرى متعلم ينظر إلى تقاليدنا القومية وتاريخنا ومدينتنا القديمة بغير تقدير كاف، يكون مخطئاً أو يائساً، ولا نستفيد من الخطأ ولا من اليأس.

وعندى أنه يحسن الآن البدء بنهضة علمية ترمى إلى إحياء العلوم العربية، ونشر هذه الحركة فى مصر والشام والحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية، ويلتفت

(١) المصدر السابق، ليون فى (١٧-٤-١٩٢٣ م).

(٢) المصدر السابق، ليون فى (٢٨-٨-١٩٢٣ م).

التفاتًا خاصًا إلى اللغة والشريعة، ومتى نجحت هذه الحركة العلمية تلتها نهضة اقتصادية، ثم يأتي بعد ذلك الارتباط السياسى..»^(١).

فإحياء المدنية الإسلامية، والتركيز على الشريعة الإسلامية واللغة العربية، هو سبيل الأمة - وفى مقدمتها مصر - إلى النهضة.. وليس التسول على موائد المدينيات الغربية، الذى يمثل طفيلية لا تليق بمن له ما لنا من تقاليد قومية وتاريخ ومدنية عريقة.. ثم إن هذه الطفيلية والاستعارة والترقيع لثوب المدنية المستورد هو - فى النهاية - طريق غير مأمون.

- ومع رفض السنهورى لتقليد واستعارة المدنية الغربية.. فلقد كان من أنصار الاستفادة من الإنجازات المادية - وتطبيقات العلوم الطبيعية - التى أبدعت فيها الحضارة الغربية إبداعًا عظيمًا.. فالرجل لم يكن منغلًا على تراثنا وحده، بل لقد دعا - حتى فى القانون - إلى الاستفادة من فنون الصياغة والتقنين التى برعت فيها المنظومات القانونية الغربية.. وللتمييز بين خصوصيتنا فى المدنية وبين ما يجب أخذه عن الغرب من التقدم المادى كما سبق وحدث للغرب عندما أخذ هذا الجانب عن حضارتنا الإسلامية - للتمييز بين هذين الميدانين فى الحضارة والمواريث الفكرية. يقول السنهورى:

«أرى أن الغرب لا يحسن تقليده إلا فى الأشياء المادية، فهو متفوق فيها تفوقًا لا يناع فيه، أما الأشياء المعنوية فيحسن للشرق أن يواصل تاريخه المجيد دون أن يقلد الغرب فى الجوهر، وإن أخذ منه الشكل..»^(٢). إن من الضرورى أن نستفيد من علوم الغرب، حتى فيما كتبه عن العلوم العربية، على شرط أن يكون لتكويننا العقلى ومزاجنا الجنى أثر كبير فيما نقله عن الغرب، ولنا أسوة بالعرب عند نقلهم عن اليونان، وبأوربا عندما نقلت علوم العرب..»^(٣).

ففى المدنية والعقائد والفلسفات والإنسانيات والعلوم الاجتماعية والآداب والفنون - أى: الأشياء المعنوية - لا تقليد للغرب، وإنما بعث لتراثنا، وتجديد

(١) الأوراق الشخصية، باريس فى (٣١-١٠-١٩٢٣م).

(٢) المصدر السابق ليون فى (١٧-٨-١٩٢٣م).

(٣) المصدر السابق، ليون فى (١٠-٩-١٩٢٣م).

له، ومواصلة لتاريخنا المجيد.. أما فى العلوم المادية وتطبيقاتها، فنحن مطالبون بالاستفادة من إنجازات الغرب فى هذا الميدان، الذى هو مشترك إنسانى عام، سبق وأن نقلناه عن اليونان، ثم أضفنا إليه، وجاءت أوروبا ونقلته عن حضارتنا، ثم أضافت إليه، ومن الواجب أن نعاود النقل فيه عن أوروبا، لتوطينه فى واقعنا تمهيداً للإضافة إليه.. ويشترط أن تظل خصوصيتنا الحضارية - التى يسميها السنهورى «تكويننا العلى ومزاجنا الجنسى»، أى: القومى معياراً للتمييز بين المقبول والمرفوض من إبداعات الآخرين.

إن الإبداع قرين الخصوصية الحضارية.. والتقليد مقبرة لملكات الإبداع.. واليقظة قرين التجديد، بينما التقليد باعث على الغفلة والموات.. «والشرق يتنبه، ويريد الآن أن يقوم بقسطه من العمل على سعادة العالم ورفع شأن المدينة، بعد أن سكت عن ذلك مدة، ولكنه يريد أن يبذل مجهوداً جدياً، وأن يختط لنفسه طريقاً، لا أن يكون مقلداً للغرب، ويريد أن يميز مدنيته الجديدة شيئاً: ١ - أن تكون هذه المدينة ذات صبغة شرقية تصل الماضى بالمستقبل.

٢ - أن تكون هذه المدينة بمثابة رد فعل للمادية المتغلبة اليوم على المدينة الغربية، فقد غالى الغربيون فى ماديتهم، وأصبح ضحايا هذه المدينة أضعاف المتنعمين بها، فالعالم ينتظر الآن من الشرق أن ينقذه من تلك الوهدة، ومن أكفأ من الشرق فى القيام بهذه المهمة، وهو الذى كان مبعث النور والخير ومهبط الحكمة والأديان؟

فلا تقولوا: أن يقلد الغرب فى تركه للدين، فأنتم تسيئون للمدينة أكبر إساءة، وقد بدأت المدينة بالدين وستنتهى إلى الدين، ولكن قولوا له: أن ينقى الأديان مما أحاط بها من الأوهام، وأن يجعلها مكملة بعضها البعض...»^(١).

فللشرق رسالة حضارية، فى ترشيد المثل التى تحكم العالم، وعليه قسط فى إبداع ما يحقق السعادة للبشرية، وجزء من هذه الرسالة، بعث النموذج المتدين للمدينة الإسلامية، التى تهذب من غلواء المادية، التى سقطت فى وهدهتها المدينة الغربية، تلك التى بدلاً من تنقية الدين مما أحاط به من الأوهام والعصبيات - تركت الدين.. الذى بدأت به المدينة - فى التاريخ الإنسانى ولا بد أن تنتهى إليه، فى هذا الذى يشير به

(١) الأوراق الشخصية، باريس فى (٤-١-١٩٢٤م).

السنهورى، من بعث المدنية الإسلامية، المؤسسة على الشريعة الإسلامية، لإنهاض أمم الشرق بالإسلام، بدلاً من تقليد المدنية الغربية المادية، والوقوع فى الوهدة التى وقع فيها أهلها، الذين أصبح الضحايا منهم أضعاف المتنعمين!

هكذا رفض السنهورى ونقض مذاهب التقليد للمدنية المادية الغربية، بمنطق العزة القومية والمجد الحضارى، وبمعايير الأمن والنفع أيضاً.

بل لقد نبّه السنهورى على حقيقة يغفل عنها دعاة التقليد، الذين يظنون أنهم إنما يقلدون المحاسن، فى الأصل والأساس.. بينما طريق التقليد لا يقود أهله - فى العادة والأساس - إلا إلى تقليد السيئات والسلبيات! لأن تقليد الرذائل - فى العادة - أسهل وأوسع انتشاراً من تقليد الفضائل والإيجابيات «فالأمة الضعيفة مولعة بتقليد الأمة القوية التى تحتك بها - كما قال ابن خلدون - ولكن لما كان تقليد الفضيلة أصعب من تقليد الرذيلة، كان أول ما تأخذ الأمة الضعيفة من الأمة القوية الرذائل التى يسهل تقليدها...»^(١).

- ولهذا الموقف الوسطى والمتوازن والعاقل، الذى اتخذه السنهورى باشا من هذه القضية: القديمة - الجديدة! والذى دعا فيه إلى بعث المدنية الإسلامية وتجديدها، لأنها مؤسسة على إسلامنا؛ ولأنها هى تاريخنا ومجدنا وقوميتنا.. ولأنها - كذلك - الأنفع والأنسب لأمتنا؛ بل والتى يحتاجها العالم كى ترشد النزعة المادية التى طغت على المدنية الغربية، فأورثت العالم من الشقاء أضعاف ما قدمت له من السعادة.

ثم هو فى ذات الوقت لا يدعو إلى قطيعة معرفية مع المدنية الغربية، ولا يبشر بعزلة حضارية ننغلق فيها على ذاتنا وحدها دون سواها.. وإنما يدعو إلى التمييز بين خصوصيتنا فى المدنية الإسلامية وعلومها الإنسانية والاجتماعية وقيمها ومثلها وأخلاقياتها - والتى لا يجوز التقليد للآخرين فى ميادينها - وبين العلوم المادية وتطبيقاتها، تلك التى برع فيها الغرب.. والتى تمثل مشتركاً إنسانياً عاماً، لا وطن له، وهى التى يجب أن نستلهمها من الغرب.

لأن هذا هو الموقف المتوازن للسنهورى فى العلاقة بيننا وبين الغرب، رأيناه

(١) الأوراق الشخصية، سان جانجلف فى (٧-٨-١٩٢٤ م).

- مع نقده لدعاة التقليد للغرب - ينتقد - كذلك - دعاة التقليد لموروثنا الفكري، الذين يقفون أمام هذا الموروث موقف التقليد الأعمى والمحاكاة دون تجديد.. فكلا الفريقين - المقلدين للغرب والمقلدين لثرائنا - إنما يمثلان غلو الإفراط وغلُو التفريط.. والذي يبتعد بهم عن الوسطية والتوازن والحق والاعتدال..

فآفة الجامعة الشرقية في مصر فريقان:

١- فريق يتمسك بالماضي الإسلامي تمسكاً أعمى، ولا يتطور مع العصر، فيجلب بذلك عداوة العالم المتمدين، ويضحي بالأقليات الدينية النشطة المنبثقة في الشرق الأدنى، وهذه تلجأ إلى أوروبا طمعاً في حمايتها، وبدلاً من أن تبذل مجهوداتها معنا، تنقلب علينا.

٢- وفريق يريد أن يقطع حبل الماضي فلا تعود له به صلة، وعند ذلك يتمكن من إدخال المدنية الأوروبية في مصر حتى تصبح جزءاً من أوروبا، دون أن يراعى تقاليد البلاد وتاريخها ومزاجها الشرقي.

وكلا الفريقين خطر على الجامعات الشرقية.

على أنه يجب الاعتراف بأن حاجتنا إلى أوروبا الآن كبيرة، ولكن هذا ليس معناه تنحية تقاليدنا القومية، وإدخال مدنية غريبة عنا في بلادنا الشرقية، فنعدم بذلك روحنا القومية، فإن الذي يربط الأمة برباط قوى هو الماضي، ولن تستطيع أمة أن تتخلص من ماضيها إلا تاهت في ظلمات لا تهتدي فيها.

وأحرص ما يجب أن يحرص عليه المصري في نظري هو صبغته الشرقية - أي: الإسلامية - مهما جرفها تيار أوروبا القوي، فإننا نستطيع تغيير كل شيء إلا نفوسنا وإيماننا بالله..^(١).

فالمدنية الإسلامية، المؤسسة على الشريعة الإسلامية، وعلى الإيمان الديني، هي أثبت ثوابت الشرق، التي لا تغيير لها، ولا تقليد لغيرها.. فهي خيار شعوب الشرق للنهوض والتقدم.. وليس الخيار تقليد المدنية الغربية المادية التي أوقعت أهلها في وهدة، الشقاء فيها أضعاف أضعاف النعيم.

(١) الأوراق الشخصية، باريس في (٣١-١٠-١٩٢٣م).

وهذا التمييز الشرقي في المدنية الإسلامية، والنابع من انبثاق هذه المدنية عن الإسلام المتميز عن المسيحية.. لا يعنى عداً الشرق ومدنيته للغرب ولا للعالم غير الإسلامى، وإنما يعنى إضافة شرقية إسلامية تغنى التراث الإنسانى وترشده.. فالشرق الناهض بالإسلام ومدنيته، يريد أن يكون عضواً فاعلاً ذا عطاء فى الأسرة الدولية والجماعة الإنسانية «إذ لا تتناقض مطلقاً الروح الشرقية الإسلامية مع محبة الإنسان وخير الإنسانية، فنحن الشرقيين - نريد أن ندافع عن كياننا ومدنيتنا الشرقية الإسلامية، ولكن هذا لا يمنعنا من حب الغربيين باعتبارهم إخواناً لنا فى الإنسانية، ولا نريد بهذا الدفاع عن كياننا ومدنيتنا الشرقية الإسلامية - أن نقلق سلام العالم، بل أن ننبت دعائم هذا السلام الذى لا يتم إلا إذا رفع الظلم عن الأمم المظلومة، والشرقى يعتبر نفسه عضواً فى الجمعية البشرية، يحب خيرها وسعادتها، ويعمل لذلك»^(١).

فشرقية مدنيتنا هى عين إسلاميتها.. وإسلاميتها هى عين إنسانيتها.. وإنسانيتها تعنى نزوعها إلى التحرر الذى يرفع الظلم عن الأمم المظلومة، لتصبح البشرية جمعية أمم ومدنيات، يعمل أعضاؤها على تحقيق الخير والسعادة للجميع.

هكذا دعا السنهورى إلى بعث المدنية الإسلامية، بل ودعا إلى قيام «حزب دينى» يتبنى هذا الخيار الحضارى وينافح عنه.. وعندما تحدث عن الوضع الأمثل للحياة الحزبية - بعد تجاوز مرحلة التحرر من الاستعمار، والأحزاب التى نشأت لتحقيق الاستقلال السياسى أشار إلى ضرورة وجود:

١- حزب حر.

٢- حزب الفلاحين والعمال.. ينحاز لمصلحة الفلاحين والعمال بشكل معتدل ولكنه صريح.

٣- حزب تغلب فيه النزعة الدينية، ويرمى إلى المحافظة على تقاليدنا، ويقاوم كل تيار غربى لا يتفق مع هذه التقاليد.. وأتوقع أن يلبس الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل، والجامعة الإسلامية - لباس الحزب الدينى الذى يقاوم التيار الغربى، وينضم إليه كل من كانت نزعته كذلك.

(١) الأوراق الشخصية، ليون فى (٨-٩-١٩٢٣م).

٤- وقد يكون من المفيد أن يقوم مع هذه الأحزاب حزب للمرأة، يُحصر «بروجرامه» الداخلي في العمل على ترقية المرأة وتعليمها تعليمًا صحيحًا..^(١).

فقبل نشأة التنظيمات الإسلامية الحديثة - ذات الطابع الحزبي والجماهيري بخمس سنوات، كتب السنهوري عن ضرورة قيام حزب ديني يتبنى خيار الإسلام في المدنية والنهضة، ويتصدى ويقاوم التيار الغربي، الذي يريد إحلال المدنية الغربية محل مدنية الإسلام.

* * *

(١) المصدر السابق، ليون في (٨-٩-١٩٢٣م).

الإسلام: دين ودولة.. دين الأرض ودين السماء

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

[١٣١٣-١٣٩١هـ-١٨٩٥-١٩٧١م]

[الإسلام: دين ودولة.. مُلك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. والنبي ﷺ هو مؤسس الحكومة الإسلامية، كما أنه نبي المسلمين.. أقام الوحدة الدينية للأمة العربية، والوحدة السياسية للجزيرة العربية.. ووضع قواعد الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية.. فالإسلام: دين الأرض، كما هو دين السماء..]

السنهورى..

كانت رسالة الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا - فى الإصلاح - هى إنهاء الشق بالإسلام.. وبعث المدنية الإسلامية لتقوم على أساسها هيئة الأمم الشرقية، وكانت رسالته فى القانون - وهو أبو القانون المدنى العربى الحديث - هى أسلمة قانون الأمة، بجعل الشريعة الإسلامية وفقه معاملات العتيد يتخطيان أعناق القرون - بالتجديد والاجتهاد - لتعود لهما الحاكمية فى التشريع والقانون والقضاء للأمم الشرق وشعوبه، كما كان حالهما عبر تاريخ الإسلام السابق على عزل الاستعمار الغربى لهما عن عرش الحاكمية والمرجعية فى هذه الميادين.

ورسالة - كهذه الرسالة، التى حملها السنهورى - يستحيل التفكير فيها، فضلاً عن العمل لإنجازها، إلا إذا كان صاحبها مؤمناً كل الإيمان بأن الإسلام دين ودولة.. رسالة وحكم.. عقيدة وشريعة.. أخلاق ومدنية.. قيم وقانون.. آخرة ودنيا.. سماء وأرض.. للفرد والأمة والاجتماع..

وإذا كانت قضية علاقة الإسلام بالدولة والسياسة وتدبير الاجتماع الإنسانى، قد

تفجرت في الحياة الفكرية والسياسية عندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه عن (الإسلام وأصول الحكم) في سنة (١٩٢٥م).. وهو الذي زعم فيه أن الإسلام دين لا دولة، ورسالة لا حكم.. وأن نبي الإسلام ﷺ لم يقيم دولة ولم يرأس حكومة، ولم يحقق وحدة سياسية، وأنه لم يكن إلا كالخالين من الرسل الذين وقفوا عند حدود تبليغ الدعوة إلى الدين.. إذا كانت هذه القضية قد تفجرت في ذلك التاريخ، لتحدث أكبر وأشهر المعارك الفكرية في تاريخنا الحديث، فإننا نجد السنهورى باشا قد بدأ التناول لهذه القضية - مُنحازاً إلى جمع الإسلام بين الدين والدولة - قبل هذا التاريخ.. بل وقبل سقوط الخلافة العثمانية - الذي مهد لإثارة هذه القضية - سنة (١٩٢٤م).

ففي سنة (١٩٢٣م) يكتب السنهورى في أوراقه الشخصية - عن تأسيس الرسول ﷺ للدولة، إلى جانب تأسيسه للدين.. ويشير - منذ ذلك التاريخ المبكر في حياته الفكرية - إلى نظريته في جمع الإسلام بين الدين والدولة، مع التمييز بينهما - الجمع مع التمييز، دون الفصل أو الوحدة - فتأسيس الرسول ﷺ للدين هو بلاغ عن الله للوحي المعصوم.. بينما تأسيسه للدولة هو اجتهاد منه اقتضته واجبات نصره الدين وحراسته.. فالدولة الإسلامية واجب مدنى اقتضته الواجبات الدينية، الأمر الذى يجعلها ضرورة دينية، وإن لم تكن ديناً خالصاً، وعقيدة من عقائد الوحي السماوى.

تحدث السنهورى عن جمع الإسلام بين الدين والدولة - منذ ذلك التاريخ المبكر - عندما عرض لمنهاج جديد اقترحه لدراسة سيرة النبي ﷺ الذى «شرع قواعد الدين الإسلامى، ووضع إلى جانب تلك القواعد، التى تُعنى بالحياة الأخرى، قواعد للحياة الدنيا التى طالما ذكرها القرآن الكريم، وجعل السعادة فيها من أغراض رسالة محمد ﷺ فوضع ﷺ قواعد لحياة اجتماعية وسياسية وأسس دولة إلى جانب دين..».

ثم يضيف السنهورى مشيراً إلى تميز الدين عن الدولة - قائلاً: «واعتقد أنه ﷺ فى تأسيسه الدين كان نبياً مُرسلاً، وفى تأسيسه الدولة كان رجلاً عظيماً..»^(١).

فلما حدث، وصدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) - إبان الزلزال الذى أحدثه

(١) الأوراق الشخصية، بريس فى (١٠-١١-١٩٢٣م).

سقوط الخلافة الإسلامية - واحتدم الجدل - على نطاق عالم الإسلام - حول علاقة الإسلام بالدولة، وإسلامية الخلافة أو عدم إسلاميتها - وكان السنهورى يعد لرسالته فى الدكتوراه عن القانون - فى فرنسا - قرر الرجل الاشتراك فى هذه المعركة الفكرية، فأنجز - سنة (١٩٢٦م) - رسالة للدكتوراه عن (فقه الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبه أمم شرقية).. وفيها دافع عن نظريته فى جمع الإسلام بين الدين والدولة، مع التمييز بينهما.. هذا التمييز الذى أراد منه أن تصبح الدولة الإسلامية - ومن ثمَّ الخلافة والشرعية .. والقانون الإسلامى .. وفقه المعاملات الإسلامى نظامًا للدولة المدنية، التى لا تقف سلطاتها وسلطانها عند المسلمين وحدهم - كما هو حال الجانب العقدى والشعائرى من الدين الإسلامى وإنما يمتد سلطان هذه الدولة وقانونها الإسلامى إلى كل رعايا الوطن، على اختلاف الملل والشرائع والديانات.. فهدف السنهورى من الجمع - فى الإسلام - بين الدين والدولة هو نفى العلمانية، التى تفصل الدين عن الدولة، بحجة أن الإسلام دين لا دولة.. وهدفه من التمييز بين الدين والدولة، هو - أيضًا - نفى العلمانية، التى يحاول دعايتها أن يتذرعوها - فى الدعوة إليها - بوجود أقليات غير مسلمة فى بلاد الإسلام، فيقولون: كيف نفرض القانون الإسلامى والدولة الإسلامية - وهما دين - على من لا يدين بالإسلام، من الذين تركهم الإسلام وما يدينون؟! هنا تبرز عبقرية - وواقعية وموضوعية - نظرية التمييز بين الدين والدولة فى الإسلام مع جمعه بينهما؛ فالقرآن والسنة - وهما المصادر العليا للدين والشرعية - فيهما العقيدة والعبادات، الخاصة بالمسلمين، كما أن فى الأناجيل العقيدة والعبادات، التى يتدين بها المسيحيون.. ولكن القرآن والسنة فيهما «التوجهات» التى أبدع ووضع الفقهاء المسلمون فى إطارها وظلالها فقه المعاملات الإسلامى، بناءً قانونيًا، فيه فقه الواقع الشرقى لحياة شعوب الشرق، محققًا مصالح الأمة، ومتطورًا - عبر الزمان والمكان والأعراف والمصالح - بواسطة سلطة الأمة فى الاجتهاد والتجديد، التى يمارسها نواب الأمة من العلماء المجتهدين.. فما فى الإسلام من دين خالص - فى العقيدة والعبادات - هو خاص بالمسلمين، لا يفرض على غيرهم الذين تُركوا وما يدينون، وما فى الإسلام من مدنية وفقه معاملات وقانون هو جزء من حضارة شعوب الشرق، إليها تنتمى رعية الدولة الإسلامية، على تعدد ملكها ودياناتها؛ لأنها ميراثها الحلال، ومظهر تميزها الحضارى عن رعايا دول الحضارات الأخرى.. فكما ينتمى الجميع، ويمنحون ولاءهم، إلى العربية - مع

أنها لسان الإسلام والقرآن - وإلى تراث واحد في العلوم والآداب.. كذلك ينتمي الجميع ويمنحون ولاءهم للمدنية الإسلامية وفقه المعاملات الإسلامية، المحكوم «بتوجهات» الجانب المدني في الإسلام، والتميز عن الجانب العقدي والشعائري في دين الإسلام.

خاض السنهوري - في رسالته عن (الخلافة) - هذه المعركة حول علاقة الدين بالدولة في الإسلام؛ بل وأفرد لنقد ونقض كتاب (الإسلام وأصول الحكم) واحدة من فقرات رسالته هذه تحت عنوان «رأى شاذ»، قال فيها - ضمن ما قال - ردًا على دعوى على عبد الرازق أن رسول الله ﷺ لم يؤسس دولة، ولم يقيم حكومة:

«إن النبي ﷺ قد وضع لحكومته أصلح النظم الممكنة في زمنه؛ لأنها تتناسب مع حال المجتمع - كما فعل «سولون»^(١) في أثينا - ولا يعاب عليه أن حكومته لم تشمل النظم الموجودة في الدول في العصر الحاضر؛ لأن هذه النظم ما كانت تناسب المجتمع الذي كان يعيش فيه، ومع ذلك فإن حكومة النبي أقامت دولة حقيقية لا تقل في نظمها عن الدولة الرومانية في بدايتها، فالنبي قد وضع بالفعل النظم السياسية للدولة الإسلامية، فأوجد نظامًا للضرائب وللتشريع، ونظمًا إدارية وعسكرية.. إلخ، وهذه النظم كانت تحمل في طياتها عوامل التطور والنمو مع الزمن، وقد تطورت فعلاً دون أن تخرج بذلك عن كونها مؤسسة على الإسلام.

فنحن نرى أن السلطات التي باشرها النبي إنما كانت أنظمة مدنية حقيقية، كأى حكومة أخرى؛ فقد كان يفرض بمقتضاها عقوبات جنائية على من خالف أحكام التشريع الإسلامية، ولم يكتفِ بالجزاءات الأخروية التي يفرضها الدين، وكان له عمال إداريون وماليون، وكان له جيش مسلح، إنه كان حاكمًا دنيويًا إلى جانب صفته كنبى مرسل.

فالنبى حامل الرسالة الإسلامية، كان مؤسس الدولة الإسلامية أيضًا، فقد أوجد الوحدة الدينية للأمة العربية، وأوجد إلى جانبها الوحدة السياسية للجزيرة العربية؛ بل يمكن القول أنه أنشأ حكومة مركزية بالمدينة، وعين حكامًا للأقاليم خاضعين لتلك

(١) سولون (Solon) (٦٤٠ - ٥٥٠ ق.م) أحد حكماء اليونان السبعة، واشتهر بالقوانين التي سنّها لدولة أثينا، والتي خففت الأعباء عن الفقراء.

الحكومة، كما حدث في اليمن وغيرها من الأقاليم، والصحابة - بعد وفاة النبي لم ينشئوا دولة، وإنما وسَّعوا رقعة الدولة التي أنشأها، والتي كان يتوقع لها الاتساع، وتنبأ به قبل وفاته، ولم يفعل الصحابة أكثر من السير على الخطة التي بدأها وتحقيق نبوءاته..»^(١).

هكذا قدم الدكتور السنهوري نقده لكتاب (الإسلام وأصول الحكم)، مثبتاً أن الإسلام دين ودولة، وأن الرسول ﷺ قد أسس دولة، وأقام حكومة مركزية، لها عمال إداريون وماليون على الأقاليم، ولها نظم سياسية وإدارية وعسكرية وجنائية.. وأن دولة الخلافة الراشدة - التي لا ينكر قيامها أحد - لم تكن إلا توسعاً للدولة النبي ﷺ.

وفي سنة (١٩٢٩م) يعود الدكتور السنهوري إلى ذات القضية - علاقة الدين بالدولة في الإسلام - فيجعل ذلك عنواناً لبحث من أبحاثه البالغة الأهمية في هذا الموضوع.. وفيه يؤكد على جمع الإسلام بين الدين والدولة، ويفصّل في تمييز الإسلام - أيضاً - بينهما.. مع الحديث عن اشتمال الإسلام لقانون إسلامي خاص: يحكم علاقات الأفراد، وعام: يحكم علاقات الحكام بالمحكومين، ونظام المؤسسات العامة، ودولي خاص: يحكم علاقات الدول الإسلامية بعضها ببعض الآخر، ودولي عام: يحكم مبادئ العلاقات الدولية العالمية.. كما يتحدث - في هذا البحث: (الدين والدولة في الإسلام) - عن سلطات الدولة الإسلامية التشريعية: التي يتولاها الفقهاء المجتهدون، نيابة عن الأمة، صاحبة السلطة الأصلية في التشريع لفقه المعاملات، وكيف تميزت هذه السلطة - سلطة الإجماع - بأنها نظام نيابي غير منتخب؛ لأنه يميز أهله بالرسوخ في العلم، لا باقتراع غير المتخصصين.. وكيف يحقق هذا المصدر التشريعي الإجماع - مرونة الشريعة ومواكبتها لكل المتغيرات، عبر الزمان والمكان والمصالح المتجددة.. وعن السلطة التنفيذية الإسلامية التي يقتضيها وجود قانون إسلامي.. فلا معنى لوجود قانون بغير سلطة قضائية تقضى به، وأخرى تنفيذية تقوم على تطبيقه بين الناس..

تحدث السنهوري عن كل ذلك فقال: «يمتاز الإسلام بأنه: دين ودولة، وقد أرسل

(١) فقه الخلافة وتطورها (ص ١٠٥-١٠٧)، ترجمة: د. نادية عبد الرزاق السنهوري، مراجعة وتقديم: د. توفيق الشاوي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٩م).

النبي ﷺ لا لتأسيس دين فحسب؛ بل لبناء قواعد دولة تتناول شئون الدنيا، فهو بهذا الاعتبار مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبي المسلمين، وهو بصفة كونه مؤسس حكومة، كانت له الولاية على كل من كان خاضعاً لتلك الحكومة، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وبوصف كونه نبياً لم يكن يطلب من غير المسلمين من الذين تركهم على دينهم الاعتراف بنبوته، ولو أن دعوته عامة شاملة لجميع البشر.

ومن هنا وجب التمييز بين الدين الإسلامي والدولة الإسلامية، وإن كان الإسلام يجمع بين الشئيين، وفائدة هذا التمييز في أن مسائل الدين تدرس بروح غير التي تدرس بها مسائل الدولة، فالدين ينظر إلى العلاقة بين العبد وخالقه، وهذه لا تتغير، ولا يجب أن تتغير، فالخالق سبحانه وتعالى أبديٌّ أزليٌّ، لا يجوز عليه التغير ولا التبديل، فالعلاقة بينه وبين العبيد ثابتة لا تتطور، أما مسائل الدولة فالنظر فيها يكون نظر مصلحة وتدبير..

إن الأحكام في مسائل الدولة تتطور مع الزمان والمكان، فهي تابعة للتطور الاجتماعي الذي يهديننا إليه العلم، وهي أحكام خاضعة للعلم المبني على العقل، فهي تابعة بالضرورة لما يكشفه العلم الاجتماعي من قوانين التطور..

ولئن صح أن النبي كان في مكة نبياً فحسب، فلقد كان في المدينة زعيم أمة ومنشئ دولة، ولا ضير أن نقول: إنه كان ملكاً إذا أريد بهذه اللفظة أنه كان رأس الحكومة الإسلامية، وولياً على المسلمين في أمور دنياهم، كما كان الهادي لهم في شؤن دينهم، ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - يجعل لأوامره ونواهيه - وهي لا شك من عند الله - جزاء يصيب الناس في أنفسهم وأموالهم في هذه الدنيا، ولم يقتصر على مجرد الوعد والوعيد بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى.

تبين - إذن - أن الدين والدولة في الإسلام شيان مجتمعان، وأن التمييز بينهما مع ذلك له أهمية كبرى؛ وإذا اقتصرنا - نحن المشتغلين بالقانون - على الفقه، وجدنا أن الفقهاء أدركوا ضرورة هذا التمييز، فوضعوا أبواباً للعبادات، وأبواباً للمعاملات، وبذلك فرقوا بين المسائل الدينية، والقانون بمعناه الحديث؛ لذلك يجب أن نقصر من الفقه في أبحاثنا على أبواب المعاملات، فهذه هي الدائرة القانونية.. وإذا أردنا إلا أن نبقي الشريعة على معناها المصطلح عليه من قديم، من أنها تشمل العبادات

والمعاملات، فلنخلق اصطلاحاً آخر يدل على ما أردناه، ولنسمّ أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات «بالقانون الإسلامى»، ولندخل ضمن هذا القانون - إلى جنب هذا الجزء من علم الفقه - علم أصول الفقه؛ وهو يبين لنا مصادر القانون، وكيفية استنباط الأحكام من تلك المصادر، ولندخل أيضاً فى القانون الإسلامى جزءاً من علم الكلام - وهو المتعلق بمباحث الإمامة - فإن هذا أساس القانون العام، ولنقسم القانون الإسلامى بهذا التحديد إلى: قانون خاص، وقانون عام.

فالقانون الخاص: يشمل القواعد التى تضبط علاقات الأفراد بعضها البعض الآخر، فأبواب المعاملات، والأحوال الشخصية تدخل فى القانون الخاص.

والقانون العام: يشمل القواعد التى تسرى على السلطات العامة، وعلاقة هذه السلطات بالأفراد، وإذا أردنا أن نحدد فى كل قسم فروعه سهل علينا - دون كبير مشقة - أن نجد فى القانون الإسلامى الخاص: قانوناً مدنياً، وقانون مرافعات، وأساساً لقانون تجارى، وأن نجد فى القانون الإسلامى العام: قانوناً دستورياً، وقانوناً إدارياً، وقانوناً جنائياً، ولأمكن أن نكشف أصولاً بنى عليها: قانوناً دولياً عاماً، وقانوناً دولياً خاصاً.

أهمية تقسيم القانون الإسلامى على هذا التقسيم الحديث:

أن ذلك يرتب أبواب هذا القانون ترتيباً أقرب إلى نظام المدنية الحديثة، وأكثر انطباقاً على طرق البحث القانونية، بعد أن تخطى علم القانون أدواراً غير قليلة فى سبيل الرقى.

ولا يراد بهذا التقسيم أن تندمج الشريعة الإسلامية فى القانون الحديث، وأن تفقد استقلالها، وإنما يراد بهذا تسهيل المقارنة بين الشيئين، وفتح باب لترقية طرق البحث فى الشريعة الإسلامية بحيث تتماشى مع القانون الحديث فى تقدمه.

ولعلنا نجد فى تقسيم الأصوليين الحقوق إلى: حق للعبد، وحق لله، وحق مشترك ولكن حق العبد غالب؛ وحق مشترك ولكن حق الله غالب. فحقوق العبد، والحقوق المشتركة التى فيها حق العبد غالب. تصلح - كما أرى - أن تكون موضوعات للقانون الخاص، وبعض حقوق الله، وكذلك الحقوق المشتركة التى فيها حق الله غالب، تصلح أن تكون موضوعات للقانون العام..^(١)

(١) الدين والدولة فى الإسلام، مجلة المحاماة الشرعية سنة (١٩٢٩ م).

وبعد هذا العرض لمذهب الإسلام فى الجمع بين الدين والدولة، مع التمييز بينهما، ودلالات وأبعاد كل من الجمع والتمييز بين الدين والدولة.. وبعد هذا المنهاج - الذى عرضه السهنورى لتبويب القانون الإسلامى، وفقه المعاملات التبويب العصرى، المواكب لمقتضيات المدنية الحديثة، والرقى الذى أحرزه القانون الحديث فى التبويب والصياغة والتقنين.. بعد كل ذلك، عرض السهنورى تصوره للسلطة التشريعية فى النظام الإسلامى للدولة الإسلامية.. وهى سلطة نيابية عن الأمة، تتكون من العلماء المجتهدين.. فالأمة ونوابها المجتهدون، هم سلطة التشريع فى حدود الكتاب والسنة.. وهذه السلطة، التى يعبر عنها فى مصادر التشريع «بالإجماع» هى مفتاح تميز القانون الإسلامى مع إسلاميته - بالتطور والنمو والمرونة دائماً وأبداً.

«فالإجماع هو اتفاق المجتهدين فى عصر من العصور على حكم شرعى، وليس المجتهدون طبقة من الطبقات كما كان معهوداً فى طبقة النبلاء، أو طبقة الكهنة؛ بل لكل مسلم أن يكون مجتهداً إذا وصل العلم بالاجتهاد.

فمعنى أن الإجماع قانون: أن طائفة من المسلمين ينبون عن الأمة الإسلامية، ونيابتهم آتية لا بطريق التصويت العام، كالمعتاد فى المجالس النيابية الحديثة؛ بل بطريق العلم. وهذه الطائفة تملك قوة التشريع فى حدود الكتاب والسنة، فحكومة المسلمين حكومة علماء.. لقد جعل الله الأمة الإسلامية صاحبة السلطان فى شؤونها ما دامت تستعمل ذلك السلطان فى حدود الكتاب والسنة. ولما كان غير متيسر أن يشترك كل فرد من أفراد الأمة فى ذلك السلطان، كان لابد أن يكون للأمة ممثلون يتوفرون على ما يجب من كفاءة خاصة، وهم: المجتهدون، يستعملون ذلك السلطان باسمها، لا باعتبار أنهم سادة عليها؛ بل وكلاء عنها، فالأمة هى صاحبة السلطان، وهى خليفة الله فى أرضه، وتستعمل سلطانها بواسطة وكلاء عنها، فإن أردنا أن نبحت عن السلطة التشريعية فى الدولة الإسلامية وجدناها، بعد الله سبحانه وتعالى فى الأمة نفسها، لا فى فرد من الأفراد، ولا فى طبقة من الطبقات..»^(١).

وغير هذه السلطة التشريعية - فى الدولة الإسلامية - هناك «السلطة التنفيذية»

(١) الدين والدولة فى الإسلام، مجلة المحاماة الشرعية، سنة (١٩٢٩م).

- أى: الحكومة، وفق اصطلاحاتنا الحديثة - وهى سلطة يقتضيها وجود «القانون الإسلامى»، الذى تشريعه الأمة بواسطة «الإجماع».. وبعبارة السنهورى: «فما دام لدى المسلمين (قانون إسلامي) فليديهم حكومة إسلامية»^(١)؛ إذ من العبث وجود قانون بدون سلطة قضائية تحكم به.. ومن العبث الأكبر وجود قانون، ووجود أحكام وفق هذا القانون، بدون سلطة تنفيذية تقوم على تطبيق هذا القانون وهذه الأحكام.

ولقد عرض الدكتور السنهورى فى بحثه هذا عن (الدين والدولة فى الإسلام) كما سبق وعرض فى رسالته عن (فقه الخلافة) - لحكومة الخلافة الإسلامية، ولتمييزها عن السلطات التنفيذية فى النظم غير الإسلامية.. تميزها بالبعد الدينى فى سلطانها، بجانب السلطة المدنية التى تشترك معها فيها الحكومات غير الإسلامية.. كما عرض لهذه الخلافة وتطورها التاريخي، وكيف مرت بمرحلة الخلافة الكاملة، التى تلتها مرحلة الخلافة غير الكاملة.. عرض لهذه السلطة التنفيذية، فقال: «أما السلطة التنفيذية فى الإسلام فهى: حكومة الخلافة، والخلافة حكومة خاصة تمتاز عن سائر الحكومات بالمزايا الآتية:

أولاً: أن الخليفة ليس حاكماً مدنياً فحسب؛ بل هو أيضاً الرئيس الدينى للمسلمين، ولا يتوهم أن للخليفة سلطة روحية شبيهة بما تنسبه النصارى للبابا فى روما، فالخليفة لا يملك شيئاً من دون الله.. ومعنى أنه الرئيس الدينى للمسلمين أن هناك مشاعر عامة يقوم بها المسلمون جماعة، كصلاة الجماعة، والحج، وهذه لا تتم إلا بإمام، هو الخليفة.

ثانياً: أن الخليفة فى استعمال سلطته التنفيذية يجب عليه أن يطبق أحكام الشريعة الغراء.

ثالثاً: أن سلطان الخليفة يجب أن ينبسط على جميع العالم الإسلامى، فوحدة الإسلام حجر أساسى فى الدولة الإسلامية، ووحدة الإسلام تستتبع وحدة الخليفة، وهذه هى الخلافة الكاملة..

ولكن الظروف قد تلجئ المسلمين - وقد تمزقت وحدتهم - أن ينقسموا أمماً،

(١) الدين والدولة فى الإسلام، مجلة المحاماة الشرعية، سنة (١٩٢٩م).

لكل أمة حكومتها، فيجوز تعدد الخليفة للضرورة، ولكن الخلافة هنا تكون خلافة غير كاملة.

على أن الخلافة الكاملة يمكن تحقيقها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلاً، بل يكفي على ما أرى - أن تتقارب الحكومات الإسلامية المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعضبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولا سيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل عنها، يكون مقصوراً على النظر في الشؤون الدينية للمسلمين..»^(١).

هكذا عرض السنهوري باشا لعلاقة الدين بالدولة في الإسلام.. ولمنهاج تحديث التبويب لفقه المعاملات الإسلامى.. وللسلطات فى نظام الدولة الإسلامية.. وتميز هذه الأمور فى النموذج الإسلامى عنها فى النماذج الأخرى للدول والحكومات والنظم غير الإسلامية.

وفى سنة (١٩٣٦م) عرض لذات القضية - شمول الإسلام للدين والدولة - مستخدماً تعبيراً جديداً، وهو أن الإسلام - فى شموليته - هو دين السماء ودين الأرض جميعاً.. فقال: «إن هذا الدين، الذى أتى به النبى ﷺ، هو دين الأرض كما هو دين السماء؛ بل لعله بالوصف الأول أقرب إلى العقل البشرى، وأنفذ إلى قلب الإنسان.. فالإسلام لا يبشر بنعيم الآخرة وبيجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار فحسب؛ بل هو يبشر أيضاً بتاج كسرى وإيوانه وعرش قيصر وسلطانه، يبشر بالأرض تدين لسلطان المسلمين، ويستخلف الله فيها من عباده الصالحين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، فالمسلم له عين إلى الأرض وعين إلى السماء، يعمل لديناه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً..»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) نبى المسلمين والعرب، سنة (١٩٣٦م).

وفى سنة (١٩٥٣م) .. عاد السنهورى إلى ذات القضية، وهو يكتب عن مشروعه لصياغة قانون مدنى عربى واحد، مرجعيته الفقه الإسلامى .. فتحدث عن شمول الإسلام للدين والدولة، وعن تمايزهما المتجسد فى تميز الفقه، الذى وضعه الفقهاء المسلمون فى إطار توجهات الكتاب والسنة - كعلم قانونى كما وضع فقهاء الرومان القانون الرومانى .. عرض السنهورى لهذه القضية فقال: «لا شك أن الإسلام دين ودولة، والدولة لا بد لها من فقه، ولكن فقهاء الشريعة الإسلامية كانوا يدركون إدراكاً تاماً، الحد الفاصل بين الفقه - وقد وضع لتعامل الناس وتنظيم علاقاتهم ببعضهم البعض - والدين - وهو أمر يتصل بعلاقة الإنسان بربه - حتى لثراهم يميزون فى الشيء أن يكون صحيحاً قضاءً مكروهاً ديانةً.

فالفقه الإسلامى هو فقه محض، لا تقل عراقته فى ذلك عن عراقه القانون الرومانى، وهو لا يقل عنه فى دقة المنطق وفى متانة الصياغة وفى القابلية للتطور، وهو مثله صالح أن يكون قانوناً عالمياً؛ بل كان بالفعل قانوناً عالمياً يوم امتدت دولة الإسلام من أقاصى البلاد الآسيوية إلى ضفاف المحيط الأطلسى، وكما أثبت القانون الرومانى بعد أن أحييت دراسته فى العصور الوسطى - القوانين اللاتينية والقوانين الجرمانية الحديثة، وهى القوانين التى تعيش أوربا فى ظلها، كذلك الفقه الإسلامى، إذا أحييت دراسته، وانفتح فيه باب الاجتهاد، قمين بأن ينبت قانوناً حديثاً لا يقل فى الجودة وفى مسابقة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية، ويكون هذا القانون مشتقاً من الفقه الإسلامى اشتقاق هذه القوانين الحديثة من القانون الرومانى العتيق.

هذه هى عقيدتى فى الفقه الإسلامى؛ تكونت لا من العاطفة والشعور فحسب؛ بل تضافر فى تكوينها الشعور والعقل، ومكن لها شىء من الدرس. وأكثر ما كان درسى للفقه الإسلامى عند وضع القانون المدنى العراقى، فإن هذا القانون مزاج صالح من الفقه الإسلامى والقانون المصرى الجديد، فأتاح لى اطلاعاً على نصوص الفقه الإسلامى، سواء أكانت مقننة فى «المجلة»^(١). و«مرشد الحيران»^(٢)، أو كانت معروضة عرضاً فقهياً فى أمهات الكتب وفى مختلف المذاهب، أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع، وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور...»^(٣).

(١) مجلة الأحكام العدلية، التى قننت فيها الدولة العثمانية فقه المذهب الحنفى سنة (١٨٦٩م).

(٢) للفقهاء والقانونى البارز محمد قدرى باشا، وهو تقنين متقدم لفقه المذهب الحنفى.

(٣) القانون المدنى الغربى سنة (١٩٥٣م).

هكذا تكلم السنهورى باشا عن علاقة الدين بالدولة فى الإسلام.. وكيف جمع الإسلام بين الدين والدولة، مع التمييز بينهما، فقدم نموذجاً فريداً فى هذا الميدان.. نموذجاً يجعل الدولة إسلامية ومدنية فى ذات الوقت.. ويجعل قانونها إسلامياً ومدنياً فى ذات الوقت، محكوماً بتوجهات الوضع الإلهى، ومستجيباً - بالاجتهاد البشرى لكل المستجدات فى فقه الواقع المتطور، عبر الزمان والمكان والمصالح والأعراف.. ويجعل الأمة مصدراً للسلطات التشريعية، دون خروج على ثوابت توجهات الكتاب والسنة.. ويجعل من مصدر الإجماع نظاماً نيابياً - فى السلطة التشريعية - ليس له نظير فى الأنساق التشريعية الأخرى.

وكيف أثمر هذا النموذج الإسلامى قانوناً لبى حاجات أمة وحضارة وإمبراطورية عظمى لأكثر من عشرة قرون.. حتى جاء الاستعمار فعزل هذا النموذج الإسلامى من على عرشه، وأجلس مكانه فقه نابليون، بدلاً من شريعة محمد بن عبد الله ﷺ وفقه الفقهاء المسلمين العظام.

عرض السنهورى هذه القضية، عرض الخبير بالنموذج الإسلامى وبالمنظومات القانونية الغربية جميعاً.. ليدعو أمتة إلى الجهاد القانونى والفقهى كى نواصل مسيرة الأمة وفقهائها العظام.

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

[١٣٢٧-١٣٩٠هـ - ١٩٠٩-١٩٧٠م]

بطاقة حياة الشيخ الفاضل بن عاشور

- إنه الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [١٣٢٧-١٣٩٠هـ / ١٩٠٩-١٩٧٠م].. ولد في تونس وتربى ونشأ في بيت من أعظم بيوت العلم الإسلامي في تونس.. حيث كانت شهرة والده وإنجازاته في العلوم الإسلامية قد طبقت الآفاق.

- وفي المعهد الزيتوني جامعة الزيتونة - درس وتخرج عالمنا محمد الفاضل.. وتولى التدريس في هذه الجامعة الدينية العريقة.. وترقى حتى أصبح عميداً لها.

- ولقد جمع إلى العلم الشرعي، ملكة الأديب، وموهبة الخطيب.. والإبداع في فلسفة الحضارات.

- ولم يقف به نشاطه عند علم العلماء وأدب الأدباء.. وإنما شارك مشاركة نشطة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، الذي كان يفرض احتلاله العسكري وهيمنته السياسية والاقتصادية والثقافية على تونس في ذلك التاريخ.. ولقد جمعت هذه المشاركات ما بين التصدي للاحتلال العسكري والهيمنة الإدارية وما بين مقاومة «الفرنسة» ومحاربة «التغريب» والاستلاب الحضاري.. والدفاع عن الشريعة الإسلامية.

- كذلك تولى شيخنا محمد الفاضل بن عاشور منصب القضاء بتونس.. وارتقى على سلم الولايات الدينية حتى تبوأ منصب الإفتاء في القطر التونسي.

- وإلى ما وراء الحدود التونسية امتد علم عالمنا الجليل، فألقى المحاضرات في

العديد من الجامعات.. فى السربون - بفرنسا - وجامعة إسطنبول - فى تركيا - وجامعة عليكرة - بالهند.. إلخ.

وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية.. ومؤتمرات المستشرقين.. ونال عضوية مجمع الخالدين - مجمع اللغة العربية - بالقاهرة.. ورابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة.

- ولقد كان الشيخ محمد الفاضل بن عاشور - مثل والده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - حلقة من سلسلة علماء مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] لتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام.

- ومن آثاره الفكرية والأدبية - غير هذه الرسالة التى نقدم بين يديها - كتابه النفيس عن (التفسير ورجاله).. وكتبه عن (أعلام الفكر الإسلامى وتاريخ المغرب العربى) و(أركان الحياة العلمية بتونس) و(أركان النهضة الأدبية بتونس).. وغيرها من آثاره فى الفقه، والفتوى، واللغة العربية.

روح الحضارة الإسلامية

للشيخ محمد الفاضل بن عاشور

[١٣٢٧-١٣٩٠هـ - ١٩٠٩-١٩٧٠م]

فى هذه الدراسة النفيسة، التى كتبها عالمنا الجليل الفاضل بن عاشور عن (روح الحضارة الإسلامية) يعالج معضلة المعضلات فى محاولات الأمة الإسلامية الدائبة - منذ قرون وحتى هذه اللحظات - للانعتاق من قيود التخلف الحضارى الذى يأخذ منها بالخناق.

* * *

لقد كانت الصناعة الثقيلة التى بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هى صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذى تدين بدين الإسلام.

وكانت «دار الأرقم بن أبى الأرقم» - فى مرحلة سرية الدعوة الإسلامية - أى منذ فجر تلك الدعوة هى أولى المؤسسات التربوية التى أقامها رسول الإسلام ﷺ.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغير الواقع، وتطبيق القانون، وبلورة العلاقات الدولية، كان الفتح الإسلامى للقلوب والعقول بهدى القرآن الكريم، ذلك الذى أصبح خلقاً وسلوكاً وممارسات، وسجية للحياة التى يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التى فتحها المسلمون - قبل الهجرة النبوية، وقبل الدولة الإسلامية - وهى المدينة المنورة - قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم!

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية - بالتربية - للإنسان.. جاءت كل الإنجازات والفتوحات، وفى ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها.. فكانت تجسيداً لهذا الذى سبق وتم إنجازاه فى نفس الإنسان، جاءت جميعها مصاغة

بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدى الإسلام.

- إن الدعوة الدينية - في الإسلام - لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقيق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة، والمجتمع، والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام، فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوى بآياته فى الأنفس والآفاق.

- إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردى والخلق الذاتى، وإنما لابد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب والتكليف بها للأمة، وهذه الفروض الاجتماعية أهم وأكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

- وفى دين الإسلام، اقترنت الهجرة فى سبيل الله بتأسيس الدولة وإقامة المجتمع وتطبيق القانون وإقامة نسيج اجتماعى بين الرعاية يحقق المؤاخاة لا فى الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما فى أمور المعاش الدنيوية أيضًا.. بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى فى الدين إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هى الجهاد الذى هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

- لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثرًا تكوينيًا تربويًا فى شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانيًا حقق ائتلاف العناصر الفردية فى المجتمع الإسلامى، الطبيعى منها والشرعى، المدنى منها والدينى، العقلى منها والنقلى، المادى منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذى صاغته الدعوة

الإسلامية.. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.. فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدنية، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها، بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين.. وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين.

بينما تميز الإسلام بكونه ديناً فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألف في نفس الإنسان - بالمنهاج التربوي الشامل - ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين.. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان - أي الحضارة الإسلامية - ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه والذي حدث منذ قرون، والذي تطب لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام.

- ومن دعوات الإصلاح من سلك طريق الفردية المطلقة، الباحثة عن خلاص الذات الفردية، وتنكب طريق المجتمع والحضارة كالصوفية المغالية في التحلل من الضوابط والمعايير الاجتماعية للشريعة.. ومن المصلحين من أرجع الداء إلى الفكر كحجة الإسلام الغزالي [٤٥٠-٥٠٥هـ / ١٠٥٨-١١١١م]، ومنهم من ركز على تنقية العقيدة مما شابها وطراً عليها كشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م]، ومنهم من عالج جانب الشريعة بإبراز مقاصدها كالشاطبي [٧٩٠هـ / ١٣٨٨م]، ومنهم من ركز على الجانب السياسي في عوامل الخلل كجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ / ١٨٣٨-١٨٩٧م]، ومنهم من لفت الأنظار إلى إصلاح مناهج الفكر والتجديد كالإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م].

- ثم كان العصر الحاضر - عصر الأخذ عن الغرب - والذي شهد ثمرات واضحة لكل دعوات الإصلاح السابقة.. ومع ذلك بقي الخلل.. وبقيت الأمة تبحث عن مفتاح الإصلاح، وطريق الخلاص والنهوض.

- وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضارى، وازدهارهم

الثقافي.. فما سبب التخلف الذى أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو على حاله الذى كان عليه عندما فُجِّرَ ينباع التقدم فى الحياة الإسلامية؟

إن السبب هو غيبة الروح - روح الدين الإسلامى عن الحضارة - الحضارة الإسلامية - هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التى جعلت الحضارة إسلامية بل والتى فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام.

لقد جلس الحسن البصرى [٢١- ١١٠هـ / ٦٤٢- ٧٢٨م] إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسن الواعظ: «يا أخى، أبقلبك مرض أم بقلبي؟!..»
إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضارى، الذى تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هى هذه الروح التى جعلت الإسلام، دون الديانات الأخرى، يصنع حضارة وثقافة، ولا يقف عند مجرد الدين؟..

وأيّن موطن الخلل الذى عطل الفعل الإسلامى فى الحضارة والثقافة.. فتراجعت الحضارة الإسلامية؟ وضُمِرَت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام الدين كما هو. وبقاء الإيمان به والاستمسك بعراه؟

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن: تميز الإسلام الدين بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة:

١- «فإذا كان الإسلام باعتباره ديناً يشترك مع غيره من الأديان فى القضايا التى هى موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحى ينفرد بها عن تلك الديانات، التى اشترك معها فى القضايا الدينية بصفة عامة إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التى نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التى نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هى سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها.. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم.. وإنما أصبح كل موضوع علمى ذا صلة بالعقيدة الدينية.. وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج..

ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الدينى الاعتقادى

فى كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله.. فصار الداعى الدينى يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن.. وصارت المعرفة العلمية سنداً لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفى، على الصورة التى ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية، يتجانس فيها العلم مع الدين ويتساند العقل والنقل.. لقد تكون المجتمع الإسلامى بإثر دعوة دينية.. إنه مجتمع دينى بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر.. ومن دعوة الدين والإيمان بها اكتسب الشعب الذى استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلافاً نفسية جديدة.. لم يستفد علماً ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذى اكتسبه من خلال طوع العلم والصناعة والقوة المادية فكانت المدارك الدينية وحدها هى التى فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار والمعرفة والإيمان.

فالحقيقة الاعتقادية الإلهية هى الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية، وإنسان هذه الحضارة بالدين فكر.. وبالدين تحضر.. وبالدين أنتج آثار حضارته.. وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته، وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة فى نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة فى مظاهر الحضارة».

٢- كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام فى مصادر المعرفة الإنسانية.. «فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها هى فى متناول الإنسان يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المتدرجة، المستند بعضها إلى بعض، فى غير تنافر ولا تدابر ولا تناقض.. فالمدرجات الغريزية وراءها المدرجات الحسية.. ثم المدرجات الحسية وراءها المدرجات العقلية.. ثم المدرجات العقلية تؤدى إلى المقدمات المفضية إلى تلقى المدرجات الغيبية الآتية من طريق الوحي وإلى التسليم بها والإذعان لها.. وتبقى هذه المدرجات كذلك متعاونة متساندة لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطرق يمكن أن يتصل به طريق آخر منها حتى تنتهى إلى الإذعان للمدرجات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة وهو طريق الوحي».

فعقل الإنسان وعقيدته وحسه المادى وعواطفه الغريزية كلها متجانسة متعاونة لا يخشى بعضها بعضاً ولا يقطع أحد سبيل الآخر.

لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعاً منسجماً فى ذاته آمناً إلى نفسه فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات.

٣- لكن.. ما الذى حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهللت ثقافتها.. مع بقاء الإسلام الذى صنعهما وحقق لهما الازدهار الذى دام لعدة قرون كانا فيه منارة للعالمين على ما هو عليه؟.. «لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام.. وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. وكاتنا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده.. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامى، فى حضارته وثقافته ليس إلا أمراً آتياً من انحراف عن الأصل، وانقلاب فى الوضع، وانفلات عن العامل التربوى الأصلى الذى لزم الأصول، وأحكم الأوضاع.. فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها واضطربت أوتادها..».

فالخلل لم يحدث فى ذات الإسلام.. وإنما فى توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة.. وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة.. وغربة الحضارى عن الدينى.. وتفكيك الدين عن الدنيا.. «وإن تبين الناحية من العقيدة التى أصابتها العلة، هو الذى يكشف عن الأسباب التى قضت بضعف الحضارة وتهللهها..

إن الذى حدث فى العقيدة الدينية وقضى بتضعف الحضارة إنما هو انكماش صدها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة حائرة جامدة لا تتقدم.. وما كان ذلك الانكماش إلا أثراً من آثار الضعف، الذى أصاب العقيدة فى جوهرها.. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هى التى خارت وضعفت، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه فصارت هى فى واد والعقيدة الدينية فى واد.. وبقي المسلم وفيّاً لعقيدته الدينية غيوراً عليها من جهة، متقبلاً لحياته العملية مطمئناً إلى واقعها من جهة أخرى، حتى أصبح المبدأ النظرى والواقع العملى عنده متبايناً، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار

أن الدين خير غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبه ديناً لا يؤثر فيه إلا لمأماً ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين.

ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة، فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية كما تناول المدنية التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامداً، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..».

ذلك هو موطن الخلل.. الذي كان ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ / ١٣٣٢-١٤٠٦م] من أفضل من أدركه، وحلله.. «لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقاً، عندما جعل شئون السياسة، والعمران، والصناعة، والعلم، في الدولة الإسلامية، تبعاً لشأن الدين.. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساساً لذلك كله فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة وركود العمران - في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة - وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهد، جاعلاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعنى العقيدة الدينية فرد ذلك كله إلى صورة تكون الفرد تكويناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته ويسرى منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية.

وإذا كان الناس يكتفون بأن يعللوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها، فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عرض لعلّة تغير الوازع الديني إلى مقاصد التغلب والقهر، والتقلب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين.

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية..».

٤- وإذا كانت هذه هي المشكلة.. فما هو حجمها؟.. وما هو عمرها؟.. إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين.. وعمرها ليس بالقصير.. «وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوت وانكششت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطامًا، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه، ولكنها الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى»..

٥- وأخيرًا.. وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا.. فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة.. والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة.. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة.. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. «فلولا التكون الفردي المكي، والتكون الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام.. فإذا كان الناس اليوم يحنون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويحرقون إلى إحيائها وتجديدها فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كَوَّن الفرد قبل أن يكوِّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألفت كيانها».

أما إذا وقفنا عند «استقلال العلم والنشيد» دون حقيقة «الاستقلال الحضاري» الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه.. «لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟

إن نهضة اليابان ليست بوزية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأى حال من الأحوال. فهل سيكون شأن الإسلام مقصوراً على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية الناهضة المستقلة.. إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسى للمشكلة».

* * *

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التى حار ويحار فيها المصلحون.. روح الحضارة الإسلامية، التى صنعت وميزت الحضارة والثقافة فى عصور النشأة والازدهار.. وموطن الخلل الذى جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل.. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضارى الذى تعيشه أمة الإسلام.

ولقد تناول هذه القضايا الكبرى، العالم الجليل الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى هذه الصفحات التى تمثل عملاً فكرياً نفسياً.. والذى نقدمه إلى الباحثين والقراء قبساً من التنوير الإسلامى لينير لهذه الأمة طريق التقدم والنهوض بالإسلام.

والله نسأل أن ينفع به.. وأن يجعله فى ميزان حسنات صاحبه.. إنه أفضل مسئول وأكرم مجيب..

العلامة محمد إقبال

[١٢٩٤-١٣٥٧هـ - ١٨٧٧-١٩٣٨م]

بطاقة حياة الفيلسوف إقبال

- هو العلامة: محمد إقبال بن محمد نور بن محمد رفيق [١٢٩٤-١٣٥٧هـ / ١٨٧٧-١٩٣٨م].. فيلسوف كبير.. وشاعر الإسلام الكبير.

- ولد في مدينة سيالكوت - في شبه القارة الهندية - قبل التقسيم - وهذه المدينة تقع اليوم في دولة باكستان.

- وأسرة إقبال ذات أصول هندوسية، اعتنق أحد أجداده الإسلام قبل ثلاثة قرون من مولده.

- ولقد حفظ إقبال القرآن الكريم.. ولازمته نصيحة والده له، التي قال له فيها: «اقرأ القرآن، وكأنه يتنزل عليك».. ثم التحق بمدرسة الإرسالية الاسكتلندية.. ثم انتقل إلى «لاهور» سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م.. ولقد تخرج في جامعة البنجاب في لاهور ونال إجازة الآداب سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م.. وحصل على الماجستير في الفلسفة سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م، وعمل أستاذًا بكلية لاهور، وبكلية الحكومة وفي ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م التحق إقبال بجامعة «كمبردج» و «لندن» حيث درس القانون والفلسفة والاقتصاد.. ثم التحق بجامعة «ميونيخ» الألمانية.. ومنها نال الدكتوراه في الفلسفة.. ثم عاد إلى لندن فأدى الامتحان النهائي في الحقوق والاقتصاد.

- وفي سنة ١٣٢٦هـ / سنة ١٩٠٨م عاد إقبال إلى الهند.. ومارس المحاماة مدة وجيزة.. ثم عمل بالتدريس في الكلية الحكومية بلاهور.. ثم استقال منها بعد عامين ونصف العام.

- واهتم إقبال بشئون العالم الإسلامي بتحرره من الاستعمار.. وبنهوضه

الحضارى فناصر ثورة ليبيا ضد الغزو الفاشى الإيطالى.. وناصر الدولة العثمانية فى صراعها ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية.. وقضايا فلسطين.. وسوريا.. ومصر وغيرها.

- وفى سنة ١٣٤٠هـ/ سنة ١٩٢٢م حصل إقبال على لقب «سير» البريطانى.. وفى سنة ١٣٥٢هـ/ سنة ١٩٣٣م حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة البنجاب.

- وفى سنة ١٣٤٤هـ/ سنة ١٩٢٦م اشترك فى حزب الرابطة الإسلامية.. وحضر المؤتمر الإسلامى بالقدس سنة ١٣٥٠هـ/ سنة ١٩٣١م.. كما شارك فى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن سنة ١٣٥١هـ/ سنة ١٩٣٢.. لبحث مستقبل الهند.

- ولقد أثنى إقبال - إلى جانب لغته الأوردية اللغات العربية والفارسية والإنجليزية.. وزار العديد من الدول الأوروبية والإسلامية والعربية.. مثل فارس وفلسطين ومصر.. وقامت بينه وبين العديد من علماء المسلمين علاقات وصداقات.. كما كانت له علاقات فكرية مع عدد من كبار المستشرقين.. من مثل «سير توماس أرنولد» [١٨٦٤-١٩٣٠م] و«نيكلسون» [١٨٦٨-١٩٤٥م] و«براون» [١٨٦٢-١٩٢٦م].

- ولقد دافع إقبال عن العالمية الإسلامية فى مواجهة النزعة القومية العنصرية.

- وإلى جانب الإبداع الفكرى، انخرط إقبال فى النشاط السياسى بالهند، داعياً إلى التميز الحضارى الإسلامى، والحفاظ على الهوية الإسلامية لمسلمى الهند، فى مواجهة التطرف والعنف القومى الهندوسى.. ولقد شغل مناصب الأمانة العامة والرئاسة لجمعيتى «حماية الإسلام» و«مسلمى كشمير».. كما انتخب عضواً بالمجلس التشريعى سنة ١٣٤٤هـ/ سنة ١٩٢٦م.. وفى سنة ١٣٤٨هـ/ سنة ١٩٣٠م ألقى خطاباً شهيراً فى رابطة المؤتمر الإسلامى، قدم فيه تصوره لدولة إسلامية مستقلة لمسلمى شبه القارة الهندية.

- ولقد كان الدفاع عن القرآن الكريم وعن الشريعة الإسلامية، مع التجديد للفكر الإسلامى، وللتصوف القائم على التجربة والمجاهدة الروحية، الميادين التى دار

فيها الإبداع الفكري والشعري لإقبال.. وكانت الأوردية والفارسية والإنجليزية هي اللغات الثلاثة التي شرفت بهذه الإبداعات.

ومن إبداعاته بالأوردية:

- (علم الاقتصاد).. وعدد من دواوين الشعر الجميل، منها: (جناح جبريل) - وفيه خلاصة أفكاره وقمة أشعاره - وديوان (ضرب كلیم) - أي «عصى موسى» - ولقد ترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام إلى العربية.

- وديوان (أرمجان حجاز) - أي «هدية الحجاز» - ولقد نظم القسم الأول منه بالفارسية.

- وديوان (بانك ی دارا) - أي «صلصلة الجرس».

- وديوان (الأسرار) - ولقد ترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام إلى العربية.

أما مؤلفاته بالفارسية، فمنها:

- (أسرارى خودی) - «أسرار الذات».

- و(رموزی بیخودی) - أي «رموز اللاذات».

- و(بیام ی مشرق) - أي «رسالة المشرق».

- (زبورى عجم) أي «زبور العجم».

- (جاوید نامه) - أي «رسالة الخلود، وفيها وصف «لرحلة قام بها بصحبة مولانا جلال الدين الرومي [٦٠٤ - ٦٧٢ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٧٣ م] إلى السموات، وما رأى فيها من تجليات.

- (بس جه باید کارد اقوام شرق) - أي «ما العمل يا أقوام الشرق؟» - وفيه حديث على لسان مولانا جلال الدين الرومي يشير بيقظة الشرق ونهضته بعد سباته العميق.

ولإقبال - كذلك قصائد في «رثاء صقلية المسلمة» حين مر بها - و«صرخة الألم»

أمام قبر رسول الرسول ﷺ - و«منارة السارى» التى تحدث فيها بلسان «الخضر» عن هيمنة الاستعمار على عالم الإسلام..

وله - كذلك - مقالات فى نصره جهاد المسلمين ضد الصهيونية - فى فلسطين - وضد الاستعمار فى سوريا ومصر.. وغيرها.

كما كتب إقبال عددًا من المؤلفات بالإنجليزية، منها رسالته للدكتوراه - من جامعة ميونيخ - وعنوانها: (تطور ما وراء الطبيعة فى فارس).. وكتابه (تجديد الفكر الدينى فى الإسلام) - وهو محاضرات ألقاها بالإنجليزية - ومنها هذه المحاضرة التى نقدم بين يديها - عن (روح الثقافة الإسلامية).

ولقد كان إقبال عاشقًا للعرب وتاريخهم، وداعيًا إلى نهوضهم الحضارى الذى يعيد مجد الإسلام إلى العالمين.. ولقد بادله العرب حبًا بعشق وعشقًا بعشق، فترجمت كثير من أعماله الشعرية والفكرية إلى العربية، وقدمت عنه الدراسات الجامعية وغير الجامعية.

- ومن نماذج أبياته الشعرية، المعبرة عن ثورته الروحية، ما ترجمته:

«يارب، إنى أرى الرحمة تتوالى على الأجانب، أما المسلمون فتتقاذفهم النوائب، فأدركهم يا رباه، فإن البلية كل البلية أن الكفار اليوم ينعمون بحور مقصورات، والمسلمون المساكين يعللون بالحوادث فقط»!

«أيها المسلم، اتخذ قوتك الذاتية، واجعلها فى مكانة من العلو، وإن ابتغاء مرضاة الله لعبده لن تكون إلا حين يكون قويًا غير مستكين».

كما يذكر إقبال مسلمى عصره بعزة المجاهدين الأولين - الذين فتحوا الهند - فيقول:

«كلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف، ولت الأمة الحجازية وجهها شطر القبلة، ووقف «محمود» - (السلطان الغزنوى) [٣٦١-٤٢١هـ / ٩٧١م - ١٠٣٠م] - جوار خادمه فى صف واحد، فلم يبق هناك عبد ولا مولى، أصبحوا جميعًا لله عبيدًا، ولما وصلوا إلى حضرتك صاروا كتلة واحدة».

ولقد تحدث أحد المستشرقين عن تأثير إقبال، فقال:

«إن تأثير إقبال بقذائفه الصائبة يفوق تأثير جيش مدجج بالسلاح، لأنه - مع عاطفته الحارة - كان مسلحًا بالمنطق الصارم، والحق الملجم وإن خصمه لا يستطيع منازلته صريحًا، إذ لا بد معه من الاحتياال الشديد!»

- ولقد توفى إقبال سنة ١٣٥٧هـ / سنة ١٩٣٨م - قبل أن يتحقق حلمه بإقامة دولة باكستان المسلمة سنة ١٣٦٦هـ / سنة ١٩٤٧م ودفن بساحة مسجد «باد شاهي» في «لاهور» بإقليم البنجاب.. عليه رحمة الله^(١).

(١) انظر في الترجمة لإقبال: «الموسوعة العربية» - دمشق - ٢٠٠١م.. و «موسوعة أعلام الفكر الإسلامي» - القاهرة - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤.. «والقاموس الإسلامي» - وضع أحمد عطية الله - القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

روح الثقافة الإسلامية

للعلامة الفيلسوف محمد إقبال

[١٢٩٤-١٣٥٧هـ - ١٨٧٧-١٩٣٨م]

فى هذه الدراسة - المحاضرة - للعلامة محمد إقبال، تطالعنا عشرات الأفكار العميقة.. وذلك من مثل:

- أن النبى ﷺ يقتحم الزمن، قاصداً التحكُّم فى قوى التاريخ، ليصنع عالمًا جديدًا من المثل العليا، ولتحويل التجربة الدينية إلى قوة عالمية حية.

- وإن للمعرفة مصادر ثلاثة: التجربة الجوانية.. والطبيعة.. والتاريخ، وبفتح هذه المصادر للمعرفة تتجلى روح الإسلام فى أبهى صورها.

- وإن الإنسان محكوم أساسًا بالعاطفة والغريزة، أما العقل الاستدلالي، الذى من شأنه أن يمكن الإنسان من أن يصبح سيد بيئته، فهو إنجاز مكتسب.

- وإن المعرفة تبدأ بالواقع المحسوس، وإمساك العقل بهذا الواقع المحسوس هو الذى يمكنه من الانتقال إلى ما وراء المحسوس.

- ولقد كان ميلاد الإسلام هو ميلاد العقل الاستدلالي، ففى الإسلام تبلغ النبوة كمالها باكتشافها لضرورة وضع نهاية لمسلسل النبوات، بحيث تكون هى النبوة الخاتمة، ولا نبوة بعدها.. ولقد كان إبطال الإسلام للكهنوت والملكية الوراثية، ودعوة القرآن المستمرة لإعمال العقل وممارسة التجربة، والتأكيد على النظر فى الكون والتاريخ كمصادر للمعرفة الإنسانية، كل هذه كانت جوانب مختلفة لفكرة واحدة جديدة جاء بها الإسلام وهى «ختام النبوة» على أن هذه الفكرة لا تعنى أن التجربة الصوفية قد توقفت.. فالقرآن يعتبر: الأنفس، والآفاق مصادر للمعرفة.

- ولا ينبغي أن نفهم من فكرة انتهاء النبوة أن المصير النهائي للحياة هو إحلل العقل نهائياً محل العاطفة والشعور، وإنما القيمة العقلية الحقيقية للفكرة هي أنها تتجه بنا إلى خلق موقف نقدي مستقل تجاه التجربة الصوفية، إذ تجعلنا نعتقد أن كل سلطة شخصية تدعى أن لها أصلاً فوق الطبيعة قد انتهى عهدها من تاريخ البشرية.

- ولقد خلعت شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» عن قوى الطبيعة كلها صفات الألوهية، تلك الصفات التي أضفتها عليها الثقافات السابقة على الإسلام.

- ولقد مثل الإسلام ثورة فكرية ضد الفلسفة الإغريقية.. وإن روح القرآن كانت في أساسها متعارضة مع الفلسفة القديمة، ولقد فشلت محاولات فهم القرآن في ضوء الفلسفة الإغريقية، لأن روح القرآن تميل إلى ما هو واقعي ملموس، بينما طبيعة الفلسفة الإغريقية تأملية، مجردة، تهتم بالنظرية، وتغفل الواقع.

ولقد تجلت ثورة الإسلام ضد الفلسفة الإغريقية في الرياضيات والفلك والطب.. والفكر الفلسفي الأشعري.. وفي نقد المسلمين للمنطق الإغريقي.. وكان «النظام» [٢٣١هـ / ٨٤٥م] هو أول من صاغ مبدأ الشك، كبداية لكل معرفة.. ثم جاء «الغزالي» [٤٥٠-٥٠٥هـ / ١٠٥٨-١١١١م] فأفاض في ذلك بكتابه (إحياء علوم الدين) ومهد بذلك السبيل لمنهج «ديكارت» [١٥٩٠-١٦٥٠م].. وكان الإشراقى «السهروردي» - المقتول - [٥٤٩-٥٨٧هـ / ١١٥٤-١١٩١م] و«ابن تيمية» [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م] هما من قاما بتنفيذ المنطق الإغريقي تنفيذاً منظماً.. وفي كتاب (نقد المنطق) لابن تيمية: أن الاستقراء هو الشكل الوحيد للكلام اليقيني.. وعند «ابن حزم» [٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م] في كتابه (التقريب في حدود المنطق) - أن الإدراك الحسي هو أصل من أصول المعرفة. وهكذا نشأ منهج الملاحظة والتجربة في الثقافة الإسلامية.

- إن أول النقاط المهمة في روح الثقافة الإسلامية هي تركيز نظرها على ما هو محسوس ومتناه بغرض الحصول على المعرفة.

- ولقد حجب الفكر الإغريقي - النظري التأملية، غير الواقعي، وغير التجريبي حجب رؤية المسلمين عن فهم القرآن نحو قرنين، ثم عاد المزاج العربي العملي إلى أصله مؤكداً نفسه.

فعند الإغريق المثال هو التناسب، وليس اللانهائية، أما فى تاريخ الثقافة الإسلامية: فالمثال هو تحصيل اللانهائى، وابتهاج النفس به.

- وإلى جانب تقدم الفكر الرياضى فى الإسلام، بدأت تتشكل نظرية التطور تدريجيًا.

- إن التاريخ - أيام الله - هو المصدر الثالث للمعرفة - مع التجربة الجوانية.. والطبيعة.. وإنه من الخطأ الفادح الزعم بأن القرآن يخلو من بذور المنهج التاريخى، والحقيقة هى أن الروح العامة فى مقدمة ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ - ١٣٣٢م] يبدو أنها ترجع أساسًا إلى الإلهام الذى استوحاه المؤلف من القرآن، فهو مدين للقرآن حتى فى أحكامه على الطبائع والأخلاق إلى حد كبير..

ولقد كان فضل ابن خلدون كامنًا فى إدراكه العميق وتعبيره المنظم عن روح الحركة الثقافية، التى كان هو نفسه أعظم إنتاج عبقرى لها، ففى كتاب هذا العبقرى حققت روح القرآن انتصارها النهائى على كلاسيكية الفكر الإغريقى.

- وصحيح أن المسيحية دعت إلى المساواة بين البشر قبل الإسلام، لكن روما المسيحية لم ترتفع إلى الفهم الكامل لفكرة الإنسانية كوحدة عضوية. أما فى الإسلام فكانت وحدة الإنسانية عاملاً حيًا فى حياة المسلم اليومية.. فالمسلم وحده هو الذى كان يمكنه النظر إلى التاريخ كحركة جماعية متواصلة، وكتطور حتمى حقيقى فى الزمان.

* * *

مولانا أبو الكلام آزاد

[١٣٠٥-١٣٧٨ هـ - ١٨٨٨-١٩٥٨ م]

بطاقة حياة مولانا أبو الكلام آزاد

هو أحمد محيي الدين بن خير الدين بن محمد هادي ابن الشيخ محمد أحسن بن محمد أفضل بن محمد محسن [١٣٠٥-١٣٧٨ هـ / ١٨٨٨-١٩٥٨ م] الذي اشتهر بـ «مولانا أبو الكلام آزاد» ربما لتفوقه في الكتابة والخطابة.. فكأنه المفوه الحبر الذي لا يجارى.

- أصل أسرته لأبيه من مدينة «هرات» في غربى أفغانستان ثم استوطنوا الهند في القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى - عندما دخلوا الهند ضمن حملة السلطان المغولى محمد ظهير الدين بابر [٨٨٨-٩٣٦ هـ / ١٤٨٣-١٥٣٠ م] الذى أسس إمبراطورية المغول فى الهند، وحكم ما بين [٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م] و [٩٣٧ هـ / ١٥٣١ م].

- ولد بمكة المكرمة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٠٥ هـ / أغسطس سنة ١٨٨٨ م أثناء رحلة والده خارج الهند، وهى الرحلة التى زار فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة والقسطنطينية.. وأثناءها تزوج من ابنة أحد علماء المدينة المنورة، فولدت له ابنتهما أحمد محيى الدين.. ثم عاد الوالد مع أسرته إلى الهند سنة ١٨٩٨ م، واستقر بمدينة «كلكتا».

- وكان والده متصوفاً، مغالياً فيما يعتقد المتصوفة.. ورافضاً لكل ألوان التعليم الحديث، التى كانت بنظره عين الكفر والزندقة والإلحاد.. لذلك، أخذ والده فى تعليمه بالمنزل، بعيداً عن تأثيرات العلوم العصرية، التى دخلت الهند فى ركاب

الاستعمار الإنجليزي.. فظل الفتى حبيس المنزل حتى أنهى دراسته على هذا النمط سنة ١٩٠٢م وسنه خمسة عشر عامًا.

- وفي العام التالي سنة ١٩٠٣م أصدر مجلة سماها «لسان الصدق».. وكان قرض الشعر في هذه المرحلة من اهتماماته الفكرية.. وشارك سنة ١٩٠٤م في مؤتمر منظمة «حماية الإسلام» بلاهور - فلفت إليه أنظار العلماء، لتفوقه مع حداثة سنه.

- لكن الشيخ أبو الكلام كسر الحصار الفكرى والثقافى الذى فرضه عليه والده، فأخذ يقرأ سراً كتابات السير سيد أحمد خان [١٨١٧-١٨٩٨م].. وتأثر بتلك الكتابات التى كانت تروج للثقافة الغربية.. وواصل التعمق فى دراسة الفلسفة والآداب.. وأخذ يتعلم الإنجليزية.. وقرأ الإنجيل بالإنجليزية، مستعيناً بترجماته إلى العربية والفارسية والأردية.. وأخذ يقرأ الصحف والمجلات الإنجليزية مستعيناً بالقواميس.. فلما استقامت لغته الإنجليزية أخذ يبحر فى قراءة كتب الفلسفة والتاريخ.

- ولقد أحدثت له هذه النقلة الفكرية الحادة كثيراً من الاضطراب الفكرى والعقدى الذى دام تسع سنوات - والذى تحدث عنه هو فقال:

«كنت ولدت فى أسرة صوفية كانت لها الصدارة فى الرهبة الدينية والقيادة الروحية، فبدأت أفكارى تتزلزل وتثور ضد تلك الرهبة والإرشاد الروحى، وكنت أريد أن أتخلص من تلك القداسة المزيفة التى هى من أخص خصائص تلك الرهبة التى تظهر فى صورة تعامل المرشد والمريد.

خلاصة الكلام أن عقلى كان معبراً للتصورات الإيجابية والسلبية حول الدين، ودخل عقلى ما كان ممنوعاً منعاً باتاً فى محيط أسرته، مثل الأفكار الوهابية «السلفية»، لكن لم يكن أمامى طريق واضح إطلاقاً، وكانت حالتى الفكرية كما يلى:

١ - انهارت كل أسوار التقليد والرسوم الموروثة التى كانت تحاصرني.

٢ - إن لم تمنح آثار تقليد الآباء والأجداد تمامًا فقد اضمحلت يقينًا.

٣ - كانت الشبهات تنشأ فى ذهنى من غير أن يكون لى وسيلة لدفعها، بل بالعكس كانت مجالاتها تتوسع مع توسع القراءة والمطالعة.

٤ - كانت طبيعتى مضطربة كأنها تنتظر حالة فكرية جديدة.

كان السير سيد أحمد خان مستوليًا على كل مشاعري كأنني أعبد مثل الصنم! مع أنني كنت اهتديت إلى رفض التقليد نتيجة قراءة كتبه، إلا أن تقليده كان مبلغ علمي ونهاية تفكيرى.. ثم ملت لبعض الوقت إلى أفكار المعتزلة، إلا أن ذلك أيضًا كان منزلًا من منازل الطريق الطويل.. وأثناء هذا التخطي فتحت بيدي بابًا ولجت منه إلى قصر الإلحاد! فقد ثرت على طريقة آبائي ومذاهبهم، وكانت تلك الثورة عارمة إلى درجة أنها أدت بي إلى الثورة على الدين والتخلي عنه مطلقًا.. لقد صرت ملحدًا تمامًا، وكنت أشعر بالاعتزاز بسبب اعتقادي بالمذهب المادي والمذهب العقلي، ولم أكن أرى في الدين سوى الجهل والأوهام، لكن اطمئنان القلب الذي كنت خرجت للبحث عند قد ابتعد عني أكثر فأكثر.

.. ولقد كانت فترة رئاسة تحرير مجلة «الندوة» أحلك فترة مررت بها في حياتي.. كنت أظهر في صورة رجل يريد أن يوفق بين العقل والعلم والدين، لكنني كنت ملحدًا تمامًا من الناحية العقدية وفاسقًا من الناحية العملية، وكان ذلك آخر منزل وصلت إليه.. واعترتني هذه الحالة لما كان عمري من أربع عشرة سنة إلى اثنتين وعشرين سنة ثم ظهر النور أمامي.

وكما أنني لا أستطيع أن أتحدث عن اليد التي دفعتني إلى الظلمات الحالكة كذلك لا أقدر على الحديث عن اليد التي أوصلتني فجأة إلى النور الساطع، لكن هذه حقيقة أن النور قد ظهر، ووجدت نفسي فجأة أمام الهدف الذي كنت أبحث عنه بعد تخطيط دام تسع سنوات، زالت عني كل الشبهات، وارتفعت كل الشكوك، ومحي عني كل ما غرني، ووجدت ذلك اليقين وتلك الطمأنينة اللذين كنت أبحث عنهما.

إن عقائدي الدينية لم أتوارثها عن آبائي وأسرتي، ولم يلقي إياها مشايخي وأساتذتي، ولم يهديني إليها مجتمعي.. هذه الأمور كلها بدل أن تساعدني كانت تسد عليّ طريقي، كل ما كنت أخذته بواسطتها فقدته، وكل ما كنت أبتغيه حصلت عليه بجدي واجتهادي وبحثي عنه، كنت أعتبر سراب العقيدة المادية والدين العقلي معين الحياة لفترة طويلة، أصبت بكل أمراض تعترى سالك هذا المسلك، واستفدت من جميع الوصفات الطبية لعلاجها، وفي نهاية الأمر انكشفت أمامي الحقيقة النهائية، وهي أن طريق الإيمان لا يسلك بالعقل والإدراك، بل يسلك بالعواطف المخلصة الطاهرة، وأن الوصول إلى حقيقة الإيمان ليس صعبًا لكونها خفية، بل يصعب ليسره

ووضوحه، ومن أكبر ضلالات الإنسان أنه يغمض عينيه عن إدراك الأمور الواضحة السهلة».

هكذا تحدث الفيلسوف أبو الكلام آزاد عن محنة اغترابه عن دين الفطرة، وعن منحة الفطرة التي هدته إلى الدين الذي جعله الله فطرة للناس:

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِيْلَخْلَقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَدِيْبُ أَلْقِيْمُ وَلَكِيْبُ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

لقد سلك الرجل إلى فطرة الإيمان طريق الفلسفة والدين العقلى دين الحداثة الغربية - فضل الطريق، وعاش آلام القلق والاغتراب.. فلما هداه الله إلى طريق الفطرة أصبحت الفلسفة والعقلانية داعمة لطمأنينة الإيمان.. ولقد كانت تجربة فيلسوفنا أبو الكلام آزاد هى ذات التجربة التى أشار إليها كثير من فلاسفة الإسلام.. فلقد عبر الفيلسوف ابن سينا [٣٧٠-٤٢٨هـ / ٩٨٠-١٠٣٧م] عن حيرة الذين سلكوا طريق الفلسفة لتحصيل الإيمان، فقال:

«لقد طفت فى تلك المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم!..»

وعلق الشهرستانى [٤٧٩-٥٤٨هـ / ١٠٨٦-١١٥٣م] على بيتى ابن سينا هذين فقال: «فعليكم بدين العجائز، فهو من أسنى الجوائز، وإذا كان لا طريق إلى المطلوب من المعرفة إلا الاستشهاد بالأفعال، ولا شهادة للفعل إلا حيث احتياج الفطرة واضطرار الخلقة، فحيثما كان العجز أشد كان اليقين أوفر وأكثر!.. ومن بعدهما سلك حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠-٥٠٥هـ / ١٠٥٨-١١١١م] ذات الطريق.

- أما فى السياسة، فإن عداء أبو الكلام آزاد - الشديد - للاستعمار الإنجليزى فى الهند وقد كان فى الذروة.. فهذا الاستعمار لم يقف فقط عند طى صفحة الحكم الإسلامى للهند، وإنما أخذ يشيع الثقافة الغربية التى تطوى صفحة هوية الهنود.. ثم أخذ بعد ثورة سنة ١٨٥٧م يلعب على وتر ضرب المسلمين بالهندوس، وضرب

الهندوس بالمسلمين، وصولاً إلى تأجيج الصراع بينهما، ليظل هو الحكم الذى يلجأ إليه الجميع!

ولقد دفع هذا الوعى السياسى بمكائد الإنجليز ومخططاتهم مولانا أبو الكلام آزاد إلى الانخراط فى السياسة.. فالتحق بالحركات الثورية المسلحة ضد حكومة الهند البريطانية فى مرحلة مبكرة من حياته سنة ١٩٠٥.. ثم انضم إلى حزب المؤتمر الهندى حزب المهاتما غاندى [١٨٦٩-١٩٤٨م] - حزب الحركة الوطنية الساعية إلى تحرير كل الهند.

وكان اهتمامه بالرابطة الإسلامية العالمية البديل للنزعة القومية التى روج لها السير سيد أحمد خان بين المسلمين الهنود.

- وفى أواخر سنة ١٩٠٧م وأوائل سنة ١٩٠٨م قام مولانا أبو الكلام آزاد برحلته خارج الهند، فزار العراق، ومصر، والشام، وتركيا.. ثم سافر إلى فرنسا.. وبينما كان يهيم بالسفر إلى إنجلترا جاءه نبأ مرض والده فرجع إلى الهند.. وأثناء زيارته لمصر لم تعجبه غلبة التقليد على مناهج الأزهر، وتعرف على المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده، فأخذ يتابع مجلة «المنار».. وأثناء رحلته هذه التقى بشباب الحركات الوطنية فى تلك البلاد.. ومنهم شباب «الحزب الوطنى» فى مصر - حزب مصطفى كامل [١٢٩١-١٣٢٦هـ / ١٨٧٤-١٩٠٨م] ومحمد فريد [١٢٨٤-١٣٣٨هـ / ١٨٦٨-١٩١٩م].. وشباب «تركيا الفتاة» بتركيا.. وتوثقت صلاته بتلك الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار.. ولقد زادت هذه الصلات من عزمه على الانخراط فى حركة تحرير الهند، وتعاون المسلمون فى ذلك مع الهندوس ضد عدوهما المشترك: الاستعمار الإنجليزى.

وللعمل على إلحاق المسلمين الهنود بركب الوحدة الوطنية والتحرر الوطنى، ولمقاومة تيار ولاء المسلمين للإنجليز، الذى أسس له وأشاعه السير سيد أحمد خان، أصدر مولانا أبو الكلام آزاد مجلة «الهلال» باللغة العربية فى ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٠هـ / ١٢ يونيو سنة ١٩١٢م.. ولقد حققت هذه المجلة التى كانت توزع ٢٦,٠٠٠ نسخة الكثير من هذه الأهداف، بل وكانت علامة فارقة فى بلورة زعامات إسلامية وطنية جديدة فى شبه القارة الهندية.

ولقد انتهزت الحكومة الإنجليزية في الهند فرصة إعلان الأحكام العرفية بمناسبة نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م، فأغلقت مجلة «الهلال».. فسارع مولانا أبو الكلام آزاد إلى إصدار مجلة بديلة تتبنى ذات السياسة - هي مجلة «البلاغ» في ٤ محرم سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٥ م - أي بعد خمسة أشهر من إغلاق مجلة «الهلال».

ولما عادت الحكومة الإنجليزية في الهند إلى إغلاق مجلة «البلاغ» في مارس سنة ١٩١٦ م أنشأ مولانا أبو الكلام آزاد مدرسة «دار الرشاد» لتربية الشبيبة الإسلامية على العداء للاستعمار، وعلى الوحدة الوطنية، وعالمية الإسلام.. فما كان من الحكومة الإنجليزية إلا أن قررت نفيه من كلكتا - في إبريل سنة ١٩١٦ م - في الوقت الذي منع حكام الولايات دخوله إليها!.. وذلك باستثناء حكومة ولاية «بهار»، فذهب إلى منفاه الإجباري في منطقة «رانتشي» الجبلية، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية - الاعتقال - حتى نهاية سنة ١٩١٩ م، عندما وضعت الحرب أوزارها.

- وإبان هذا النفي والاعتقال - الذي دام نحو أربع سنوات - داهمت السلطات الإنجليزية منزله في كلكتا، واستولت على مسودات الكتب التي ألفها - والتي لم تنشر - فضاعت هذه الكتب.. ومن عناوينها:

- ١- تاريخ المعتزلة.
- ٢- سيرة ولي الله الدهلوي.
- ٣- خصائص المسلم.
- ٤- أمثال القرآن.
- ٥- ترجمان القرآن (وهو تفسيره للصور من الفاتحة إلى هود).
- ٦- تفسير البيان (إلى بداية سورة النساء).
- ٧- وحدة قوانين الكون.
- ٨- قانون الانتخاب الطبيعي ومعنوية الكون.

٩- تعليق على ديوان «شرف جهان القزويني».

١٠- مقدمة على ديوان غالب - بالأردية.

١١- مجموعة من المذكرات والمقالات التي وصفها الشيخ أبو الكلام آزاد بأنها «عصارة الفكر وثروة الحياة».

- وأثناء فترة النفي والاعتقال، كان غاندى قد صعد من نشاطه فى مقاومة الاستعمار الإنجليزى وخاصة بعد مذبحه «أمريستار» - فى ١٣ إبريل سنة ١٩١٩م - كما أعلن تأييده للخلافة العثمانية ضد الشروط المذلة التى أراد الحلفاء فرضها عليها.. الأمر الذى فتح أبواب التعاون بين المسلمين والهندوس ضد الاستعمار.. فرغب غاندى فى الاجتماع بمولانا أبى الكلام آزاد، لكن الإنجليز حالوا دون ذلك.. وما أن تم الإفراج عن الزعيم المسلم سنة ١٩١٩م حتى انفتحت أبواب التعاون بين الزعيمين، فانخرط مولانا أبو الكلام آزاد فى المقاومة السلمية للاستعمار الإنجليزى، وفى حركة الدفاع عن الخلافة الإسلامية.. حتى لقد اختير رئيسًا لحزب المؤتمر الهندى الذى يجمع المسلمين والهندوس سنة ١٩٢٣م - وكان أصغر الزعماء الذين تولوا هذا المنصب الكبير - إذ كان يومئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره.. ثم اختير - ثانية - لرئاسة هذا الحزب من سنة ١٩٤٠م إلى سنة ١٩٥٠م.. وشارك إبان ذلك فى كل المحادثات التى دارت بين الحركة الوطنية فى الهند وبين الإنجليز بغرض تحقيق الاستقلال لشبه القارة الهندية.

- وفى الفترات التى كانت تسوء فيها العلاقات بين المسلمين والهندوس، وتنجح السياسة الاستعمارية فى إشعال الفتن بينهما، ويعجز مولانا أبو الكلام آزاد عن إخماد نيران هذه الفتن، كان الرجل يعود إلى العمل الفكرى، وإصدار المجلات الفكرية، وإلى تأليف الكتب، وتفسير القرآن.

- وبعد استقلال الهند سنة ١٩٤٧م تولى الشيخ أبو الكلام آزاد منصب نائب رئيس الوزراء.. ووزارة التعليم.. ووزارة الموارد الطبيعية والأبحاث العلمية.. وظل وزيرًا للتعليم حتى وفاته فى ٣ شعبان سنة ١٣٧٧هـ / ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨م، عن سبعين عامًا، قضى منها فى السجن أحد عشر عامًا.

- لقد استوعب الرجل ثقافة عصره، وتراث أمته، وساعده على ذلك إجادته عدة لغات، منها الأردية والفارسية والإنجليزية والعربية.

- ولقد كان إحياء الإسلام وتجديده، وتحقيق عالمية الأمة الإسلامية، وتحرير المسلمين من الاستعمار المقاصد العظمى لفكر وجهاد هذا المصلح الإسلامى الكبير.. ولقد سار فى جهاده هذا على خطى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧م]، والإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م]، والشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥-١٩٣٥م].. كما استلهم - هو وغاندى فى الوحدة الوطنية ومقاومة الاستعمار - خبرات الشعب المصرى فى ثورة سنة ١٩١٩م التى قادها الزعيم سعد زغلول باشا [١٢٧٣-١٣٤٦هـ/ ١٨٥٧-١٩٢٧م].

- ولقد توزعت حياة هذا المصلح الكبير ما بين الفكر والسياسة.. فأصدر ست مجلات فكرية، منها (لسان الصدق) و (الهلال) و (البلاغ) و (الرسالة) و (الجامعة).. وألف وترجم ما يقرب من عشرين كتاباً منها:

- ١- «ترجمان القرآن» فى ثلاثة مجلدات.
- ٢- «قطران لدم الشهادة» فى التصوف، وأحوال الحلاج.
- ٣- «مسألة الخلافة وجزيرة العرب» الذى صدرت طبعته الأولى فى كلكتا سنة ١٩٢٠م.
- ٤- «ثورة الهند السياسية».

٥- «جامع الشواهد فى مسألة دخول غير المسلمين إلى المساجد».

٦- «المرأة المسلمة» وهو ترجمته لكتاب العلامة محمد فريد وجدى.

- أما دراسته عن «الجهاد» التى نقدم بين يديها فهى جزء من كتابه عن «مسألة الخلافة وجزيرة العرب».. والذى يشعر قارؤه أنه قد كتب اليوم، رغم أنه قد مضى على نشر طبعته الأولى قرابة المائة عام!..

رحم الله هذا الإمام العظيم.. الذى يدرك الناظر فى أحوال المسلمين - اليوم -

بشبه القارة الهندية ، كم كان الرجل يتحلى بعبقريّة فقه الواقع .. وفقه المآلات، إن في الإصلاح الديني، أو في الوحدة الوطنية وعلاقة المسلمين بالهندوس^(١).
والله نسأل أن ينفعنا بعلمه .. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب ..

(١) لقد اعتمدنا في هذه الترجمة على الدراسة التي كتبها مصباح الله عبد الباقي عن مولانا أبو الكلام آزاد، والتي قدم بها ترجمته لكتاب (مسألة الخلافة وجزيرة العرب) الذي تطبعه مكتبة الإسكندرية ضمن مشروع «كتب النهضة» وعلى (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة - طبعة دمشق سنة ١٣٧٨ هـ/ سنة ١٩٥٩ م.. وعلى «الموسوعة العربية» - المجلد الثاني طبعة دمشق سنة ٢٠٠٠ م.
كما اخترنا من كتاب «مسألة الخلافة وجزيرة العرب» الجزء الخاص بالجهاد، لما له من الأهمية الكبرى في الجدل الدائر - محلياً وعالمياً - حول هذه الفريضة من فرائض دين الإسلام.

الجهاد

للعلامة أبو الكلام آزاد

[١٣٠٥ - ١٣٧٨ هـ - ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م]

إن من أهم الواجبات التي أوجبها الإسلام هو الدفاع عند الذي يترتب عليه في كثير من الأحيان حكم الإيمان والكفر، فإن غير المسلمين عندما يهاجمون دولة إسلامية أو بلدًا مسلمًا يجب شرعًا على المسلمين جميعًا الأقرب فالأقرب أن يهبوا للدفاع عنها، وأن يحرروا البلد الذي استولى عليه العدو وذلك عن طريق استخدام القوة، وأن لا يألوا جهدًا في ذلك، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، وقد وصل هذا الحكم في الشهرة إلى حد لا تكاد تجد مسلمًا يجهله - هذا القانون - قانون التعاون بين المسلمين والدفاع المشترك أمام هجمات الأعداء هو القانون الذي بنى عليه الإسلام أسس الدفاع عن الإسلام وعن الأمة، وإن أول آية^(١) نزلت في قتال الأعداء هي آية سورة الحج التي يقول الله تعالى فيها:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۝﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠].

ويرى بعض المفسرين أن أول آية نزلت في قتال الكفار هي قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

(١) روى الحاكم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله تعالى: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝﴾ [الحج: ٣٩] قال: وهي أول آية نزلت في القتال.. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.. المستدرك، الهندية، (٢/ ٢٤٧).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴿[البقرة: ١٩٠-١٩١].

روى الإمام ابن جرير الطبري عن أبي العالية أنه قال: إنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة^(١)، فآية القتال الأولى إما هي آية سورة الحج أو هي آية سورة البقرة. هاتان الآيتان وما يشبههما من الآيات القرآنية تبين نوعاً واحداً من الجهاد والقتال^(٢) وهو الجهاد الدفاعي، ويراد بهذا النوع من الجهاد أن المهاجمين من غير المسلمين إذا هاجموا جماعة، أو بلداً أو مدينة للمسلمين، أو أرادوا الاستيلاء عليها وجب على المسلمين الآخرين أن يهبوا لنجدة إخوانهم، وأن يقاتلوه كما قاتلوا، لكن لا يجوز لهم أن يتجاوزوا الحدود التي وضعها الإسلام من الرحمة والعدل (مثل عدم جواز التعرض للضعفاء والعواجز والنساء والمنقطعين للعبادة، ودور العبادة) وعلل القرآن ذلك بقوله:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

يعنى: إنه لا شك أن القتل والقتال فتنة لكن أشد من تلك الفتنة أن لا يقتنع الناس بحكمهم على بلادهم بل يريدون سلب حقوق الآخرين في حريتهم، ويريدون أن يستبدلوا الكفر والشرك بالتوحيد في بلاد المسلمين.

يريد هؤلاء ليسلبوا الشعوب حق الحرية الذي هو حق فطري لجميع البشر، فإن لم يدفعوا لما عاشت أمة من الأمم في حرية على وجه البسيطة، ومن هنا يختار الضرر الأصغر لدفع الضرر الأكبر، وهذا هو قانون الطبيعة العام ويعمل وفقه عالم الطبيعة كله، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمر الله عز وجل بالقتل والقتال. وقد أخبر الله عز وجل في سورة محمد بالحكمة التي من أجلها أمر بالقتال، فقال:

(١) تفسير الطبري (٣/ ٥٦٢).

(٢) إن للجهاد أنواع، منها القتال، ثم القتال نوعان، القتال الدفاعي والقتال الهجومي، هذه الآيات تتعلق بالقتال الدفاعي، أما القتال الهجومي فورد ذكره في آيات أخرى، وذلك القتال يختلف عن هذا في البواعث والشروط وغيرها.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

فالمقصد الأساسى للإسلام هو إقامة الأمن والسلام العالميين، وأن تعيش جميع الشعوب وكل الأمم مثل أسرة واحدة، ولكن لن تتحقق هذه الأمنية ما بقيت الأمم الظالمة والجشعة، ومن هنا وجب أولاً القيام فى وجه القوى الظالمة والمتسلطة والمتجبرة وإبادةها، ولن يقوم السلام الدائم ما لم يقاتل فى سبيله قتالاً كبيراً، يقول الله عز وجل:

﴿حَتَّى إِذَا أَنْخَسْتُهُمْ﴾ [محمد: ٤].

فما لم يهرق دم القتلة لن يتوقف إراقة دم المقتولين، يقول الله عز وجل:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ومن هنا أمر القرآن الكريم بالاستمرار فى القتال ما لم تنته بواعث القتال وأمر المسلمين بأن لا يملوا ذلك، وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى:

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

أى لا تلقوا أسلحتكم حتى تتوقف الحرب تماماً، ولن تتوقف الحرب ما لم يتم القضاء على قوى الشر والفساد التى تريد أن تريق دماء الأبرياء، وقد أخبر القرآن الكريم أن مثل هذا الزمن (زمن الأمن والسلام) آت لا محالة، ولن يكون ذلك إلا إذا خضع العالم كله لدعوة الإسلام التى تحمل الأخوة والمحبة والأمن للعالم:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فضل الجهاد الدفاعى

يعتبر «الدفاع»^(١) من أهم أحكام الإسلام بعد العقائد الأساسية، ولا يشبهه شىء من أحكام الإسلام فى الأهمية بعد العقائد الضرورية حتى الفرائض وأركان الإسلام لا تساويه فى الأهمية، ولقد أكد الكتاب والسنة مرات عديدة وفى مواضع كثيرة على

(١) الدفاع أو الجهاد الدفاعى: هو التصدى لاعتداء الكفار على المسلمين وعلى البلاد الإسلامية.

أن بقاء الأمة متوقف على عمل الدفاع، وما دام المسلمون يستشعرون أهمية الدفاع، ولدى كل واحد منهم استعداد للتضحية في سبيله بروحه وماله ووقته فلن يغلبهم قوم، واليوم الذى سيموت فيه الشعور بأهمية الدفاع لدى المسلمين سيكون ذلك اليوم بداية لموتهم الاجتماعى، وقد استشهد القرآن الكريم على ذلك بتاريخ الملة اليهودية فإنهم لما كان لديهم الشعور بأهمية الدفاع عقيدة وعملاً كانوا أعزة، ولما غلبهم حب تنعم سويغات وراحتها، وغلب عليهم كذلك حب الراحة والتنعم الفردى الزائل على حبهم للحياة الاجتماعية الدائمة واعتزازهم بأنفسهم كأمة وأهملوا أمر الدفاع ذلوا، وصاروا كما قال الله عز وجل عنهم:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد بين الله عز وجل ذلك بالتفصيل فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَنَوْا إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وقال النبى ﷺ فيما رواه الإمام أبو داود: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله: أنزل اللهم بهم بلاء، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»^(١)، فترك الجهاد سبب نزول كل البلايا والرزايا، ولا تزول إلا بالرجوع عن أسبابها.

ولما كان هذا الجهاد أساس بقاء الشريعة والملة الإسلامية أكد الشرع عليه من كل جوانبها وحيثياتها، وجعله أعلى مرتبة وأعظم أجراً من كل ما يستطيع مسلم أن يقوم به فى الدنيا من الأعمال الصالحة؛ لأنه كلما كان العمل يتطلب تضحية أكبر كان أجره أكبر، ومن الواضح أنه لا يوجد عمل يتطلب تضحية أكبر من هذا العمل.

هذا الجهاد ليس تشريعاً خاصاً بزمان معين أو وقت محدد بل هو وحبه الصادق

(١) رواه أبو داود والمراد بالعينة فى الحديث: أن يبيع السلعة بثمان معلوم ثم يشتريها من المشتري بأقل من الثمن.

أساس صدق إيمان كل مسلم في كل الأزمنة وجميع الأحوال، وهو ذروة سنم الإسلام، وهو عماد الملة، وأساس الشرع، وملاك الإسلام، وهو المعيار للإيمان والنفاق، وهو الذى يميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب المخادع، منه الصلاة ومنه الصيام ومنه الحج، وهذا أفضل مصرف للزكاة، كل هذه العبادات تؤجل لأجله، لكنه لا يترك لشيء، نعم! الصلاة عماد الدين، والصوم جنة، لكن الجهاد أساس الإسلام، وهو السيف القاضى على الفساد، ومن هنا لا يصل إلى مستواه فى الفضل لا الصلاة ولا الصوم، ولا يفوقه عمل إطلاقاً، ولا يوجد عمل أحب إلى الله منه أو يحبب إلى الله فاعله أكثر من هذا، آلاف الصلوات والصيام لا تصل إلى فضل قطرة دم تراق فى سبيله، ولا تصل صدقات العمر كله إلى فضل درهم أنفق فى سبيله، وصلت أهميته فى الإسلام إلى أنه جعل علامة على وجود الإيمان فى القلب، فمن خلا قلبه منه فقد حرم نور الإيمان والإسلام، واستولت عليه ظلمة النفاق، يقول الرسول ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»^(١).

يقول القرطبى فى شرح هذا الحديث: «فيه دليل على وجوب العزم» فمن خلا قلبه عن العزم على الجهاد وإرادته أيضاً فهو منافق، ولو أراد مسلمو الهند أن يعرفوا مقدار الإيمان من النفاق فى قلوبهم على أساس هذا الميزان الدقيق لأدركوا ذلك روى الترمذى أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ تذاكروا فيما بينهم، فقالوا: أى الأعمال أفضل، فأنزل الله سورة الصف^(٢)، يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُورٍ﴾ [الصف: ٤].

ثم يقول الله عز وجل فى هذه السورة بعد ذلك، إن هذا العمل تغفر بسببه جميع المعاصى والآثام، وإن الله فتح به أبواب النجاة الأبدية، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرٍ مُّسْتَرِيٍّ يُخْرِجُكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝١٠ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

(١) صحيح مسلم، عبد الباقي، (٣/١٥١٧).

(٢) وأخرجه كذلك الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام، وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط الصحيحين، والبيهقى فى شعب الإيمان والسنن والطبرى فى التفسير.

وقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^(١)، وروى البخارى عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه قال: «قيل يا رسول الله: أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»^(٢).

وقال النبي ﷺ «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»، وفي رواية: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»^(٣)، ويقول الرسول ﷺ: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»^(٤)، وقال النبي ﷺ: «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»^(٥).

ومن هنا وبسبب ما كان من أهل بدر من التضحيات كلما كانت تصدر منهم معصية كان رسول الله ﷺ يرفض أن يعاقبهم وكان يقول: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٦) ولما وصل إلى رسول الله ﷺ خبر استعدادات الروم في الشام، وأراد النبي ﷺ أن يجهز جيشاً لكن الظروف كانت صعبة فواجه الجيش مشكلات في التجهيز فحث النبي ﷺ الصحابة على التبرع للغزاة ولتجهيز الجيش فتصدق عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائتي إبل بأحلاسها وأقتابها^(٧)، وتصدق بمائتي أوقية من الذهب، يقول عمران بن حصين سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر « لا يضر عثمان ما عمل بعد اليوم»^(٨) ما أعظم مرتبة هذا العمل!

(١) الجمع بين الصحيحين البخارى ومسلم، (٣/ ٢٣).

(٢) صحيح البخارى، طوق النجاة، (٤/ ١٥).

(٣) صحيح البخارى، طوق النجاة، (٤/ ١٧).

(٤) صحيح البخارى، طوق النجاة، (٤/ ١٧).

(٥) صحيح البخارى، طوق النجاة (٤/ ٢٢).

(٦) الجمع بين الصحيحين البخارى ومسلم، (١/ ٧٧).

(٧) أحلاسها: جمع حلس وهو كساء يكون على ظهر البعير تحت البرذعة، أقتابها: جمع قتب وقتب وهى البرذعة (م).

(٨) المعجم الكبير، (١٨، ٢٣١)، وأخرج الترمذى والحاكم الترمذى والحاكم أيضاً من حديث عبد الرحمن بن خباب السلمى مثله.

ثبت بالحديث المذكور أن إنفاق المال في الدفاع (الجهاد الدفاعي) له مرتبة عظيمة عند الله وعند رسوله، بحيث لا يضر صاحبه أى عمل سبى بعده وهذا ليس لأى عمل آخر سوى ذلك.

يقول الرسول ﷺ: «من رابط ليلة في سبيل الله سبحانه كانت كآلف ليلة صيامها وقيامها»، وقال عليه السلام: «فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا»^(١)، وقال النبي ﷺ: «حرس ليلة في سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يقام ليها ويصام نهارها»^(٢) وقال النبي ﷺ: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله»^(٣).

وأن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا نبي الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهد في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ: هل تستطيع أن تصلى ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ قال: يا نبي الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، قال: فوالذي نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهد في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طوله^(٤) فيكتب لصاحبه بذلك الحسنات^(٥).

يقول أبو هريرة رضى الله عنه: «قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعونه، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثله الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى»^(٦).

وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «من اغبرت قدماء في سبيل الله فهما حرام على النار»^(٧)، وروى البخارى هذا الحديث باللفظ التالى: «ما اغبرت قدمًا عبد في

(١) سنن الترمذى، (٤ / ١٨١).

(٢) مسند أحمد، الرسالة، (١ / ٤٨٨).

(٣) مسند أحمد، الرسالة، (٢٨ / ٤٤٦).

(٤) أى ليعدو في حبله الذى قد شد به.. كشف المشكل من حديث الصحيحين، (١ / ١٠٠٣).

(٥) الفوائد المتقاه والغرائب الحسان عن الشيوخ الكوفيين، (١ / ٥٣).

(٦) صحيح مسلم، عبد الباقي، (٣ / ١٤٩٨).

(٧) مسند أحمد، الرسالة، (٢٣ / ٢٠٥).

سبيل الله فتمسه النار»^(١)، يقول الحافظ في شرح هذا الحديث: «وفى ذلك إشارة إلى عظيم قدر التصرف في سبيل الله فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النار فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفد وسعه»^(٢)، والله يضاعف لمن يشاء.

وقال النبي ﷺ: «ما من ميت يموت إلا ختم على عمله إلا من مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو له عمله، وأمن من فتنة القبر»^(٣).

يدل هذا الحديث على أن الجهاد من الصدقات الجارية، والصدقات الجارية بنص الحديث الذي رواه الإمام مسلم ثلاثة، ولد صالح، وعلم نافع ينتفع به من بعده، والأوقاف والعمارات التي يستفاد بها من بعده مثل عمارة المساجد والمدارس وغيرها، وهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن كل ما يصرف على الجهاد يدخل في هذا النوع الأخير، وسبب ذلك واضح؛ لأن المجاهد يقوم بالجهاد ويضحى بروحه ودمه لسعادة الأجيال القادمة وللحفاظ عليهم، ولا يوجد عمل يكون أجدى وأنفع منه كما أنه لا يوجد أصدق خدمة للبشرية من هذا، ومن هنا كان جديراً بأن لا يكون أجره مؤقتاً، فما دامت النتائج التي تترتب عليه تكون للأجيال القادمة فيجب إذاً أن يكون أجر صاحبه مستمراً وأن لا ينقطع بانقطاع العمل.

وقد ورد في الحديث لفظ «مربطاً في سبيل الله» وورد في بعض الأحاديث الأخرى لفظ «رباط» والمراد بالرباط أن يستقر المجاهد في مكان ويتنظر، فإذا هاجم العدو رده ودفعه، يقول في النهاية: «هو الإقامة في مكان يتوقع هجوم العدو فيه لقصد دفعه لله»، فالمراد بالمرباط الشخص الذي ينتظر في مكان ما يتوقع هجوم العدو، فإذا لم يهاجم العدو ولم يقاتله، بل توفي مرتبطاً منتظراً لهجوم العدو فإن ذلك ممن ينمو عمله بعد موته، وإن عمله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها.

وإشارة إلى هذا المعنى عقد الإمام البخاري باباً بعنوان «فضل الرباط في سبيل الله»، وأورد فيه هذا الحديث وتبعه عليه الإمام النووي في تبويبه لصحيح مسلم.

(١) صحيح البخاري، طوق النجاة، (٤ / ٢١).

(٢) فتح الباري، ابن حجر، (٦ / ٣٠).

(٣) رواه أصحاب السنن.

والقرآن الكريم يؤكد نفس المعنى فى أكثر من موضع، يقول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿[التوبة: ٢٠-٢١].

وأما الذين لا يقدرّون على الجهاد فى سبيل الله؛ لكنه يرسل أمواله إلى المجاهدين، أو يساعدهم بأى طريق آخر - هذا الإنسان وإن لم يمكن أن يبلغ مرتبة المجاهدين فى سبيل الله لكنه شريك لهم فى الأجر، وأجره هذا أعظم من أجور سائر العبادات والطاعات، يقول الرسول ﷺ: «من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة ٢٦١]»^(١).

لا يخفى على أحد مدى تأكيد الإسلام على حقوق العباد، وخاصة حقوق الوالدين والأقارب، وأن أداء هذه الحقوق مقدم على جميع الحسنات والعبادات، لكن الجهاد والدفاع هو العمل الوحيد الذى لا تحول دون أدائه تلك الحقوق أيضاً؛ وذلك لأن الحفاظ على الأفراد متوقف على الدفاع عن الأمة وعن الشريعة فإذا كانت الأمة فى محاصرة الأعداء فإن أكبر واجب فى هذه الحالة الدفاع عنها وكسر الحصار ودفع الأعداء، وإذا كان أمام الإنسان عمل أكبر يترك لأجله الأعمال الصغيرة، فإن الوشائج الأسرية، مثل الأبوة والبنوة والأخوة والزوجية كلها مهمة ولها حقوقها، لكن حق الله وحق ذلك الصدق الذى جاءنا من عنده أولى وأكبر من جميع الحقوق، وأن جميع الوشائج لا تساوى شيئاً أمام تلك العلاقة، فإذا نادى منادى الجهاد يترك عندئذ كل الأعمال سواه، يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

أَقْرَبَتْكُمْ وَتَحَرُّرُ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ٩٢٢).

اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿التوبة: ٢٤﴾.

لا شك أن الجهاد يكون أوجب والعمل به يكون ألزم عند هجوم الأعداء على بلاد المسلمين، لكن من حيث الإرادة والعزيمة لا علاقة للجهاد بوقت معين ولا بظروف خاصة، بل يجب على المسلمين أن يكونوا مستعدين للدفاع عن الأمة ولدفع العدو عن بلاد المسلمين دائماً، وأن يستمروا في هذا الإعداد، وقد مر في حديث الرسول ﷺ أن القلب الذي يخلو من العزم على الجهاد فإنه يخيم عليه النفاق، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

الشيخ محمد محمد المدني

[١٣٢٥-١٣٨٨ هـ - ١٩٠٧-١٩٦٨ م]

بطاقة حياة العلامة الشيخ محمد المدني

فى سنة ١٩٥١م انتفض علماء الأزهر الشريف وطلابه فى مظاهرات ومؤتمرات واعتصامات تطالب بإصلاح الأزهر وتطوير مناهجه، وإنصاف العاملين فيه.

وكنى - يومئذ - طالباً بمعهد طنطا الأحمدي الثانوي.. وكوّن اتحاداً للطلاب - كنت خطيب مظاهرات ومؤتمرات - وطفنا على عدد من المعاهد، وألفنا وفدًا مشتركًا سافر إلى القاهرة للقاء الشيخ الأكبر شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩-١٣٧٤ هـ / ١٨٨٢-١٩٥٤ م] لعرض مطالبنا عليه.

وعلى باب مشيخة الأزهر، اصطدمت بنا الشرطة، تريد الحيلولة بيننا وبين لقاء الشيخ الأكبر.. وتدحرجت عمائمنا على سلم المشيخة!.

وأخيرًا، تمكنا من الدخول إلى مكتب مدير مكتب الشيخ الأكبر - الشيخ محمد محمد المدني [١٣٢٥-١٣٨٨ هـ / ١٩٠٧-١٩٦٨ م] الذى هدأ من روعنا، وسكّن غضبنا، وقادنا للقاء الشيخ عبد المجيد سليم.. فقصصنا عليه مطالبنا، ورأى آثار ما صنعت الشرطة بنا؛ فكانت غضبته الشهيرة التى تمثلت فى التصريح الذى أعلنه - وكان الملك فاروق [١٣٢٨-١٣٨٤ هـ / ١٩٢٠-١٩٦٥ م] يلهو بملاهى (كابرى) - بإيطاليا - وقال فيه: (تقتير هنا.. وإسراف هناك)!.

وهو التصريح الذى رفض التراجع عنه، فكان الضغط عليه ليستقيل من مشيخة الأزهر. فقبل - راضياً - طالما أن أحدًا لن يستطيع أن يمنعه من أداء الصلاة فى بيت من بيوت الله.

ويومئذ كان الشيخ المدني واحدًا من العلماء الذين عارضوا استقالة الشيخ الأكبر.

فلما استقال، غادر منصبه كمدير لمكتب الشيخ، وعاد إلى التفتيش بمعاهد الأزهر الشريف.

- ولقد كان الشيخ المدني واحدًا من أعلام علماء مدرسة الإصلاح والإحياء والتجديد التي تكونت من حول منهاج الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م] في الإصلاح، وواحدًا من أعلام العلماء الذين ناصرُوا جهود الشيخ الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨-١٣٦٤هـ/ ١٨٨١-١٩٤٥م] في إصلاح الأزهر، إن في المناهج، أو في التنظيمات. وواحدًا من العلماء الذي رفضوا عدوان الدولة على استقلال الأزهر الشريف.

- ولد الشيخ محمد محمد المدني في ٢٠ شعبان سنة ١٣٢٥هـ/ ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٧م - بقرية سنباده - مركز المحمودية - محافظة البحيرة.

- وأتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الثانية عشرة من عمره سنة ١٩١٩م. والتحق بالتعليم الأزهرى - بمعهد الإسكندرية الدينى - ولذكائه الحاد ومثابرته، وطموحه قفز فقطع مراحل التعليم على نحو غير مسبوق، فحصل على شهادة الثانوية الأزهرية فى إبريل سنة ١٩٢٧م. وبعد أقل من عام تقدم لامتحان العالمية فحصل عليها بتفوق فى أكتوبر سنة ١٩٢٧م!، فكان أول من تخرج فى الجامعة الأزهرى وهو فى العشرين من عمره!.

- وفى سنة ١٩٣٠م حصل على الأستاذية - الدكتوراه - العالمية - من قسم التخصص فى علوم البلاغة والأدب.

- وفى سنة ١٩٣٣م عين مدرسًا بالمعاهد الدينية - بمعهد الإسكندرية - وفى نفس العام رشحه شيخ الأزهر - الشيخ محمد الأحمدي الظواهرى [١٢٩٥-١٣٦٨هـ/ ١٨٨٦-١٩٤٩م] للسفر إلى الصين لتدريس العلوم الدينية والعربية بالمعهد الأزهرى الذى أقامه الأزهر هناك.

- ولقد شارك الشيخ المدني فى الثورة الأزهرية العارمة التى انخرط فيها علماء الأزهر وطلابه؛ لإعادة الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر؛ كى يطبق مشروعه الإصلاحى. ولذلك فُصل الشيخ المدني من الأزهر - لمشاركته فى هذه الثورة - فى فبراير سنة ١٩٣٥م، لكنه أعيد إلى وظيفته - مدرسًا بمعهد الإسكندرية - فى أول مايو

من نفس العام، بعد انتصار الثورة الأزهرية، وعودة الشيخ المراغى إلى المشيخة..
فشارك الشيخ المدني فى حفل تكريم المراغى بذات العام.

- وفى سنة ١٩٣٦م رُقّي الشيخ المدني مدرسًا بكلية الشريعة، فمكث بها تسع سنوات يدرس أصول الفقه، ويدرس مقارنة المذاهب الفقهية لطلاب السنة النهائية بالكلية.

- وفى سنة ١٩٣٧م أصدر الشيخ المراغى قرارًا بتعيين الشيخ المدني مستخدمًا مؤقتًا - بدرجة مدرس - بالجامع الأزهر.

- وفى سنة ١٩٤٠م وقع اختيار الشيخ عبد المجيد سليم على الشيخ المدني ليعمل إلى جانبه فى الإشراف على امتحانات الشهادة النهائية بالأزهر.

- وفى سنة ١٩٤٣م نقل مفتشًا للعلوم الشرعية والعربية - بالأزهر، واستمر فى هذا العمل ثلاث سنوات، عاد بعدها للتدريس بكلية الشريعة.

- وفى سنة ١٩٤٤ قررت مشيخة الأزهر ندبه مدرسًا بمعهد الإسكندرية، فمكث فيه عامًا؛ ليعود سنة ١٩٤٥م للعمل بالتدريس فى كلية الشريعة مرة أخرى.

- وفى سنة ١٩٤٨م كانت مصر تشهد معركة فكرية حول القصص القرآنى: هل هو واقع؟ أم خيال وتمثيل؟ فاختار الشيخ المدني موضوع (القصص الهادف كما نراه فى سورة الكهف) رسالة يتقدم بها لنيل عضوية (جماعة كبار العلماء). فأنجز الرسالة، لكنه لم ينل عضوية (الجماعة) لصغر سنه؛ إذ لم يكن قد بلغ الخامسة والأربعين - وهو شرط فى العضوية - إذ لم تأخذ (الجماعة) برأيه فى احتساب سنه بالتاريخ الهجرى.

- وفى ذات العام (سنة ١٩٤٨م) وقع اختيار شيخ الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى [١٢٩٥-١٣٦٩هـ / ١٨٧٨-١٩٥٠م] - على الشيخ المدني لرأس تحرير مجلة (رسالة الإسلام) - الناطقة بلسان (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) - بالقاهرة، كما وقع الاختيار عليه ليقوم بالتفتيش على المعاهد الدينية الأزهرية. وفى ذات العام أيضًا رشحه وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣-١٣٩١هـ / ١٨٩٥-١٩٧١م] ليتولى تدريس العلوم الشرعية بكلية الحقوق العراقية، التى أنشأها السنهورى ببغداد. وقال السنهورى باشا - فى خطاب الترشيح: (ولما

كان فضيلة الأستاذ محمد محمد المدني، المفتش بالأزهر، ممن نشق بهم، ونعتمد على كفايتهم العلمية، ونرى أنه خير من ينهض بهذا الواجب، مؤدياً به رسالة الأزهر، وممثلاً له أحسن تمثيل؛ لذلك تم الترشيح والاختيار.

وهى شهادة إمام فى الفقه والقانون لمجتهد فى الفقه والقانون.

- وفى سنة ١٩٤٩م كان الشيخ المدني أول عالم أزهري يشغل منصب مدير مكتب شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم.

- وفى ذات العام سنة ١٩٤٩ أدى فريضة الحج، عندما اختير عضواً ببعثة الشرف الموفدة للأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج. وكانت رئاسة البعثة للعلامة الدكتور عبد الوهاب عزام بك [١٣١٢ - ١٣٧٩هـ / ١٨٩٤ - ١٩٥٩م].

- وفى سنة ١٩٥٠م شارك فى اجتماع الهيئة العليا الأهرية لإنقاذ فلسطين.

- وفى سنة ١٩٥١م اختاره المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية عضواً وسكرتيراً للجنة العلوم الدينية بالدار، مع كوكبة من العلماء - منهم أصحاب الفضيلة عيسى منون [١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م]، ومحمد عبد الفتاح العنانى، ومحمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣م]، وأحمد حسين على، وأحمد محمد شاكر [١٣٠٩ - ١٣٧٧هـ / ١٨٩٢ - ١٩٨٥م]، ومحمد زاهد الكوثرى [١٢٦٩ - ١٣٧١هـ / ١٨٧٩ - ١٩٥٢م].

- وفى ذات العام سنة ١٩٥١م اختاره شيخ الأزهر مساعداً للشيخ محمد نور الحسن فى الإشراف على امتحانات الشهادات النهائية للمعاهد الأهرية.

- وعندما اضطرت الدولة - بناء على رغبة الملك فاروق - شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم إلى الاستقالة سنة ١٩٥١م - وكان الشيخ المدني معارضاً لهذه الاستقالة؛ رفض الاستمرار فى إدارة مكتب شيخ الأزهر، وطلب العودة إلى التفيتش بالأزهر، فأجيب إلى طلبه.

- وفى سنة ١٩٥٤م أعيد إلى التدريس بكلية الشريعة أستاذاً مساعداً.

- وفى سنة ١٩٥٦م عين أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

- وفي ذات العام سنة ١٩٥٦م اختير من قبل (المؤتمر الإسلامي) - الذي كان يرأسه أنور السادات [١٣٣٧-١٤٠١هـ / ١٩١٨-١٩٨١م] - كاتبًا بالمجلة الشهرية للمؤتمر - والتي كانت تصدر بالعربية والإنجليزية.

ولقد جاء في خطاب ترشيحه واختياره: «.. وإنني أهيب بكم، وأنتم علم من أعلام الفكر الإسلامي وأحد كتابه، أن تساهموا بما يعنُّ لكم من موضوعات وبحوث تثرون بها الفكر الإسلامي المستنير، وتجددون بها فهم الإسلام لتجدد به حياة المسلمين».

- وفي ذات العام سنة ١٩٥٦م صدر قرار جمهوري بتعيينه شيخًا لكلية الشريعة، ثم تجدد القرار - مرة ثانية - بتعيينه لذات المنصب سنة ١٩٦١م.

- وفي سنة ١٩٦١م انتدب مستشارًا للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بوزارة الأوقاف.

- وفي العام الدراسي سنة ١٩٦٧م - سنة ١٩٦٨م أعير لجامعة الكويت، لتدريس مادتي أصول الفقه والفقه المقارن.

- وفي سنة ١٩٦٨م اختير - مرة ثانية - عضوًا ببعثة الشرف المصرية لموسم الحج؛ فأدى فريضة الحج مرة ثانية.

- وبعد العودة من الأراضى المقدسة، صعدت روحه إلى بارئها في ٢ صفر سنة ١٣٨٨هـ / ١ مايو سنة ١٩٦٨م.. بعد حياة حافلة بالجهاد في ميادين العلم والفكر وخدمة الإسلام والمسلمين - عليه رحمة الله.

- ولقد كرمته الدولة - بعد وفاته - فمنحت اسمه وسام الدولة - مرتين ١٩٨١م و١٩٩١م.

- وكان الشيخ المدني - على امتداد حياته العلمية - أحد دعاة التجديد للفكر الإسلامي، والاجتهاد في الفقه الإسلامي. كما كان واحدًا من رموز المعارضة الأزهرية لتدخل الدولة في شئون الأزهر، وعدوانها على استقلاله. ولقد تحلى بشجاعة المعارضة لهذا التدخل، الذي اضطر عددًا من شيوخ الأزهر إلى الاستقالة أو الإبعاد.. ومنهم: الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣-١٣٧٧هـ / ١٨٧٦-١٩٥٨م]، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الرحمن تاج [١٣١٣-١٣٩٥هـ / ١٨٩٦-١٩٧٥م].

كما كان معارضاً للتغيير الذى تم بالأزهر سنة ١٩٦١ م.

كما كان ناقداً لتجديد نظام يوليو بعضاً من شباب الأزهر لعضوية منظمة الشباب - بالاتحاد الاشتراكى - ومن طريف ما أنشده فى ذلك:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً

يروح إلى اتحاد الشرّ فينا؟!

- هذا.. ولقد خلف لنا الشيخ المدنى - غير دروسه ومحاضراته وأحاديثه الإذاعية ومقالاته بصحف ومجلات: (الرسالة)، و(نور الإسلام)، و(الفتح)، و(الأزهر)، و(رسالة الإسلام)، و(منبر الإسلام)، و(لواء الإسلام)، و(الوعى الإسلامى) - العديد من الكتب المهمة.. منها:

١- المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء.

٢- سورة الأنعام والأهداف الأولى للقرآن.

٣- التعريف بسورة آل عمران.

٤- القصص الهادف للقرآن الكريم كما نراه فى سورة الكهف.

٥- وسطية الإسلام.

٦- مناهج التفكير فى الشريعة الإسلامية.

٧- رأى جديد فى تعدد الزوجات.

٨- السلطة التشريعية فى الإسلام.

٩- خصائص القرآن الكريم.

١٠- من هدى القرآن الكريم.

١١- نظرات فى فقه الفاروق عمر بن الخطاب.

١٢- الزواج والطلاق فى الإسلام.

١٣- عدالة الإسلام.

- ١٤- الجوانب التوجيهية للعقائد والمثل فى الإسلام.
- ١٥- دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى.
- ١٦- محاضرات فى التعريف بالقرآن الكريم^(١).

(١) لقد استفدنا فى الترجمة للشيخ المدنى بما نقله ابننا الباحث المثابر، خادماً تراث العلماء المرحوم الشيخ أحمد مصطفى فضلية (١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م) عن الأوراق الخاصة للشيخ المدنى ، التى أتاحها له ابنه فوزان.. والتى نشرها الشيخ فضلية بطبعته لهذا الكتاب - دار القلم - القاهرة سنة ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

وسطية الإسلام

للشيخ محمد المدنى

[١٣٢٥-١٣٨٨هـ - ١٩٠٧-١٩٦٨م]

فى التعريف النبوى للوسطية، يقول رسول الله ﷺ: (الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطاً) - رواه الإمام أحمد - فالوسط هو: العدل. والوسطية هى: العدالة. وهى الفلسفة الجامعة بين المثالية والواقعية، أى بين عناصر الحق والعدل فيهما، وهى الفطرة الرافضة لغلوى الإفراط والتفريط.

(فوسطية الإسلام): أى عدالته فيما جاء به من أحكام ومبادئ ومثل، وكونه قواماً بين الأطراف، وميزاناً للتعديل يرجع إليه الناس فى معرفة الخير والشر، والحق والباطل، والصالح والفساد، والاستقامة والاعوجاج، والقصد والغلو، إلى غير ذلك من هذه المعانى المتقابلة التى يتعرض لها الناس فى مختلف شئونهم ووجوه حياتهم.

ومن شأن هذه الوسطية أن تجعل المسلمين شهداء على الناس. بمعنى أن تكون مقاييسهم هى المقاييس الصحيحة وسننهم هى السنن القويمة، وأن يكونوا أمة خيرة متوسطة مستقيمة على الجادة، لا انحراف لها فى شىء من الأشياء إلى طرف، ولا التواء لها فى أمر من الأمور عن الصراط السوى، فهى أمة لها طابع الاعتدال، وقد مرنت عليه حتى أصبح سليقة لها، وشأنًا من شئونها المميزة، وصلحت به لأن تكون أمة القيادة والتوجيه إلى المثالية الواقعية، وأن تكون أحكامها هى الفيصل حين يختلف الناس على الأحكام، ومبادئها هى المبادئ والمثل حين يختصم الناس فى المبادئ والمثل. ذلك أن الأمم إذا صلحت واستقامت واعتدلت كانت نموذجًا لغيرها من الأمم فى أفعالها وأقوالها، وما يُعد صلاحًا وما يُعد فسادًا.

فليست هذه الوسطية إلا المنهج القويم العدل الذى يلاحظ الفطرة، ويعالج

الطبيعة، ويرد المجتمع إلى اليسر والتماسك، ويبعده عن الفساد والانحلال، مع الرحمة به والتخفيف عنه، وإن هذا لهو الصراط المستقيم الذي علم الله عباده أن ينشدوه، وأن يطلبوا منه هدايتهم إليه حيث يقول سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة: ٦، ٧].

وكما علق الله قلوب عباده بهذا الصراط المستقيم، صراط الوسطية والاعتدال، أنبأهم على لسان رسوله في آية من كتابه بأنه هو جل شأنه على هذا الصراط، حيث يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].. وكفى بهذا فضلاً ورحمة ونعمة.

- ولقد طبعت هذه الوسطية الإسلامية كل ما جاء به الإسلام في: العقيدة، والشرعية، والقيم والأخلاق.

(فقامت هذه الوسطية على رعاية الفطرة في كل ما جاء بالإسلام من أحكام، سواء في جانب العقيدة، أو في جانب المناهج والشرائع العملية والخلقية ورسوم العبادة.

وهذا الروح الذي يسيطر على جميع الأحكام هو (الوسطية)، أي الاعتدال والتوسط بين الأطراف، وهو الذي يلائم بين مقتضيات هذا وذاك ويحفظ التوازن الذي لا بد منه بينهما.

- ففي العقيدة: ركب قوم متن الشطط، فحاولوا بعقولهم إدراك ذات الله وكنهه، وركب قوم آخرون متن الشطط عندما تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته، والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما يزعمون ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه، وإنما هو يلفت دائماً إلى آثار الله في الخلق والتصريف. وهذه ولا شك سبيل المؤمنين، وهي سبيل وسط بين المومغلين في تصور الألوهية كما تُتصور المادة، والمومغلين في إنكارها مع وجود آثارها، ووضوح أفعالها وتديرها.

وعقيدة الإسلام وسط كذلك بين الزاعمين أن الإنسان مجبور ظاهراً وباطناً، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعاله بنفسه دون دخل لله.

إن الإنسان فاعل متصرف، يأتي الشيء بإرادته، ويمتنع عنه بإرادته.. وهو، مع

ذلك، تحيط به ظروف وأسباب فى الكون والمجتمع خارجة عن إرادته ليس له فى تكييفها تأثير، وهذه الظروف قد تعطل إرادته فى بعض الأحيان فلا يتم تنفيذها، وقد تلائم هذه الإرادة فتم. فإرادة الإنسان ليست هى كل شىء إذاً، فللعبد جانب من الفعل والإرادة، وهو مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى، وخاضع لأسباب من صنع الله. إنه فاعل مختار، ولكنه فى نفس الوقت مقيد بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التى تفرضها الظروف والأسباب والأحوال المحيطة به، فالأمر فى شأنه وسط. ويمثل هذا الفهم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، حيث أسند الفعل للعبد والخلق لله، فالعبد مباشر، والله هو المهيئ لأسباب تلك المباشرة، ولولا تهيئته لم تتم.

وعبادات الإسلام وسطية أيضاً.. ومن نماذجها:

- الصلاة: فهى انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى، لكن فى أوقات مناسبة - محصورة بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه.

- الصوم: ليس حرماناً كاملاً، وإنما هو حرمان وقتى لساعات محدودة لك بعدها أن تتناول كل ما تريد من المباح.

- وقل مثل هذا فى الزكاة، والحج، والنكاح، والطلاق، وحل البيع، وحرمة الربا، والاعتراف بالحرب مع النهى عن الاعتداء، والأمر بأخذ الحذر مع النهى عن الإسراف والتظنن، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه، وإباحة الانتصار للنفس مع الترغيب فى جانب العفو، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى إياه، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط، دون ميل إلى جانب التفریط، أو جنوح إلى ناحية الإفراط.

إنها الوسطية التى تراعى حق الفطرة الإنسانية، مع النهى عن سلوك السبل التى سلكها أهل الأديان السابقة، أو بعض الفلاسفة، مع تعذيب النفس وحرمانها من الأخذ بما يلاءم الفطرة ويحقق المتاع الجسمى الطبيعى.

- وفى اللباس: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمُ حُذُوًا زَيْنَتَهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، والزينة: قدر من التجميل فوق أصل اللباس، فאלله تعالى يأمرنا أن نتجمل فى حالة العبادة، لا أن نتجرد، فهو يقابل فلسفة المشركين وغيرهم التى تتخيل فى التجرد من اللباس كله مرضاة لله، وفلسفة أخرى تقوم على أن العبادة قرب من العبد إلى الرب الذى

هو الملك الأعظم، والشأن فيمن يقرب من الملك أن يتجمل ويتزين ولا يكتفى بأدنى لباس، فضلاً عن أن ينزع اللباس متجرداً. فالله تعالى يأمر باتخاذ الزينة في غير سرف، كما يأمر بالأكل والشرب في غير سرف.

- وفي التشريع: توسط الإسلام من حيث رعاية ما يجب الاتفاق عليه، وما يجوز الاختلاف فيه، فلم ينكر حق العقول في النظر والبحث والتطور وملاحظة اختلاف العرف والأمكنة والأزمنة، وهي دواعي الاجتهاد، كما لم ينكر حق الجماعة في أن تأتلف على أمور تجمعها، تكون بها أمة مترابطة متفاهمة على أصولها..).

- كذلك نجد وسطية الإسلام في النظر إلى المرأة، فهي متميزة عن الرجل، وذلك دون أن يكون هذا التميز نقصاً معيماً..

«ذلك أن الأنوثة مظهر طبيعي له مقتضياته ولوازمه، ولا يمكن أن يُنسخ ويزول من الواقع ولو اجتمعت كل العوامل الصناعية أو التكلفية على نسخه وإزالته.. ولكني، مع هذا، لأقول:

وليس في الإسلام ما يوحي بأن الأنوثة يلزمها عدم الذكاء، أو عدم المعرفة، أو عدم الفطنة. إن الأنوثة في ذاتها لا يمكن أن تكون سبباً مباشراً لضعف عقلي أو علمي أو ديني، وكم رأينا من النساء عالمات عاقلات حكيما متدينات عابدات، والقرآن الكريم يفرض ذلك ويدل على إمكانه، بل على وجوده، والتاريخ يحفظ من الذكريات الطيبة لكثير من النساء ما يعد فخراً وشرفاً..».

- ووسطية الإسلام هي المعيار في الحلال والحرام. وهي لذلك - تقول: إن الأصل في الأشياء الحِل. وإنه لا تحريم إلا بنص. وإن المعاملات المستحدثة والمستجدة على الحِل، طالما راعت مقاصد الشريعة ومصالح العباد.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]..

(فلا يحل لإنسان أن يحرم شيئاً إلا بدليل على تحريمه، وكل ما لم يتبين بالدليل أنه حُرّم واستثنى من أصل الحِلّ والإباحة فهو باق على حكمه الأصلي في هذه القاعدة، ويطبق هذا على كل ما يحدثه الناس من المعاملات التي لم تكن متعارفة من قبل، فلا يسوغ الحكم بطلان معاملة منها إلا إذا ثبت أن هذه المعاملة محرمة بالدليل الشرعي لا بمجرد أقيسة المتفقهين، أو تزمت المتزمتين.

ونحن نستطيع أن نرسم منهجاً فقهياً في دراسة المعاملات الحديثة، يقوم على دعائم ثلاث:

الدعامة الأولى: حق المجتمع الإسلامي أن يبتكر ما شاء من ألوان المعاملات، وأن يجارى النشاط الاقتصادى العالمى بالمساهمة فيه حسب الطرق الحديثة دون تحرج. فالله سبحانه وتعالى لم يوجب على الناس أن يلتزموا صوراً خاصة من المعاملات لا يتجاوزونها، وليست الصور التى يبحثها أهل الفقه والحديث إلا ألواناً من المعاملات يمكن ان يضاف إليها ويحذف منها ويعدل فيها فى ظل أصول الشريعة، من رعاية المصالح، وحفظ النفوس والأموال والأخلاق وعدم الحرج والتعسير.

الدعامة الثانية: أن الأصل فى المعاملات الإباحة، فلا يجوز المسارعة إلى تحريم صورة من صور المعاملات حتى يتبين أن الله حرمها.

الدعامة الثالثة: أن اشتمال المعاملة على ناحية من نواحي المنع والتحريم لا يكفى فى القول بتحريمها، بل لابد من دراسة هذه الناحية ودراسة حال الناس فى شأنها ومدى ما تشتمل عليه من منفعة أو مضرة، أو مضرتها من النوع الذى يمكن التغاضى عنه تيسيراً على الناس، فيسلك بها مسلك الترخيص، أو أنها من المعاملات التى يمكن تهذيبها وتقويم العوج فيها.

بهذا المنهج نستطيع أن نعيد الشريعة إلى مجال التعامل والاقتصاد بعد أن نُحيت عن هذا المجال منذ جمد المتأخرون من أتباع الفقهاء على ما ورثوا دون أن يتابعوا النظر، أو يحاولوا درس الجديد من ألوان المعاش والنظم الاقتصادية).

- ويعلن العلامة الشيخ المدنى أن الوسطية - التى أُلّف فيها هذا الكتاب - هى المشروع الإسلامى البديل للنهوض والتقدم والانعقاد من التخلف الموروث - الذى يحرسه التعريب، والتعظيم لأوروبا - والذى كان السبب فى تخلينا عن رسالتنا ومكانتنا واستقلالنا الحضارى.

(فلقد عظمنا فى أنفسنا هؤلاء الأوروبيين تعظيماً شديداً، حتى جعلناهم قدوتنا ومرجعنا، وأنسنا إلى مبادئهم ومثلهم فاتخذناها مبادئ لنا، ومثلاً لنا، فأصبحوا هم

الشهداء علينا. وما ذلك إلا لأن المسلمين تنحوا عن مركزهم العالمى الذى بوأهم الله إياه فى سالف الزمان.

والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن هذا الوضع الذى ارتضيناه لأنفسنا وضع مقلوب، وأن علينا أن نعرف قيمة أنفسنا، وندرك وضعنا الصحيح فى الحياة، وهو لا يكتفى منا بأن نشعر بعزتنا، وبأننا أمة مستقلة لها مبادئها وأحكامها وأفكارها وفلسفتها، بل يريد منا مع ذلك أن نشعر بأننا نُدبنا فى هذا العالم لرسالة سامية شريفة، نحن فيها الموجهون والقادة والدعاة إلى المثل والحماة لها، وأصحاب المناهج، والقائمون على تنفيذها؛ ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَتَكُنَّ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالدعوة إلى الله، إذًا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تهدف إلى تكوين (رأى عام) قوى، يشعر كل فرد فى الأمة بأنه شىء يعتد به فى كيانها، عليه واجبه نحوها، لا نحو نفسه فقط. وذلك واجب عيني كما تجب الصلاة والزكاة والحج والصوم.

وإيمان المسلمين بأن أحكامهم هى الصالحة للحياة، وبأن عقائدهم ومبادئهم ومثلهم هى ميزان التعديل، ومنهج الحكم، وعناصر الشهادة الصادقة المطابقة للمصلحة، هو أيضًا واجب على كل فرد فى الأمة الإسلامية بحكم القرآن.

ولما كانت نزعات الشك والإلحاد قد سرت فى كثير من أهل الثقافة، وكانت مثل الغرب، وأحكام الغرب، ومقاييس حضارته أو مدنيته قد أخذت بأعناق كثير منا ولعبت بعقولهم، فزُين لهم حبها، والإيمان بها، والسير على هداها، فقد رأيت حقًا عليّ لأمتي ولديني، ولكتاب ربي: أن أدرس (وسطية الإسلام) كى أبين للناس أن أحكامه ومناهجه ومثله هى مقاييس العدل، وموازين الحق، ومعايير الفضيلة، وأنها فى الوقت نفسه سبيل السعادة والاستقامة والأمن والرضا).

* * *

تلك إشارات إلى بعض رؤوس الأقلام، التى سطرها الشيخ المدنى فى هذا الكتاب.. الذى لا نغالى إذا قلنا: إنه أوفى وأعمق ما كتب عن (وسطية الإسلام) فى فكرنا الإسلامى الحديث.

لقد تألق الشيخ المدنى فى هذا الكتاب الصغير - فيلسوفاً للوسطية الإسلامية. كما تألق فيه - وفى كل ما كتب - فقيهاً متميزاً، ومجتهداً متمكناً، وعالماً فى الاجتماع.. كما تألق مؤمناً معتزاً بإسلامه العظيم. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

الشيخ عبد الجليل عيسى

[١٣٠٦-١٤٠١هـ - ١٨٨٨-١٩٨١م]

بطاقة حياة الشيخ عبد الجليل عيسى

هو العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر.. من أعلام علماء المالكية في عصره، وكبار المجددين.

ولد بعزبة الرمل، التابعة للخادمية، مركز كفر الشيخ - محافظة الغربية حينذاك - ومحافظة كفر الشيخ الآن.

وبعد حفظ القرآن الكريم وتجويده التحق بالمعهد الأحمدي الديني بطنطا [١٣٢١هـ / ١٩٠٣م].. ودرس - بالأزهر - على النظام القديم حتى [١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م].. ثم درس على النظام الحديث حتى تخرج ونال شهادة العالمية [١٣٣٢هـ / ١٩١٤م].

وعقب تخرجه عين مدرسًا بالمعهد الأحمدي الديني بطنطا - في سبتمبر سنة ١٩١٤م.. ثم نقل إلى الأزهر بالقاهرة مدرسًا بالقسم الثانوي.. ثم بالقسم العالي.. ثم بقسم التخصص.. إلى أن عين مفتشًا بالأزهر في ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٥م.. ثم عين شيخًا لمعهد دسوق الديني في ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧م، ثم شيخًا لمعهد شبين الكوم الديني في ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٨م، عندما اختاره الشيخ المراغي [١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٥م] كأول شيخ لهذا المعهد.. ثم تم تعيينه شيخًا لكلية أصول الدين في ٢٤ مارس سنة ١٩٤٦م.. ثم شيخًا لكلية اللغة العربية في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧م.

وكان الشيخ عبد الجليل عيسى أحد أعلام مدرسة الإحياء والتجديد التي كان الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] رائدها.. كما كان

تلميذاً للإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى، وأحد معاونيه فى الإصلاح الفكرى والتعليمى.

وإبان ثورة مصر الكبرى [١٣٣٧هـ / ١٩١٩م] كان الشيخ عبد الجليل عيسى أحد علماء الأزهر الذين انخرطوا فى الثورة، وشاركوا فى أحداثها عملياً وفكرياً.

وبسبب اشتراكه - مع لفيف من علماء الأزهر - فى الاحتجاج على الوحشية الفاشية الإيطالية ضد الحركة الجهادية الليبية [١٣٥٠هـ / ١٩٣١م]، وإعدام البطل المجاهد عمر المختار [١٢٧٥ - ١٣٥٠هـ / ١٨٥٨ - ١٩٣١م]، تم فصله - مع عدد من العلماء - بتوجيهات من الملك فؤاد [١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ / ١٨٦٩ - ١٩٣٦م] إبان وزارة إسماعيل صدقى باشا [١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ / ١٨٧٥ - ١٩٥٠م].. وذلك مجاملة من الملك فؤاد لملك إيطاليا - صاحب الأفضال عليه وعلى والده الخديوى إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ / ١٨٣٠ - ١٨٩٥م].. فتمت إحالة الشيخ عبد الجليل عيسى إلى المعاش قبل أن يصل إلى السن القانونية للمعاش!.. ثم أعيد إلى الأزهر - مع زملائه - بحكم قضائى [١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م].. وفى [١٣٧٠هـ / ١٩٥١م] تكرر الأمر، فصدر مرسوم ملكى بإحالته إلى المعاش قبل السن القانونية للمعاش، ولقد أعاده قضاء مجلس الدولة عميداً لكلية اللغة العربية [١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م] مع تعويضه مالياً، والثناء على علمه وفضله فى حيثيات الحكم.

ولقد نال الشيخ عبد الجليل عيسى عضوية لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.. وأصبح عضواً بمجمع البحوث الإسلامية [١٣٩٠هـ / ١٩٧١م]، كما شغل عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.. والمجلس الأعلى للثقافة.. ومجمع اللغة العربية.. وعضوية لجنة وضع الدستور الإسلامى، التى كونها الأزهر فى ٥ يناير سنة ١٩٧٨م.

ولقد نال العديد من الجوائز فى العهدين الملكى والجمهورى منها:

- ١ - كسوة التشريف الملكية من الدرجة الثالثة أثناء عمله مفتشاً بالأزهر.
- ٢ - كسوة التشريف الملكية من الدرجة الثانية أثناء عمله شيخاً لمعهد شبين الكوم.
- ٣ - جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م.

٤ - نوط الامتياز من الطبقة الأولى - لاسمه سنة ١٩٩١ م.

ولقد كانت سجاياه الخلقية تنافس عبقريته العلمية شجاعاً في الرأي.. شديد الوفاء لعارفيه... يتمثل دائماً كلمات الإمام مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ / ٧١٢ - ٧٩٥ م]: لا تسئل: من قال؟ ولكن سل: ماذا يقول؟».

كما كانت رسالة حياته العمل على تنقية التراث الإسلامي من آثار الجمود والتقليد والخرافات. ولقد طالب - في مجمع البحوث الإسلامية - جلسة أول مارس ١٩٧٢ م بوقف إخراج كتاب «الجامع الكبير» للسيوطي، حتى تتم مراجعته بواسطة لجنة من أعضاء المجمع، وتنقيته من الضعيف والموضوع والإسرائيليات، التي تتنافى مع مبادئ الدين وحقائقه.. كما طالب بوضع التعليقات العلمية على ما جاء في بعض التفاسير من الإسرائيليات.

ولقد صعدت روحه إلى بارئها في يوم الجمعة أول رمضان [١٤٠١ هـ / ٢ يوليو ١٩٨١ م] عن عمر ناهز الثالثة والتسعين.

وغير إسهاماته في الإصلاح التعليمي، كان له عطاء علمي متميز في المحافل العلمية، وفي الصحف والمجلات - بمصر والعالم الإسلامي - كما خلف تراثاً فكرياً نفيساً يشهد على عبقريته.. ومن هذا التراث كتب:

١ - «ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين».

٢ - «اجتهاد الرسول ﷺ».

٣ - «صفوة صحيح البخاري» في أربعة أجزاء - ٧٠٠ حديث مع شرح مستنير لها - درسه طلاب القسم الثانوي بالمعاهد الأزهرية لسنوات طوال.

٤ - «تيسير التفسير» - الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٧ م.

٥ - «المصحف الميسر» - تفسير لمعاني كلمات القرآن الكريم.

ولقد قال عنه تلميذه العالم الإسلامي محمد عبد الله السمان: «إنه كان يذكرنا بعلماء السلف: عمق وإيمان، وصحة عقيدة، وسعة أفق، وقوة حجة، وسلامة رأي، والتزام بالمبدأ، واعتزاز برسالة العلماء ووراثة الأنبياء».

ووصفه إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوي [١٣٢٩ - ١٤١٩ هـ / ١٩١١ -

١٩٩٨م] فى تقديمه للجزء الثالث من كتاب « التيسير الميسر للقرآن الكريم»، فقال: «إنه أستاذ أجيالنا. ناصر السنة، وقاهر البدعة، وميسر كتاب الله وسنة رسوله للقارئ والدارس.. علم من أعلام الإسلام الذين ربوا دعاة الدين ومهدوا طريق الدعوة إلى الله.. ولقد كان كتابه هذا أول مراجعى الذى عرفنى كيف أجمع شتات الآيات جمعاً يستوعب كل ما قيل فيها».

عليه رحمة الله^(١)..

(١) انظر «الأزهر فى ألف عام» ج ٣ ص ٤٥٧-٤٥٩. للدكتور عبد المنعم خفاجة. ومجلة «الأزهر» مجلد ٦٧ ص ٥٠-٥٣ خيرى عبد الجليل، «إتمام الأعلام»، طبعة بيروت سنة ١٩٩١م، محاضر جلسات مجمع البحوث الإسلامية.. صحيفة الأهرام المسائي فى ١١-٤-١٩٩١م.

ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين

للشيخ عبد الجليل عيسى

[١٣٠٦-١٤٠١هـ-١٨٨٨-١٩٨١م]

وسطية هذه الأمة جعل إلهي، وليست مجرد نزعة إنسانية أو اختيار بشري يرغبه البعض ويزور عنه آخرون.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والمعنى الإسلامي للوسطية هو التوازن الذي يجمع عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة، مكونا الموقف الثالث - الوسط - البريء من غلوى الإفراط والتفريط.

ولقد عبر الحديث النبوي الشريف أدق التعبير عن هذا المعنى للوسطية الإسلامية، عندما قال المعصوم عليه السلام: «الوسط: العدل جعلناكم أمة وسطا» رواه الإمام أحمد.

ولأن العدل - الوسط .. الخيار - إنما يتحقق بجمع عناصر الحق والعدل من المدعى والمدعى عليه، واتخاذ موقف الشاهد على هذه الموازنة بين مكونات هذا الموقف الوسط العادل، كانت الوسطية - بهذا المعنى - خصيصة الإسلام - العقيدة .. والشرعية .. والقيم والأخلاق - وخصيصة تجليات هذا الإسلام في مختلف ميادين الثقافة والمدنية - الحضارة - وسائر ممارسات الإنسان المسلم في سائر مناحي الحياة ..

لقد وازنت الوسطية بين آيات الله في كتابه المنظور - الكون - وبين آياته في كتابه المسطور - القرآن الكريم، وذلك حتى لا يغرق العقل المسلم في كتاب الكون وعالم الشهادة غافلاً عن عالم الغيب وملكوت ما وراء المادة والطبيعة والمحسوسات فيقع في «الدهرية» التي جعلت أهلها:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وحتى لا يغرق هذا العقل المسلم - كذلك في بحار عالم الغيب، ومحيطات الآخرة التي لا قدرة للعقل على اكتناه حقائقها، متجاوزاً حدود «الأمثال» التي ضربها الله - سبحانه وتعالى - لحقائق هذه العوالم، على النحو الذي يجعل هذا العقل غافلاً عن فقه الواقع وعمران الدنيا، المؤدى إلى سعادة الآخرة، وانكشاف حقائقها يوم الدين.

كذلك وازنت الوسطية الإسلامية بين الماضى والحاضر والمستقبل.. وذلك حتى لا يهاجر العقل المسلم من الحاضر إلى التاريخ، وحتى لا يغفل عن عظات التاريخ.. وحتى يضم استشراف المستقبل إلى معطيات الحاضر وعبر التاريخ.. فالتاريخ في الرؤية الإسلامية - علم من علوم اجتماع الواقع المعيش وليس أكفان موتى ولا آثاراً صماء.. والوعى به يجعله نوراً للبصيرة التي تفسح الآمال في المستقبل المنظور.

ولقد مارس المسلمون الأوائل - الذين أقاموا الدين وأسسوا الدولة، وحرروا الأوطان والضمائر من قهر الفرس والروم وقعدوا قواعد المدنية والثقافة والحضارة وغيروا مجرى التاريخ - مارسوا هذا المنهاج الوسطى المتوازن، والموازن بين معارف عالم الغيب ومعارف عالم الشهادة، فأسسوا العلوم الإسلامية التي تميزت بهذا التوازن وهذه الوسطية الجامعة، وذلك عندما فتحو كل الأبواب وجميع الأفاق أمام العقل المسلم كي يتفكر ويتدبر في ميادين عالم الشهادة، ليعمر هذه الأرض، مع دعوة هذا العقل إلى الاقتصاد في أنباء عالم الغيب، التي لا يستطيع العقل النسبى إدراك إطلاقاتها، ولا تستطيع اللغة - التي هي مواضع بشرية - التعبير عن مكنونات أسرارها.. وانطلاقاً من هذا المنهاج الوسطى المتوازن فتح العقل المسلم أبواب التأويل في علوم عالم الشهادة أمام الراسخين في العلم.. مع وقف علم المآلات في معارف عالم الغيب على علام الغيوب فكانت السباحة والغوص في محيطات علوم عالم الشهادة، مع إجماع العوام عن الخوض فيما لا طائل من وراء الخوض فيه.

فلما اختل هذا الميزان، وهذه الوسطية بتأثيرات النزعات الباطنية والغنوصية والغلو العرفانى، انفتحت أبواب التأويل والتفصيل والتفريع في معارف عوالم الغيب والروح وضمرت معارف المسلمين في ميادين عالم الشهادة والواقع المعيش

فغرقت كثير من العقول والتيارات الفكرية فى تفاصيل المغيبات والفروض المتخيلة حول عوالمها ومكوناتها على حساب معارف عالم الكون والشهادة.. ولقد أثمر هذا الخلل ضمور عناصر الوحدة الفكرية والثقافية، المؤسسة على الأصول والثوابت، وشاعت الفرقة والخلافات والاختلافات النابعة من الغرق والاستغراق فى التفاصيل والجزئيات والافتراضات المتخيلة التى تعز على الوقوع.

لقد كان المسلمون الأوائل ينطلقون من المنهاج القرآنى الذى ألح كثيراً على النظر فى كتاب الكون ومعارف عالم الشهادة:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وكانوا- لذلك- يركزون على توجيه العقل إلى فقه الواقع لترشيده وتوجيهه إلى ما يحقق سعادة الناس فى المعاش التى هى السبيل إلى سعادتهم فى المعاد، ويحذرون العقل المسلم من القفز على فقه الواقع، ومن الغرق فى الفروض المتخيلة البعيدة عن التحقيق أو التى لم يحن بعد أوان وجودها فى الواقع المعيش.

ولقد حذر رسول الله ﷺ من القفز على الواقع، واستباق هذا الواقع إلى ميادين السؤال والانشغال بالفروض المتخيلة، فقال: «دعونى ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم كثرة أسئلتهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».. رواه البخارى ومسلم. وهو توجيه نبوى إلى البدء بفقه الواقع، دون استباق إلى ما لم يدخل حيز الوجود بعد - أى تعليم العقل المسلم فقه الأولويات وتوجيهه كذلك إلى المنهاج الإسلامى فى الاقتصاد فى التفصيل لأحكام الحلال والحرام، فأبواب الإبداع مفتوحة فيما لم يرد النهى عنه والاتباع واجب فى الفرائض والواجبات التى جاءت بها النصوص..

وفى هذا التوجيه أيضاً قال المعصوم ﷺ: «هلك المتنطعون» رواه مسلم وأبو داود والإمام أحمد.. وقال شراح هذا الحديث: إن المتنطعين هم المتكلفون للكلام فيما لا يقع، والمفرعون على مسائل لا أصل لها فى الكتاب ولا فى السنة، وهى نادرة الوقوع جداً. فيصرف المرء فيها زمناً كان الأولى صرفه فى غيرها.

وتطبيقاً لهذا المنهاج القرآنى، وهذا البيان النبوى، كانت توجيهات الفاروق عمر بن الخطاب.. فلقد قال ابنه عبد الله بن عمر:

«لا تسألوا عما لم يكن، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يلعن السائل عما لم يقع، ويقول: أحرم عليكم أن تسألوا عما لم يقع، فإن لنا فيما وقع شغلاً».

وكذلك كان منهاج هذا الجيل القرآنى الفريد من صحابة رسول الله ﷺ الذين تربوا فى مدرسة النبوة، فعن زيد بن ثابت [١١ ق هـ ٤٥ هـ / ٦١١-٦٦٥ م]، وأبى ابن كعب [٢١ هـ / ٦٤٢ م]، وعمار بن ياسر [٥٧ ق هـ ٣٧ هـ / ٥٦٧-٦٥٧ م].. وهم من كتاب الوحى وحفاظه - أنهم كانوا إذا سئلوا عن شىء يقولون: «هل حصل هذا؟ فإن قيل لا، قالوا: دعوه حتى يحصل».

وبهذا المنهاج، الذى يبدأ بفقه الواقع، والذى يركز على الأصول والثوابت التى جمعت الأمة على وحدة العقيدة، والشرعة، والقيم والحضارة، بلور المسلمون علوم الحضارة الإسلامية التى أنارت الدنيا وعلمت العالمين.

لقد كانت الوسطية الإسلامية الجامعة هى المنهاج الذى بلور علوم الحضارة الإسلامية - النظرية منها والعملية - الدينية منها والمدنية - فكان:

- التركيز فى فقه القرآن على المحكمات التى هى أم الكتاب - مع رد المتشابهات إلى هذه المحكمات.. وقصر التأويل - تأويل الراسخين فى العلم - على معارف عالم الشهادة، والاقتصاد الشديد فى تأويل ماله علاقة بعالم الغيب.

- والوقوف فى فقه العبادات - الذى بلورته اجتهادات أئمة المذاهب الفقهية الكبرى - نقلاً عن السنة النبوية - عن مجمل الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات والمحرمات والمكروهات.. دون الدخول فى التفرعات والتفاصيل والفروض المحتملة والمتخيلة.. مع التوازن بين فقه العبادات.. وفقه المعاملات.. وفقه الأموال والثروات.. وفقه السياسات.. فكان الإبداع فى المذاهب الفقهية الكبرى المعتمدة.. وكان الإبداع - كذلك - فى الفقه السياسى لدى الفرق الإسلامية، التى بدأت جميعها حركات وتيارات سياسية فى الأساس.

- كذلك تزامن وتوازن الإبداع الإسلامى فى الفلسفة الإسلامية - علم التوحيد..

علم الكلام - الذى مثل آلية العقلانية الإسلامية المؤمنة فى البرهنة على عقائد دين الفطرة.. تزامن ذلك وتوازن مع إبداع العقل المسلم فى ميادين علوم الكون، التى كانت - هى الأخرى - عبادة لله، يصبح أعلامها الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الله فى الكون.. فهم المفسرون لكتاب الكون المنظور كما أن مفسرى القرآن الكريم هم المفسرون لكتاب الله المسطور.

بهذا المنهاج الوسطى المتوازن أبدع العقل المسلم علوم الحضارة الإسلامية، فى قرون التأسيس والاجتهاد التى ساد فيها هذا المنهاج.

- فلما حدث الانقلاب الحضارى على الوسطية الإسلامية، الذى تعسكت فيه الدولة - بسبب صراع الشعوبية الفارسية مع العروبة - ولما امتد عمر هذه العسكرة لمواجهة المخاطر الخارجية التى مثلتها الغزوات الصليبية [٤٨٩- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦- ١٢٩١م]، والتترية [٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م].. ضمر الفقه السياسى، وانصرف العقل الفقهى إلى التفصيل والتفريع، وإلى الفروض المتخيلة والمتوهمة فى فقه العبادات، فاتحاً الأبواب الواسعة للتعصب المذهبى الذى مارسه أهل الجمود والتقليد.. ولولا لطف الله - سبحانه وتعالى - ولولا مركزية القرآن الكريم فى الثقافة والحضارة، ولولا اشتداد المخاطر الخارجية التى هددت وجود الأمة كلها.. ولولا استمرار دعوات ودعاة التجديد وسلسلة المجددين، لمزقت الخلافات الفقهية والتعصب لها وحدة أمة الإسلام.

وفى ميدان الفكر الفلسفى، كان شيوع التأويلات للمتشابهات من تجليات هذا الانقلاب الحضارى فكثرت الخلافات والاختلافات وأسهمت النزعات الباطنية والغنوصية والعرفانية - عن طريق بعض الطرق الصوفية - فى إشاعة هذه الخلافات بين قطاعات من عوام الناس.

ولقد رصد الفقيه الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م] هذا التحول فى هذا الميدان، وكيف شاعت التأويلات وانتشرت بعد أن كان ممنوعاً وضعها فى كتب الجمهور.. وكيف أدخلت الخلافات إلى ميادين الثوابت المؤسسة لوحدة العقل المسلم، وكيف أدى ذلك إلى التفرق والتعصب.. بل وتراجع التقوى من الفضاء العام!

ففى العصور الأولى - صدر الإسلام وقرون الازدهار - كان أهل العلم والفقه والنظر يجمعون كما يقول ابن رشد - إلى «ذكاء الفطرة، العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية»^(١).. وكان أهل النظر هؤلاء «يسلمون بمبادئ الشريعة ويدعون إلى التقليد فيها - ومثلها المعجزات، وما يقال بعد الموت - لأن مبادئ الشرائع هذه هى أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، وهى الأساس لمبادئ الفضائل. فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق، فإن تهادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم، فعرض له تأويل فى مبدأ من مبادئها، فيجب عليه ألا يصرح بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال الله تعالى:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولقد صار الصدر الأول - من الأمة - إلى الفضيلة الكاملة والتقوى بالتزام هذا المنهاج.. أما من أتى بعدهم، فإنهم لما تسلط على التأويل فى الشريعة من لم تتميز لهم مواضع التأويل، والصنف من الناس الذين يجوز لهم التأويل، قل تقواهم، وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم، وتفرقوا فرقاً متباينة يكفر بعضهم بعضاً. وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعد عليه»^(٢).

هكذا شخص ابن رشد ذلك الانقلاب الفكرى، الذى تمثل فى الخلل الذى أصاب منهاج الوسطية الإسلامية فى عصور التراجع الحضارى.. فبدلاً من الموازنة بين فقه العبادات.. وفقه المعاملات.. وفقه السياسات.. وفقه الأموال والثروات.. تضخم فقه العبادات، مع ضمور الميادين الفقهية الأخرى.. وبدلاً من الوقوف عند الثوابت الجامعة لوحدة العقل الفقهى، اتسعت الأبواب والآفاق للخلافات والتفريعات والتفصيلات والفروض المتوهمة، التى يستحيل حدوثها فى الممارسة والتطبيق.. ولاقترب ذلك بضمور الاجتهاد، ساد التعصب الذى اقترب بالعقل الفقهى من حدود التحجر فى بعض البلاد والحالات.

لكن لطف الله - سبحانه وتعالى - ومركزية القرآن الكريم فى الثقافة والحضارة،

(١) ابن رشد، «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، ص ٢٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة ١٩٧٢م.

(٢) ابن رشد، «مناهج الأدلة فى عقائد الملة»، ص ٢٤٩ دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم طبعة القاهرة ١٩٥٥م. و«فصل المقال»، ص ٦٥.

واستمرار سلسلة المجددين الذين دعوا إلى إحياء علوم الدين، كانت العاصم من عموم هذه البلوى.

لقد دعا هؤلاء المجددون - بلسان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠هـ - ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ - ١١١١م] إلى الرجوع إلى منهاج صدر الإسلام.. دعوا إلى «أن يكون اعتماد الفقيه والمفتي على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه، لا على الكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، فلا يقلد إلا صاحب الشرع ﷺ فيما أمر به أو قاله.. وإلى الاكتفاء بالعمل بالمجمع عليه، واعتبار المسائل المختلف فيها كأن لم تكن». ونبه الغزالي على أنه: «ينبغي أن يعلم طالب علم الشريعة عدم صحة قول من زعم أن جميع ما يذكر في كتب الفقه، خصوصاً المتأخر منها، هو شرع الله المنزل على رسوله ﷺ.. وحذر - كذلك - من الفقهاء الذين لا بضاعة لهم في العلم إلا مسائل النجاسات الحسية، والمياه المخلوطة، وغير المخلوطة!».

- وكذلك صنع شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م] الذي هون من مسائل الاختلاف فقال: «إن المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة - في علم أصول الدين - لا تخلو من أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أولاً تتوقف، والأول باطل، إذ لو كانت معرفتها مما تتوقف عليه صحة الدين لكان الواجب على النبي ﷺ أن يطالب الأمة بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل وما جرى حديث عن هذه المسائل في زمانه - عليه السلام - ولا في زمن الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - علمنا أنه لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه المسائل، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحاً في حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة»^(١).. «إن العمل الواحد يكون مستحباً فعله تارة، وتركه تارة، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية.. ولذلك استحب الأئمة - أحمد وغيره - أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف المأمومين.. وقد يكون العمل المفضل أفضل بحسب حال الشخص المعين، لكونه عاجزاً عن الأفضل، أو لكون محبته واهتمامه، ورغبته وانتفاعه بالمفضل أكثر، فيكون أفضل في حقه، لما يقترن به من

(١) ابن تيمية، «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، ج ١، ص ٥٠، طبعة القاهرة ١٣٢١هـ.

مزيد علمه، وحبه وإرادته وانتفاعه.. فالواجب توسيع ما وسع الله ورسوله، وتأليف ما ألف الله ورسوله، ويراعى فى ذلك ما يحبه الله ورسوله فى المصالح الشرعية والمقاصد الشرعية».

- وعلى هذا الدرب - درب الدعوة إلى تقليص مساحات الخلاف والاختلاف ورد العقل الفقهى إلى الثوابت الجامعة. سار الإمام ابن القيم [٦٩١- ٧٥١هـ/ ١٢٩٢- ١٣٩٠م] فقال: «إنه لا يجوز للمفتى أن يقول هذا حكم الله، أو أحل الله كذا، أو حرم كذا، تبعاً لشيء فى الكتاب الذى تلقاه عن قلد».

- ومن قبل كل هؤلاء الأعلام المجددين، دعا إمام دار الهجرة مالك بن أنس [٩٣- ١٧٩هـ/ ٧١٢- ٧٩٥م] العلماء إلى «ترك المراء فى العلم، لأنه يذهب نور العلم من قلب الرجل.. فقد يكون فعل المرجوح أرجح للمصلحة الراجحة، كما يكون ترك الراجح أرجح أحياناً لمصلحة راجحة».

- وعلى غير ما يظن الكثيرون، كان إمام السلفية أحمد بن حنبل [١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨٠- ٨٨٥م] داعية إلى توسيع دائرة العدالة لتشمل العلماء من خصوم السلفية.. فقال عن علماء المعتزلة، رواة الحديث: «لو تركنا الرواية عن المعتزلة لتركنا أكثر أهل البصرة».

وفى علماء المعتزلة هؤلاء قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لقد كان منهم خلق كثير من العلماء والعباد»

وهكذا حاول المجددون مغالبة الانقلاب الفكرى، الذى أشاع الخلافات.. والتعصب المذهبى.. والجمود والتقليد فى عصور التراجع التى شهدها تاريخنا الحضارى.

* * *

فلما جاء عصرنا الحديث، وتبلورت دعوة الإحياء والتجديد من حول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩- ١٩٠٥] دعت إلى «تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف،

والرجوع فى كسب معارفه إلى ينايعها الأولى.. والنظر إلى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هو أفضلها على الحقيقة»^(١).

أى دعت - هذه الحركة الإصلاحية - إلى العودة بالدين إلى الأصول والثوابت التى جاءت بها المنابع الجوهرية والنقية.. واستخدام العقل والدراية فى فقه المرويات لتجاوز الاختلافات الفرعية التى أغرقت العقل الفقهى فى عصور التراجع الحضارى والجمود والتقليد.. ولقد تكونت من حول مناهج هذه الدعوة الإصلاحية أهم مدرسة فكرية امتدت أنوارها إلى مختلف بقاع عالم الإسلام، ولمع فى سمائها أعلام العلماء الذين كونوا السلسلة الذهبية فى عوالم الفكر الإسلامى الحديث والمعاصر.

ولقد كان العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى [١٣٠٦- ١٤٠١هـ/ ١٨٨٨ - ١٩٨١م] واحداً من أعلام علماء هذه المدرسة التجديدية.. مدرسة الإمام محمد عبده.. كما كان كتابه (ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين) من أهم الكتب التى تناولت - بعمق واستفاضة - قضية الاختلاف بين الفقهاء.. وأى هذا الاختلاف سعة ورحمة؟ وأيه باعث على الفرقة والتعصب وتمزيق وحدة المسلمين؟.. لقد سبق لابن رشد أن تناول فلسفة اختلاف الفقهاء فى كتابه الفذ (بداية المجتهد ونهاية المقتصد).. أما كتاب الشيخ عبد الجليل عيسى - الذى نقدم بين يديه - فهو أوفى الكتب التى ميزت بين الاختلافات الفقهية المؤسسة على صحيح المنقول وصريح المعقول، وبين تلك الاختلافات التى جاءت ثمرة للجمود والتقليد والتعصب المذهبى، والتى كادت تغرق العقل الفقهى فيما يضر ولا يفيد.

ففى هذا الكتاب الفذ سيرى القارئ:

- أن واحداً من أهم أسباب الاختلافات الفقهية هو عدم تحقيق أسباب وملاسات ورود الحديث النبوى الشريف.

- واعتماد رواية جزء من الحديث النبوى، دون جمع الروايات المتعددة للحديث.

(١) محمد عبده، «الأعمال الكاملة»، ج-٣، ص ٣١٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

- والوقوف فى المرويات عند « الرواية » دون « الدراية » التى تعمل على فقه المتن ونقده، مع تحقيق السند والرواية.

- واعتماد رواية من هو مجرّح عند أهل الجرح والتعديل.

- والإسراف فى دعوى وقوع الإجماع فى الأحكام الجزئية والتفصيلية.

- وكيف كان الجمود والتقليد فى مقدمة الأسباب التى زادت من الاختلافات التى ملأت صفحات الكتب الفقهية فى عصور التراجع الحضارى.

- وكيف كان التعصب المذهبى فى الفقه - رغم أنه علم الفروع - والتخندق فى مذهب واحد، وعدم احتضان فقه الأمة ومذاهبها المعتمدة، من أسباب تحول الاختلاف من نعمة وسعة إلى نقمة وضيق.

- وكيف أدى التعصب المذهبى أحياناً - إلى جعل آراء فقهاء المذهب وسيطاً ساتراً وحاجباً للنصوص المعصومة المؤسسة للدين.

كما سيجد القارئ - فى هذا الكتاب - ثروة من النصوص التى سطرها العلماء الأعلام، الذين نهجوا نهج السلف الصالح، فركزوا على الجوامع والأصول والثوابت ومناهج النظر، وجعلوا الاختلاف - الذى هو سنة من سنن الله - سبحانه وتعالى - مصدرًا للسعة، التى هى نعمة من نعم هذا الدين، الذى هو عدل كله.. وحكمة كله.. ومصلحة كله.. ويسر كله.. ورفق بكل الذين آمنوا به، وسعدوا بما جاء فيه.

إنه كتاب فذ، يقوم برسالة الطبيب الحكيم الحاذق الماهر، الذى يعالج مرضاً خطيراً من الأمراض التى طرأت على العقل المسلم فى عصور التراجع الحضارى والجمود والتقليد.

والله نسأل أن ينفع بطبعته هذه، كما نفع بسابقاتها.. وأن يجعله فى ميزان حسنات مؤلفة عليه رحمة الله.

اجتهاد الرسول ﷺ

للشيخ عبد الجليل عيسى

[١٣٠٦-١٤٠١هـ-١٨٨٨-١٩٨١م]

السنة النبوية هي: قول الرسول ﷺ وفعله.. وإقراراه.. على هذا اتفق العلماء الذين تخصصوا في السنة، والذين يدرّسونها في معاهدنا الدينية وكراتنا الشرعية.. لكن هناك علماً من علوم هذه السنة النبوية قد غاب عن معاهدنا الدينية وكراتنا الشرعية، وعن تخصصات المتخصصين في هذه السنة النبوية.. وهذا العلم هو علم التمييز بين طبيعة هذه السنة: أيها جزء من الرسالة الإلهية، فهو دين ثابت ثبات الدين، وبيان نبوى لما جاء به الوحى من لدن الله - سبحانه وتعالى، وتشريع ملزم للأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟.. وأيها اجتهاد نبوى، مثل الطبيعة البشرية للرسول ﷺ في ميادين الحياة التى لم ينزل فيها وحى السماء؟

ولقد كتب فى هذا العلم - علم أقسام السنة النبوية -: أيها دين وجزء من الرسالة الإلهية، وبيان للوحى، فهو معصوم لعصمة الرسول ﷺ فيما يبلغ عن ربه، وفيما يبين ويفصل ويطبق هذا البلاغ.. وأيها اجتهاد نبوى جاء ثمرة لبشرية الرسول غير المعصومة.. كتب فى هذا العلم، وقعد قواعد علماء أصوليون، مثلوا منارات فى تاريخ العلم الإسلامى.. منهم - على سبيل المثال -:

١ - الإمام القرافى أحمد بن إدريس [٦٨٤هـ / ١٢٨٥م]، الذى قسم تصرفات الرسول ﷺ إلى تصرفات بالقضاء، وتصرفات بالفتوى، وتصرفات بالإمامة والسياسة، وأخرى بالتبليغ عن الله سبحانه وتعالى.. ولقد أفرد القرافى لهذا المبحث المهم كتابه النفيس «الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام».. كما تناوله فى كتابه الفذ «الفروق».

٢ - الإمام ولى الله الدهلوى [١١١٠ - ١١٧٦هـ / ١٦٩٩ - ١٧٦٢م] الذى

تحدث عن أقسام العلم النبوى، ونبه على الفروق بين المصالح والشرائع فى هذا العلم، وذلك فى كتابه «حجة الله البالغة»..

٣- وفى العصر الحديث، طرق هذا المبحث العلامة الشيخ عبد العزيز جاويز [١٢٩٣- ١٣٤٧هـ / ١٨٧٦- ١٩٢٩م] فى كتابه «الإسلام دين الفطرة»، عندما تحدث عن وجوب امتثال ما قاله النبى ﷺ شرعاً، دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل رأى.

٤- ثم جاء العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر [١٣٠٦- ١٤٠١هـ / ١٨٨٨- ١٩٨١م] ليفصل هذا المبحث فى كتابه «اجتهاد الرسول ﷺ».. الذى نشره ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م.

٥- ثم جاء الإمام الشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣- ١٣٧٧هـ / ١٨٧٦- ١٩٥٨م] فطرق هذا المبحث فى «رسائل الإصلاح»..

٦- ثم جاء العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز [١٣١٢- ١٣٧٧هـ / ١٨٩٤- ١٩٥٨م] فطرق هذا المبحث فى كتابه عن «الميزان بين السنة والبدعة».

٧- ثم طرق هذا الباب الإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠- ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣- ١٩٦٣م] فتحدث عن السنة القطعية.. والظنية.. والمتواترة.. والآحاد.. وما هو تشريع منها وما هو غير تشريع.. وذلك فى كتابه «الإسلام عقيدة وشرعة»..

٨- ثم جاء العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [١٢٩٦- ١٣٩٣هـ / ١٨٧٩- ١٩٧٣م] فميز بين مقامات وأقوال وأفعال الرسول ﷺ وذلك فى كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية»..

٩- ثم جاء العلامة الشيخ على الخفيف [١٣٠٩- ١٣٩٨هـ / ١٨٩١- ١٩٧٨م] فكتب عن السنة التشريعية وغير التشريعية فى بحثه «السنة التشريعية»..

لكن.. وعلى الرغم من هذه التأليف، التى قعدت وفصلت مباحث هذا العلم.. علم أقسام السنة النبوية.. وأيها دين ورسالة وبيان معصوم للوحى الإلهى؟.. وأيها اجتهاد نبوى بحكم بشرية الرسول ﷺ؟..

إلا أن هذا العلم - مع شديد الأسف - وكامل الاستغراب! - لا يزال غائباً عن دراسات السنة النبوية فى معاهدنا الدينية وكتلياتنا الشرعية - الأمر الذى جعلنا نفرده

له كتابنا [حقائق وشبهات حول السنة النبوية] ^(١) - والذي دعانا لدراسة هذا الكتاب النفيس الذى كتبه الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر عن [اجتهاد الرسول ﷺ].

ففى هذا الكتاب: يعرض المؤلف لتصحيح التصور الخاطىء والشائع عند قطاعات عريضة من المسلمين «الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم، ويرون أن الدنيا والآخرة من فضل جوده ﷺ، أو يعتقدون أنه كان يعلم كل ما كان وما يكون، وهم بذلك يعكسون آية رسالته، يضعونه فوق الرسول، ويشبهونه بالله، أو يجعلونه شريكاً له. وليس ذلك مما دعا إليه الرسول ﷺ فى تحديد منزلته كما أمره ربه. وليس ذلك مما يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَكُنْ رَجُلًا مِّثْلَهُ رَّبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

[وبهذا الاعتقاد الخاطىء] يصبح محمد بن عبد الله بناء على ذلك، ليس الإنسان المصطفى الذى كلف برسالة الله، بل يؤول أمره إلى ما آل إليه أمر عيسى - عليه السلام - حينما نظر إليه بعض أتباعه على أنه إنسان حلت فيه روح الإله، وأن له طبيعة فوق طبيعة الإنسان.

إن رسول الله ﷺ لا يطلب لنفسه تقديساً من التابعين لدعوته، كما لا يطلب لقوله فى غير حدود الرسالة التى أمر بتبليغها إلى الخلق عصمة مطلقة، ولتصرفاته فى غير دائرة هذه الرسالة تنزيهاً عاماً.

ونحن فى إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول ﷺ لا نبغى أكثر من أن نقرر أنه بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة، فهو فيها معصوم، وقوله فيها قول الحق جل جلاله..

وإن الهدف الذى هدفنا إليه من هذا الكتاب؛ هو تعدد جوانب الرسول ﷺ فكان له جانب بشرى يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر، وجانب آخر يمتاز به عن البشر، وهو ما يتصل فيه بربه جلّت عظمته من حيث أنه رسوله، وأنه مكلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة..

(١) طبعة دار السلام. القاهرة.

- إن مكانة الرسول ﷺ هي مكانة البشر الذي يوحى إليه فله العصمة - فيما أرسل به للناس من قبل الله من وحى متلو وغير متلو، وله حكم الإنسان المجتهد فيما أتى به من قول أو فعل بعد ذلك..

وهذا الازدواج في النظر إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه. فلم يزل هو الإنسان المصطفى، وليس بالإنسان العادى. كرمه ربه باختياره لأداء رسالته، فكرمه المؤمنون به لما له من منزلة خاصة عند الله.. فالرسول ﷺ إذا أضيف إلى الخلق كان في السماكين، وكان الجميع يدب على سطح هذه الغبراء، وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفضل عليه كان بشراً ككل البشر، خاضعاً لقوة القاهر الغالب الذي اختص بالكمال وحده..

- ولذلك، فإن للرسول ﷺ صوراً، لا صورة واحدة.. «فقد يبدو في صورة الظن.. وأخرى في صورة العلم والجزم.. وثالثة في صورة التمنى.. ورابعة في صورة الأمر أو الدعاء.. إلخ.

وفي ضوء هذه القاعدة تفسر الأحاديث التي تبدو متعارضة..

فلقد أثر عن الرسول ﷺ في أولاد المشركين ومصيرهم قولان: قول يلحقهم بأبائهم، وآخر يبعدهم عن هذه التبعية لأبائهم. وأحد هذين القولين صدر من غير شك على سبيل الاجتهاد منه، والثاني عن تصويب له من الله..

- وفي عذاب القبر.. قال الإمام النووي: إنه ﷺ حينما نفى عذاب القبر كان ذلك قبل أن يعلمه الله، ولما نزل الوحي أقر بأن هناك عذاباً للقبر.. فالذى نفاه أولاً إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلمه الله بأن ذلك قد يقع على من يشاء منهم، فجزم به، وحذر منه، وبالع في الاستعاذة منه تعليماً لأئمة ﷺ..

- وميادين اجتهادات الرسول ﷺ متعددة ومتنوعة الأحكام من هذه الميادين.. والحافظ ابن حجر يقول: وقد نص الأصوليون على أنه يجوز له ﷺ الاجتهاد في الأحكام، والله يقره على ما يشاء..

.. ولقد وقع الاجتهاد منه ﷺ متنوعاً حسب طبيعة الإنسان، فرأيناه اجتهد وعبر عن اجتهاده بالقول مرة، والعمل والفعل أخرى، وإقرار رأى بعض صحابته أو عدم إقراره إياه ثالثة..

فموضوع اجتهاده لم يكن خاصاً بموضوع معين ولا بوقت ومكان، بل تناول عدة أمور من واقع حياته وحياة المؤمنين معه..

كما لم يكن رأييه فيما اجتهد فيه يمثل الصواب دائماً، بل منه ما ظهر أنه لا يمثل الصواب، ومنه ما عاتبه عليه مولاة جل شأنه، ومنه ما وقع التصويب له بعد فترة زمنية تقصر أو تطول. فهو ﷺ بشر يجوز عليه - عدا ما خصه الله - ما يجوز على كل بشر آخر.. فالاجتهاد جاز على الرسول ﷺ إذن لأنه وقع منه فعلاً.. وموضوعه متنوع، ديني أو دنيوي، مغيب أو مشاهد..

مع العلم بأن اجتهاده ﷺ في غير أمور الدين كان أحسن ما تصل إليه عقول البشرية البريئة من الغلظة والقسوة، وكان مصدر رفق ورحمة، وبذلك يبقى مقام النبوة فوق كل مقام [والله أعلم حيث يجعل رسالته]..

فمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب من قريش، وهو رسول الله. وهو إنسان أوحى إليه، لم يخرج الوحي عن إنسانيته، ولم تتعد طبيعته الإنسانية إلى دائرة ما أوحى إليه، وهو المنزل عليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَنَكانَ رِجْوا لِقَاءَ رَبِّهِ. فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

- وفي تفسير آية ﴿وَمَا يَطِيقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] فإن سياق الآيات يدل - كما فهم كبار المحققين - على أن الكلام في القرآن، وأن المراد أن هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ليس من عنده، بل هو وحي يوحى إليه من الله..

نعم، إنه لا يقول شيئاً عن شهوة وغرض، وإنما يقول لمصلحة.. واجتهاده لا يصدر إلا تحت اعتقاد أنه مصلحة، وإن ظهر خلاف ذلك فهو معذور..

وليس يعقل أن يكون وحيًا مثل قوله: كيف أنت يا فلان؟.. أو إلى أين أنت ذاهب؟.. أو مزاحه مع زوجته، أو خادمه.. أو قوله: أنا عطشان أو جوعان، أو اسقني مثلاً.

والقائلون إن هذا ومثله وحي خاص، نقول لهم: قد سقط الخطاب معكم! ولقد ذكر ابن خلدون أنه ﷺ إنما يقول في أمور المعاش، من طب وزراعة، بما يقول به الناس من حوله ناتجاً عن تجارب وعادة، وهذا فيما لا وحي فيه طبعاً.

- ولأن موضوع هذا الكتاب هو التمييز - فى السنة النبوية - بين ما هو دين ورسالة وبيان للوحى الإلهى .. وبين ما هو اجتهاد للرسول ﷺ كبشر .. نبه الشيخ عبد الجليل عيسى على ضرورة الاهتمام - فى الحديث - بفقه المتن، دون الاكتفاء بالسند.. فقال: «إن من الأصول المتفق عليها: أنه ليس كل ما صح سنده صح متنه، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعى، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما».

* * *

تلك إشارات - مجرد إشارات - للفكرة الجوهرية التى تم تفصيلها فى هذا الكتاب.. نقدم بها بين يديه، سائلين المولى عز وجل أن ينفع به، وأن يجعله فى ميزان حسنات صاحبه.. إنه سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

الدكتور محمد يوسف موسى

[١٣١٧-١٣٨٣هـ - ١٨٩٩-١٩٦٣م]

بطاقة حياة الدكتور محمد يوسف موسى

- هو محمد يوسف موسى.. ولد في شهر يونيه سنة ١٨٩٩م - بريف مصر - في بيئة علمية، لأب نال حظاً من التعليم الأزهرى، ولأم حافظة للقرآن الكريم، تربت في أسرة جمع عدد من رجالاتها حظوظاً كبيرة من العلم الدينى فى الأزهر ودار العلوم..

- نشأ وتربى يتيمًا، إذ توفى والده وهو فى السنة الأولى من عمره.. ولقد عازمت والدته على تنشئته نشأة علمية، حتى يكون واحدًا من علماء الأزهر الشريف.

- حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية، والتحق بالأزهر [١٣٣٠هـ / ١٩١٢م]. ونال شهادة العالمية بتفوق [١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م]، وعين مدرسًا بمعهد الزقازيق الدينى لمدة ثلاث سنوات.. ولضعف بصره الشديد، رسب فى الكشف الطبى الذى قرر الأزهر إجراؤه على المدرسين، ففصل من وظيفته.. وكاد ضعف بصره أن يحول بينه وبين الالتحاق بقسم التخصص، لولا تدخل الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩- ١٣٧٣هـ / ١٨٨٢- ١٩٥٤م]، فتم قبوله منتسبًا.. ورغم نجاحه فى قسم التخصص - الأول على دفعته - عاد ضعف بصره ليحول بينه وبين التعيين فى الأزهر، بحجة أنه كان - فى التخصص - منتسبًا، وليس منتظمًا!

ولما سدت أمامه أبواب التعيين بالأزهر، شرع فى تعلم اللغة الفرنسية، ليدرس الحقوق، ويعمل بالمحاماة الشرعية، وليصبح واحدًا من مشاهير المحامين.

- وعندما عاد الشيخ محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨- ١٣٦٤هـ / ١٨٨١-

١٩٤٥م] إلى مشيخة الأزهر سنة ١٣٥٤هـ/ سنة ١٩٣٥م طلب تعيين الشيخ محمد يوسف موسى مدرسًا بالمعاهد الأزهرية، مع إعفائه من الكشف الطبى، فتم تعيينه مدرسًا بمعهد طنطا.. ثم تمت ترقية مدرّسًا بكلية أصول الدين سنة ١٣٥٦هـ/ سنة ١٩٣٧م للفلسفة والأخلاق.

- ولقد اقترن استقرار حياته كأستاذ للفلسفة والأخلاق، بظهور نبوغه العلمى على الساحة الفكرية، فأخذ ينشر الدراسات والمقالات بكبريات المجلات والصحف.. كما أخذ يترجم عن الفرنسية بعض الدراسات الخاصة بتاريخ الفلسفة فى الشرق والغرب..

وظهر، فى تدريسه، وفى كتاباته نزوعه إلى التجديد الفكرى، كواحد من رموز المدرسة الإصلاحية التى تبلورت من حول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م].

- وفى سنة ١٣٥٧هـ/ سنة ١٩٣٨م سافر إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه، وهناك تعرّف على المستشرق الفرنسى الشهير لويس ماسينيون [١٨٨٣-١٩٦٢م]، ورتب معه خطة البحث.. ولكن نذر الحرب العالمية الثانية قد اضطرتة للعودة إلى مصر.. فأخذ فى العمل التمهيدى لبحثه بإشراف أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢-١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥-١٩٤٧م]، تمهيدًا لإنجازه عندما يعود إلى فرنسا، بعد أن تضع الحرب أوزارها.

- ولقد تنبأ له أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق، منذ فجر حياته العلمية، بمكانة متميزة بين العلماء، فكتب فى التقديم لكتابه [فلسفة الأخلاق فى الإسلام] سنة ١٩٤٠م يقول: «وإنى لأعرف الأستاذ الشاب عالمًا موفور النشاط، موفور الذكاء، كريم الأخلاق، مغرمًا بالدرس، والتماس المزيد من العرفان، ومن تجمعت له هذه الخلال فى عنفوان شبابه، فقد استكمل كل أدوات النجاح فى الحياة العلمية.. وأسأل الله أن يزيد صديقى الأستاذ قوة فى سبيل خدمة العلم وتوفيقًا، وأن يخلد اسمه فى سجل العاملين السابقين فى نهضة الدراسات الفلسفية والأخلاقية فى الجامع الأزهر الشريف».

- وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، طلب من إدارة الأزهر إجازة دون راتب، وسافر على نفقته الخاصة إلى فرنسا لإنجاز رسالته للدكتوراه حول ابن رشد [٥٢٠هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨م].. وعندما أصبح أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر - فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥م - ألحقه بالبعثة الأزهرية بفرنسا.. وبعد ثلاث سنوات - فى سنة ١٣٦٧هـ / سنة ١٩٤٨م - تمت - بجامعة السوربون - مناقشة رسالته للدكتوراه عن [الدين والفلسفة - فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط]، فحصل على دكتوراه الدولة - فى الفلسفة - بدرجة مشرف جداً.

* وكان قد اختير - وهو لا يزال فى فرنسا - خبيراً بلجنة الفلسفة بمجمع اللغة العربية - بالقاهرة - بترشيح وتزكية من المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون.

* وعقب عودته إلى القاهرة - فى سنة ١٣٦٧هـ / سنة ١٩٤٨م - سافر - مبعوثاً من قبل الأزهر إلى إسبانيا وبلاد المغرب العربى، فى رحلة علمية مدتها شهران، للاطلاع على المخطوطات الإسلامية فى مكتباتها.

- لكن نزعه التجديدية، وكتاباته الداعية لإصلاح مناهج التعليم بالأزهر، أغضبت منه عدداً من الشيوخ، فحاولوا بينه وبين التدريس بالكلية، وأعادوه للتدريس بالمعاهد الأزهرية! رغم الدرجة العلمية التى حملها من السوربون، ورغم تفوقه بقسم التخصص بالأزهر.. الأمر الذى اضطره لمغادرة الأزهر، وقبول وظيفة أستاذ مساعد للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - ويومها كتب صاحب [الرسالة] الأستاذ أحمد حسن الزيات [١٣٠٢ - ١٣٨٨هـ / ١٨٨٥ - ١٩٦٨م] مقالاً عنوانه «ثروة من ثروات الأزهر تنتقل إلى جامعة فؤاد»، ناعياً فيه على الأزهر التفريط فى كنوزه العلمية، الداعين إلى الإصلاح والتجديد.

- وبعد ثلاث سنوات قضائها بكلية الحقوق، وفى سنة ١٣٧٤هـ / سنة ١٩٥٥م عين أستاذاً ورئيساً لقسم الشريعة الإسلامية بجامعة عين شمس، وظل بها إلى أن بلغ سن التقاعد سنة ١٣٧٨هـ / سنة ١٩٥٩م.

- وإبان عمله بكلية الحقوق، انتدب أستاذاً بكلية الحقوق جامعة الخرطوم - بالسودان - فأدخل إصلاحات مهمة على مناهج دراسة الشريعة الإسلامية بها،

وغير لغة الدراسة لبعض المواد من الإنجليزية إلى العربية، الأمر الذى جعل عميد الكلية سودانياً، بعد أن كانت العمادة حكرًا على الأساتذة الإنجليز.

- وعقب إحالته إلى التقاعد، تولى سنة ١٣٧٩هـ/ سنة ١٩٦٠م، شغل منصب المستشار الدينى والثقافى لوزارة الأوقاف، فأصدر مجلة [منبر الإسلام]، وكون لجاناً علمية متعددة لدراسة العلوم الإسلامية.

كما امتد نشاطه إلى ميادين عديدة تعنى بإصلاح التعليم الدينى وتجديد الفكر الإسلامى.. وظل عطاؤه الفكرى والإصلاحى متواصلًا حتى داهمه المرض، فصعدت روحه إلى بارئها صباح يوم ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ/ ٨ أغسطس سنة ١٩٦٣م.

- لقد كان رحمه الله مؤمنًا «بالحل الإسلامى» لكل مشكلات الواقع الحياتى المعيش، وكان - لذلك - داعية إلى إصلاح مناهج الفكر الإسلامى، ليتناول فقه الواقع المعيش، وتحدياته، بدلًا من الاستغراق فى مشكلات واقع تجاوزه القرون. كما كان راهبًا فى محراب العلم، لم يتزوج ولم تشغله هموم الأسرة، فخلف لوطنه وأمتة عشرات من الأعمال الفكرية المتميزة - ما بين تأليف وترجمة وتحقيق - تجاوزت عناوينها الأربعين.. من أهمها:

١- مباحث فى فلسفة الأخلاق.

٢- الدين والفلسفة.

٣- ابن رشد الفيلسوف.

٤- فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية.

٥- تاريخ الأخلاق.

٦- ابن سينا والأزهر.

٧- الناحية الاجتماعية والسياسية فى فلسفة ابن سينا.

٨- بين رجال الدين والفلسفة.

- ٩- ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر.
- ١٠- الأخلاق في الإسلام.
- ١١- القرآن والفلسفة.
- ١٢- بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط.
- ١٣- الأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامى.
- ١٤- الفقه الإسلامى: مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه.
- ١٥- دروس في فقه الكتاب والسنة: البيوع منهج وتطبيقه.
- ١٦- فقه الكتاب والسنة: البيوع والمعاملات المالية المعاصرة.
- ١٧- التركة والميراث في الإسلام مع مدخل في الميراث عند العرب واليهود والرومان.
- ١٨- أحكام الأحوال الشخصية في الفقه الإسلامى.
- ١٩- محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامى: ج ١، ٢، ٣.
- ٢٠- المدخل لدراسة الفقه الإسلامى.
- ٢١- التشريع الإسلامى وأثره في الفقه الغربى.
- ٢٢- النسب وآثاره.
- ٢٣- الإسلام ومشكلاتنا الحاضرة.
- ٢٤- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه.
- ٢٥- الإسلام والحياة.
- ٢٦- نظام الحكم في الإسلام.
- ٢٧- ابن تيمية.
- ٢٨- العقيدة وخطر الانحراف.
- ٢٩- مثل عليا إسلامية وعربية.

ومن أهم مترجماته:

٣٠- المدخل إلى دراسة الفلسفة الإسلامية - للمستشرق الفرنسي ليون جوتييه.

٣١- الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري للكاتب الفرنسي إميل برييهيه.

٣٢- الفلسفة في الشرق - للفيلسوف الفرنسي بول ماسون أورسيل.

هذا إلى عشرات الدراسات والمقالات، والمقدمات، والتعليقات التي كتبها على بعض الدراسات الاستشراقية.. والتحقيق لبعض النصوص التراثية^(١).

(١) محمد حلمي عبد الوهاب - التقديم لكتاب [القرآن والفلسفة] ص ١٣-٤٨ - مكتبة الإسكندرية - سلسلة «في الفكر النهضة الإسلامي» سنة ١٤٣٣هـ - سنة ٢٠١٢م.

التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى

للدكتور محمد يوسف موسى

[١٣١٧-١٣٨٣هـ-١٨٩٩-١٩٦٣م]

فى هذا الكتاب- [التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى]- نرى الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى: فقيهاً فى الشريعة الإسلامية.. وفى القوانين الوضعية.. القديم منها والحديث.. الغربى منها والشرقى.. وصاحب قدرة ملحوظة على المقارنة بين هذه المنظومات القانونية.. وصاحب ملكة علمية فى هذه المقارنات.

وإذا شئنا- فى هذا التقديم لهذا الكتاب- أمثالاً على هذه الحقائق، فإننا نشير إلى بعض المعالم التى سيجدها القارئ لهذا الكتاب.. إنه سيجد:

- أن لكل أمة ذات حضارة مقومات تميزها عن غيرها من الأمم، وتميز نهضتها، وتطبع معالم تقدمها ومن ثم «فلا بد للأمة التى تريد النجاح فى الحياة من أن تحرص الحرص كله على مقوماتها التى تتميز بها عن غيرها من الأمم، وعلى رأس هذه المقومات: اللغة، والدين، والنظم الصالحة، والأخلاق، والتقاليد الفاضلة».

- وأن للتشريع الإسلامى مقومات ومميزات «فالوحي الإلهى هو أساس القانون الإسلامى، ولذلك كان للأحكام الفقهية الإسلامية من الاحترام ما لا يكون للأحكام فى القانون الوضعى، لاختلاف مصدريهما: الوحي الإلهى من ناحية، وعمل الإنسان - الذى يصيب ويخطئ - من ناحية أخرى..

ولا تتحقق الغاية المرجوة من أى قانون إلا بالتزامه، وتنفيذه ممن وضع لهم، على أن يكون هذا بوازع من أنفسهم وقلوبهم.. وهذا الوازع يكون على أتمه إذا كان مبعثه الإيمان بعدالة القانون، وإذا رضى المخاطبون به واعتقدوا المثوبة من المشرع عند النزول على أحكامه وتشريعاته.

والتشريع الإسلامى قد أوفى على الغاية والكمال من ذلك كله، إذ قام على اعتبارات من الدين والأخلاق تجعل جميع أحكامه تبلغ غاية الرضا والإيمان ممن وجهت إليهم من المؤمنين جميعاً، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين.. وفى القرآن والسنة من الممهدات ما يقنع المخاطب بهذا القانون أن فى الالتزام به والنزول على أحكامه رضا الله ورسوله، وثواب الإنسان نفسه فى الدنيا والآخرة، وليس بعد هذا ما يبعث على طاعة القانون..

لقد نزل الجانب الأكبر من التشريعات الإسلامية فى السور المدنية - من القرآن الكريم - وهى أكثر من الثلث بقليل من مجموع القرآن.. وكان من الضرورى أن يعتمد التشريع على السنة النبوية بجانب القرآن، فإن الكتاب الكريم كان يجيء بالقواعد العامة وكان على الرسول ﷺ بيان ما جاء فى الكتاب وتفصيل هذا الإجمال، وتحديد تلك القواعد العامة.. فدور الرسول كان دور الشارح للمتن، الذى هو القرآن بعد تبليغه للناس، إلا أنه شارح ملهم من الله، يعمل تحت رعايته، فلا يقر على خطأ بحال..

ولا يصار إلى السنة إلا عند وجود نص من القرآن يفى بما نريده، أو عند الحاجة لتفصيل أو بيان لبعض ما جاء فى القرآن، لأن القرآن مقطوع بصدق كل حرف منه وصحته، أما السنة فمنها ما هو مقطوع به، ومنها ما ليس كذلك. ولا شك فى أن المقطوع به منها لا يبلغ فى اليقين مبلغ القرآن بطبيعة الحال. ثم إن السنة - تعتبر كالتفسير والبيان للقرآن، وما كان كذلك لا يكون عالياً فى الرتبة والمنزلة..

وإن الدعوة للاكتفاء بالقرآن عن السنة دعوة تخفى كامن الإلحاد فى قلوب الذين يدعون إليها والرغبة فى التحلل من أحكام الشريعة..

ولقد بذل علماء الحديث جهوداً لم يعرفها تاريخ الأديان والعلوم فى سبيل نقد ما نسب إلى الرسول ﷺ من أحاديث، وتمييز الصحيح منها من غير الصحيح..

- وغير الكتاب والسنة - وهما عوامل الثبات الضامن بقاء إسلامية التشريع الإسلامى، عبر الزمان والمكان - هناك عوامل المرونة والسعة والتطور فى هذا التشريع.. ومن هذه العوامل:

١ - الإجماع: وهو اتفاق جملة المجتهدين من الفقهاء المسلمين فى عصر

من العصور على حكم واقعة من الوقائع، أو مسألة من المسائل.. ولا يكون الإجماع شرعياً إلا عن دليل يستند إليه، وأمانة تشهد بصحته شرعاً، فإن القول فى الدين من غير دلالة أو أمانة خطأ شرعاً، كما يقرر العلماء، وقد يكون ذلك الدليل قياساً لهذه المسألة أو تلك التى نريد معرفة حكمها الشرعى على مسألة معروف حكمها من الكتاب أو السنة..

٢ - والقياس: هو إلحاق فرع بأصل فى حكمه، بمساواته له فى علة هذا الحكم الشرعى.

٣ - والاستحسان: الذى هو العدول فى مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر لوجه هو أقوى، فهو ليس قولاً بالرأى المجرد أو الهوى، بل هو قول لدليل راجح لدى القائل به.. ويجيء الاستحسان فى المرتبة بعد الكتاب والسنة والإجماع والقياس..

٤ - والمصالح المرسلة: وهى كل مصلحة - غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها، أو عدم اعتبارها وفى اعتبارها ما هو جلب نفع أو دفع ضرر، بشرط ألا تعارض مقصداً من مقاصد الشريعة، ولا دليلاً من أدلتها المعروفة، وأن تكون مصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع، أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أو درء ضرر حقيقى».

- وفى هذا الكتاب حديث عن أسس صلاح الشريعة - الإسلامية - لكل زمان ومكان.. ذلك أنه لما «كانت الرسالة الإسلامية ليس بعدها رسالة إلهية أخرى، ولما كان رسولها هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ولما كان قد أرسل للناس جميعاً وللعالم كله على اختلاف أممه وشعوبه، كان من الواجب والمنطق أن يكون التشريع الإسلامى الذى جاءت به تلك الرسالة الإلهية العليا قد قام على أسس تجعله صالحاً للناس عامة فى كل زمان.. ومن هذه الأسس: رفع الحرج والمشقة.. ورعاية مصالح الناس جميعاً.. وتحقيق العدل الشامل.

وعند تضارب المصالح تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والضرر الأكبر يجب أن يزال بالضرر الأدنى.

وكما ساق التشريع الإسلامى الحق لصاحبه، حرم عليه استعماله فيما يضر الآخرين..

وليس فى القوانين القديمة أو الحديثة ما يقارب التشريع الإسلامى فى رعاية العدالة، لا العدل فقط، للناس جميعاً، لا للمسلمين وحدهم، حتى للأعداء وإن كانوا فى حالة حرب معنا.. إن القانون الوضعى لا يطلب إلا تحقيق العدل فيما بين أفراد الأمة التى وضع لها، ولا يبالى بعد ذلك بما يصيب الأمم أو الدول الأخرى، ومصدق ذلك ما نراه من علاقات الدول الغربية بغيرها من الدول الشرقية، وليس هكذا التشريع الإسلامى الذى جاء للناس جميعاً.. إنها شريعة تهدف إلى الأخوة العالمية، وتحقيق العدل والعدالة للبشر جميعاً، لأنهم جميعاً عباد الله ومتساوون فى الحقوق والواجبات..

كذلك، فإن الشريعة الإسلامية لا تنظر بحال إلى نبالة المولد، ولا إلى وجاهة الغنى والثروة، بل هى لا تعرف مقياساً أو ميزاناً يتفاضل به الناس إلا التقوى والعمل الصالح..

ومن مميزات الفقه الإسلامى منذ نشأته - سيادة النزعة الجماعية فيه، حتى ليعم الحقوق والواجبات فى جميع ميادين الحياة.. وهذه النزعة الجماعية نجدها واضحة فيما جاء به الإسلام من عبادات، كما هى واضحة فيما أتى به من أحكام المعاملات التى نراها فى الحياة العملية، فكل التشريعات فى هاتين الناحيتين تهدف إلى تهذيب الفرد، وإلى صالحه والصالح العام للمجتمع بأسره..

إن التشريع الإسلامى يحتفظ بالحق لصاحبه بلا ريب، ويبيح له استعماله فى الوجوه التى يريدها، ويحميه له من اعتداء الغير.

ولكن بجانب هذا كله، يعمل هذا التشريع من ناحية أخرى على ألا يضر الغير باستعمال صاحب الحق حقه ضرراً يكون أكبر من ضرر الحد من حرية صاحب الحق، وذلك تطبيقاً لقاعدة: لا ضرر ولا ضرار، ودفعاً لأكبر الضررين بالأخف منهما، فهذه القاعدة تحكم استعمال الحقوق، وفى تطبيقها صالح صاحب الحق وصالح الغير معاً..

أما القوانين التى هى من صنع البشر، فلم تصدر عن هذه النظرة الجماعية أو الاجتماعية النبيلة السامية، بل كانت تسودها الروح الفردية. وكمثال على ذلك القانون الفرنسى الذى وضع سنة ١٨٠٤م، الذى ساد فيه الروح الفردى القوى

الذى يلتزم مع الروح الذى أملى إعلان حقوق الإنسان، وهو تدعيم حقوق الأفراد وحمايتهم، والنظر إلى الفرد باعتباره الأهم فى الحياة، لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة، وقد كان من نتائج ذلك أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره.. وظل ذلك حتى نشأت فيما بعد نظرية سوء استعمال الحق المعروفة.. ولكنه مع ذلكبقى من الثابت الذى لا ريب فيه، أن نظرة التشريع الإسلامى لحقوق الأفراد وتقييدها بما يحقق مصلحة الجماعة، ولا يضر الفرد صاحب الحق، أوسع مدى وأبعد أثراً من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية.. لقد اعتبر القانون الفرنسى فى أول أمره على الأقل - حقوق الفرد حقوقاً طبيعية له، فهو يملكها ويتصرف فيها حسب ما يرى، ومن ثم لا حرج عليه إن أساء استعمالها. أما الشريعة الإسلامية فترى أن الفرد نفسه، وكل ما يعتبر عادة من حقوق له، ملك لله تعالى وحده منحة منه لعبيده، ولا يمنح ما يمنح من حقوق للأفراد إلا لغرض حكيم وهو تحقيق الخير للفرد والمجتمع معاً، ولهذا نجد تقييد استعمال الحقوق، ورعاية مصلحة الغير ومصلحة الأمة فى استعمالها، مبدأً مقررًا وظاهرًا فى الشريعة الإسلامية منذ وجودها».

- ولجمع التشريع الإسلامى بين عوامل الثبات وعوامل التطور «فلقد مر هذا التشريع بأدوار ثلاثة حتى بلغ كماله، وهى: دور النشأة، الذى كان أيام حياة الرسول ﷺ.. ودور الشباب أيام الصحابة وكبار التابعين.. ودور النضج والكمال الذى ظهر فيه الأئمة المجتهدون الكبار..

وبعد الفتوحات امتد الإسلام شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان لكل من هذه الأقطار حضارتها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها، فبدأ التشريع الإسلامى يتكون فى اتساع، وبدأت أصوله تعرف وتتميز، نعى الكتاب والسنة، والقياس والإجماع، وأخذت قوانين وأعراف البلاد المختلفة التى دخلت فى الإسلام تؤثر فى الفقه والتشريع، بما لا يخرج عن فلك الكتاب والسنة».

- كما ظهرت فى فقه هذه الشريعة توجهات عكست عالميته ومراعاته لمقتضيات الواقع، وتنوع الأعراف والعادات.. «فلقد ظهرت فى الفقه الإسلامى نزعتان: نزعة «أهل الحديث»، ومهدى الحجاز، وكان منها فيما بعد المالكية، والشافعية،

والحنابلة. ونزعة «أهل الرأي»، ومهدها العراق، وكان حاملو لوائها فيما بعد الأحناف.. وإن كان الشافعية قد توسطوا بين أهل الحديث وبين أهل الرأي..

وما كان اختلاف العلماء دليلاً في يوم من الأيام على الطعن في آرائهم جملة، بل إن هذا الاختلاف دليل على حيوية الفكر، وعلى الرغبة في تمحيص الآراء، للوصول إلى الحق الذي هو طلبتهم جميعاً.

- ولم يكن التشريع الإسلامي فقه سلطة، وإنما كان فقه دين وأمة، تميز بالاستقلال عن السلطة، بل وبمواجهة انحراف هذه السلطة.. وعلى سبيل المثال «فلقد ابتدع خلفاء بني أمية نظام ولاية العهد، الذي لم يعرفه الإسلام من قبل، فأخذ صفوة الصحابة والتابعين، العلماء بالكتاب والسنة يتجهون إلى تأسيس علم الفقه والتشريع الذي يقوم على المصدرين المقدسين العظيمين، والذي يجب أن يكون المثل الأعلى للقانون الذي تقوم عليه حياة العرب والمسلمين العملية..».

لكن تطور هذا التشريع قد اعترضته سلبيات الجمود والتقليد «ولو أن رجال هذا الفقه قاموا عليه كما يجب، ولم يجمدوا على القديم، لما كانت الأمة الإسلامية بحاجة مطلقاً للجوء للفقه والقوانين الغربية الأجنبية عنا، نأخذ منها تشريعاتها وقوانينها.. وهكذا صرنا في حالة مؤلمة من الأخذ عن الغرب التشريع، كأننا أمة ليس لها مقوماتها الذاتية، وتقاليدها الطيبة، وشريعتها التي لم يعرف العالم لها مثيلاً.

إن وسائل تطور الفقه الإسلامي كثيرة، ولكن أهمها الإجماع، والقياس، ومبدأ المصالح المرسلة، ووجوب رعاية العرف، بشروط خاصة.. وبالإجماع - هذا المصدر الخصب - يمكننا أن نجعل الفقه يتطور بوسائله الشرعية الخاصة، حتى يتناول جميع مسائل العصر ومشاكله بالبحث، لمعرفة حكم الله فيها.

إنه لا بد لنا، إن أردنا أن ننهض بالتشريع الإسلامي نهضة حقه، وأن نجعله المعين الأول لقوانيننا الحديثة، وأن نستقى منه الحلول لمشاكل العصر، وكل عصر، إن أردنا جادين هذا كله، فعلياً أن نرجع لفقه الصحابة والتابعين، وأن نرى كيف لم يكونوا يقفون جامدين أمام النصوص التشريعية التي تحتل معاني وتفسيرات عديدة مختلفة».

- لذلك، وحتى نتجاوز هذا الجمود والتقليد، فإننا بحاجة إلى «مجمع للتشريع

الإسلامى»، يفتح باب الاجتهاد من جديد «لقد آن الأوان ليكون لنا «مجمع التشريع الإسلامى»، بجانب «مجمع اللغة العربية».. ذلك أن دراسة الفقه على النحو الذى نريد، وتحقيق الغاية من هذه الدراسة، أمر لا يمكن أن يتحقق على النحو الذى ينبغى إلا بإنشاء هذا المجمع الذى ندعو إليه جاهدين منذ سنوات.

ذلك لأنه إذا كانت العناية باللغة العربية لا بد منها، باعتبارها لغة كتاب الله وسنة رسوله، فإن العناية بشريعة الله ورسوله يجب أن تكون أشد، ويجب أن تجد الاهتمام والعون والتأييد من الأفراد والجماعات والدولة معاً، فى مصر وغير مصر من البلاد الإسلامية.

وإنه لمن المخجل لنا أن نجد الغربيين يعنون بهذا الفقه الخالد، فيقيمون له حلقات دورية لدراسته من المهتمين به فى الغرب والشرق، ثم توفد الحكومات والجامعات العربية الإسلامية ممثلين لها فى هذه الحلقات والمؤتمرات، ثم لا نفكر نحن فى أن نكون البادئين المنشئين لهذه الحلقات، وندعو لها الذين يعنون بهذا الفقه من الأجانب..

إن هذا المجمع يستطيع العمل بجد على تطور هذا الفقه، وعلى جعله صالحاً للتطبيق فى هذا العصر، على أن يكون هذا التطور فى محيط القرآن والسنة، ووفقاً لمبادئ الفقه وأصوله، وبخاصة الإجماع، هذا الأصل العظيم الخصب الذى أدى ثمراته الطيبة فى الأيام المجيدة الأولى، وهو حرى - حين يجد فقهاء حريين بهذا الوصف - بأن يؤتى مثل تلك الثمرات فى هذا العصر، وفى كل عصر».

- وإذا كانت العملة - أية عملة - بصرف النظر عن جودتها وقيمتها - تكسد إذا لم يتم تداولها، فإن تطبيق التشريع الإسلامى فى الواقع الحياتى المعيش هو السبيل إلى بعثه وإحيائه.. «إن حركة البعث لهذا التشريع الإسلامى لن تصل إلى الذى نرجوه لها، ولن تؤتى أكلها الذى نبتغيه، إلا إذا درسناه دراسة علمية صحيحة من ينابيعه الأصيلة، وهى الكتاب والسنة وآراء الصحابة والتابعين، وعرفنا كيف نفيد منه فى تشريعنا الحديثة، وحل مشاكل العصر».

- ومن معالم هذه الشريعة الإسلامية أنها شريعة للأمة والمجتمع وليست شريعة طائفة «فغير المسلمين الذين يقيمون ببلادنا لهم ما لنا من الحقوق، وعليهم ما علينا من الواجبات، وهذا وذاك شامل للعقوبات والمعاملات، إلا حالات قليلة مستثناة».

- ولا بد من التمييز بين «المذهبية»، التي تفتح الأبواب لتعدد المذاهب الفقهية المدونة أصولها، وبين «الطائفية» المغلقة.. فأهل السنة والجماعة قد احتضنوا جماع السنة النبوية، واحتضنوا المذاهب الإسلامية، على حين «لم يكن الخوارج يعتمدون من الأحاديث إلا ما رواه رجالاتهم، وكذلك الشيعة، أما جمهور المسلمين، وهم أهل السنة والجماعة فقد كانوا يعتمدون الأحاديث التي ثبتت صحتها عندهم مهما يدخل في أسانيدها من رجال الفرق الأخرى متى كانوا عدولاً ثقات..».

* * *

ولقد عرض هذا الكتاب لدعوى تأثر التشريع الإسلامى بالقانون الرومانى، فتساءل:

«هل عرف المسلمون القانون الرومانى كما عرفوا فلسفة اليونان؟..»

الجواب بالنفى بلا ريب، ذلك أن المسلمين قد نقلوا للعربية فلسفة اليونان وأفادوا منها بيقين، وهم يفخرون بذلك وبجهودهم الفلسفية التى أضافوها إلى جهود فلاسفة اليونان، وغيروا كثيراً من نظريات أولئك الفلاسفة القدامى وآرائهم، وقد فعلوا ذلك لحاجتهم إلى تلك الفلسفة.

أما فى ناحية الفقه والتشريع فلم يجدوا حاجة مطلقاً للأخذ عن غيرهم، لأن لديهم من كتاب الله وسنة رسوله وتراث الصحابة والتابعين ما يغنيهم عن الاستعانة بغيرهم فى هذه الناحية، والأمر معروف غير منكور من أحد من العلماء.

ولو كان الأمر على غير هذا، لحفظ لنا التاريخ كتاباً واحداً أو رسالة واحدة نقلوها إلى اللغة العربية من قانون الرومان، أو لرأينا مصطلحاً واحداً من مصطلحات هذا القانون فى كتب الفقه والتشريع، وما أكثرها، كما بقى لنا الكثير مما نقلوه عن تراث الفرس الأدبى والعلمى بجانب ما نقلوه عن تراث اليونان العلمى والفلسفى.

بل إن التشريع الرومانى على العكس - هو الذى تأثر بالفقه الإسلامى وأفاد منه، فيما زيد عليه أيام النهضة الأوروبية، وذلك عن طريق الثقافة والعلوم العربية الإسلامية التى كانت من عوامل هذه النهضة، كما هو معروف.

إنه من المعروف أنه إذا أخذت فكرة عند شعب إلى شعب آخر، ظهر فى لغة وكتابات الشعب الآخر أثر لهذه الفكرة. وهذا واضح مثلاً فيما أخذ عن اليونان

فى القانون الرومانى، كما هو واضح كذلك فى شريعة «التلمود» اليهودية المليئة بالكلمات والمصطلحات اليونانية واللاتينية.

أما فى الإسلام، فإنه لا يوجد لفظ واحد مستعار من اللغة اللاتينية أو اليونانية فى جميع القاموس الضخم للفقه الإسلامى وتشريعه، كما لا يوجد فى جميع المؤلفات الفقهية الإسلامية أدنى ذكر لمصدر رومانى علمى، وهذا أيضًا وحده ينفى فكرة كل استعارة من القانون الرومانى.

إن التشريع الإسلامى يختلف أساسيًا فى طابعه ومقصده عن القانون الرومانى، هذا القانون الذى هو وضعه رجال حذقوا لغة القانون ومصطلحاته. أما الشريعة الإسلامية فهى نظام من المسائل الفقهية الدقيقة، وقد نُظر إليها من حيث علاقة الإنسان بالله أولاً، ولهذا تشمل ما يسمى «بالعبادات»، من صلاة وصوم وزكاة وحج، وغير ذلك، وحتى عندما تعالج المسائل المدنية، كالبيع والرهن مثلاً، نجد فيها أثر الدين واضحًا.

ومن مظاهر التميز التشريعى الإسلامى عن القانون الرومانى، عدم وجود إجراءات رسمية شكلية يجب القيام بها ليكون العقد صحيحًا، وذلك على خلاف ما كان موجودًا فى القانون الرومانى، وما هو موجود فعلاً حتى اليوم فى القوانين الغربية، بل يكفى فى هذا رضا المتعاقدين ورغبتهم.

إنه لم يثبت مطلقاً أن الفقهاء المسلمين قد عرفوا القانون الرومانى ولا لغته ولا شيئاً من مصطلحاته الفنية، على حين أن الأوربيين، وبخاصة فى فرنسا، كانوا يعرفون التشريع الإسلامى لشيوعه بينهم والعمل به فى بعض تلك البلاد قرونًا طويلة.

إن التشريع الإسلامى تشريع مستقل عن غيره من التشريعات التى كانت معروفة فى العالم القديم، ونعنى بهذا القانون الرومانى. ولقد كان للتشريع الإسلامى فضل غير منكور على القوانين الغربية، وبخاصة القانون الفرنسى.

- «فلقد فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٣هـ/ سنة ٧١١م، ثم دخل بعد ذلك جنوب فرنسا فى الحكم الإسلامى، واستمر هناك بضعة قرون كانت الشريعة الإسلامية هى المعمول بها، إذ كان الحكم لرجالها العرب المسلمين. ولقد ظل أثر هذا التشريع قائمًا بعد ذهاب الحكم الإسلامى، وكان هذا الأثر قويًا وواضحًا بشهادة التاريخ

والواقع، وخاصة أنه لم يكن لتلك البلاد قانون يرجع إلى الدين حتى يشتدوا في مقاومة التشريع العادل الذي دخل إليهم، بل كان قانونهم الذي يتحاكمون إليه قانوناً وضعياً يرجع إلى القانون الروماني. وظل الأمر كذلك حتى جاء «نابليون»، ورأى إصدار قانون مدني مكتوب يتحاكمون إليه. فلجأ إلى ما كان معروفاً ومعمولاً به من القانون الروماني، وإلى الأعراف والعادات القانونية التي تأصلت في البلاد، وجعل من مجموع هذا وذاك قانونه المعروف باسمه، والذي صدر سنة ١٨٠٤ م.

ومن المعروف أن مذهب الإمام مالك قد انتقل مع العرب الفاتحين إلى الأندلس والأقطار التي فتحوها وأقاموا بها من فرنسا.. ولقد انتقلت كثير جداً من الأحكام التشريعية المأخوذة من هذا المذهب فدخلت في قانون نابليون بعد أن رسخت في تلك البلاد وتولد منها عادات وأعراف قانونية دخلت بهذا «الوصف» في ذلك القانون.

ومن الأمثلة والمقارنات على ذلك:

١- في العقد، نجد أن ما جاء في القانون الفرنسي من انعقاده ولزومه بالإيجاب والقبول من المتعاقدين، وشروط صحة العقد بعامة، وعيوب العقد، وحرية المتعاقدين، وأن انتقال الملكية يتم بمجرد تعاقد الوكيل عنه، كل ذلك نجده في فقه الإمام مالك بن أنس - رضى الله عنه - على غير ما هو معروف في القانون الروماني.

٢- ونجد هذا الاتفاق أيضاً في الحَجْر وأسبابه ونتائجه، وعدم أهلية المحجور عليه، وانتهاء هذا الحجر وأسبابه.

٣- وكذلك الأمر في الملكية ودليلها وتبنيها، وحكم وضع اليد وشروطه ونتائجه، وأن وضع اليد على المنقول يعادل حجة الملكية، وجواز نزع الملكية للمنفعة العامة، وأحكام الملكية المشتركة، وتحديد ملكية المناجم، وطرق نقل الملكية في المنقول والعقار، وسقوط الحق بمُضَى المدة.

٤- ويتفق قانون نابليون والفقه المالكي في عقد الإيجار وكثير من أحكامه، مثل: التزامات المؤجر، الخسارة في العين المؤجرة، ضمانها، التنازل عن عقد

الإيجار، التأجير من الباطن، نهاية عقد الإيجار، إيجار العمل، إيجار الخدمة، مدة الإجارة.

٥- كذلك يتفقان فيما يختص بالتركة، وتقسيمها بين الورثة، والوصية، والهبية، وأحكام كل منهما.. وفى غير ذلك كله مما يتناوله القانون المدنى من سائر العقود والتصرفات..».

* * *

ثم يختم هذا الكتاب بالنظر إلى المستقبل، ليجيب عن سؤال:

- ماذا نريد من التشريع الإسلامى؟..

ثم يجيب:

«نريد من هذا التشريع الخالد.. أن يكون المصدر الأول لتشريعاتنا الحديثة ولكل ما تؤخذ به الأمة من قوانين، فى كل البلاد العربية والإسلامية، ولا علينا مع هذا أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأى أمة أخرى من الأمم الغربية، بل لعل هذا يكون واجباً، فما كانت أمة قادرة على أن تستغنى عن غيرها فى كل شئونها.

لقد أبعد الاستعمار البغيض المجرم التشريع الإسلامى عن الحكم والقضاء منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما صدرت «المجموعة الأهلية» سنة ١٨٨٣م، وقد سنت على نسق «المجموعة المختلطة»، وجاء فيها أكثر أحكامها، ولم يبق من شريعتنا إلا الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والوصية والميراث.

واليوم، ترانا قد خطونا خطوة كبيرة فى سبيل الغرض الذى نقصده.. لقد نبغ فينا من رجال القانون من رأى أن قد آن للقانون الذى نحكم به أن يكون قانوناً عربياً يتفق مع ماضينا المجيد وديننا وتقاليدنا الطيبة، وعملوا لهذا الاستقلال بالطرق التى رأوها صالحة ناجعة فى رأيهم.

ولقد كانت العناية من جانب الغربيين الذين تخصصوا فى الفقه الإسلامى، وقصروا جهودهم أو جانباً كبيراً منها عليه، وما كان منهم من إشادة بهذا التشريع، باعتباره تشريعاً أصيلاً وقابلاً للتطور ومسايرة الحياة الحاضرة، من الأسباب التى دفعت الكثير من رجال القانون عندنا للإيمان بهذا التشريع وللإقبال على دراسته والانتفاع به.

ولأن نيل الأمانى ليس بالتمنى وحده، فيجب أن تشتد الأمنية فتصير رغبة، وأن تشتد هذه الرغبة بالعزم الصادق عليها فتصير إرادة، ولا يصل الإنسان إلى أن يريد شيئاً إلا إذا فكر فيه ووجدته ممكناً، ثم جمع أمره عليه، وأخذ في تذليل ما يعترضه من صعاب أو عقبات.

نحن نريد أن يكون التشريع الإسلامى فى مستقبل الأيام الأساس الأول لتشريعاتنا الحديثة، وأن يكون منه قانون عام للبلاد العربية والإسلامية كلها. وهذا الذى نريده أمر عظيم دونه صعاب، وهو يتطلب منا عملاً جاداً دائماً، فما ينبغي لنا إذاً أن نخدع أنفسنا بأن نزعّم أننا نريد، ثم لا نعمل بما يجب أن يُعمل ليكون ما نريده أمراً واقعاً فى مستقبل الأيام.

علينا أن ندرس الفقه الإسلامى، فى مختلف مذاهبه، على نحو جديد غير النحو الذى يُدرس عليه فى الأزهر، أى ندرسه دراسة تاريخية مقارنة بين بعض مذاهبه وبعضها من ناحية، وبينه وبين الفقه والقوانين الحديثة من ناحية أخرى.. فهذه الدراسة الشاملة والعلمية الصحيحة ستساعدنا على التحرر من ربة التقليد الذى أخذ منا بالخنق.

ولابد من فتح باب الاجتهاد فى الفقه للقادر عليه الذى اجتمعت له مؤهلاته التى نعرفها، فإنه ما تخلف التشريع الإسلامى إلا بسبب سد هذا الباب منذ قرون.

إننا نعلم أن الاعتزاز بتراث الماضين من الأسلاف أمر طبعى وجزى فى الإنسان، وإنه من العبث والحمق أن نحاول التنكر لهذا التراث المجيد والاستغناء عنه، وإنه من المستحيل أن نقيم علماً من العلوم دون أن نفيد من جهود الماضيين وثمار تفكيرهم فى دائرة هذا العلم.

ولكننا نعلم أيضاً مع هذا أن الجمود من سمات الموت، وأن الحركة هى الخاصة الأولى للحياة، وأن القرآن العظيم نعى بشدة فى كثير من آياته على التقليد والمقلدين، كما نهى الأئمة أنفسهم - رضوان الله عليهم - عن تقليدهم بلا حق.. وليس لأحد منا أن يخلط بين هذا التقليد المنهى عنه، وبين الاتباع الذى أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُواهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فيقول بأن فى التقليد اتباعاً يرضاه الله جل ثناؤه.. ذلك أن اتباع الأجلاء

من المهاجرين والأنصار، فى هذه الناحية، هو احتذاؤهم فى طرق استدلالهم واستنباطهم الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وما أعظم الفرق بين هذا وبين التقليد.

إن تاريخ الفقه الإسلامى ليؤكد لنا جميعاً أن كثيراً من آراء الفقهاء القدامى قد تغيرت بتغيرات بيئات المكان والزمان، فما بالناس نرضى بالجمود الذى ثقل على القلوب والصدور مع شديد الحاجة إلى الاجتهاد؟!.

* * *

تلك قبسات من الأفكار التى تضمنها هذا الكتاب [التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى] آثرنا أن نقدم بها بين يديه.. سائلين المولى، سبحانه وتعالى، أن ينفع به.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

الشيخ عبد الوهاب خلاف

[١٣٠٥-١٣٧٥هـ-١٨٨٨-١٩٥٦م]

بطاقة حياة الشيخ خلاف

هو العلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف [١٣٠٥-١٣٧٥هـ / ١٨٨٨-١٩٥٦م].. واحد من أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م].. وعلم من أعلام السلسلة الذهبية لعلماء مدرسة الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث.

- ولد بمدينة كفر الزيات - إحدى مدن محافظة الغربية - بدلتا النيل - في مصر - في شهر رجب سنة ١٣٠٥هـ / مارس ١٨٨٨م.. وبعد حفظ القرآن وتجويده، وتعلم الخط والحساب والإملاء - بالكتاب - التحق بالأزهر الشريف - بالقاهرة - سنة ١٣١٨هـ / سنة ١٩٠٠م - فدرس فيه خمس سنوات.. ولقد تلقى - مباشرة - عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وحضر دروسه لتفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر الشريف.

- ثم انتظم الشيخ خلاف بمدرسة القضاء الشرعي عام افتتاحها سنة ١٣٢٥هـ / سنة ١٩٠٧م.. وهي المدرسة التي أسسها سعد زغلول باشا [١٢٧٣-١٣٤٦هـ / ١٨٥٧-١٩٢٧م] لتحقيق رغبة أستاذه محمد عبده في تخريج قضاة شرعيين ينافسون - في العلم والتنظيم والتجديد - قضاة المحاكم الأهلية.. ولتكون منبراً لتجديد الفكر الإسلامي يزامل دار العلوم..

- ولقد تخرج الشيخ خلاف في مدرسة القضاء الشرعي، ونال شهادة العالمية سنة ١٣٣٣هـ / سنة ١٩١٥م.. ولنبوغه وتفوقه العلمي عُين مدرساً فيها عقب تخرجه فيها.. فدرّس لطلابها مادة أصول الفقه.. وعلى يديه تخرج العديد من القضاة الشرعيين والعلماء المجددين.

- وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩م ضد الاحتلال الإنجليزي ولتحقيق الاستقلال الوطني انخرط الشيخ خلاف في صفوف الثوار - كاتبًا وخطيبًا - الأمر الذي أدى إلى إقصائه عن التدريس بمدرسة القضاء الشرعي، فانتقل إلى سلك القضاء، حيث عُين قاضيًا شرعيًا سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م.. ثم عمل مفتشًا بالمحاكم الشرعية منتصف سنة ١٩٢١م..

- وفي سنة ١٩٢٤م انتقل إلى وزارة الأوقاف، مديرًا للمساجد، فعمل على أن تكون المساجد مدارس ومنابر لمحاربة البدع والخرافات..

وإبان عمله بوزارة الأوقاف استمر في التدريس - بطريق الندب - في قسم التخصص للقضاء الشرعي لمادتي السياسة الشرعية والتمرينات القضائية.

- وفي أوائل سنة ١٩٣٤م انتدبه جامعة فؤاد الأول - «القاهرة» - أستاذًا لكرسي الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، فتخرجت على يديه أجيال من نجباء القضاة والمشرعين والمحامين، الذين عشقوا الشريعة الإسلامية، وتأهلوا للتبحر فيها وإنجاز دراساتهم العليا في علومها.

وعندما بلغ سن المعاش سنة ١٩٤٨م، طلبت منه الجامعة البقاء في منصب الأستاذية بكلية الحقوق، فاستمر عطاؤه كواحد من أبرز أساتذة الشريعة الإسلامية في القرن العشرين، حتى أقعده المرض عن إلقاء المحاضرات في بداية العام الدراسي ١٩٥٥-١٩٥٦م..

- وفي سنة ١٩٤٦م نال الشيخ خلاف عضوية مجمع اللغة العربية ضمن عشرة من أعلام علماء العصر، أطلق عليهم الأستاذ أحمد أمين [١٢٩٥-١٣٧٣هـ / ١٨٧٨-١٩٥٤م] - في حفل استقبالهم بالمجمع - وصف «العشرة الطيبة».. وكان من بينهم: الدكتور عبد الرزاق السنهوري [١٣١٣-١٣٩١هـ / ١٨٩٥-١٩٧١م]، والشيخ محمود شلتوت [١٣١٠-١٣٨٣هـ / ١٨٩٣-١٩٦٣م]، والدكتور عبد الوهاب عزام [١٣١٢-١٣٧٩هـ / ١٨٩٤-١٩٥٩م]، والدكتور إبراهيم بيومي مذكور [١٣٢٠-١٤١٦هـ / ١٩٠٢-١٩٩٥م]، والأستاذ زكي المهندس [١٣٠٤-١٣٩٦هـ / ١٨٨٧-١٩٧٦م]، والأستاذ محمد فريد أبو حديد [١٣١٠-١٣٨٧هـ / ١٨٩٣-١٩٦٧م]..

وفي مجمع اللغة العربية، أشرف الشيخ خلاف على وضع معجم القرآن الكريم..

مع إسهامات كثيرة ومتميزة فى اللغة والمصطلحات المتعلقة بالحضارة والفقہ الإسلامى.

ولأن كلية الحقوق - بجامعة القاهرة - التى درّس فيها الشيخ خلاف قرابة الربع قرن - كانت منبرًا للدراسات القانونية فى الشرق، فلقد تحول تلاميذه إلى طلائع لمدرسة الإحياء والتجديد فى كثير من ربوع العالم العربى..

- وكما كان الشيخ خلاف إمامًا فى تدريس الشريعة الإسلامية وعلومها.. كذلك كان إمامًا فى الاجتهاد والتجديد.. فأبدع آثارًا فكرية خالدة.. منها:

١- «علم أصول الفقہ».

٢- و«مصادر التشريع الإسلامى».

٣- و«أحكام الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية».

٤- و«السياسة الشرعية، أو نظام الدولة الإسلامية فى الشؤون الدستورية والخارجية والمالية».

٥- و«شرح قانون الوقف».

٦- و«شرح قانون الموارث».

٧- و«الاجتهاد والتقليد».

٨- و«الاجتهاد بالنصوص والاجتهاد بالرأى».

٩- و«نور من الإسلام» - فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

١٠- و«نور على نور».

كما كان له حظ فى الإفتاء.

كذلك امتدت اهتمامات الشيخ خلاف إلى ميدان البحث عن المخطوطات الإسلامية النادرة، التى سعى وراء جمعها لإحيائها، وذلك بالسفر إلى البلاد العربية - التى ألقى فيها - أيضًا - العديد من المحاضرات..

كذلك كان له حضور دائم - بالأبحاث والمقالات - فى أشهر المجلات الفكرية فى عصره - من مثل مجلات: «القضاء الشرعى» و«الأحكام» و«لواء الإسلام» و«الثقافة» و«الرسالة».

وفى الإذاعة المصرية، كانت أحاديثه جاذبة للعقل المسلم، تطوف حول القصص القرآنى، والتفسير لآيات من القرآن الكريم..

كما شهدت المتنديات الفكرية - بالقاهرة - العديد من المحاضرات الإسلامية التى ألقاها الشيخ خلاف.. ولقد خص «دار الحكمة» بمحاضرات فى تفسير القرآن الكريم لعدة سنوات.

وهكذا كانت حياة الشيخ عبد الوهاب خلاف ملحمة من الإبداع فى تجديد الفقه والشرعية، وعقد القرآن بين فقه الواقع وفقه الأحكام.. والدفاع الباسل عن صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان.

- وبعد هذه الحياة الخصبة المباركة، رجعت نفسه المطمئنة إلى بارئها صباح يوم الجمعة ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٥هـ / ٢٠ يناير ١٩٥٦م - وشيع جثمانه فدفن بمقابر الغفير - بالقاهرة.

ويومئذ، قال عنه صديقه وزميل دربه الإمام الشيخ محمد أبو زهرة [١٣١٦- ١٣٩٩هـ / ١٨٩٨-١٩٧٩م]:

«إننا نحس، نحن الذين زاملنا أستاذنا المرحوم الأستاذ الجليل عبد الوهاب خلاف وعاشرناه أكثر من عشرين سنة، أن فراغاً هائلاً قد تركه.. وهكذا كان رجال العلم الذين لهم كيان فكري مستقل قد اختصوا به، ومنهاج علمي لم يكونوا فيه مقلدين - قد التزموه».

وقال عنه الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت:

«إن الشيخ عبد الوهاب خلاف إذا كان فى حياته المادية شخصاً واحداً، فإن فى حياته العلمية الباقية شخصيات متعددة؛ فأبناؤه القضاة الشرعيون، وأبناؤه القضاة المدنيين، وأبناؤه المدرسون، والشعوب الإسلامية التى انتفعت بتفسيره وأحاديثه وبحوثه ومؤلفاته، كل أولئك الشيخ خلاف»^(١) - عليه رحمة الله.

(١) الشيخ محمد أبو زهرة - التقديم للطبعة السابعة من كتاب «علم أصول الفقه» بتاريخ ٨ صفر سنة ١٣٧٦هـ / ١٣ سبتمبر سنة ١٩٥٦م - طبعة دار القلم - الكويت - سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
و: الدكتور وهبة الزحيلي «الموسوعة العربية» - المجلد الثامن - طبعة دمشق سنة ٢٠٠٣م.
و: مجلة مجمع اللغة العربية - ج ١٢، ج ٧، ج ١١.

نور من القرآن

للشيخ عبد الوهاب خلاف

[١٣٠٥-١٣٧٥ هـ - ١٨٨٨-١٩٥٦ م]

القرآن الكريم نور.. بل هو المصدر الأول لكل نور.. وإذا كان العقل نورًا، فإن الوحي القرآني هو المربي الأول لهذا النور العقلاني.. وبذلك كان «الشرع» مع «العقل» نورًا على نور:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]..

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا﴾ [التغابن: ٨]..

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكُم ۖ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]..

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]..

والرسول - ﷺ - الذي بين هذا القرآن وطبقه - نور:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]..

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]..

وفى هذا الكتاب - [نور من القرآن] - قبس من نور هذا القرآن الكريم.. وإذا أردنا

- فى هذا التقديم - إشارات إلى بعض الإضاءات التى وردت فى هذا الكتاب - الذى يفسر فيه العلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] ثلاثة أجزاء بدأت بها سور البقرة وآل عمران والنساء - فإننا نشير إلى ما جاء فيه عن: - كفاية هذا القرآن فقد كل ما سواه.. ففيه كفاية الإنسان - كل إنسان - من العقائد الفطرية.. وأسس التشريع العادل الحكيم.. ومنظومة القيم والأخلاق.. «فيه العقائد الفطرية الحقة التى يقرها العقل ويطمئن لها الوجدان، وتربأ بالإنسان عن الخضوع والعبودية لجماد أو حيوان. وفيه أسس التشريع العادل الحكيم الذى يحقق مصالح الناس ويقيم العدل بينهم ويحفظ حقوقهم ويرفع الحرج عنهم. وفيه أمهات الأخلاق الفاضلة التى تهذب النفوس، وتطهرها من الشرور والسيئات، وتكفل العيشة الراضية للأفراد والجماعات. وفيه أحسن القصص وأصدقها الذى ينتظم أبلغ العظات وأنفع العبر. وفيه مرآة تُرى الحاضرين صور الماضيين من المحققين والمبطلين. وهو إلى هذا كله المعجزة الخالدة، والحجة الساطعة على صدق رسول الله فى دعواه، وعلى أنه يدعو الناس بدعوة الله، ومن أجل هذا وصفه الله بأنه هدى ورحمة، وذكرى وموعظة، وبأنه نور وشفاء لما فى الصدور، وبأنه تبيان وفرقان..

فالناظر بالعقل السليم نظرة إنصاف غير خاضعة للأهواء لا يرتاب فى أن العقيدة الإسلامية فى الله ورسله وفى كتبه هى العقيدة الفطرية، لا تركيب فيها ولا تعقيد، والتى يهذى إليها النظر العقلى الصحيح، ويطمئن إليها الوجدان، وفى آيات السموات والأرض دلائل واضحة عليها، ولا يرتاب فى أن الأسس التشريعية الإسلامية هى أسس كل تشريع عادل، غايتها مصالح الناس والعدل بينهم، وروحها اليسر بهم ورفع الحرج عنهم، ولا يرتاب فى أن أمهات الأخلاق الإسلامية هى أمهات الفضائل فى كل بيئة فاضلة، وأنها خير وسيلة للمثل الأعلى للفرد والجماعة، وأن قصصه دروس نافعة، وعظات بالغة، فيها تحذير من عاقبة البغى والجحود، وتذكير بسنن الله فى خلقه».

- وفى هذا النور القرآنى هدى للمتقين، الجامعين لأمهات الفضائل: «فالمتمتقون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه فى الدنيا والآخرة، وذلك بالوقوف عند حدوده وامتنال أوامره واجتناب نواهيه. وقد وصفهم الله بصفات خمس هى أمهات الفضائل، ودلائل الفطرة السليمة، وأسباب الاهتداء:

- ١- الإيمان بالغيب.. الذى لا تدركه الحواس الظاهرة، ولكن يدركه العقل بما قام عليه من الدلائل الصحيحة. وهو أساس كل دين.
 - ٢- ويقىمون الصلاة.. ولم يقل ويصلون، إشارة إلى أن المتقى هو الذى يؤديها مُقامة لا عوج فيها، محكمة لا خلل فيها، مقرونة بالخشوع لله، والتوجه الكلى إلى الله، واستحضار عظمة الله وألوهيته.
 - ٣- ومما رزقناهم ينفقون.. والإنفاق يشمل أداء الزكاة المفروضة، ويشمل كل أنواع الصدقات المطلوبة، والمعونة لكل من يحتاج إلى المعونة.
 - ٤- والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.. فهم مؤمنون برسلى الله وكتبه، لا يفرقون بين أحد من رسله ولا بين كتاب من كتبه.
 - ٥- وبالأخرة هم يوقنون.. موقنون بحياة أخرى، وبكل ما ورد فى التنزيل فى تلك الحياة الأخرى من بعث وحساب وجزاء وغيرها.
- وفى هذا النور القرآنى ما لا يحصى من أوجه الإعجاز المتحدى.. «فهذا القرآن لم يُعجز الناس من وجه واحد معين، وإنما أعجزهم من وجوه عدة، ومن أنواع شتى تجمعت وتساندت فأعجزت الناس عن أن يعارضوه.
- ولم تصل العقول حتى الآن إلى حصر نواحي إعجازه، وكلما زاد المتدبر فى آياته وأمعن النظر فى الآفاق وفى أنفسهم ظهر لهم وجه من وجوه إعجازه، وتبين لهم أنه الحق. وأظهر ما وصلت إليه العقول من نواحي إعجازه: بلاغة عباراته، واتساق أحكامه ومبادئه وآياته ونظرياته، وإخباره بالغيب عن ماضٍ انطمست معالمه، أو مستقبل لا يعلمه أحد، ودلالته على سنن كونية ونظريات يكشف العلم براهينها وأدلتها.
- وحسب القرآن أنه مكون من ستة آلاف آية نزلت منجمة فى ثلاث وعشرين سنة، ولا اختلاف فيها بين حكم وحكم أو مبدأ ومبدأ أو عبارة وعبارة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وأنه أشار إلى حقائق علمية ونظريات كونية ما كان لغير الله بها من علم، وأنه أخبر عن ماضٍ اندثر ومستقبل لما يقع ما كان لأحد بهما من علم».

- ومن أوجه الإعجاز فى هذا النور القرآنى إعجاز «السياق» الذى يربط بين سور

القرآن وآياته - رغم المدى الزمني الذي تنزلت فيه السور والآيات - وهو لون من ألوان الإعجاز القرآني، الذي تتكشف آفاقه وأبعاده مع كثرة التدبر فيه..

والشيخ خلاف يشير إلى ما ختمت به فاتحة الكتاب من تحديد الأصناف الثلاثة للناس أمام الهداية الإلهية: الذين أنعم الله عليهم.. والكفار المغضوب عليهم.. والمنافقون الضالون.. وارتباط ذلك بما بدأت به سورة البقرة من تقسيم الناس - إزاء الهدى القرآني إلى المتقين المفلحين.. والكفار الذين لا يؤمنون.. والمنافقين الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين.

- ومن هذا الإعجاز المتحدى الذي جاء به هذا النور القرآني: إعجاز الحروف المقطعة التي بدأت بها بعض السور القرآنية، والتي تمثل إشارات إلى أن هذا القرآن الذي تحداكم الرسول أن تأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، ليست حروفه لاتينية أو عبرية حتى يكون هذا سبب عجزكم عن معارضته والإتيان بمثله، وإنما هي حروفكم أ ل م ص ر ق ن .. ويشهد على ذلك أن كل سورة في القرآن بدأت بحروف هجائية مقطعة، ورد فيها - بعد سرد هذه الحروف - حديث عن القرآن الكريم:

- البقرة: أ ل م ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.

- آل عمران: أ ل م الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق.

- الأعراف: أ ل م ص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه.

- يونس: أ ل ر تلك آيات الكتاب الحكيم.

- هود: أ ل ر كتاب أحكمت آياته.

- مريم: ك ه ي ع ص ذكر رحمة ربك عبده زكريا [إذ التقدير: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عبده].

- النمل: ط س تلك آيات القرآن وكتاب مبين.

- القصص: ط س م تلك آيات الكتاب المبين.

- غافر: ح م تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم.

- الشورى: ح م ع س ق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك العزيز الحكيم.

فللحروف الهجائية المقطعة معنى مراد منها..».

- وفي هذا النور القرآني إعلاء لمقام العقل، حتى أنه وصفه بالفرقان.. كما جاء هذا الوصف للقرآن: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.. والفرقان: مصدر فَرَّقَ، كالغُفران مصدر غَفَرَ. والفرقان: ما يفرق بين الحق والباطل، ولذا سُمي القرآن الفرقان في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ولكن، ليس المراد بالفرقان في: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ هذا القرآن، لأنه يكون المعنى مكرراً مع قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾.. فمعنى أنزل الفرقان: مَنْ على الناس بالعقول وبآيات البينات التي يتوصلون بها إلى الاهتداء بكتاب الله.

«وهذا الفرقان - العقل - مكانه القلب [وختم على قلوبهم].. والمراد بالقلوب هنا وفي مثل هذا المقام:

- العقول، لأنها هي وسيلة التفقه والتدبر والتفكير، كما في قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.. ومن له عقل ولا يفكر به فهو وفاقد العقل سيان، ومن له حواس ولكنه يعطلها ويصرفها عن إدراك الحق بها فهو وفاقد حواسه سيان.

- ولحكمة بالغة جاء في آيات هذا النور القرآني ما هو محكم وما هو متشابه، وذلك لاستنفار هذا العقل - [الفرقان] - للتدبر في آيات هذا الفرقان.. «فالقرآن الكريم منه آيات محكمات، أي لا يتطرق إلى فهم المراد منها احتمال أو اشتباه، وهن أصل الكتاب وأكثره، ومنه آيات متشابهات، أي يتطرق إلى فهم المراد منها احتمال واشتباه، ومردّها إلى المحكمات، وعلى ضوءها تُفهم.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد أنزل الكتاب على ضربين لحكمة بالغة أرادها سبحانه، وهي ابتلاء الإيمان، وإظهار حقيقة ما في القلوب، وشحذ العقول ببحثها في رد المتشابه إلى المحكم، وفي التوفيق بين آيات القرآن. ولو كانت كل آياته محكمات ما كان ابتلاء ولا فتح باب البحث للعقول، ولو كانت كل آياته متشابهات لضل الناس ولم يجدوا محكمات يرجعون إليها ويهتدون بنورها. فله الحكمة البالغة في أن أنزل القرآن منه آيات محكمات هن أصل الكتاب ومعظمه والغالب منه، وآخر متشابهات مرجعها إلى المحكمات.

ولقد وُصفت آيات القرآن في سورة هود بأنها كلها محكمات، قال تعالى: ﴿كُتِبَ

أَحْكَمَتْ أَيْدِيَهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾، ووصفت آيات القرآن في سورة الزمر بأنها كلها متشابهات، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَرَاتِي نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. ووصفت آيات القرآن في سورة آل عمران بأنها منها المحكمات ومنها المتشابهات.. فلا بد أن يكون المراد من الإحكام الذي هو وصف عام لآيات القرآن غير المراد من الإحكام الذي هو وصف خاص ببعضها ومقابل بالتشابه. وكذلك لا بد أن يكون المراد بالتشابه الذي هو وصف عام للكتاب غير المراد من التشابه الذي هو وصف خاص ببعض آياته ومقابل بالإحكام.

إن المراد من الإحكام الذي هو وصف عام للقرآن [كتاب أحكمت آياته] هو الإتقان والتدعيم وعدم تطرق الخلل إلى ألفاظه وأساليبه ومعانيه.. والمراد من التشابه الذي هو وصف عام للقرآن [كتاباً متشابهاً]: التماثل ومشابهة كل آياته بعضها لبعض، فليست آية تختلف وآية في فصاحة ألفاظها وبلاغة أسلوبها وصحة معناها، بل هي كلها متشابهات.

وأما المراد من الإحكام الذي هو وصف خاص ببعض آيات القرآن، وهو الذي يقابل التشابه - في سورة آل عمران - فهو إحكام عبارة الآية في دلالتها على المراد منها، بحيث تكون بينة صريحة في دلالتها على المراد منها لا تحتمل تأويلاً ولا تصريحاً ولا التباساً ولا اشتباكاً في فهم المراد منها ولا اجتهداً في دلالتها وخلصها من الاحتمال والاشتباه في المراد من إحكامها.

فالآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب وأساسه هي الآيات الصريحة في دلالتها على المراد منها، التي لا تحتاج في فهم المراد منها إلى غيرها، ولا يشبه المراد منها غيره، فهي محكمات في دلالتها، أي موثقات مانعات من أي التباس أو احتمال. وأكثر آيات العقائد، وآيات الأحكام، وآيات الأخلاق، وآيات القصص محكمات.

والمراد من التشابه الذي هو وصف خاص ببعض آيات القرآن، والذي يقابل الإحكام - في سورة آل عمران - هو الاشتباه والتباس في فهم المراد من العبارة. فإذا كانت عبارة الآية - غير صريحة - في دلالتها على المراد منها، إما لأنها تحتمل أن يفهم منها أكثر من معنى، أو لأن ما يفهم من ظاهرها يعارض ما يفهم من ظاهر آية أخرى، أو لأن ما يفهم من ظاهرها يوهم تشبيه الله بخلقه، أو نسبة أمر إلى الرسل هم

معصومون منه، فالآية متشابهة، أى يشته على قارئها أو سامعها المراد منها. فالآيات المتشابهات هي الآيات غير الصريحة فى دلالتها على المراد منها، التى حف بها ما يؤدى إلى الاشتباه والالتباس فى تعيين المراد منها.

وإذا كان المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، والمحكم هو من الله، فيجب الرجوع إلى المحكم ليلتمس منه النور الذى يكشف ما أراده الله من المتشابه، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وليس المتشابه، كما ذهب إليه بعض العلماء، لا سبيل إلى فهمه، فإن القرآن الكريم ليس فيه كلام لا يفهم معناه، وكل آية فى كتاب الله محكمة أو متشابهة للعقول سبل إلى فهم معناها وإدراكه، فإذا كانت محكمة، أى صريحة قطعية الدلالة على المراد منها، كان إدراك معناها على سبيل العلم، وإذا كانت مشبهة محتملة كان إدراك معناها على سبيل الظن الراجح، وأما معناها المراد منها على سبيل القطع والجزم فهذا مما استأثر الله بعلمه.. إذ للإدراك مراتب أربع، وهى: العلم، والظن، والشك، والوهم^(١).

- ولقد تزامن مع تفسير العلامة الشيخ خلاف لهذا الذى فسر من آيات الذكر الحكيم، جدل حول ما سمي «الفن القصصى» فى القرآن الكريم، وادعاء بأن هذا القصص القرآنى تمثيل لا علاقة له بالحقائق والوقائع التاريخية.. ولذلك، عرج الشيخ خلاف على هذه القضية فقال: «والحق أن آيات القصص فى القرآن منها محكمات دالة على معنى حقيقى واضح بغير اشتباه ولا احتمال، وهذه أكثر آيات القصص، وهى تقص أنباء وقائع بالحق، وليست حديثاً مفترى، ولا مجال فيها للتأويل، أو ادعاء أنها تمثيل، لأن الأصل فهم اللفظ على معناه الحقيقى، ما لم يوجد ما يمنع من إرادة معناه الحقيقى، ويقتضى إرادة معنى مجازى منه، وإلا فتح باب العبث بنصوص كل شارع، وبأقوال كل قائل. ومنها آيات متشابهات يشته فى فهمها العقل، كما فى قصة جعل آدم خليفة، وما قال الله للملائكة وما قالوه له.. ولا ينبغي أن تكون وجود آية قصصية متشابهة سبباً للقول بأن آيات القصص القرآنى كله على

(١) فى [التعريفات] - للشريف الجرجانى : «العلم»: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. و«الظن»: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض. و«الشك»: هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك. و«الوهم»: هو التصور الكاذب فى الأمور غير المحسومة.

سبيل التمثيل، لأن الأصل في كل آية أن تكون تقريراً للحقيقة الواقعة التي دلت عليها عبارتها، ولا نعدل عن هذا الأصل إلا للدليل يقتضيه».

- وكما جاء القرآن الكريم بالأحكام لعالم الشهادة، فلقد جاء كذلك بأنباء عالم الغيب، الذي لا تدرك كنه حقائقه العقول الإنسانية - نسبية الإدراك - ومن هنا فإن «الآيات التي دلت على إعداد دار نعيم للمؤمنين، ودار عذاب للكافرين، لم تفصل كيفية النعيم، ولا كيفية العذاب. فالله هو العليم بتفصيله، والعقيدة السليمة التي تدل عليها الآيات، أن الله أعد في الآخرة دار نعيم للمؤمنين المتقين، ودار عذاب للكافرين الجاحدين، وأن النعيم والعذاب فيهما جسماني، وليس مجرد نعيم أو عذاب روحي، ولكن تفصيل النعيم وحقيقة ما يُنعم به، وتفصيل العذاب وحقيقة ما يُعذب به، مما استأثر الله سبحانه بعلمه لحكمته البالغة».

- وإذا كان القرآن الكريم قد بشر المؤمنين بجنت النعيم، فإن هذا الإيمان قد جاء مقروناً بالعمل الصالح دائماً وأبداً..

«فالتبشير بالجنة - إنما هو لمن قرن إيمانه بالعمل الصالح الذي يقتضيه إيمانه، فأما المؤمن بلا عمل صالح، والعامل للصالح بلا إيمان، فليس من المبشرين بالجنة».

- أما الفلاح الذي تحدث عنه هذا القرآن، فإنه مبني على السعي والعمل، وليس على مجرد النتائج التي قد تأتي على سبيل الصدفة والاتفاق.. «فلا يقال أفلح إلا لمن فاز ووصل إلى مقصوده بسعي وعمل وأخذ في الأسباب، فيقال: «أفلح الزارع في زرعه وأفلح الصانع والعامل إذا بلغ بعمله وسعيه مقصوده، ولا يقال أفلح الوارث في إرثه».

- وكما تحدث القرآن الكريم عن الإيمان والمؤمنين.. كذلك تحدث عن الكفر وأنواعه وأسبابه.. «فأصل معنى الكفر في لغة العرب: الإخفاء والتغطية والستر. يقول العرب: الليل كافر، أي سائر بظلمته. ويصف شاعرهم ليلة بقوله:

في ليلة كفر النجوم غمائها

ويطلق على عدم شكر النعمة، لأن من لم يشكر النعمة قد أخفاها وسترها. ويطلق على عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن من لم يصدق بهذا كله أو ببعضه فقد أخفى الحق وستره. وهذا المعنى الأخير هو المراد من لفظ الكفر في القرآن والسنة، وفي كل استعمال شرعي.

فكل مصرّ على باطل لابد أن يكون السبب في إصراره واحد من ثلاثة: إما عناد وإباء ومكابرة، أو استخفاف وإعراض، أو مرض من الشكوك والريب والشبهات.. ومثل هؤلاء مثل ذى عينين سليميتين ينكر نور الشمس في رائعة النهار مكابرة وعناداً، ومثل من يغمض عينيه وينكر نور الشمس في رائعة النهار، ومثل من ينكر نور الشمس من رمد في عينيه».

- وإذا كان القرآن الكريم قد رغب كثيراً في جنات الخلد.. فإنه قد جعل التمتع بطيبات الحياة الدنيا سبيلاً لعمارتها.. ومن ثم للفوز بهذه الجنات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِرِ﴾ [آل عمران: ١٤].

«إن لحب هذه الأنواع الستة أثره في نظام الكون وبقاء النوع. ولولا ما فطر الله عليه الرجال من حب النساء ما تزاجوا، ولا تناسلوا ولا تبادلوا الرحمة والمعونة والسكن. ولولا ما فطر الله عليه الآباء والأمهات من حب الأولاد ما عنوا بشأنهم ولا سهروا لراحتهم ولا كدوا لعيشهم، وما احتملوا متاعبهم من بدء الحمل إلى أن يبلغوا أشدهم، فالبنون مراد بهم الذكور والإناث بالتغليب. ولولا ما فطر الله عليه الناس من حب المال ما سعوا ولا عملوا ولا اخترعوا ولا أنتجوا. وكذلك حب الخيل المسومة، أى المعلمة، لأنها مظهر القوة والعزة. وحب الأنعام: الإبل والبقر والغنم، لأنها وسيلة الزرع والعيش، وكذلك الحرث، أى الزرع والثمار.

فحب كل واحد من هذه الستة، أساس بقاء الكون ونظامه، وقد فطر الله الناس على حبها، وزين لهم هذا الحب ليعيشوا في الدنيا عيشة راضية، ولهذا قال سبحانه: [ذلك متاع الحياة الدنيا]، أى متعة الناس وما يتمتعون به ويترفون به في الحياة الدنيا. والله عنده حسن المرجع والمآل».

- كذلك سلط العلامة الشيخ خلاف الأضواء على الموقف القرآني من المشكلات الاجتماعية - ومنها تعدد الزوجات - فسطر فيها كلاماً نفيساً جاء فيه: «إن حكم تعدد الزوجات هو الإباحة، وشرط هذه الإباحة أمن الجور، فإن خاف المسلم الجور إذا تزوج اثنتين فأكثر حرم عليه التعدد ووجب عليه الاقتصار على واحدة، فإن تزوج المسلم اثنتين فأكثر وهو يخاف أن لا يعدل فقد أثم بارتكابه ما حظره الله، ولكن زواجه صحيح قضاء، وتترتب عليه آثاره..

بل لو خاف الزوج الظلم إن تزوج واحدة يحرم عليه أن يتزوج الواحدة. وأساس هذا أن إباحة الزواج بالواحدة أو الأكثر مظنة المصلحة، وظلم الواحدة أو الأكثر مفسدة، ودرء المفسد مقدم على جلب المصالح..

والعدل الذى اشترطه الله لإباحة تعدد الزوجات هو المساواة المقدورة للإنسان، وهى المساواة فى المعاملة الظاهرة، والعدل الذى نفى الله استطاعته - [ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم] - هو المساواة المطلقة - فى المعاملة الظاهرة وفى العطف القلبى، لأن هذا ليس فى وسع الإنسان، ولا هو فى مقدوره..

لقد أباح الله سبحانه للزوج المسلم أن يتزوج أكثر من زوجة واحدة. وشرط لهذه الإباحة أن لا يخاف الزوج الجور، أى جور سواء أكان على زوجاته، أو على ذوى أرحامه، أو على نفسه. فمن خاف أن يوقعه التعدد فى ظلم ما، وجب عليه أن يقتصر على واحدة. وقد جعل سبحانه إيجاب الاقتصار على زوجة واحدة معلقاً على خوف الجور، لا على تيقنه أو ترجيحه، فمجرد الخوف من أن يوقع التعدد فى الجور يحرم التعدد، ويوجب الاقتصار على زوجة واحدة. ومن هذا يتبين أن النص القرآنى ضيق دائرة إباحة التعدد أشد تضيق، لأنه جعل مجرد الخوف من الظلم محرماً التعدد، وموجباً الاقتصار على زوجة واحدة، ولم يقيد الظلم الذى يخاف بأى قيد، فيشمل ما إذا خاف ظلماً على زوجاته، أو على أقاربه، أو على نفسه، ويشمل الظلم فى الإنفاق والإسكان وحسن المعاشرة، وكل ما يخاف عدم المساواة فيه.

إن أى نص تشريعى ما قصد الشارع به إلا مصلحة الناس، فإذا كان تطبيقه على عمومهم أو على إطلاقه يضيع مصلحة للناس أو يجلب مفسدة لهم، يخصص أو يقيد بما يحقق المصلحة..

* * *

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى ما فى هذا الكتاب - [نور من القرآن الكريم] - من تفسير لبعض آيات القرآن الكريم.. ومن فقه لما جاء فى هذه الآيات من أحكام - سطرها العلامة الفقيه الأصولى أستاذ الشريعة الإسلامية الشيخ عبد الوهاب خلاف - رحمه الله - وجعل هذا العلم وهذا الفقه فى ميزان حسناته - إن شاء الله.

السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية

للشيخ عبد الوهاب خلاف

[١٣٠٥-١٣٧٥هـ-١٨٨٨-١٩٥٦م]

فى مواكبة وضع دستور سنة ١٩٢٣م بدأ العلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف [١٣٠٥-١٣٧٥هـ/ ١٨٨٨-١٩٥٦م] تدريس مادة السياسة الشرعية فى قسم التخصص بمدرسة القضاء الشرعى للعلماء المختارين من خريجي مدرسة القضاء الشرعى والأزهر المعمور.. ولقد تبلورت محاضراته هذه فى كتاب صغير ونفيس حمل ذات العنوان.. وفيه فصل الحديث عن السياسة الشرعية كعلم من علوم الشريعة الإسلامية، يقدم منهاجاً شاملاً لكل مناحى الحياة السياسية - حياة الأمة والمجتمع والدولة - بسلطاتها المختلفة.. وللسياسة والاجتماع والاقتصاد.. وللتشريع والتقنين لكل هذه الميادين.. مع المقارنة بين السياسة الشرعية والسياسات الوضعية فى هذه الميادين.

وإذا شئنا إشارات تلقى بعض الأضواء على أهم الأفكار الواردة فى هذا الكتاب، فإننا سنجد - على سبيل المثال -:

- تعريفه للسياسة الشرعية بأنها هى العلم الذى يبحث فيه عما تدبر به شئون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التى تتفق وأصول الإسلام، وإن لم يرق على كل تدبير دليل خاص.. فهى علم التدابير التى تحقق المصالح، وتدفع المضار، بما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها، وإن لم يتفق وأقوال المجتهدين..

- فالإسلام كفيل بتحقيق السياسة العادلة، التى تتسع لتحقيق مصالح الناس فى كل زمان وأى مكان.. وهو لا يقصر عن مصلحة، ولا يضيق بحاجة، جامع لخيرى الأولى والآخرة.

- والأحكام، فى الدولة الإسلامية، مقرونة بالعلل، ومرتبطة بالمصالح، والغاية

منها: جلب المصالح ودرء المفاسد.. وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله.. والله - سبحانه - ما شرع الشرائع إلا لمصلحة العباد.

- ولقد كان اجتهاد الرأى فى صدر الإسلام - هو السبيل لتحقيق المصالح عندما لا يكون هناك نص.. وبسلوك هذا الطريق ما شعر أحد بقصور الشريعة الإسلامية عن مصالح الناس، ولا رُميت بحاجتها إلى غيرها، وما عُرف إذ ذاك: حكم شرعى وآخر سياسى، وإنما كانت الأحكام كلها شرعية، مصدرها الكتاب والسنة وما اهتدى إليه أولو الرأى بالاجتهاد الذى تحروا به المصلحة.. والمصالح المرسلة هى التى لم يرد فى الشرع دليل بشأنها، ولم يشهد الشارع باعتبارها ولا بإلغائها.

- ولقد نص القرآن الكريم على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التى يُبنى عليها تنظيم الشئون العامة للدولة، ولم يتعرض لتفصيل الجزئيات، وذلك ليتسع لأولى الأمر أن يضعوا نظمهم ويشكلوا حكومتهم ويكونوا مجالسهم بما يلائم حالهم ويتفق مع مصالحهم، غير متجاوزين حدود العدل:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

والمساواة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

كذلك، وقفت العقوبات المقدرة عند خمس عقوبات.. وما عداها ترك تقديره لأولى الأمر؛ لأن هذه التقديرات تختلف باختلاف البيئات والأمم والأزمان.

- وفى المعاملات: الأصل الإباحة والتراضى بما يحقق تبادل الحاجات ودفع المضرات، مع ترك التفاصيل لولاة الأمور على أساس التراضى..

- ولم يكن أخذ القوانين عن الأجانب - فى بلاد الإسلام - لقصور فى شريعة الإسلام، وإنما كان سببه تقصير المسلمين.. ولعلاج هذا القصور لا بد من قيام جمعية تشريعية مؤلفة من خيرة أهل العلم بأصول الدين والبصر بأمور الدنيا لاستنباط الأحكام التى تتفق ومصالح الناس ولا تخالف أصول الدين.. ففتح باب الاجتهاد الفردى شر على التشريع الإسلامى؛ لأنه يمهّد السبيل للأدعياء، ويكثر

الخُلف وتشعب الآراء.. وشر منه سد باب الاجتهاد، لأنه يوقف حركة التشريع ويجعل القانون الإسلامى قاصراً عن مصالح الناس.. والخير كله فى اجتهاد الجماعة وتشريعهم، ولقد كان هذا هو سبيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

- والناظر فى آيات القرآن الكريم وصحاح السنة النبوية يتبين أن الحكومة الإسلامية دستورية، وأن الأمر فيها ليس خاصاً بفرد وإنما هو للأمة، ممثلة فى أولى الحل والعقد، لأن الله سبحانه جعل أمر المسلمين شورى بينهم.. فمرجع الحكومة العادلة: أن يكون أمر الأمة بيدها، وأن تكون هى مصدر السلطات.. والذى يتولى السلطة التشريعية فى الدولة الإسلامية هم المجتهدون وأهل الفتيا؛ إذ القانون الأساسى فى الدولة الإسلامية إلهى..

- ولقد جعل الإسلام أساس التوحيد والإيمان البحث والنظر، لا القهر والإلجاء، ولا المحاكاة والتقليد، وليس أضمن لحرية الاعتقاد من هذا.. كذلك جعل الإسلام لغير المسلمين الحرية التامة فى أن يقيموا شعائر دينهم فى كنائسهم ومعابدهم، وجعل لهم أن يتبعوا أحكام دينهم فى معاملاتهم وأحوالهم الشخصية.. وأساس العلاقة بين المسلمين ومخالفهم فى الدين السلم، ما لم يطرأ ما يوجب الحرب من اعتداء على المسلمين أو مقاومة لدعوتهم بمنع الدعاة من بثها ووضع العقوبات فى سبيلها وفتنة من اهتدى إلى إجابتها.. والأمة غير المسلمة التى لم تبدأ المسلمين بعدوان، ولم تعترض لدعاة الإسلام، فلا يحل قتالها ولا قطع علاقاتها السلمية، والأمان بينها وبين المسلمين ثابت..

- والسياسة الشرعية فى الأموال والثروات إنما تكون قانوناً مالياً عادلاً على خير أساس ينشده علماء الاقتصاد.. وأبوابه مفتوحة لكل إصلاح تقتضيه حال الأمم والعصور.. والناظر إلى الدول الإسلامية فى مرآة التاريخ يتبين له أنه كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الدين اعتدل ميزانها المالى ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاب ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما أعوج أمر الأمة وحادت عن سبيل الدين اختل فيها التوازن المالى وزادت أعباء الأفراد، وضاعت المصالح العامة، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها.

- وهذه السياسة الشرعية - التى هى علم إدارة الدولة والمجتمع والعلاقات الدولية - هى فريضة، يقوم بها نظام الخلافة الإسلامية الدستورية، التى تستمد

سلطانها من الأمة.. والتي تتميز عن سائر الرياسات العليا في الحكومات الدستورية بأنها رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، تقوم بحراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا الدين.. لأن الإسلام - وسياسته الشرعية - شامل للدين والدنيا؛ إذ لا تكاد تجد فيه شيئاً دينياً لا صلة بينه وبين سعادة الإنسان في دنياه.. - مع رفض الإسلام أن يكون للخليفة سلطة دينية على أحد من الناس - فهو ليس معصوماً، ولا مهبطاً للوحي، ولا مستأثراً بتفسير القرآن، وإنما هو وطلاب الفهم في الدين سواء، يتفاوتون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الأحكام.. والأمة هي التي تنصب الخليفة، وتراقبه، وتحاسبه، وتعزله عند الاقتضاء.. فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه.

الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج

[١٣١٤-١٣٩٥ هـ - ١٨٩٦-١٩٧٥ م]

بطاقة حياة الشيخ عبد الرحمن تاج

- ولد في أسيوط - بصعيد مصر - ونشأ بها. وفيها حفظ القرآن الكريم - وهو في العاشرة من عمره - ثم جَوَّده، وتلقى بعض الروايات في قراءته على يد كبار القراء.. كما تلقى بعض مبادئ العلوم الدينية والعربية، وحفظ عددًا من متون بعض العلوم في أسيوط.

- انتقل - مع أسرته - إلى مدينة الإسكندرية، والتحق بالسنة الثانية الابتدائية بمعهد الإسكندرية، الديني التابع للأزهر الشريف - سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م.

- ولقد ظهر تفوقه ونبوغه أثناء دراسته بمعهد الإسكندرية، فكان ترتيبه الأول على دفعته أغلب السنوات، الأمر الذي لفت إليه أنظار أساتذته فكانوا يعهدون إليه بإلقاء الدروس على زملائه الطلاب - نيابة عن الأساتذة - آخر كل أسبوع.

- نال شهادة العالمية سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م، وكان أول الفائزين بها ذلك العام.

- وبعد إلغاء مدرسة القضاء الشرعي، نشأ بالأزهر قسم للتخصص في القضاء الشرعي، فالتحق به الشيخ تاج، ونال منه شهادة التخصص في القضاء سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م.

- عين - عقب تخرجه - مدرسًا بمعهد أسيوط الديني، وظل به إلى أن نقل إلى معهد القاهرة الديني سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م.

- وفي سنة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م عين مدرسًا بقسم التخصص في القضاء الشرعي بكلية الشريعة الإسلامية.

- وفى سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م عين عضوًا بلجنة الفتوى بالأزهر الشريف، ممثلًا للمذهب الحنفى، إلى جانب عمله بكلية الشريعة.

- وفى سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م اختير عضوًا بالبعثة الأزهرية التى سافرت إلى جامعة السربون - بباريس - فصحب أسرته معه.. وهناك أجاد اللغة الفرنسية.. ونال الدكتوراة فى الفلسفة وتاريخ الأديان سنة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م عن أطروحته (البابية والإسلام) - ولقد نشرتها - بالفرنسية - فى ذات العام - المكتبة العامة للقانون والتشريع - بباريس.

- ورغم مخاطر الحرب العالمية الثانية، عاد - مع أسرته - إلى وطنه مصر سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م، فعين مدرسًا بقسم القضاء الشرعى بكلية الشريعة - وعضوًا بلجنة الفتوى - كما كان قبل سفره إلى باريس.. ثم عين سكرتيرًا فنيًا لكلية الشريعة.. ثم مفتشًا للعلوم الدينية والعربية بالمعاهد الدينية.. ثم قائمًا بإدارة كلية الشريعة.. ثم بإدارة معهد الزقازيق الدينى.. ثم عين شيخًا للقسم العام والبعوث الإسلامية بالأزهر ومشرفًا على بعث البعوث الدينية الأزهرية للأقطار الإسلامية.

- ولقد وضع الشيخ عبد الرحمن تاج رسالته عن (السياسة الشرعية والفقه الإسلامى) فنال بها عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٣٣٠هـ / سنة ١٩٥١م - وهى رسالة متميزة فى بابها، فاقت كل ما كتب فى موضوعها.

- ولقد اختير أستاذًا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة إبراهيم - عين شمس حاليًا - سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

- وفى سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م اختير عضوًا بلجنة الخمسين التى عهد إليها بوضع دستور سنة ١٩٥٤م - بعد إلغاء ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م دستور سنة ١٩٢٣م.

- وفى سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م صدر قرار جمهورى بتعيينه شيخًا للأزهر الشريف.. فنهض بإحداث العديد من الإصلاحات التى كان من بينها:

١- تدريس اللغات الأجنبية بالأزهر.

٢- إصلاح النظم الإدارية وقواعد الامتحانات.

٣- إدخال نظم التربية العسكرية لطلاب الأزهر.

٤- البدء بإنشاء مدينة البحوث الإسلامية للطلبة الوافدين - مكونة من ٤١ عمارة، ومسجدًا، ومكتبة، وعيادة طبية، وساحات للرياضة - مع المرافق اللازمة لها. - ولقد قاوم الشيخ تاج محاولات بعض ضباط ثورة يوليو - وخاصة جمال سالم وعلى صبرى التدخل فى شئون الأزهر سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

- ولقد زار أندونيسيا - بدعوة من رئيسها «سوكارنو» [١٣١٩ - ١٣٩٠هـ / ١٩٠١ - ١٩٧٠م] للمشاركة فى عيد استقلالها، فلقى احتفالاً رسمياً وشعبياً منقطع النظير.

- وحتى يتخلص نظام ثورة يوليو من صلابته فى الدفاع عن استقلال الأزهر، تم تعيينه وزيراً فى اتحاد الدول العربية - مصر وسوريا واليمن - عند قيامه سنة ١٣٧٧هـ / سنة ١٩٥٨م - فترك مشيخة الجامع الأزهر.. وظل وزيراً بهذا الاتحاد إلى أن انفصلت سوريا عنه سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

- وفى سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م انتخب الشيخ تاج عضواً بمجمع اللغة العربية، فشارك فى النشاط العلمى لعدد من لجانته، منها: لجنة القانون والاقتصاد، ولجنة الأصول، ولجنة المعجم الكبير- وقدم للمجمع العديد من الأبحاث اللغوية التى نشرت بمجلته.

- ثم اختير عضواً بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

- ولقد اقترن علمه الغزير بتدينه العميق وخلقه القويم وتواضعه مع العلماء وطلاب العلم، وكبريائه المشروع مع الحكام.

- وبعد تركه للمناصب الرسمية، تفرغ للعمل العلمى ومسئوليته بمجمع اللغة العربية ومجمع البحوث الإسلامية بضعة عشر عاماً.

- ولقد تميزت كتاباته بالمنهج النقدى المقارن، والإحاطة بالموضوعات التى يكتب فيها. ولقد تجلت فى آثاره الفكرية ثقافته الموسوعية، وجمعه بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية.. ومن هذه الآثار الفكرية:

١- (البابية والإسلام) - وهى رسالته للدكتوراه التى نالها من جامعة السربون - بالفرنسية، ولقد ترجمت أخيراً إلى العربية، وطبعت بالقاهرة سنة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

٢- (السياسة الشرعية والفقه الإسلامى).

- ٣- (الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية) - صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥١م تحت عنوان: (مذكرات ودروس فى الشريعة الإسلامية).
- ٤- (مذكرة فى الفقه المقارن).
- ٥- (تاريخ التشريع الإسلامى) - بالاشتراك مع آخرين.
- ٦- (مناسك الحج وحكمها).
- ٧- (الإسراء والمعراج).
- ٨- (حكم الربا فى الشريعة الإسلامية).
- ٩- (شركات التأمين من وجهة نظر الشريعة الإسلامية).
- ١٠ «لا» التى قيل إنها زائدة فى القرآن الكريم، وليست كذلك).
- ١١- («الواو» التى قيل إنها زائدة).
- ١٢- («الفاء وثم» ودعوى زيادتهما فى القرآن أو فى غيره من فصيح الكلام).
- ١٣- («إذ وإذا» ورأى أبى عبدة).
- ١٤- («إن الزائدة وإن النافية» وكبوة الفرسان فى مجال التفرقة بينهما).
- ١٥- (درء مظاهر من الجرأة فى تفسير الكتاب العزيز).
- ١٦- (القول فى «غير» وحكم إضافتها إلى المعرفة).
- ١٧- (أكثر من واحد).
- ١٨- (حروف الزيادة وجواز وقوعها فى القرآن الكريم).
- ١٩- («الباء الزائدة» فى فصيح الكلام وفى القرآن الكريم).
- ٢٠- (من الدراسات اللغوية فى بعض الآيات القرآنية).
- ٢١- (بحث فيما تجب مراعاته فى بيان معنى الألفاظ المشتركة الواردة فى الكتاب العزيز واختيار أنسب معانيها لمقام ذكرها).
- ٢٢- (بحث فيما يخرج منه اللؤلؤ والمرجان وما قيل فيه من أنهما لا يخرجان إلا من البحار ولا يخرجان من الأنهار).
- ٢٣- (رسالة فى أفعل التفضيل واستعماله).

هذا.. ولقد فاضت روح شيخنا الجليل إلى بارئها يوم السبت ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٩٥هـ / ١٢ أبريل سنة ١٩٧٥م - عقب فراغه من صلاة المغرب، وأثناء ختمه للصلاة - عليه رحمة الله^(١).

(١) على عبد العظيم (مشيخة الأزهر)، ج-٢، ص ٥٢١-٥٣٨ - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ٢٠٠٤م.

السياسة الشرعية والفقه الإسلامى

للشيخ عبد الرحمن تاج

[١٣١٤-١٣٩٥هـ-١٨٩٦-١٩٧٥م]

هذا كتاب متميز - بل فريد - فى «السياسة الشرعية والفقه الإسلامى».. أى فى ماهية السياسة الشرعية وعلاقتها بالفقه الإسلامى.. وفى علاقة السياسة الشرعية بالشريعة الإسلامية.. أى فى علاقة الثوابت الشرعية بالمتغيرات.. وفيه سنجد علمًا غزيرًا.. وخيرًا كثيرًا.. وعلى سبيل المثال سنجد.

- أن السياسة والفقه صنوان من أصل واحد.

- وأنه لا يمكن أن تفلت من حكم الإسلام قضية واحدة أو حادثة من الحوادث.. ولذلك، فالمسلمون فى غنى بالسياسة الشرعية عن السياسات الوضعية والقوانين الأجنبية.

- والسياسة الشرعية: هى التدابير والأحكام المتفقة مع روح الشريعة وأصولها الكلية، والمحققة لمقاصدها وأغراضها الاجتماعية.. أما السياسة الوضعية: فهى التدابير المحكومة بالعرف والخبرة والموروث ومطلق المصلحة، دون علاقة بالشريعة ودون ضبط للمصلحة بكونها «شرعية معتبرة».

- وهذه السياسة الشرعية يعرفها الإمام أبو الوفاء ابن عقيل البغدادي [٤٣١هـ-٥١٣هـ / ١٠٤٠-١١١٩م]: بأنها الأفعال والتدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعها الرسول ﷺ ولا نزل بها الوحي».

- فليس مخالفًا للشريعة - إذن - أن تسن الدولة والمجتمع اليوم قوانين تفرض على أهل اليسار والقدرة ضرائب فوق ما هو مقرر فى الكتاب والسنة من الزكاة

والعشر، فإنه ليس فى نصوص الشريعة ما يمنع ذلك.. وإن كانت هذه النصوص قد خلت من ذلك.

- ولا يلزم أن نسير فى وقتنا هذا فى أبواب تدبير المالية العامة وطريقة إنفاقها، ولا فى نظام ترتيب الجيوش وطريقة حماية الثغور على ما كانت عليه الأمة الإسلامية فى بدء تكونها.

- والكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة وقد ألحق بهما مصدران آخران هما «الإجماع» و«القياس»، فلهما - أيضاً - قوة إثبات الأحكام من حيث إنهما يستندان فى باطن الأمر إلى دلالات من الكتاب والسنة.

- والاجتهاد بالرأى أعم من القياس، وأوسع دائرة، وأعظم أثراً.

- والمصالح المرسلة: هى العمل بما يحدث نفعاً أو يدفع ضرراً مما لم تنص مصادر الشريعة الأصلية على إهداره وإلغائه، وإن كانت - هذه المصادر - لم تنص أيضاً - على اعتباره بخصوصه ووجوب الأخذ به.

- وسد الذرائع: هو سد باب بعض المباحات إذا اتخذها الناس مسلكاً لشيء من المحظورات.

والأحكام الشرعية نوعان:

١- أحكام ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال والأزمان.

٢- وأحكام جزئية روعيت فيها مصالح الناس وعرفهم فى الوقت الذى استنبطت فيه. وهذه الأحكام الجزئية لا يصح أن تؤخذ قانوناً دائماً، وشريعة ثابتة.

- ومن باب السياسة الشرعية يستطيع ولاية الأمر فى الأمة أن يسنوا من القوانين ما يحقق مصلحتها، ويستجيب لداعى حاجاتها العارضة ومطالبها المتجددة، مما لا نجد له دليلاً خاصاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع، ولا نظيراً سبق لبعض هذه الأدلة الحكم فيه حتى يمكن أن نربطه به ونقيسه عليه.

- ومرجع السياسة الشرعية إلى قواعد: رفع الحرج، ودفع الضرر، والحكم بالعدل، وإلى العمل بمبادئ سد الذرائع، والاستصحاب، والاستحسان، ومراعاة العرف، والمصالح المرسلة.

- وفائدة السياسة الشرعية: هى مساندة التطورات الاجتماعية، والقدرة على الوفاء بمطالب الحياة وتحقيق مصالح الأمة فى كل حال وزمان، على وجه يتفق مع المبادئ العامة فى الإسلام.

- وبالسياسة الشرعية يتم الاستغناء عن القوانين والسياسات الوضعية الأجنبية.

- والسياسة لا تكون شرعية إلا إذا كانت فى درجة الاعتدال، وسطاً بين طرفى الإفراط والتفريط.

- ولقد أرسل الله رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه، والله - سبحانه وتعالى - أعلم وأحكم وأعدل من أن يخصص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء ثم ينفى ما هو أظهر منه، وأقوى دلالة، وأبين أماره، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده: هو إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهى من الدين، ليست مخالفة له. ولذلك، فإن السياسة العادلة لا تخالف ما نطق به الشرع، بل هى موافقة لما جاء به - وإن لم ينطق بها - بل هى جزء من أجزاء الشرع، وتسميتها «سياسة» هو من باب الاصطلاح... إنها عدل الله ورسوله ﷺ ظهر بهذه الأمارات والعلامات.

- ومن العدل فى باب السياسات المالية ألا يفرض من الضرائب ما يثقل كاهل الأمة ويرهقها، ولا يتناسب مع درجات الغنى، وتفاوت الناس فى اليسار.

- ومن العدل فى السياسة الشرعية أن يراقب ولى الأمر من ولاة شيئاً من أمور الضرائب، وأن يحاسبه ويستوفى لبيت مال المسلمين ما هو مفروض من هذه الضرائب، وأن يأخذ على يده، ويعزله، ويصادر ما يملكه كله أو بعضه إذا علم أنه قد أثرى من جباية المال على غير الوجه الحق، فإن صلاح الأمة وسعادتها بما لها لا يكون إلا بما قاله عمر بن الخطاب «أن يؤخذ المال بالحق، ويعطى فى الحق، ويمنع من الباطل».

- وليس من السياسة الشرعية أن يضمّن ولى الأمر الولاية ما تقرر على الأفراد من أنواع الضرائب، فإنهم ليسوا إلا وكلاء ونواب يستوفون من الناس ما وجب عليهم، فلا يغرمون من نقصانه شيئاً.

- ومن العدل فى السياسة الإدارية أن يراعى فى إنفاق الأموال العامة جميع حاجات الأمة، لا يفرق فى إنفاق الأموال بين فريق وفريق فلا يصرف المال الذى أعد لنظافة الطرق وإصلاحها وتنظيمها على الأحياء التى يقطنها الأغنياء وأصحاب الجاه على حين أن العناية بأحياء الفقراء أوجب وألزم، فإنه لا تتوافر لهم وسائل النظافة والراحة مثلما هى موفرة لأولئك الأغنياء.

- ولقد جاءت أحكام القرآن قوانين عامة ومبادئ كلية يمكن تحكيمها فى كل ما يعرض للناس فى حياتهم اليومية مما يتصل بتلك القوانين والمبادئ، فهى مبادئ وقوانين محكمة ثابتة لا تختلف ولا يسوغ الإخلال بشيء منها، وعامة كلية يمكن أن تتمشى مع اختلاف الظروف والأحوال.. فالقرآن - الذى هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى تبيان لكل شىء من حيث إنه قد أحاط بجميع الأصول والقواعد التى لابد منها فى كل قانون ونظام، كوجوب العدل، والشورى، ورفع الحرج، ودفع الضرر، ورعاية الحقوق لأصحابها، وأداء الأمانات إلى أهلها، والرجوع بمهام الأمور إلى أهل الذكر والاختصاص.. وهو - القرآن - تبيان لكل شىء، بمعنى أنه قد أحاط أيضاً بأصول ما يلزم لحفظ المقاصد التى لم تأت الشرائع السماوية ولم تنشأ القوانين إلا لخدمتها والمحافظة عليها، فإن عليها يقوم أمر الدين والدنيا وانتظام شأن الأفراد والجماعات.. وهذه المقاصد هى مقاصد الشريعة الخمسة: حفظ الدين.. والنفس.. والعقل.. والنسل.. والمال.

- ولقد أنكر القياس طائفة من الأصوليين استغنوا عنه بالعمومات المعنوية للألفاظ وشمولها وتناولها لما وراء المواطن التى وردت فيها، فما يرد خاصاً فى لفظه كثيراً ما يكون له عموم فى المعنى.

- والفقهاء ليس هو العلم بأوضاع الألفاظ وعمومها اللغوى أو خصوصها، ولا معرفة دلالاتها الجلييلة الواضحة، فإن ذلك شىء لا يقصر عنه عارف بلغة العرب، وإنما الفقه هو فهم المعانى والحكم وأسرار التشريع، وتعرف الأسباب والعلل، ونسبة بعضها إلى بعض ليعتبر منها ما يصح بشهادة الأمثال والنظائر، وما يكون أشبه بقصد الشارع فى تشريعه، فمعرفة قصد الشارع ومراده هى المقصد الأول من الاستنباط والاجتهاد.

- ومن مراسيل الحسن البصرى [٢١- ١١٠هـ / ٦٤٢- ٧٢٨م]: « ما أنزل الله

آية إلا لها ظهر وبطن»، فالظهر هو الظاهر، أى ما يعطيه ظاهرًا للفظ من معنى، أما البطن فهو السر، وهو لب النصوص وروحها، هو تلك المعانى التى يدركها أهل العلم والفهم بالاستنباط من دلالات الكلام وتنوعها بالإيماء والإشارة والفحوى والاقتضاء وما يستخرج بذلك من عموم وخصوص وغيرهما.

- وإن تغير رأى وعدول الفقيه عن اجتهاده الأول ليس سببه فى جميع الأحوال راجعاً إلى تبين وجه الصواب بعد الخطأ، ولا إلى ظهور دليل قوى كان خافياً عليه من قبل، ولكنه كثيراً ما يكون سببه تنقل المجتهد فى الأقطار ووقوفه على تغير العرف والعادة عند الأمم المختلفة، فیراعى فى فتاويه هذا الاختلاف، وفى هذه الحالة يكون كلا اجتهاده صحيحاً معتبراً برغم اختلافهما فى المسألة الواحدة، إذ هو اختلاف سببه تغير الظروف وتباين العادات، والعادة محكمة فى كل ما ليس فيه نص شرعى بالمنع أو الجواز.

- وفى الشريعة الإسلامية الوفاء بمصالح الأمم فى كل زمان ومكان.

- والشرائع الإلهية كل أحكامها معللة بالحكم والمصالح، سواء منها ما أدرك الناس حكمته وسر تشريعه، أو ما لا تزال تطورات الزمن وتقدم الإنسان فى العلوم والمعارف تكشف عن أسرارها وأغراضه مما كان يصفه السابقون بالتعبديات «التى لم تظهر أسرارها ولم تعقل معانيها».

- والسياسة الشرعية وإن كانت شيئاً غير الفقه الاصطلاحى العام الثابت المدون الذى استنبطه الفقهاء، فإنها من الفقه الحقيقى الذى يحقق مقاصد الشريعة فى رعايتها مصالح العباد، والذى تستقيم به الشؤون العامة فى أبواب القضاء والفتيا وسن القوانين وغير ذلك من مرافق الأمة.. إنها من الفقه المرن أو المتحرك یراعى فيه مسايرة الزمن، ويحقق المطالب التى تتجدد وتنوع حسب تطورات الأمم وأحوال الأفراد.

- وإن أحكام السياسة الشرعية ترجع فى جملتها إلى قاعدة التيسير ورفع الحرج، ومبدأ الحكم بالعدل، والتواصى بالخير، وأن أمر المسلمين بينهم شورى، وهذه المبادئ محكمة مقررة دل عليها الكتاب والسنة.

* وإن مراعاة العرف وتحكيم ما يقضى به أمر واجب فى سياسة الأمة وتدير شؤونها على وفق مبادئ الشريعة التى لم تقصد إلا النظام وتحقيق مصالح العباد.

فالعادة محكمة، والثابت بالعرف كالثابت بالنص.. والحقيقة تدرك بدلالة الاستعمال والعادة.

والعرف الذى تعتمد عليه السياسة الشرعية وتجد فيه مجالها هو العرف الذى ليس للشرعية فى موضوعه حكم يدل عليه دليل تفصيلى.

- ولا يجوز لأحد أن يقول فى الدين وأحكام الشريعة بمحض رأى والهوى، من غير استناد إلى دليل من أدلة الشريعة التفصيلية، ولا بناء على أصل من أصولها العامة.

- والأئمة جميعاً يقولون بالاستحسان، ويعتدون به فى استخراج الأحكام، غير أنهم فى ذلك متفاوتون، فمنهم المقل ومنهم المكثّر، كما هو حالهم إزاء كثير من الأدلة الشرعية الأخرى.

- واختلاف العلماء فى الفروع قديم، اختلف فيها الصحابة على عهد رسول الله ﷺ وبعده، واختلف فيها فقهاء التابعين ومن بعدهم، واتسعت دائرة الخلف فى تلك الأحكام على قدر ما اتسعت دائرة الاجتهاد والاستنباط.. ولقد حدث ذلك حتى فى الأحكام المعتمدة على نصوص، لاختلافهم فى فهمها، وتباين أنظارهم فى معالجة أساليبها، وطرائق دلالاتها.. وقام إجماعهم على أن كل مجتهد يجب عليه العمل بما يصل إليه اجتهاده، وأنه يكون آثماً بتركه إلى غيره.

- ولقد اجتهد رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص من الوحي.. وقد يقع الخطأ فى اجتهاده، غير أنه ليس كآحاد المجتهدين فى ذلك، من حيث إن الله قد جعله أسوة وهادياً للناس بأقواله وأعماله، فلا يمكن أن يتركه - إذا وقع منه خطأ فى رأى دون أن يوحى إليه بوجه الصواب الذى يرضاه حكماً للناس، لأن تركه كذلك يكون تمكيناً للخطأ، وإقراراً لذيوعه، وهو مستحيل على الحكيم الخبير.

ولقد كانت اجتهادات الرسول ﷺ واجتهادات بعض الخلفاء الراشدين فيما يمس السياسة، ويتصل بمبادئها، ويثمر أحكاماً من نوع أحكامها التى شأنها الاختلاف والتبدل على حسب اختلاف الأعصار والأحوال، وتبعاً لتطورات الأمة.. ولم تكن أحكاماً من الفقه العام الثابت الذى يؤخذ على وجه واحد لجميع الناس وفى جميع العصور.

تلك خطوط عامة لبعض ما سيجده القارئ لهذا الكتاب المتميز، الذى جاء فريداً فى السياسة الشرعية، وفى ضرب الأمثال لوقائعها، وجامعاً لفقه الواقع مع فقه الأحكام... مع عقد القران بينهما.

كما جاء كاشفاً عن عقل أصولى، وفقه خبير بالسياسة الشرعية والقانون والقضاء والاجتماع.. هو المرحوم الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج.. عليه رحمة الله. والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب.. إنه - سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) لخدمة النص قمنا بالترجمة، الموجزة التى تعرف بالأعلام الذين ورد ذكرهم فى متن الكتاب. انظر هذا الكتاب - طبعة دار السلام. القاهرة.

الشيخ عبد العال عطوة

[١٣٣١-١٤١٥هـ-١٩١٣-١٩٩٤م]

ترجمة أ. د. عبد العال أحمد عطوة

- الشيخ عبد العال أحمد عطوة من مواليد ١١ / ٤ / ١٩١٣ م.
- أستاذ الفقه الإسلامي بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر.
- حصل على الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الشريعة بجامعة الأزهر عام ١٩٣٥ م.
- ثم نال درجة التخصص «الماجستير» من كلية الشريعة أيضًا سنة ١٩٤٣ م.
- ثم حصل على العالمية «الدكتوراه» من ذات الكلية عام ١٩٤٤ م.
- وتوفي الشيخ - رحمه الله - يوم الخميس السادس من شهر رجب عام ١٤١٥ هـ / الموافق ٨ / ١٢ / ١٩٩٤ م.
- وكان - رحمه الله - من الرعيل الأول الذي خرّج أجيالاً من العلماء، وساهم في البناء الفقهي في مصر والدول العربية والإسلامية.
- ومن أهم البحوث العلمية التي سطرها:
 - ١- «تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية» كابول أفغانستان ١٩٥٩ م.
 - ٢- «الفقه الإسلامي وموقفنا منه» كابول أفغانستان ١٩٥٩ م.
 - ٣- «العدالة الاجتماعية في الإسلام» صنعاء اليمن ١٩٦٣ م.
- ومن أهم مؤلفاته أيضًا:
 - ١ - «المدخل إلى السياسة الشرعية» طبع في مطبعة الأزهر سنة ١٩٥٣ م، ثم أعيد

- طبعه ضمن سلسلة الطريق المستقيم الذي أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٩٩٣ م.
- ٢- «نظرية الملكية في الشريعة الإسلامية» طبعه عام ١٩٥٩ م عندما كان مبعثاً لجامعة كابول في أفغانستان في بعثة تعليمية.
- ٣- «قواعد الإفتاء» جامعة كابول ١٩٥٩ م.
- ٤- «الأحوال الشخصية» جامعة كابول ١٩٥٩ م.
- ٥- «المدخل إلى الفقه الإسلامي» طبعه أثناء إبعثته في بعثة تعليمية للجامعة الليبية لكلية الحقوق عام ١٩٦٦ م.
- ٦- «نظام الحكم في الإسلام».

ومن أهم المؤتمرات والزيارات العلمية والثقافية التي قام بها الشيخ - رحمه الله:

١- بعثة تعليمية إلى جامعة كابول، في أفغانستان من عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٦١ م.

٢- بعثة تعليمية إلى اليمن للتوعية الدينية، في نوفمبر ١٩٦٢ م إلى يناير ١٩٦٣ م.

٣- بعثة تعليمية إلى كلية الحقوق بالجامعة الليبية من سنة ١٩٦٥ م إلى ١٩٦٩ م.

٤- بعثة تعليمية إلى المعهد العالي للقضاء بالرياض في المملكة السعودية من عام ١٩٧٠ م إلى ١٩٧١ م، وكان يشغل آنذاك رئاسة قسم السياسة الشرعية بالمعهد.

وكان - رحمه الله - له دور كبير في نهضة العلم في كل مكان حل فيه، وعنه يقول الدكتور عبد الله خاموش الهروي - وهو أديب ودبلوماسي وباحث أكاديمي في أفغانستان يقول عن دوره في جامعة كابول: «كما جاء إلى كلية الشريعة اثنان من كبار مشايخ الأزهر أساتذة مبعوثين وهما: سماحة الشيخ بروفيسور عبد العال عطوة وروفيسور الشيخ عبد العظيم فياض، فكان مجيئهما بداية تحول عظيم في ساحة كلية الشريعة حيث بدأت حركة التأليف والترجمة والتحقيق ووصلت إلى ذروتها بعد ذلك اليوم.

فكانا وخاصة الشيخ عبد العال عطوة يقوم بتشريح المباني للفقه الإسلامي ومقارنتها مع القوانين الوضعية.

كما أنهما ربيا طلبة ممتازين في ميدان العلم والأدب والثقافة الإسلامية والسياسية.

كما أنهما ألفا مجموعة من الكتب منها رسالة ترجمها الأستاذ عبد الستار سيرت حفظه الله ..».

وظل - رحمه الله - يسهم في خدمة العلم والإشراف على الدراسات والرسائل العلمية التي تربو على عشرين رسالة علمية بيانها كالتالي:

- ١ - «الإثبات بالشهادة - دراسة مقارنة بين المذاهب الفقهية» للباحث: سليمان بن عبد الله سليمان القاسم.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٢ - «الإثبات بالقرائن في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة» للباحث: إبراهيم بن محمد يوسف الفايز.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٣ - «الإجارة والأجور في الشريعة» للباحث: علي بن محمد علي التركي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٤ - «الإجمال والبيان عند الأصوليين» للباحث: عبد الرحمن بن محمد فهد السدحان.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٥ - «أحكام أهل الذمة» للباحث: علي بن محمد علي المطير.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٦ - «أحكام الجنين والحامل في الفقه» للباحث: نايف ابن عوض نفال الحربي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٧ - «أحكام الحضانة في الفقه الإسلامي» للباحث عبد العزيز بن علي محمد الرزقان.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٨ - «أحكام الرضاع في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين المذاهب الأربعة» للباحث: علي بن محمد زيد آل حسين.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٩ - «أحكام الظهار في الفقه الإسلامي المقارن» للباحث: حسن بن أحمد أبكر أزيبي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٠ - «أحكام الغنيمة والفيء في الفقه الإسلامي» للباحث علي بن عبد الرحمن علي الربيعة.. إشراف: د. عبد العال عطوة، د. محمد كمال الجرف - ماجستير.

- ١١ - «أحكام الهبة والعطية في الشريعة الإسلامية» للباحث: عبد الله بن ناصر على النويصر.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٢ - «آداب الحرب وأثرها في العلاقات الخارجية - دراسة مقارنة بما في القانون الدولي العام» للباحث: إبراهيم بن عبد المحسن خاتم العتيبي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٣ - «آراء ابن تيمية في الحكم والإدارة» للباحث: حمد بن محمد سعد الفريان.. إشراف: د. عبد العال عطوة - دكتوراه.
- ١٤ - «الأحكام الشرعية التي تختلف فيها المرأة عن الرجل» للباحث: حمد بن عبد الله عبد الرحمن الشعلان.. إشراف: د. عبد العال عطوة - دكتوراه.
- ١٥ - «الأطعمة الحيوانية في الشريعة» للباحث: عبد الله بن محمد أحمد الطريفي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٦ - «الأعمال الولائية للقضاة في الولاية على المال» للباحث: عبد الله بن سلطان محمد الضويحي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٧ - «الاحتساب وواقعه المعاصر» للباحث: عبد الرحمن ابن إبراهيم الوهبي.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٨ - «الاحتكار والتسعير في الشريعة الإسلامية مقارنة بين المذاهب الأربعة» للباحث: محمد بن عبد الرحمن راشد الجريفة.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ١٩ - «الاستفادة من أحكام الشهادة» للباحث: محمد ابن مرزوق معتق المعيتق.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٢٠ - «البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة» للباحث: إبراهيم بن محمد يوسف الفايز.. إشراف: د. عبد العال عطوة - دكتوراه.
- ٢١ - «بيع الأصول والثمار في الفقه الإسلامي» للباحث: محمد بن راشد على العثمان.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.
- ٢٢ - «بيع العينة في الفقه الإسلامي دراسة موازنة» للباحث: حمد بن عبد العزيز

أحمد الخضيرى.. إشراف: د. عبد الغفار صالح، د. عبد العال عطوة - ماجستير.

٢٣- «البيوع المنهى عنها» للباحث: محمد بن عبد اللطيف عبد الله اللاحم.. إشراف: د. عبد العال عطوة - ماجستير.

٢٤- «تحقيق كتاب « نصاب الاحتساب » للعلامة عمر السقامي» للباحث: محمد رجاء أحمد غبجوقة.. إشراف: د. عبد العال عطوة - دكتوراة.

المدخل إلى السياسة الشرعية

للشيخ عبد العال عطوة

[١٣٣١-١٤١٥هـ-١٩١٣-١٩٩٤م]

فى فبراير سنة ٢٠١٢م- أى بعد عام من ثورة مصر، التى تفجرت فى يناير سنة ٢٠١١م- زار السيناتور الأمريكى «جون ماكين» مصر، وتحدث عن مستقبل التغيير الذى بدأت هذه الثورة - فى ضوء الواقع والتاريخ - فقال كلمات تحتاج إلى تأمل عميق.. قال: «إن الحدث الذى يحدث فى مصر الآن هو الحدث الأهم فى الشرق منذ سقوط الدولة العثمانية، وستكون له تأثيرات فى الشرق كله، بل وفى العالم أجمع»!

وعندما ثار الشعب السورى على نظام الأسد، أعلن خبراء الكيان الصهيونى الذين سبق لهم ووصفوا نظام حسنى مبارك بأنه «كنز استراتيجى للأمن الإسرائيلى» - أعلن هؤلاء الخبراء الصهاينة: «أن سقوط نظام بشار الأسد سيؤدى إلى قيام بحيرة إسلامية تغرق فيها إسرائيل!».

إذن، لقد أعلن خبراء الإمبريالية والصهيونية أن ثورات الربيع العربى قد فتحت أمام الشرق نافذة ستفضى إلى تغييرات جذرية تعيد فتح الصفحة التى سبق وحسبت الإمبريالية الغربية أنها قد طويت إلى الأبد.. صفحة استكمال إسلامية الدولة، التى سبق وحطم الغرب الاستعمارى وعاءها، وألغى رمزها التاريخى عندما أسقط الخلافة الإسلامية، ودولة الإسلام الجامعة فى مارس سنة ١٩٢٤م..

لكن السؤال الأهم، هو: كيف يعيد الشرق كامل الإسلامية إلى دوله ومجتمعاته بعد التغييرات الكبرى التى أحلت الدول الوطنية والقطرية والقومية محل الدولة الإسلامية الجامعة، التى كانت الجنسية عندها وعند شعوبها هى الإسلام؟! وبعد أن

حلت العلمانية وقوانينها الوضعية محل الشريعة الإسلامية - التي وصفها العلمانيون بأنها «شريعة البداوة» التي تجاوزها التاريخ وعفا عليها الزمان؟!..

كيف يعيد الشرق فتح هذه «الصفحة» - صفحة استكمال إسلامية الدولة والمجتمع من جديد؟

هنا، وكى تصبح الشريعة الإسلامية شريعة الحاضر والمستقبل، كما كانت شريعة الماضي والتاريخ، يبرز علم السياسة الشرعية، الذي هو علم إسلامية الدولة والمجتمع دائماً وأبداً، رغم تغير الواقع، وتبدل الوقائع، وتوالى المستجدات.. فالسياسة الشرعية هي علم أسلمة الحياة في ظل تغير وقائع هذه الحياة.. هي العلم الذي يبدع أحكاماً إسلامية جديدة، تستمد روحها ومعاييرها وقواعدها من شجرة الشريعة الإسلامية - التي هي وضع إلهي ثابت، اكتملت باكتمال هذا الدين الذي أوحاه الله - سبحانه وتعالى - إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

- ولقد سبق وتأسس علم السياسة الشرعية على عهد النبوة، عندما ميز رسول الله ﷺ وصحابته الكرام بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».. بين «الأصول» وبين «الفروع».. بين أصل الشجرة التي أصلها ثابت، وبين الفروع والأغصان والأوراق النامية دائماً وأبداً كى تظل كل المتغيرات وجميع المستجدات.. بين ما نزل به الوحي وفيه السمع والطاعة تبعداً لله - وبين ما هو رأى واجتهاد وإبداع، يحقق مقاصد الشريعة التي نزل بها الوحي، والمصالح المتجددة، وسعادة الناس في المعاش والمعاد، بالأحكام الجديدة، التي لا تخالف ما نزل به الوحي، وإن لم ينطق بها الرسول - عليه الصلاة والسلام.

ثم جاء علماء الإسلام فميزوا هذا العلم - علم السياسة الشرعية - في إطار العلم الأشمل - علم الفقه الإسلامى وذلك عندما عرّفوا السياسة الشرعية بأنها «التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد حتى وإن لم ينطق بها الرسول ﷺ ولا نزل بها وحي السماء».

ولقد ميز هؤلاء الفقهاء - دون أن يفصلوا - بين «فقه الواجب» وبين «فقه الواقع».. فالأول ثابت.. والثاني متغير بتغير المصالح والوقائع والأعراف والعادات..

والمطلوب - فى فقه الواقع - أى السياسة الشرعية - ألا تخالف القواعد والفلسفات والمقاصد فى فقه الواجب، لأن يكون النص عليها قد ورد فى فقه الواجب.. وبعبارة الإمام ابن القيم [٦٩١- ٧٥١هـ / ١٢٩٢- ١٣٥٠م]: «إن الواجب شىء، والواقع شىء، والفقيه هو من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

- وإذا كانت الشريعة - التى هى وضع إلهى ثابت - قد نزل بها الوحي وبينها الرسول ﷺ فإن هذه الشريعة - الثابتة - تظل نامية دائمة وأبدًا، عن طريق السياسة الشرعية، التى تمثل الفروع والأغصان والأوراق التى تخرج من الثابت لتتظلل المتغيرات والمستجدات..

ولقد زاد الفقهاء هذا الأمر جلاء عندما قسموا الشرع إلى ثلاثة أنواع، اثنان منها إسلاميان، والثالث خارج عن إطار الإسلام، فقالوا - بلسان الإمام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١- ٧٢٨هـ / ١٢٦٣- ١٣٢٨م]: «إن الشرع - فى هذه الأزمنة - ثلاثة أقسام:

- الشرع المنزل: وهو الكتاب والسنة.. واتباعه واجب على الكافة.

- والشرع المتأول: وهو حكم الحاكم - «القاضى» - أو قول أئمة الفقه. واتباعه واجب على من حكم به واجتهد فيه.

- والشرع المبدل: الذى هو افتراء على الشريعة وإضافة إليها ما ليس منها».

فقه الواجب - المنزل - قد جاء بالكليات وفلسفة التشريع وقواعد التشريع وثوابت الأحكام.. بينما تكفل فقه الواقع - أى السياسة الشرعية - بفقه المتغيرات والمستجدات.. وشرط هذا الفقه أن لا يخالف فقه الواجب.. ولا يشترط فيه مطابقتها لفقه الواجب.. وبعبارة الإمام ابن القيم: «فها هنا نوعان من الفقه لابد للحاكم منهما: فقه فى أحكام الحوادث الكلية، وفقه فى نفس الواقع وأحوال الناس، فيعطى الفقيه والقاضى الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع، فالمفتى والحاكم - «القاضى» والعالم: هو من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ﷺ».

أما الشرع المبدل - الذى يشبه ما نسميه الآن بالقوانين الوضعية المخالفة للشرع المنزل - فهو انحراف عن فقه الواجب - الكتاب والسنة - لجأ إليه الذين غفلوا عن علم السياسة الشرعية - فقه الواقع والمتغيرات والمستجدات - أى غفلوا عن العلم الذى يجعل الشريعة الكاملة دائمة النماء والعطاء، والذى يجعل القواعد الثابتة ملية للمصالح المتجددة، عبر الزمان والمكان.

وكما يقول الإمام ابن القيم: «فإن من له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالها، وأن الغاية منها تحقيق مصالح العباد فى المعاش والمعاد، وأنها جاءت بغاية العدل، الذى يفصل الله به بين الخلائق، عرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها وكيف يضعها فى مواضعها، بحسن فهم وجودة فكر، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها».

تلك هى السياسة الشرعية: علم العصر، وكل العصر، التى تستجيب لكل المتغيرات ولجميع المستجدات، والتى تجعل ثوابت الشريعة صالحة لتحقيق إسلامية الدولة والمجتمع دائماً وأبداً.. ففيها الغناء عن الشرع المبدل، المخالف لما شرع الله.

عندما تريد المجتمعات الإسلامية المعاصرة تطبيق الشريعة الإسلامية - التى هى وضع إلهى ثابت - ستجد نفسها أمام مستجدات كثيرة لم ترد بها نصوص الكتاب والسنة، ولم يعرض لها الفقهاء القدماء.. وهنا ستكون السياسة الشرعية - التى هى علم إسلامية المستجدات والمتغيرات والوقائع غير المسبوقه - هى علم العصر، الذى يتيح لهذه المجتمعات الإسلامية المعاصرة أسلمة حياتها كلها، دونما حرج يمنعها من مجارة التقدم، ودونما انفلات يخرجها عن روح الشريعة ومقاصدها.. ذلك أن السياسة الشرعية: هى الأحكام والنظم التى تدبر بها شئون الأمة الإسلامية، مع مراعاة اتفاقها مع روح الشريعة، وقيامها على قواعدها الكلية، وتحقيقها لأغراضها الاجتماعية.. إنها فعل شئ جديد من الحاكم، لمصلحة يراها، فيما لم يرد فيه نص خاص صريح، وفى الأمور التى من شأنها ألا تبقى على وجه واحد، بل تتغير وتبدل تبعاً لتغير الظروف والأحوال والأزمنة والأمكنة والمصالح.

- وفائدة السياسة الشرعية هى: مساندة التطورات الاجتماعية، والوفاء بمطالب الحياة المتجددة، وذلك باستنباط الأحكام لما يجد من الحوادث والوقائع التى لا نجد

لحكمها نصًا ولا إجماعًا ولا لمحلها نظيرًا ثبت حكمه بنص أو إجماع فنقيسه عليه، على وجه يحقق مصلحة الأمة في جميع الأحوال والأزمان والأماكن والمجتمعات، ويتفق في الوقت ذاته مع القواعد في الشريعة.. ومعنى اتفاق هذه الأحكام مع القواعد العامة للشريعة هو أن يهدف الحكم الجديد إلى تحقيق مقصد من المقاصد الخمسة التي لم تأت الشرائع السماوية إلا لخدمتها والمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. إذ عليها يقوم أمر الدين والدنيا، وبالمحافظة عليها ينتظم شأن الأفراد والجماعات.. فالعلم بالسياسة الشرعية يستطيع تدبير الأمور العامة للأمة، بمقتضى الشريعة، دون حاجة إلى القوانين والسياسات الوضعية.

والحكم الذى لم يرد به نص، يعتبر سياسة شرعية إذا:

- ١ - كان متفقًا مع أحكام الشريعة، أو معتمدًا على أصل من أصولها الكلية.
 - ٢ - وألا يخالف دليلًا من الأدلة التفصيلية التي تثبت شريعة عامة دائمة للناس في كل الأحوال والأزمان والأماكن والمجتمعات.
 - ٣ - وأن تكون هذه السياسة وسطًا بين الإفراط والتفريط.
- ووجود أحكام وسياسات شرعية لم يأت بها نص، لا يعارضه قول الله - سبحانه وتعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

ذلك أن هذه الآية لا تعنى مجيء القرآن الكريم بحكم كل جزئية من الوقائع التي تحدث من وقت نزول التشريع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وإنما تعنى مجيء القرآن محيطًا بجميع الأصول والقواعد التي لا بد منها في كل قانون ونظام، كوجوب العدل، والشورى، ورفع الحرج، ودفع الضرر، وأداء الأمانات إلى أهلها، ورعاية الحقوق لأصحابها، والرجوع في مهام الأمور ومعضلاتها إلى أهل الذكر والاختصاص والخبرة، إلى غير ذلك من القواعد العامة التي لا يستطيع أن يشذ عنها قانون أو نظام يراد به صلاح الأمم وإسعادها.. وأيضًا، بمعنى الإحاطة بأصول ما يلزم لحفظ مقاصد الشريعة - حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

ولقد بينت السنة النبوية وفصلت عموميات القرآن الكريم ومجمله، فمثلت معه ديوان الهدى المانع من الضلال.

ولقد جاء القياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، وسد الذرائع، وتحكيم العرف والعادة بتوسيع أبواب الشريعة لاستيعاب كل مستجدات الواقع والحياة.. ولقد تبلور علم السياسة الشرعية - فى الفقه الإسلامى علماً لهذه المستجدات، يحقق العدل والمصالح الشرعية المعتمدة على اختلاف الزمان والمكان.

- ومقولة: «لا اجتهاد مع النص» تحتاج إلى شرح وإيضاح يضبط إطلاقها.. فهناك اجتهاد فى فقه النصوص وفهم مراميها وأسرار معانيها والغوص فى أعماقها، وذلك تجنباً للحرفية والوقوف عند ظواهر الألفاظ.. وهناك اجتهاد فى استنباط الأحكام من النصوص.. وهناك اجتهاد فى تنزيل هذه الأحكام المستنبطة من النصوص على الوقائع.. والممنوع هو الاجتهاد الذى يتجاوز النص قطعى الدلالة والثبوت.

- وغالب ما تجرى فيه السياسة الشرعية هو الوقائع والحوادث التى لا نجد لحكمها نصاً أو إجماعاً أو قياساً.. وللسياسة الشرعية مدخل - كذلك - فى الأحكام التى جاءت بها نصوص، لكنها تتغير تبعاً لتغير المصالح والظروف والأماكن والأحوال.

- والفقه ليس العلم بأوضاع الألفاظ من حيث العموم والخصوص، ولا معرفة دالاتها الجلية والواضحة.. وإنما يتعدى ذلك إلى فهم المعانى، والحكم، وأسرار التشريع، ومعرفة الأسباب والعلل، ونسبة بعضها إلى بعض، ليعتبر منها ما يصح وما يكون أشبه بمقصود الشارع من تشريعه.

- ولا تقف السياسة الشرعية عند العقوبات التعزيرية التى لم ترد فيها نصوص وإنما تمتد لتشمل سائر مناهج الحياة وعلاقات الناس.. ولا يجوز أن يلج ميدان هذا العلم - علم السياسة الشرعية - إلا المجتهد الذى توفرت فيه شروط الاجتهاد التى قررها علماء الأصول والفقهاء.

- والمصلحة فى السياسة الشرعية ليست مطلق المصلحة كما هو حالها فى السياسات الوضعية وإنما هى المصلحة الشرعية المعتمدة التى يترتب على بناء الحكم عليها جلب مصلحة أو درء مفسدة على سبيل التحقيق، وأن تكون هذه المصلحة عامة لا خاصة، وألا يترتب على بناء الحكم عليها مخالفة لنص أو إجماع.. وتنقسم المصالح إلى: ١- معتبرة ٢- وملغاة ٣- مرسلة.

والمعتبرة منها: الضرورى، والحاجى، والتحسينى.. والمصالح الملغاة هى التى

قامت الأدلة الشرعية على إلغائها وإهمالها، كالزيادة فى العبادات.. أما المصالح المرسله، فهى كل مصلحة لم يرد فيها دليل معين من الشرع على اعتبارها أو إلغائها، ولكن يحصل من ربط الحكم بها وبنائه عليها جلب مصلحة أو دفع مفسدة.. ومعنى كونها مرسله أنها مطلقة عن دليل اعتبارها أو إلغائها.

ولأن النصوص متناهية، والوقائع متعددة غير متناهية، كانت المصالح المرسله هى السبيل لوفاء الشريعة بمصالح البشر.. ولأن المصالح المرسله معقولة المعنى كان مجالها المعاملات، لا العبادات، ولا العقوبات، لأن أغلبها تشريعات مقدرة لا اجتهاد فيها.

- والعرف من المصادر الخصبة التى تقوم عليها الأحكام السياسة، وفى هذا دليل على مسابقة السياسة الشرعية لركب الحياة.

- كما أن الاستحسان الذى هو العدول فى المسألة عن مثل ما حكم به فى نظائرها إلى خلافه لوجه هو أقوى يوسع من إمكانات الشريعة الاستجابة للمستجدات..

ولقد قال الإمام مالك [٩٣- ١٧٩هـ / ٧١٢- ٧٩٥م]: «إن الاستحسان تسعة أعشار العلم».. وقال الإمام محمد بن الحسن الشيبانى [١٣٥- ١٨٩هـ / ٧٥٢- ٨٠٥م] صاحب أبى حنيفة، وناشر مذهبه: «إن العالم بالاستحسان مع باقى الأدلة يسعه الاجتهاد فى كل شىء من أموره».

* * *

وإن الواقع المتغير دائماً وأبداً إنما تتولد منه مشكلات تتطلب حلولاً فى ظل الشريعة، وهذه الحلول تقتضى الخروج عن الدائرة النظرية إلى ما هو أوسع وأرحب منها طبقاً لروح الشريعة وقواعدها الكلية، وهذا هو ما تكفلت به السياسة الشرعية التى تغنيا هى والأحكام الفقهية عن الالتجاء إلى القوانين الوضعية، فالسياسة الشرعية هى علم المستجدات التى تجعل ثوابت الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.

ولأن هذه هى مكانة السياسة الشرعية فى الفقه الإسلامى، وهذا هو خطرها.. حظيت باهتمام الأصوليين والفقهاء.. فكثيرون ضمنوا كتبهم الحديث عنها.. كما أفردوا بالتأليف كوكبة من فقهاء الإسلام فى تراثنا القديم والحديث.. وذلك من مثل:

- شيخ الإسلام ابن تيمية، الذى عرض لها فى كثير من كتبه وفتاواه.. ثم أفرد لها كتابه «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية».
- والإمام ابن القيم، الذى عرض لها فى كثير من كتبه، وجاء كتابه الفذ «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية» ديواناً لهذا العلم الإسلامى المهم.
- والعلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف [١٣٠٥-١٣٧٥هـ / ١٨٨٨-١٩٥٦م] - فى عصرنا الحديث - الذى أفرد لها كتابه «السياسة الشرعية أو: نظام الدولة الإسلامية».
- والإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج [١٣١٤-١٣٩٥هـ / ١٨٩٦-١٩٧٥م] الذى قدم فى هذا العلم كتابه الجامع «السياسة الشرعية والفقه الإسلامى».
- ثم.. هذا الكتاب - الذى نقدم بين يديه «المدخل إلى السياسة الشرعية» الذى كتبه واحد من كبار علمائنا، ذوى القدم الراسخة فى الفقه والسياسة الشرعية معاً - هو العالم الجليل الشيخ عبد العال أحمد عطوة..
- إنها نواة مكتبة فى السياسة الشرعية.. جديرة بأن تأخذ مكانتها فى الكليات المتخصصة.. وفى معاهد إعداد الدعاة - وفى كليات الحقوق - وفى الثقافة الإسلامية بوجه عام.. فالسياسة الشرعية هى علم العصر، وكل عصر، للذين يريدون أسلمة الدولة والمجتمع والحياة، مع الاستجابة لمتطلبات التقدم والنهوض..
- والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب.. وأن يجعله فى ميزان حسنات صاحبه، إنه - سبحانه وتعالى - أفضل مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) تنبيه: فى نص الكتاب، تركنا أرقام «الهوامش» سلسلة - كما صنع المؤلف رحمه الله - وميزنا التعليقات التى خدمنا بها نص الكتاب بوضعها تحت نجوم (*) تتكرر إذا تكرر التعليق فى الصفحة الواحدة. [انظر الكتاب فى طبعة دار السلام]. القاهرة.

نظام الحكم فى الإسلام

للشيخ عبد العال عطوة

[١٣٣١-١٤١٥هـ-١٩١٣-١٩٩٤م]

«نظام الحكم»: هو المؤسسات التى تمارس السلطة العليا فى أية دولة من الدول.. من مثل: مؤسسة التشريع، ومؤسسة التنفيذ، ومؤسسة القضاء.. و«نظام الحكم الإسلامى» يتميز عن غيره من نظم الحكم الأخرى بأن مرجعيته الحاكمة للسلطة فى مؤسساته هى الشريعة الإسلامية - بأصولها ومقاصدها وقواعدها وفقه المعاملات فيها.

ولقد قامت الدولة الإسلامية - منذ عهد النبوة وفجر الإسلام - على مبدأ المؤسسة ونظام المؤسسات.. ولذلك لم يعرف القرآن الكريم مصطلح «ولى الأمر» - الفرد - وإنما تحدث عن «أولى الأمر» - المؤسسة الجماعية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فلقد تأسست هذه الدولة - فى بيعة العقبة سنة ١ ق. هـ - بتعاقد حقيقى، عندما اتفق قادة الأنصار - من الأوس والخزرج مع رسول الله ﷺ على تأسيس الدولة الإسلامية الأولى - يثرب - المدينة المنورة - وبايعوه على ذلك.. فى الجمعية التأسيسية لهذه الدولة، والتى حضرها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان..

ومنذ ذلك التاريخ، قامت هذه الدولة على مؤسسات ثلاث:

- الأولى المهاجرون الأولون:

وهى مؤسسة الأمراء.. العشرة الأولون إسلامًا، والذين يمثلون قيادات بطون

قريش.. والذين كانت بيوتهم - بالمدينة - تحيط بمسجد النبوة - دار الحكومة - ولها أبواب تفتح في هذا المسجد.. والذين كانوا - في الصلاة - يقفون خلف رسول الله ﷺ وفي الحرب يقفون أمامه.. وهم الذين كانت لهم.. دستورياً.. في دولة الخلافة الراشدة - سلطة ترشيح الخليفة، ومبايعته البيعة الأولى، ثم تعقد له البيعة العامة - في العاصمة والأقاليم..

وأعضاء هذه المؤسسة هم:

- ١ - أبو بكر الصديق [٥٠ ق.هـ - ١٣هـ / ٥٧٣ - ٦٣٤ م].
- ٢ - عمر بن الخطاب [٤٠ ق.هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م].
- ٣ - عثمان بن عفان [٤٧ ق.هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧ - ٦٥٦ م].
- ٤ - علي بن أبي طالب [٢٣ ق.هـ - ٤٠هـ / ٦٠٠ - ٦٦١ م].
- ٥ - أبو عبيدة بن الجراح [٤٠ ق.هـ - ١٨هـ / ٥٨٤ - ٦٣٩ م].
- ٦ - الزبير بن العوام [٢٨ ق.هـ - ٣٦هـ / ٥٩٦ - ٦٥٦ م].
- ٧ - طلحة بن عبيد الله [٢٨ ق.هـ - ٣٦هـ / ٥٩٦ - ٦٥٦ م].
- ٨ - سعد بن أبي وقاص [٢٣ ق.هـ - ٥٥هـ / ٦٠٠ - ٦٥٧ م].
- ٩ - عبد الرحمن بن عوف [٤٤ ق.هـ - ٣٢هـ / ٥٨٠ - ٦٥٢ م].
- ١٠ - سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل [٣٢ ق.هـ - ٥١هـ / ٦٠٠ - ٦٧١ م].

- والمؤسسة الثانية النقباء الإثني عشر:

مؤسسة الوزراء.. الممثلون لقيادات الأنصار - من الأوس والخزرج الذين آووا ونصروا.. وأبلوا البلاء الأوفى في حماية دار الإسلام ودولته وأمته..

وأعضاء هذه المؤسسة هم:

- ١ - أبو إمامة أسعد بن زرارة بن عديس [١هـ / ٦٢٢ م].
- ٢ - سعد بن الربيع [٣هـ / ٦٢٥ م].
- ٣ - عبد الله بن رواحة [٨هـ / ٦٢٩ م].
- ٤ - رافع بن مالك [٣هـ / ٦٢٥ م].

- ٥- البراء بن معرور [١هـ / ٦٢٢م].
 - ٦- عبد الله بن عمرو بن حرام [٣هـ / ٦٢٥م].
 - ٧- سعد بن عباد بن ذُليم [١٤هـ / ٦٣٥م].
 - ٨- المنذر بن عمرو بن خنيس [٤هـ / ٦٢٥م].
 - ٩- عباد بن الصامت [٢٨ق. هـ - ٣٤هـ / ٥٨٦ - ٦٥٤م].
 - ١٠- أسيد بن حُضير [٢٠هـ / ٦٤١م].
 - ١١- سعد بن خثيمة بن الحارث [٢هـ / ٦٢٤م].
 - ١٢- رفاعه بن عبد المنذر.
- وفي سقيفة بني ساعدة - يوم وفاة رسول الله ﷺ اتفقت هاتان المؤسستان - المهاجرون الأولون.. والنقباء الاثنى عشر - على توزيع اختصاصات سلطات الدولة بينهما، عندما قال أبو بكر الصديق للأَنْصار: «منا الأمراء ومنكم الوزراء».
- والمؤسسة الثالثة مجلس الشورى:
- مجلس السبعين.. الذى كان يجتمع بمسجد النبوة - دار الحكومة - فى مكان محدد، وأوقات محددة، لتعرض عليه أمور الدولة والأمة..
- هذا عن «النظام» - المؤسسات..
- أما المرجعية التى حكمت - سلطة هذه المؤسسات، والتى جعلت هذه الدولة إسلامية، فإنها الشريعة الإسلامية، التى ظل قانونها هو الحاكم فى الدولة والأمة عبر تاريخ الإسلام.. وبعد الفتوحات، وتطور نظم المؤسسات، بتدوين الدواوين، استفادة من تراث الروم والفرس، ظلت المرجعية الإسلامية هى القانون الحاكم لسلطة هذه المؤسسات وسلطانها.
- ومع مرور الزمن، واتساع شئون الحكم، أصبحت هذه المرجعية علمًا من العلوم الإسلامية، هو علم «السياسة الشرعية» - الذى وضعت فيه المؤلفات عبر تاريخ الإسلام..
- وإذا كانت «السياسة» - فى اللغة - هى القيام على الشيء والتصرف فيه بما

يصلحه، فإن السياسة الشرعية هي الأصل الذى تتفرغ عنه مباحث نظام الحكم الإسلامى وتنضوى تحته.. ولذلك لم يستعمل فقهاء الإسلام كلمة «السياسة» إلا مقرونة وموصوفة «بالشرعية»، كما لم يستعملوا مصطلح «المصلحة» - التى هى غاية السياسة الشرعية - إلا مضبوطة بـ «المصلحة الشرعية المعتمدة»..

- ولقد شمل مجال هذه السياسة الشرعية الجرائم التى وردت فيها عقوبات مقدرة - وهى الحدود والقصاص - والجرائم التى لم يقدر لها الشرع عقوبة، ووكل تقديرها إلى أولى الأمر - عقوبات التعزيز..

ولقد استعمل الفقهاء لفظ السياسة الشرعية فى النظم المالية، والأحوال الشخصية، والقضاء، والتنفيذ، والإدارة، ونظام الحكم - الإمامة.. والخلافة.. وإمارة المؤمنين.. وغير ذلك مما لم يرد فيه دليل تفصيلى خاص، ويكون فى تطبيقه والعمل به مصلحة عامة للأمة، تجعل حال المجتمع فيها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد..

إنها فعل السائس - الحاكم الذى يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى.

إنها تحقيق الحاكم - الذى يسوس الأمة - المصلحة التى تعود على الأفراد والجماعات، بتطبيق أحكام استنبطت بواسطة أسس سليمة أقرتها الشريعة، مثل المصالح المرسله، وسد الذرائع، والاستحسان، والعرف، والاستصحاب، والإباحة الأصلية، وذلك فيما لم يرد فيه نص..

وإن الأمر البارز فى السياسة الشرعية هو مراعاة ولاية الأمور فى كل زمان ومكان تحقيق المصلحة العامة للأمة فى ظل الشريعة الإسلامية حين تعترضهم فى سياسة أمور الأمة وقائع وحوادث لا يجدون لها نصاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك باستنباط الأحكام التى تحقق هذه المصلحة، ثم تطبيقها وتنفيذها.

فلساسة الشرعية تشمل نوعين من الأحكام:

١- أحكام الوقائع التى لا نجد لها دليلاً خاصاً صريحاً فى الكتاب أو السنة أو الإجماع، ولا نجد لها نظيراً نقيسه عليها مما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

٢- الأحكام التى من شأنها ألا تبقى على وجه واحد، وإنما تختلف باختلاف العصور والأحوال، وتتبدل بتبدل المصالح، وتتغير بتغير الظروف والمجتمعات..

ويخرج من هذين النوعين الأحكام الثابتة الدائمة، كأحكام العبادات، والربا، والزنا، والقتل، والسرقة، والميسر، وشرب الخمر، وحلّ البيع، وحلّ الطيبات من الرزق، وأمثالها..

- وعلم السياسة الشرعية هو المحقق لمرونة مرجعية نظام الحكم فى الإسلام.. فهذه المرجعية تضيف إلى الأحكام الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، الأحكام الثابتة بنصوص معللة بعلة تتغير بتغير الزمان والمكان والمصالح والأعراف.. مع ما لا نص فيه مما تقتضيه المصالح المرسلة التى تحقق المصالح وتمنع المفاسد.

إنها العلم الذى يبحث فيه عن الأحكام والنظم التى تدبر بها شئون الدولة الإسلامية، التى لم يرد فيها نص، أو التى من شأنها التغير والتبدل، بما يحقق مصلحة الأمة، ويتفق مع روح الشريعة وأصولها العامة..

وموضوع علم السياسة الشرعية يشمل ما يسمى فى القوانين الوضعية: القانون الدستورى والقانون الدولى العام، والقانون المالى، وعلم الاقتصاد، والنظم القضائية - قانون المرافعات، وقانون الإثبات، وبعض مباحث القانون الدستورى.. وفى كل هذه المباحث كتب الفقهاء المسلمون قبل أن تأخذ هذه القوانين وضعها الحالى فى القوانين الوضعية، مع تفوق هذه الكتابات الفقهية فى الصياغة والتأصيل ومراعاة المصالح والعدالة..

- أما الفقه، فهو الأحكام الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، والتى لا تتغير بتغير الظروف والأحوال..

فالساسة الشرعية جزء من الفقه، بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان فى الأحكام الثابتة بغير الأدلة الأربعة، وينفرد الفقه فى الأحكام الثابتة بالأدلة الأربعة..

- وروح الشريعة هو ما تقصد إليه من حفظ الضرورات الخمس، وكذلك ما يوافق قواعدها الأساسية من مثل سد الذرائع، والاعتماد على العرف، والشورى، ورفع الحرج، ونفى الضرر، ومراعاة العدالة والمساواة والرجوع بمعضلات الأمور إلى أهل الذكر والرأى والخبرة..

- وعدم وجود نص فى واقعة من الوقائع لا يعنى عدم مشروعيتها، وإنما الواجب عرضها على القواعد الكلية للشريعة، فإن حققت مقصدًا من مقاصد هذه القواعد كانت مشروعة مع عدم وجود نص فيها.

- ورفع الحرج والمشقة غرض من الأغراض التى تحرص السياسة الشرعية على تحقيقه فى أحكامها دائماً..

- والمصلحة المرسله طريق مهم من طرق مسايرة السياسة للحياة فى مطالبتها المتجددة وحاجاتها المتعددة، فعن طريق بناء الأحكام عليها يمكن الوصول إلى تنظيم الشؤون الإدارية العامة ومصالح المجتمع..

- وتقدير المصالح والمفاسد يجب أن يوزن بالموازن الشرعية الدقيقة، لا بموازن الأهواء والمطامع والشهوات والمصالح الخاصة، وإلا خرجت الأحكام من دائرة السياسة الشرعية إلى دائرة الأحكام والقوانين الوضعية..

- والعادة محكمة فيما ليس فيه نص شرعى بالمنع والجواز..

- والعرف من المصادر الخصبة التى تقوم عليها الأحكام السياسية..

- والاجتهادات تختلف باختلاف العصر والزمان وإن لم تختلف الحجة والبرهان..

- والتطبيق العملى للأحكام تتولد عنه مشاكل تتطلب حلولاً فى ظل الشريعة، وهذه الحلول تقتضى الخروج عن الدائرة النظرية إلى ما هو أوسع وأرحب منها طبقاً لروح الشريعة وقواعدها الكلية، وهذا هو ما تتكفل به السياسة الشرعية التى تغنيها هى والأحكام الفقهية عن الالتجاء إلى القوانين الوضعية، بسبب ما فى السياسة والفقه من كمال يحقق مصالح العباد ورفاهية العالم وسعادته، وصدق الله تعالى حين يقول ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]..

- إن الإنسان مدنى بطبعه، والاجتماع ضرورة من ضرورات الحياة.. ولا بد - فى الاجتماع - من وازع يمنع العدوان.. وهذا الوازع هو الحاكم، وحكمه لا بد له من نظام يقوم عليه..

وعبر تاريخ الأمم والشعوب تعددت نظم الحكم وتفاوتت فى تحقيق العدالة

ومنع الظلم.. ومن بين هذه النظم تميز وامتاز نظام الحكم الإسلامى، الذى قام على قواعد وأسس: رعاية المصالح، وتحقيق العدل، والمساواة، وكفالة الحريات، وإشاعة الأمن، والقضاء على الفساد، والشورى، وتحقيق العزة والقوة والمنعة لأتباعه.. الخ..

- ولتلبية متطلبات الزمان والمكان جاءت هذه القواعد - فى النظام الإسلامى كلية مرنة، وتركت التفاصيل والجزئيات لأولياء الأمور يسلكون لوضعها الطرق التى تحقق المصلحة التى تختلف باختلاف العصور والظروف والأحوال والمجتمعات.. فالشورى قاعدة مقررة بالكتاب والسنة.. أما كیفيتها وتفاصيلها فمتركة لأولى الأمر ينظمونها وفق المصالح والزمان والمكان..

- والحكم هو أبرز أركان الدولة..

- والدولة - عند رجال القانون الدستورى جماعة من الناس تقيم على وجه الدوام والاستقرار فى إقليم معين، وتسيطر عليهم هيئة - سلطة عليا - حاکمة تتولى شئونهم فى الداخل والخارج..

- والأمة جماعة من الناس ارتبطت مع بعضها برباط الدين أو الجنس أو اللغة، واتجهت إرادتهم إلى العيش معاً، وجمعهم شعور مشترك وهدف واحد..

- والمسلمون فى جميع أنحاء العالم أمة واحدة، يربطهم رباط الدين والعقيدة الإسلامية.. وهم متساوون فى الحقوق والواجبات.. وللمسلم أن يقيم فى أى بلد من بلاد الأمة الإسلامية التى ينتمى إليها، متمتعاً بالحقوق المقررة فى البلد الذى يقيم فيه..

- وفى الدولة الإسلامية لابد أن تكون السلطة إسلامية، تحكم بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية.. فتعريف الدولة الإسلامية: هى جماعة المسلمين وأهل ذمتهم، الذين يقيمون على أرض تخضع لسلطة إسلامية تدير شئونهم فى الداخل والخارج وفق شريعة الإسلام..

- وبالهجرة، وقيام الجماعة المسلمة بالمدينة، فى ظل حكم الإسلام، ورئاسة الرسول ﷺ قامت الدولة الإسلامية الأولى والنظام السياسى الإسلامى.. ولقد اكتملت لهذه الدولة الأركان الأربعة التى قررها فقهاء النظام الدولى والدستورى.. أركان:

١- الشعب.

٢- والإقليم.

٣- والاستقلال السياسى.

٤- والسلطة.

- ولقد جمع النظام الإسلامى بين الدين والدولة عندما تحدث القرآن الكريم وتحدثت السنة النبوية عن شئون الدولة والدنيا مع شئون الدين والعبادات.. فتحدث الكتاب والسنة عن المعاملات المالية من بيع وإجارة ورهن ومزارعة وغيرها، وعن الأحكام الخاصة بسائر العقوبات الجنائية المختلفة، من قتل وسرقة وزنا وقذف وسكر وغيرها، وعن التنظيمات الخاصة بشئون الأسرة من كل نواحيها، من زواج وطلاق ونسب وحضانة ونفقة وإرث وغيرها، وعن القواعد الخاصة بالفصل بين الناس فى سائر الخصومات والمنازعات، وعن الأحكام الخاصة بعلاقة الأمة بغيرها من الأمم فى حالتى السلم والحرب، وغير ذلك من أحكام تنظم علاقة الفرد بغيره فى سائر المجالات المختلفة للحياة.

فمع العقيدة والعبادة جاء الإسلام بنظام يسيطر على الإنسان سيطرة تامة فى كل حركاته وسكناته، يسيطر عليه فى تفكيره ونيته، وفى قوله وعمله، فى سره وجهره، فى خلوته وجلوته، فى قيامه وقعوده، فى نومه ويقظته، فى طعامه وشرابه، فى ملبسه وحليته، فى بيعه وشرائه، فى جده ولهوه، فى فرحه وحزنه، فى رضاه وغضبه، فى سرائه وضرائه، فى مرضه وصحته، فى ضعفه وقوته، فى غناه وفقره، صغيراً وكبيراً، عظيماً وحقيقاً، فى بيته وأهله، فى صداقته وعداوته، فى سلمه وحربه، فرداً وجماعة، حاكماً ومحكوماً، مالكاً وصعلوكاً، وهكذا ليس ثمة تصرف يتصوره العقل أو حال يكون عليها الإنسان إلا سيطر فيها الإسلام على المسلم ووجهه الوجهة التى رسمها لتحقيق السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة..

فهو دين ودولة، عقيدة وشريعة، روح ومادة، أخرى ودنيا.. لقد مزج الإسلام بين الدين والدولة حتى لا يمكن التفريق بينهما، حتى أصبحت الدولة فى الإسلام هى الدين وأصبح الدين فى الإسلام هو الدولة.. فأحكام الدنيا كلها قائمة على أساس الدين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]..

ولذلك فإن فى الدعوة إلى الإسلام عقيدة ونبذه نظاماً هو إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه الآخر، وجزاء الداعى إلى ذلك والعامل به الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، قال الله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

- إن أحدث النظريات عند أنصار القوانين الوضعية - كنظرية التعسف فى استعمال الحق، ونظرية الظروف الطارئة - قد سبقت الشريعة الإسلامية إلى تقريرها منذ عشرات السنين.. ولقد شهدت المؤتمرات الدولية للقانون - وأغلب أعضائها غير مسلمين - بتفوق الشريعة الإسلامية وتقدم الفقه الإسلامى. والفضل ما شهد به الأعداء.

- ومسائل الإمامة - رئاسة الدولة، أو الخلافة، أو إمارة المؤمنين - هى من أفعال المكلفين، ومن فروض الكفاية والأحكام العملية، فهى من مباحث علم الفقه وليست من مباحث علم العقائد وأصول الدين، التى هى فروض عينية..

إن الإمامة هى الحكومة الإسلامية، لأنها تحكم بشريعة الإسلام، قانونها الأساسى: كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وقانونها الفرعى مجموعة الأحكام الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فقيامها على شرعة الإسلام هو الذى يمنحها الوصف بكونها إسلامية، ويميزها عن الحكومة الاستبدادية أو حكومة الملك الطبيعى، وهى التى تقوم على الحكم بالهوى والغرض والشهوة وقهر الشعب للوصول إلى مجد زائف، أو ثراء زائل، أو تحكم فى رقاب الناس وأموالهم. كما يميزها عن الحكومة الديمقراطية، أو حكومة الملك السياسى، وهى التى تقوم على الحكم بالقوانين الوضعية، التى يضعها المفكرون فى الأمة وقادة الرأى فيها، لأنهم بشر، يخضع ما يضعونه لعقولهم وأهوائهم ومصالحهم الدنيوية، دون نظر إلى المصالح الأخروية، ودون نظر فى المصالح الدنيوية إلى شريعة السماء.

وإذن، فالحكم على أى حكومة بوصف من الأوصاف يقوم على نوع القانون الذى تحكم به، فإن كان شريعة الإسلام فهى حكومة إسلامية، ولو لم يطلق عليها لقب الخلافة أو الإمامة أو إمارة المسلمين، أو يطلق على الرئيس الأعلى فيها لقب الخليفة أو الإمام أو أمير المؤمنين. وإن كان القانون الذى تحكم به قانوناً وضعياً، أو كانت تحكم بلا قانون، بل بالهوى والغرض، كانت حكومة غير إسلامية، ولو أطلق

عليها لقب الخلافة أو الإمامة أو إمارة المؤمنين، وأطلق على رئيسها لقب خليفة أو إمام أو أمير المؤمنين.

- وإقامة الحكومة الإسلامية.. الإمامة - واجب عند الجمهور.. والوجوب عند أهل السنة، كفائي وليس عيني.. وهو موجه إلى أهل الحل والعقد والاجتهاد، وإلى من تتوافر فيهم شروط الإمامة.. وليس موجهًا إلى العامة والكافة.. أى أن هذه الحكومة هي حكومة النخبة والصفوة.. أى أهل الحل والعقد والاجتهاد - وليست حكومة العامة والكافة - الديمقراطية - كما أنها ليست حكومة الفرد والشهوة والاستبداد..

وإسلاميتها نابعة من القانون الإسلامى الذى تقوم على تنفيذه فى الكافة.

أما الشيعة، فالوجوب عندهم - فى منصب الإمامة - هو على الله.

- والإجماع الشرعى هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ فى عصر من العصور على أمر من الأمور بدون إكراه أو ضغط على أى واحد منهم..

- وطاعة الإمام - الحكومة الإسلامية - واجبة فى المسائل القطعية، أما المسائل الفرعية الاجتهادية فلا تجب للإمام الطاعة فيها، ويجوز فيها مخالفته، لأنه لا يجوز للمجتهد أن يقلد مجتهدًا آخر.. على أن المتأخرين من العلماء قد قرروا أنه إذا ألزم ولى الأمر الأمة بأحد الآراء فى المسألة الاجتهادية وجبت طاعته ولا تجوز مخالفته فى ذلك.

- ولقد أجمع الفقهاء على اشتراط الإسلام والبلوغ والعقل فى الإمام.. واشترط الماوردى [٣٦٤- ٤٥٠هـ / ٩٧٤- ١٠٥٨م] ما يزيد على العقل الذى يتحقق به التكليف، من توافر الفطنة، وجودة التفكير، وحدة الذكاء، والبعد عن السهو والغفلة فهذه الشروط واجبة فى القاضى، واشتراطها فى الإمام أولى.

كما اشترط فى الإمام الحرية، والذكورة، والعلم، والعدالة - وهى الصلاح فى الدين، والتحلّى بالمروءة - وأن يكون على مقدار من سلامة الرأى فى سياسة أمور الأمة وتدير شؤونها..

واختلفوا فى اشتراط بلوغ علمه درجة الاجتهاد، فاشترطه الجمهور، والحنفية لم يشترطوه..

وبالنسبة لاشتراط قرشية الإمام، فإن القرشية تعنى المهاجرين الأولين - أى

السابقين من قرّش إلى الإسلام.. مع كونه الأفضل فى القيام بشئون الأمة ديناً ودنيا.. والجمهور على تقديم الأفضل سياسة على الأفضل ورعاً وتقوى..

- والإمامة عقد لا يتم إلا بطرفين - أهل الحل والعقد - ومن توفرت فيه شروط الإمامة..

- وأولو الأمر الذين تجب طاعتهم لا بد أن يكونوا مسلمين، ولا يسوغ عقلاً أن يقود الدولة من لا يؤمن بمبادئها.. وهو الإسلام.. كما لا يجوز أن يتولى أمر الدولة الشيوعية رأسمالى أو الدولة الرأسمالية شيوعى..

- وأهل الحل والعقد هم الذين يختارون الإمام ويباعونه، وباختيارهم وبيعتهم تتأسس سلطات الإمام - الحكومة - أما جمهور الأمة وعامتها فيلزمهم التصديق على بيعة أهل الحل والعقد.. فسلطة الاختيار الديمقراطية فى النظام الإسلامى لأهل الحل والعقد، وليس للجمهور.. وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن النظام الغربى.. وأهل الحل والعقد لا تشترط فيهم الذكورة، وإنما هم أولو الأمر من العلماء والخبراء والقادة..

ولا تنعقد البيعة بالإمامة إذا قام بها العوام، دون أهل الحل والعقد، لأن بيعة العوام واجبة عليهم بعد بيعة أهل الحل والعقد، الذين تقوم بيعتهم على الاختيار، فبيعة العوام هى تصديق على بيعة أهل الحل والعقد.. وجمهور الفقهاء يشترطون الإشهاد على البيعة..

والجمهور على عدم جواز تعدد البيعة، لأن وحدة الدولة تجسّد لوحدة الأمة، وبها يمتنع التنازع الذى يضيع مصالح الأمة الدينية والدنيوية.. وإذا وقعت بيعتان فى وقت واحد رجحت البيعة التى عقدها أغلبية أهل الحل والعقد على التى عقدها الأقلية، فلأكثرية اعتبارها، لكن فى إطار أهل الحل والعقد - الذين هم وكلاء الأمة ونوابها - وليس فى إطار العوام..

ويشترط فى أهل الحل والعقد:

١ - العدالة الجامعة لشروطها.

٢ - والعلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة.

٣- والرأى والحكمة المؤديان إلى اختيار الأصلح.

وتنعتقد الإمامة بجمهور أهل الحل والعقد، أى غالبيتهم.

- وإذا عهد الإمام إلى ولى عهده، لا يمضى عهده إلا بموافقة أهل الحل والعقد ومبايعتهم، فالعهد ترشيح للمعهود إليه، والأمة بعد ذلك هى صاحبة الاختيار، إن شاءت ارتضته وإن شاءت رفضته.

فالأمة - فى النظام الإسلامى هى مصدر السلطة، ووكلاؤها - أهل الحل والعقد - يبيعهم للإمام لا يتنازلون عن سلطة الأمة تنازل تملك أو شبه تملك، وإنما هو عقد وكالة مقيد بشرط خاص - الحكم بكتاب الله وسنة رسوله - وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن النظام الغربى الذى تتنازل فيه الأمة عن بعض حقوقها وحريتها للحاكم.

كما تتميز البيعة فى النظام الإسلامى، بكونها تعاقدًا حقيقياً، بينما التعاقد فى النظام الغربى وهو تعاقد افتراضى.

- والسياسة الشرعية توجب مراعاة المصالح، التى تختلف باختلاف الزمان والمكان فى هذه البيعة وهذا التعاقد..

- ولقد أجاز الشيعة إمامة الصبى والجنين، خلافاً لأهل السنة والجماعة.. ومذهبهم - هم والخوارج - فى الإمامة قد نشأ بعد الإجماع الذى انعقد من الصحابة فى أمور الإمامة قبل نشأة هذه الفرق، فلا يلغى الإجماع الذى انعقد..والذى عليه استند مذهب أهل السنة المؤسس لفقه الحكومة الإسلامية.

- وقواعد الحكومة الإسلامية فى أسسها هى: حفظ الدين، والبيعة، والعدل والمساواة، والحريات، والشورى، ومسئولية الحاكم.

١- فالحكومة تقوم على شورى أهل الحل والعقد واختيارهم ويبيعهم.

٢- وأبرز ما يميز الحكومة الإسلامية هو حفظ الدين.

٣- وإقامة العدل والمساواة والحرية.

والمساواة تشمل أهل الكتاب، وفى الحقوق والواجبات لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما فى العقيدة فإنهم يتركون وما يدينون، فلا يخضعون لشريعة المسلمين فى العقائد..

وفى الحرية، تضمن الدولة الإسلامية لمواطنيها حرية الاعتقاد، وحرية الفكر، وحرية القول، وحرية العلم، وحرية التملك، وحرية السكن والتنقل.

والشورى حق مقرر للحاكم والمحكوم «وهى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه».

والاستشارة المأمور بها واجبة فى كل ما لم ينزل به وحى قاطع، فما لم ينزل به وحى يكون فيه الاجتهاد، والشورى من ضرورات الاجتهاد، كما تكون الشورى فى تنظيم ما ورد به الوحي حتى يوضع فى التنفيذ..

وأهل الشورى هم أهل الحل والعقد، وذوو الرأى فى الأمة، وأرباب الشوكة والقيادة الذين تميل معهم الجماهير حيث مالوا، والذين تتوافر فيهم شروط العدالة، والعلم فى جميع مجالاته، والرأى والحكمة.

وتنظيم الشورى مما يدخل فى السياسة الشرعية التى تستجيب للمصالح المتغيرة بتغير الزمان والمكان. والمعتمد فى الشورى هو رأى الأكثرية، ولا يشترط فيها الإجماع.

- والحاكم مسئول أمام الله وأمام الأمة، فإذا رأت فيه انحرافاً كان لها الحق فى عزله إذا ارتكب ما يوجب العزل، وإن أجرم حوسب على جرمه.

- والحكومة الإسلامية ليست «ثيوقراطية» يدعى الحاكم فيها أن سلطته مستمدة من الله، وأن خضوع الأمة له هو خضوع مطلق، وأنه غير مسئول أمام الأمة.

والحكومة الإسلامية ليست حكومة استبدادية، لأن الحكم فيها قائم على الشورى، وعلى مراقبة الحكام ومسئوليتهم.

كما أنها ليست حكومة ديمقراطية - بالمعنى الغربى الحكم فيها للشعب والعامّة والجماهير.. وإنما هى النظام الذى تتحقق فيه المساواة أمام القانون، وحرية الفكر والعقيدة والعدالة الاجتماعية..

وعند مقارنة نظم الحكم بعضها البعض الآخر يكون النظام الديمقراطى أقرب النظم إلى النظام الإسلامى مع وجود الفوارق بينهما.. وأهمها:

١- أن الحكم الديمقراطى غايته صلاح الدنيا فقط، أما الحكم الإسلامى فغايته حفظ الدين وسياسة الدنيا بالدين.

٢- أن السيادة في النظام الديمقراطي للأمة، بينما هي في النظام الإسلامي لله.. والأمة مستخلفة عن الله، سيادتها محكومة بثوابت الشريعة الإلهية.. كما أن الحكومة الإسلامية ليست «نومقراطية» قائمة على القوانين الوضعية المقننة، وإنما قانونها مستنبط من الكتاب والسنة. فالنظام الإسلامي في الحكم - وخاصة في المرجعية - متميز عن غيره من نظم الحكم الأخرى.

* * *

تلك إشارات إلى معالم القضايا الكبرى التي جاءت في هذا الكتاب، ألفه العلامة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد العال أحمد عطوة.. سائلين المولى - عز وجل - أن ينفع به.. وأن يجعله في ميزان حسنات صاحبه.. إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

